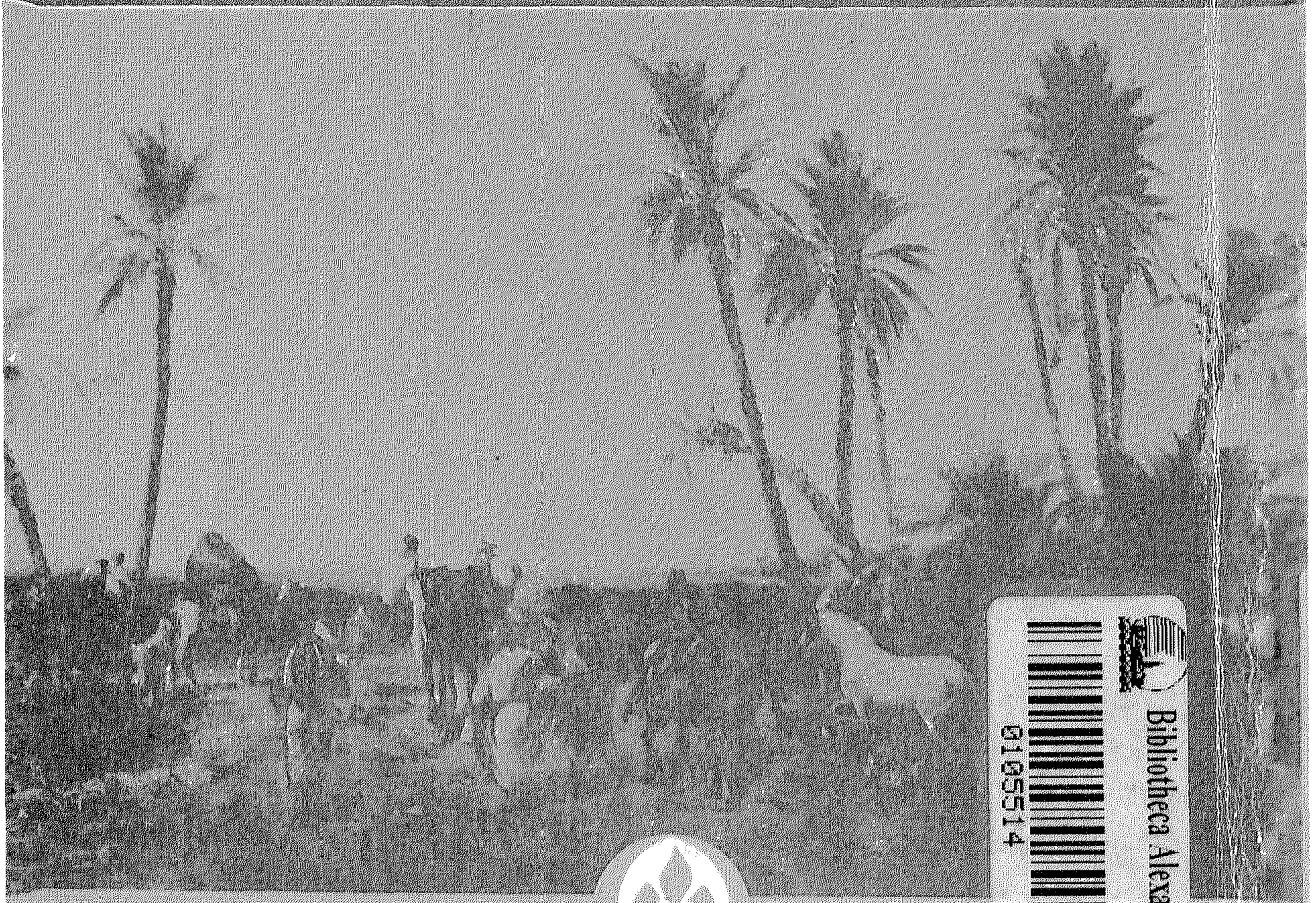


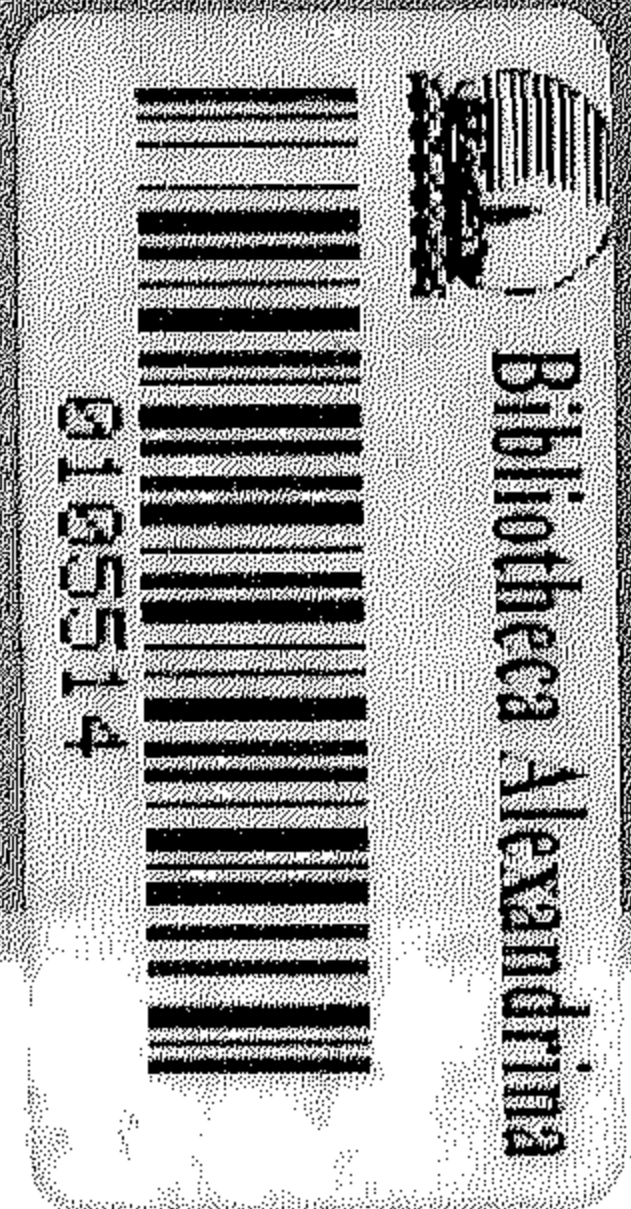
الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية

خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي

د. سوادني عبد محمد



دار الشؤون الثقافية العامة



وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد سنة ١٩٨٩



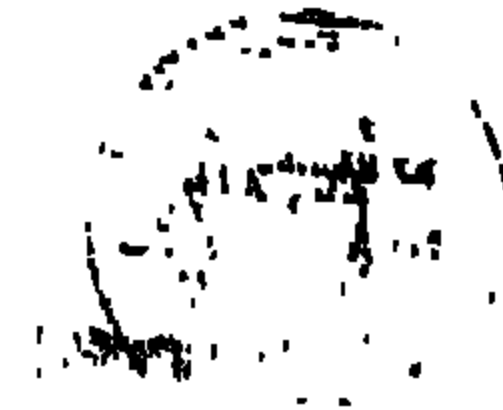
طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة . « آفاق عربية »
رئيس مجلس الإدارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي
حقوق الطبع محفوظة
تعلنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الإدارة
العنوان - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تليكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية

خلال القرن السادس الهجري
الثاني عشر الميلادي

الدكتور سوادى عبد محمد

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	956.702
رقم التسجيل	ع. ١٣٦



General Organization of the Alexandria Library
Bibliothèque Générale d'Alexandrie

الطبعة الاولى - لسنة ١٩٨٩

الاهـداء

الى

الروحية العظيمة التي يتجلّى بها الانسان العراقي
زمن الحرب

الى هذا الانسان : المدافع

بالقلم والبندقية عن حرية الفكر

والتعبير عن الارادة الانسانية الخيرة

. . . : الساعي

من أجل أن تظل شجرة العلم الرصين

والأدب الرفيع والفن المبدع وارفة

الظلال

في بلاد وادي الرافدين العريقة

. . . الذي يكتب التاريخ العربي

من جديد

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب ، هو جهد متواضع في ميدان دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد الجزيرة الفراتية (العراقية) في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) لا أراه استوفى إلا بعض جوانبه ، ولكن مع ما يعانيه من نقص ، فاني أطمح أن يكون باعثاً للكتّاب والباحثين لتناول دراسات في هذه الجوانب الحيوية من التاريخ العربي الاسلامي وذلك على الرغم من انها ميادين شاقة في الدراسة ولكنها ممتعة مفيدة وتخلص الى نتائج مثمرة ، كما انها تضع الاساس الذي تركز عليه أحداث التاريخ السياسي والعسكري .

ولعلي لا أعدو الحقيقة اذا قلت ، ان الاستنتاجات التي خلصت اليها هذه الدراسة ، كانت على جانب كبير من الأهمية ويمكن للقارىء الكريم أن يتلمسها بوضوح من خلال استيعاب البحوث التي تضمنها الكتاب بأبوابه الثلاثة وفصوله الخمسة عشر فضلاً عن الفصل الخاص بالتمهيد في جغرافية الجزيرة الفراتية وأهميتها بين أقاليم الخلافة العباسية .

ويمكن القول ، ان توجيه الاهتمام الى هذه الجوانب من التاريخ العربي الاسلامي سيسهم بدون شك في صياغة جديدة له تستجيب للنداءات المخلصة في اعادة كتابة التاريخ العربي وسيقدم

خدمة جليلة لتراث أمتنا في الحضارة المادية والروحية التي أرسى
اساسها العرب المسلمون في جميع البلاد الاسلامية .

والكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء الاعزاء من المتخصصين
والمتقنين عموماً والساعين الى الاطلاع على تاريخنا وتراثنا ، انما
هو ثمرة من ثمار التحليل التاريخي المستند على النصوص والحقائق
التأريخية ، بعيداً عن المبالغة وأقرب الى الموضوعية والعقلانية في
التفسير التاريخي للأحداث والوقائع .

وقد تبين ان تاريخ الجزيرة الفراتية مرتين أشد الارتهان
بأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، ولذلك جرى الاهتمام في
تفسير الأحداث السياسية والعسكرية والادارية والفكرية لهذه
البلاد خلال القرن السادس الهجري أو الفترات السابقة أو اللاحقة
له بقليل بواقعها الاقتصادي والاجتماعي .

ان الازدهار الاقتصادي الذي شهدته هذه البلاد والمتمثل في
التجارة والزراعة والصناعة ونظام الري والارواء والنظام النقدي
ووفرة المعادن والمواد الاولية والخام يقدم صورة واضحة عن النظم
السياسية والعسكرية والادارية والعلمية وعن الدور المهم الذي
لعبته على نطاق العالم الاسلامي . كما ان ما شهدته بلاد الجزيرة من
تطورات في الحياة الاجتماعية وتنظيماتها وأصولها وتقاليدها ،
يعكس كذلك الصورة الحيّة من القوة والاحكام في سياسة بلدانها
وأقاليمها ووقوف أهلها بصلاية أمام القوى الخارجية المتمثلة
بالصليبيين الذين تدفقوا في بداية النصف الثاني من القرن الخامس
الهجري على المشرق العربي بغية الاستيلاء على الاراضي المقدسة
وفلسطين وبلاد الشام وبلاد الجزيرة الفراتية وبالمفول الذين
استهدفوا هذه البلاد لتكون جناحاً غربياً لامبراطوريتهم الممتدة من
أواسط آسيا حتى المشرق والعراق .

وغني عن البيان - ان ما تطلبه مني العمل الدؤوب على انجاز
هذه الدراسة ، يفوق الجهود التي تبذل في دراسات التاريخ العام او
تاريخ العلاقات السياسية او النزاعات العسكرية او أحداث الحروب
والمعارك وخاصة فيما يتعلق بالحصول على النصوص والحقائق التي
تفسر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي .

ولا يفوتنا القول في هذا المقام ، اننا نستهدف من عملنا هذا
خدمة أمة العرب التي حملت الاسلام الى شعوب الارض قاطبة لتجعله
بداية تاريخ لحضارتها وتراثها الخالد .

المؤلف

البصرة في ١٥/١٠/١٩٨٦

الفهرس

٧	مقدمة المؤلف
١١	الفهرس
١٧	المقدمة
١٩	دراسة في المصادر والمراجع

تمهيد

٣٣	أ - جغرافية الجزيرة الفراتية
٤٤	ب - أهمية الجزيرة الفراتية بين أقاليم الخلافة العباسية

الباب الأول

النظم الاجتماعية

٥٣	الفصل الأول - السكان والمدن والتوزيع البشري
٥٧	- السكان والمدن
٦٤	- التوزيع الديني والثقافي للسكان
٦٩	الفصل الثاني - المدن والقري ومضارب القبائل العربية في الجزيرة الفراتية

٧١	— أحوال المدن والقرى في أرض الجزيرة
٨٢	— التخصص الوظيفي للمدن
٨٨	— القبائل العربية
٩٨	الفصل الثالث — المسلمون وأهل الكتاب
٩٩	— المسلمون
١٠٣	— المسيحيون
١١٢	— اليهود
١١٨	— المساجد والكنائس
١٢٣	الفصل الرابع — الأحوال الصحية
١٢٥	— الأمراض وانتشارها
١٣٣	— البيمارستانات
١٣٥	— الأطباء
١٣٩	— الأدوية والعلاج
١٤٣	الفصل الخامس — العادات والتقاليد
١٤٥	— العادات والتقاليد
١٤٦	— الأعياد الإسلامية
١٥١	— الأعياد المسيحية
١٥٦	الفصل السادس — الطبقات الاجتماعية
١٥٩	— الطبقات الاجتماعية
١٦٨	— طبقة الأمراء والخاصة
١٧٠	— طبقة العامة وفئاتها
	— الهاشميون وأمراء المماليك

الباب الثاني

الأحوال الاقتصادية والإدارية

- ١٨٠ الفصل الأول - نظام الري والزراعة
- ١٨١ - نظام الري
- ١٨٢ - الانهار - نهر الفرات
- ١٨٩ - روافد الفرات
- ١٩٢ - نهر دجلة وروافده
- ١٩٧ - الأمطار
- ٢٠٠ - القنوات والعيون والسدود
- ٢٠٦ - الفيضان
- الزراعة
- المناطق الزراعية
- ٢٣٤ الفصل الثاني - الأقطاع
- ٢٣٥ - الأقطاع
- ٢٤٠ - الأقطاع العسكري
- ٢٤١ - الأقطاع الوراثي
- ٢٤٤ - الأقطاع السياسي
- ٢٤٥ - أقطاع المدن
- ٢٤٩ الفصل الثالث - الضرائب : أنواعها ، أسلوب جبايتها

٢٥١	— الضرائب
٢٥٢	— أنواع الضرائب
٢٦٤	— أسلوب جباية الضرائب
٢٧٠	الفصل الرابع — الصناعة
٢٧١	— الصناعة
٢٧٢	— صناعة النسيج والملابس
٢٧٧	— صناعة الأواني والآلات والأدوات
٢٨٧	— المعادن
٢٩٤	— صناعة الخمر والسكر
٢٩٩	الفصل الخامس — النشاط التجاري والنظام النقدي
٣٠١	١ — النشاط التجاري
٣٠٣	— الطرق التجارية
٣٠٨	— التجارة الداخلية والخارجية
٣١٤	— التجار
٣٢١	— الأسواق
٣٢٥	— النظام النقدي
٣٣٨	الفصل السادس — نظم الإدارة والقضاء
٣٣٩	— نظم الإدارة ووظائفها

- ٣٥٤ - التقسيمات الادارية العامة
٣٥٩ - المحتسب

الباب الثالث

العلاقات والنظم السياسية والعسكرية

- ٣٦٧ الفصل الاول - العلاقات السياسية
٣٧٠ - العلاقات الأتابكية الأرتقية
٣٧٥ - الدور السياسي للأكراد خلال
القرن السادس الهجري
٣٧٨ - العلاقات مع بلاد الشام
٣٨٣ - أمراء الجزيرة الفراتية
والصليبيون
٣٩٨ - العلاقات بين صلاح الدين
الأيوبي وأمراء الجزيرة
٤٠٨ - موقف الأراتقة من الصليبيين
٤١٢ الفصل الثاني - التقاليد والنظم السياسية
٤١٣ - التقاليد السياسية
٤٢١ - النظم السياسية (الأتابكية)
٤٢٤ - الوزارة
٤٣١ - الكتابة
٤٣٣ - الحجابة

٤٣٨	الفصل الثالث - النظم العسكرية
٤٣٩	- النظم العسكرية (الجيش)
٤٤٩	- الشرطة
٤٥٠	- الوظائف العسكرية
٤٥١	الملحق - نماذج مما ذكره ياقوت عن بلاد الجزيرة
	المصادر والمراجع

المقدمة

تكتسب الدراسات التاريخية التي تتناول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والإدارية ، أهمية بالغة في الوقت الحاضر لدى المتخصصين وكتاب التاريخ والمتابعين ، وخاصة إذا كانت هذه الدراسات تقوم على التفهم التحليلي لتأريخ المجتمعات لأن النظم والأحوال الاجتماعية والاقتصادية تمثل جوانب حيوية من الخبرة التاريخية التي اكتسبتها تلك المجتمعات وأساساً يفضي إلى فهم الكثير من آثارها .

وهذه الدراسة ، هي محاولة لتقديم خلاصة تحليلية للتأريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري ، ومن ثم السياسي والعسكري في منطقة الجزيرة الفراتية التي لم تحظ باهتمام في مثل هذه الدراسات خلال القرن السادس الهجري ، حيث تمثل هذه الفترة ، عصر ازدهار اقتصادي لمنطقة الجزيرة ؛ ومن الناحية السياسية ، فإن هذه الفترة من أشد الفترات تحرجاً في المشرق العربي الإسلامي ، حيث كانت جحافل الصليبيين تجوس ديار بلاد الشام والجزيرة لغرض الاستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين ، وتنظيم حملات صليبية مستمرة لتهديد مصر وسورية وقيام إمارات صليبية في سورية وفلسطين وبلاد الجزيرة ، تحاول التوسع على حساب الدول والإمارات الإسلامية المجاورة لها .

ان دراسة الأحوال والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والادارية لبلاد الجزيرة في القرن السادس الهجري ، بنيت على أساس ان هذه البلاد ، هي وحدة متكاملة حضاريا ومتجانسة اجتماعيا واقتصاديا ولها خصائصها المميزة ، وذلك على الرغم من ان هذه البلاد مؤلفة من امارات محلية وامارات مدن وكيانات مختلفة وعديدة تخضع أحيانا الى قيادة سياسية موحدة أو مستقل بعضها عن الآخر في أحيان كثيرة .

ولعل الدراسة على هذا الاسلوب الذي يجمع بين الوحدة التاريخية وبين الخصائص المميزة لكل وحدة مستقلة ، هي محاولة لوضع بحوث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الاسلامي في هذه الفترة التاريخية ، يكون لها تأثيرها الواضح في مجريات التاريخ السياسي والعسكري . كما أن وضع هذه الدراسة في اطارها الصحيح من حيث الفترة التاريخية لا يجعلها أسيرة القرن السادس الهجري وحده ، بل لابد أن يكون لها جذور تمتد بشكل واضح الى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أي أن التنظيمات والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية والسياسية التي تصدت لها هذه الدراسة ، انما هي استمرار لما كانت عليه تلك الظواهر الحضارية قبل هذا القرن ، وقد تبلورت واتخذت لها خصائص معينة بعد ذلك .

دراسة في المصادر والمراجع

تطلبت هذه الدراسة الاستناد الى مصادر أولية عديدة ، عربية وغير عربية ، مخطوطة ومنشورة ، تاريخية وجغرافية وأدبية ومعجمات لفظة وموسوعات اسلامية ودوائر معارف ودوريات وغيرها كثير من الوثائق والأسانيد .

أ - فني المصادر المخطوطة ، مادة أساسية ومعلومات مهمة لموضوع الدراسة ، وأهمها كتاب (تاريخ امد وميفارقين) لأحمد بن يوسف بن علي بن الازرق ، المعروف بالفارقي المتوفي سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٩م) والموجود في مكتبة جامعة أكسفورد (projxO) تحت رقم (6. 310) فقد أودع المؤلف في كتابه هذا معلومات جيدة عن العلاقات السياسية بين الاراتقة والأتاكيين ، فضلا عن تقديمه تفاصيل عن الجوانب الحضارية للاراتقة ، وخاصة ما يتعلق بالنظم والاحوال الادارية والاقتصادية والاجتماعية .

وقدم ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم المتوفي سنة (٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) في كتابه الذي لا يزال مخطوطاً والموسوم ب(الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) - قسم الجزيرة - الموجود في مكتبة جامعة أكسفورد (Oxford)

أيضا برقم (Bold. March 33) أخبارا مهمة عن مدن الجزيرة وأحوالها السياسية والعسكرية على الرغم من اعتماده على كتب المؤرخ ابن الأزرقي الفارقي فيما نقل عنه من روايات بهذا الشأن . كما انفرد - ابن شداد - بالقاء ضوء كاف على أحوال مدن الجزيرة وقراها ومواضعها وخاصة الاجتماعية والعمرانية ، فدعم بذلك كثيرا من الحقائق والمعلومات والآراء التي جاءت في المصادر الأخرى في هذا المجال ، مما كان له أثره في التوثيق التاريخي لهذه الدراسة . وفي الآونة الأخيرة ، حقق يحيى عبارة هذا المخطوط وكتب له مقدمة وافية وطبعه وزوده بكثير من الايضاحات والملاحق .

ونجد في المخطوط الذي وضعه مؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري بعنوان (انسان العيون في مشاهير سادس القرون) ويقع في مجلد واحد في مكتبة الدراسات العليا - بغداد - تحت رقم (٤٤٨) ، معلومات قيّمة عن الحياة الاجتماعية في بعض مدن الجزيرة الفراتية وخاصة في مدينة اربل فقد وصف الاحتفالات التي كانت تقام بمناسبة عيد المولد النبوي اذ يصور لنا مدى الاهتمام بها ، مما يعطينا صورة عن الاحوال والطبقات الاجتماعية هذا فضلا عن تطرقه لسيرة عدد من المشاهير ممن لعبوا دورا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ، وبذلك أتاح للبحث التوصل الى كثير من الآراء والاستنتاجات .

وهناك مخطوط ، أغنى هذه الدراسة بالمعلومات الجغرافية وهو لمؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري ، وقد كتب على غلافه (قطعة من كتاب في الجغرافية) ، موجود في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب - بغداد تحت رقم (٣٢٤)

ويبدو أنه جزء من كتاب ضخيم فقد اُغلبه • وكان أهم ما احتواه هذا الكتاب ذكرا للمعادن في أرض الجزيرة مثل النفط والقار والزفت والزرنيخ والذهب والفضة والنحاس والصفير والزئبق والرصاص وغيرها ، مما يقدم لنا صورة عن تجمع الثروات وتوفر المواد الخام الضرورية لقيام الصناعة •

واعتمدت الدراسة على مخطوط (كتاب عجائب البلدان والجبال والاحجار وغير ذلك) الذي كتبت عليه عبارة (نسخة وحيدة في العالم) وقد وضعه مؤلفه علي بن عيسى سنة (٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) والمودع في مكتبة الدراسات العليا - بكلية الآداب - بغداد تحت رقم (١٤) اذ كان لهذا المخطوط أثر كبير في الحصول على معلومات مفيدة عن الجبال والاحجار والمعادن التي تضمها أرض الجزيرة ، كما احتوى على وصف دقيق للحياة الاقتصادية للسكان في بعض مدن الجزيرة ومستوطناتها •

وهناك مخطوط آخر ، أفاد هذه الدراسة وهو (التأريخ الفياثي) لعبدالله بن فتح الله البغدادي (المتوفى حوالي سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) وتضمنه مكتبة المتحف العراقي تحت رقم (٨٨١) وقد ألقى هذا المخطوط الضوء على الاحوال والعلاقات السياسية بين الدويلات والامارات الاتاكية والأرتقية مع بعضها من جهة ومع بلاد الشام والعراق ومصر من جهة أخرى •

ومن المخطوطات التي أمدّت الدراسة بالحقائق التاريخية المهمة مخطوط (عقد الجمان في تأريخ أهل الزمان) وهو نسخة مصورة في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٥٨٤) لمؤلفه بدرالدين محمود ابن أحمد المعروف بالعيني المتوفى (٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ويقع في (٦٩) مجلدا ، ولكن الاجزاء التي رجعنا اليها هي الجزء الثالث والرابع والثاني عشر والثالث عشر

والجزء الواحد والعشرون (بقسميه الأول والرابع) والجزء الثالث والعشرون (بقسمه الثالث) والجزء الخامس والأربعون ، حيث جاء فيه وصف دقيق للأحوال السياسية والعلاقات العسكرية وخاصة فيما يتعلق بعلاقات صلاح الدين الأيوبي مع أمراء الشام والجزيرة الفراتية وأخباره ووقائعه مع الصليبيين ونشاطه في توحيد الجبهة الإسلامية لمجابهة الخطر الصليبي والبيزنطي .

أما مخطوط ابن الديثي ، محمد بن سعيد الواسطي المتوفى سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) الموسوم بـ (التأريخ المذيل به على تأريخ ابن السمعاني) وهو جزءان وتوجد منه نسخة مصورة غير كاملة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب - بغداد - فقد احتوى على تراجم للأعيان والكبراء والخاصة والعلماء والفقهاء والمدرسين الذين عاشوا في مدن الجزيرة ، وتلقى سيرهم ضوعاً مفيداً على الأحوال والطبقات الاجتماعية وعلى طبيعة التمايز الطبقي .

كما اعتمد المؤلف على مخطوط (تأريخ الإسلام) وهو نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي - بغداد تحت رقم (٣٠٩) مؤلفه شمس الدين أبي عبدالله أحمد بن عثمان المعروف بالذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ويتناول في مواضع كثيرة منه الحديث عن العلاقات والأحوال السياسية والعسكرية التي سادت في منطقة الشام والجزيرة الفراتية والعراق .

أما مخطوط ابن النجار ، محب الدين أبي عبدالله بن محمود المتوفى سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) ، الموسوم بـ (ذيل تأريخ بغداد مدينة السلام) ومنه جزء مصور في مكتبة كلية الآداب في جامعة بغداد ، فقد احتوى على معلومات قيّمة عن

سير وتراجم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والعلماء
والفقهاء وأتاحت هذه المعلومات التعرف على الأحوال
السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في منطقة العراق
والجزيرة وبلاد الشام .

وهناك مخطوط مهم أيضا وهو كتاب (وصف ما بين
النهرين وبغداد) وتوجد نسخة مصورة منه محفوظة في مكتبة
المتحف البريطاني وضعه ابن سراييون حوالي سنة (٢٨٨هـ /
٩٠٠م) من خلال رحلته ومشاهداته لمنطقة شرق العالم
الاسلامي ومنها بلاد الجزيرة الفراتية . وقد ضم هذا الكتاب
معلومات جغرافية واثنولوجية ثمينة كان لها أكبر الفائدة
لموضوع الدراسة حيث تطرق في حديثه عن نهري دجلة والفرات
وروافدهما وتضرعاتهما من حيث المنابع والمصبّات وما ترتب
عليه من انشاء المدن والقرى وقيام الزراعة ومياه الري .

ب - أما المصادر المنشورة ، التي أمدت هذه الدراسة بفيض من
المعلومات والحقائق التاريخية ، فيأتي في مقدمتها الكتابان
للإذنان وضعهما ابن الأثير ، عز الدين محمد بن عبد الكريم
الجزيري المتوفى سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) وهما (التأريخ الباهر
في الدولة الاتابكية بالموصل) والآخر (الكامل في التأريخ) حيث
تضمننا أخبارا مهمة عن الاتابكيين والاراتقة ونظمهم
الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم السياسية والعسكرية .

وقدم النازقي ، أحمد بن يوسف بن الازرق في تأريخه
معلومات مشيدة عن العلاقات السياسية بين الاراتقة والاتابكيين
والنواحي الحضارية لهما .

واعتمدت الدراسة على سلسلة من المصادر المتكاملة وهي ،
كتاب ابن الجوزي عبدالرحمن بن علي بن محمد المتوفى سنة
(٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) وعنوانه (المنتظم في تأريخ الملوك والأمم)

بأجزائه الخمسة ، وكتاب سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي البغدادي المتوفى سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) وعنوانه (مرآة الزمان) وكتاب ابن الساعي أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين المتوفى سنة (٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) بعنوان (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير) وكتاب ابن الفوطي - كمال الدين عبدالرزاق المتوفى سنة (٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) وعنوانه (تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب) بأجزائه الخمسة وكتاب اليونيني ، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد المتوفى سنة (٧٢٦هـ / ١٣٢٥م) وعنوانه (ذيل مرآة الزمان) وهو أربعة أجزاء * لقد احتوت كتب هؤلاء المؤرخين على أخبار ومعلومات عامة عن بلاد الجزيرة واماراتها وأغلبها يتصل بأحوال المدن والسكان ومهنتهم وكل ما يتعلق بأحوالهم ، فضلا عن تقديمها الاخبار المفصلة عن النشاط السياسي والعسكري للاتابكيين والاراتقة والجدير بالاشارة الى أن هؤلاء المؤرخين ، كان بعضهم يكمل المعلومات التي جاء بها الآخر ، مما أغنى الدراسة في جوانبها المختلفة *

ووجد المؤلف فائدة ملموسة من الكتب المنشورة التي وضعها المؤرخون الشاميون والمصريون الذين عاشوا في القرن السادس الهجري وبعده أيضا ، ومنهم المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) وكتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) الذي حققه ونشره الدكتور محمد حلمي محمد أحمد وكتابه الآخر المذيل به (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) وكتاب القاضي بهاء الدين بن شداد المتوفى سنة (٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) وعنوانه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وكتاب أبي الوليد محمد بن الشحنة المتوفى سنة (٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) (روضة المناظر في

أخبار الأوائل والأواخر) ، وكتاب كمال الدين عمر بن أحمد ابن هبة الله بن العديم المتوفى سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦١م) (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وكتاب ابن القلانسي أبي يعلى حمزة ابن أسد المتوفى سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) بعنوان (ذيل تاريخ دمشق) . وكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) بثلاثة أجزاء لابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم المتوفى سنة (٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) وكتاب (مضمار الحقائق وسر الخلائق) لمحمد تقي الدين عمر صاحب حماه المتوفى سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) وكتاب ابن كثير ، اسماعيل ابن عمر الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) وعنوانه (البداية والنهاية في التاريخ) فقد اشتملت كتب هؤلاء المؤرخين جميعاً على مادة على جانب كبير من الأهمية التاريخية لموضوعات الكتاب فقد عززوا الحقائق التي جاءت عند زملائهم المؤرخين في العراق وبلاد الجزيرة ، أو انفردوا بذكر معلومات عن علاقات أمراء الجزيرة بحكام بلاد الشام والبلاد المصرية وبصورة خاصة صلاح الدين الأيوبي ، أو بذكر أخبار الصليبيين وحروبهم ومقاومتهم واستعداد المسلمين للتصدي لهم والوقوف ضدهم وضد أماراتهم الأربع التي أقاموها في منطقة الشام والجزيرة وزحفهم لتوسيع مناطق نفوذهم في ديار المسلمين . كما نجد في كتب هؤلاء ما يلقي بعض الضوء على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والإدارية في بلاد الجزيرة الفراتية .

أما كتاب القلقشندي ، أحمد بن أبي اليمن القاهري المتوفى سنة (٨٢١هـ / ١٤١٨م) (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) وكتاب المقرئ تقي الدين أحمد بن علي المتوفى سنة (٨٤٥هـ / ١٤٤١م) (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، وكتاب ابن تغري بردي ، أبي المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي المتوفى سنة (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) (النجوم الزاهرة في

ملوك مصر والقاهرة) فلم يقلّوا أهمية عن سابقهم من المؤرخين الشاميين في تقديم المعلومات والاخبار عن بلاد الجزيرة الفراتية وهي معلومات لا يمكن أن تستغني عنها هذه الدراسة ، وخاصة ما يتعلق ببعض النواحي الحضارية للأتابكيين والاراتقة والأيوبيين من بعدهم ، هذا الى جانب اظهار التأثيرات السياسية والعسكرية التي تركها حكام الجزيرة في المنطقة خلال القرن السادس الهجري ، فضلا عما جاء في هذه المصادر من تفاصيل مهمة عن الوظائف الادارية المدنية ونظم الجيش وفرقه وقادته وجنوده والوظائف العسكرية .

وفي كتب التراجم مادة لا يستهان بها لموضوع هذه الدراسة مثل كتاب (وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان) لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) وكتاب (فوات الوفيات) لمحمد بن أحمد ابن شاکر الكتبي المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وكتاب : (الوافي بالوفيات) لابن ابيك الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وكتاب (تاج التراجم في طبقات الحنفية) لأبي العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) وكتاب (الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية) للقشري ، محيي الدين أبي محمد عبدالقادر بن أبي الوفاء الحنفي المتوفى سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) وكتاب (طبقات الشافعية الكبرى) لأبي نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م) فقد عكست لنا هذه المؤلفات من خلال ما قدمته عن بعض الأشخاص الذين عاشوا في مدن الجزيرة في هذه الفترة ، صورة عن التمايز الاجتماعي والطبقات الاجتماعية ، كما أوضحت التقسيمات الاجتماعية القائمة على أسس دينية ، فضلا عن احتوائها على مادة غنية لجوانب متعددة

من الدراسة في موضوعات الحياة الاقتصادية والاقطاع
والقبائل العربية ، وغيرها .

واقضى البحث في هذا الكتاب ، دراسة المصادر المسيحية
والسريانية التي اهتمت باظهار الدور السياسي والاجتماعي
والثقافي لطوائف المسيحيين واليهود والصابئة من سكان
الجزيرة الفراتية ، ومن أهم المصادر (التاريخ السرياني)
باللغة السريانية^(١) ، مؤلف مجهول يعرف بالرهاوي وكتاب
(تاريخ مختصر الدول) وكتاب (تاريخ الدول السرياني)
باللغة العربية لابن العبري ، غريغوريوس أبي الفرج المالطي
المتوفي سنة (٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) وكتاب (نزهة الأذهان في
تاريخ دير الزعفران) للأب افرام برصوم ، وقد انفرد هذا
المصدر بذكر النشاط الديني والاجتماعي للمسيحيين في بعض
مدن الجزيرة مثل ماردين وحسن كيفا ونصيبين وغيرها .

أما الرحالة اليهودي الربّي بنيامين بن يونه النباري
الأندلسي التطيلي المتوفي في القرن السادس الهجري ، فقد زار
معظم مدن الجزيرة خلال هذه الفترة وذكر معلومات مفصلة
عن يهود الجزيرة وأحوالهم الدينية والاجتماعية ، أودعها في
كتابه المسمى بـ (رحلة بنيامين التطيلي) وكانت لهذه
المشاهدات أهمية كبيرة في هذه الدراسة .

والى جانب المصادر المسيحية واليهودية ، اهتم عدد من
المؤرخين المسلمين بأحوال أهل الذمة من المسيحيين واليهود في
هذه البلاد مثل العمري شهاب الدين بن فضل الله المتوفى سنة
(٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) في كتابه (مسالك الابصار في ممالك
الأمصار) الجزء الأول منه ، حيث تطرق الى ذكر ديارات
الجزيرة وأهميتها من الناحيتين الاجتماعية والثقافية .

(١) . قام بترجمة بعض النصوص الأب براهيم نصوري .

ونشير بصورة خاصة الى المعلومات الثمينة التي جاءت في كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ الكناني الشيززي المتوفى سنة (٥٨٤هـ / ١١٨٨م) حيث تطرق بشيء من التفصيل الى الأحوال والعلاقات الاجتماعية بين السكان وعاداتهم وتقاليدهم .

واستندت الدراسة الى كتب وضعها مؤرخو السلاجقة في اللغتين العربية والفارسية : مثل كتاب (تأريخ دولة آل سلجوق) باللغة العربية ، للفتح بن علي بن محمد البنداري المتوفى سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) والذي هو من انشاء عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني المتوفى سنة (٥٩٧هـ) وكتاب (أخبار الدولة السلجوقية) باللغة العربية لمؤلفه صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي المتوفى سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) وكتاب (تواريخ آل سلجوق) باللغة العربية للعماد الأصبهاني أبي عبدالله محمد بن محمد المتوفى سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠١م) وكتاب (تجزية الامصار وتجزية الاعصار) بالفارسية ، لشهاب الدين عبدالله بن فضل الله وصاف الحضرة والملقب ب (الشيرازي) المتوفى (٧٣٥هـ / ١٣٣٤م) وكتاب (تأريخ مبارك غازاني ، داستان غازان) بالفارسية لمؤلفه فضل الله بن عماد الدولة ، رشيد الدين المتوفى (٧١٨هـ / ١٣١٨م) ، وعلى الرغم من أن هذه الكتب استهدفت اظهار تأريخ السلاجقة وأخبارهم الا أنها استعرضت كثيرا من الحقائق والاخبار والمعلومات التاريخية التي تتعلق بالأحوال الاقتصادية والادارية والسياسية لمعظم بلاد الجزيرة الفراتية، التي كانت في بداية القرن السادس الهجري ضمن ممتلكات سلاجقة ايران والعراق .

وزودت كتب ومؤلفات البلدانين والجغرافيين المسلمين وغيرهم الدراسة في هذا الكتاب بكثير من المعلومات الجغرافية.

والتاريخية ، ومنها كتاب (البلدان) لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م وكتاب (الاعلاق النفيسة) لأبي علي أحمد بن عمر بن رسته المتوفى حوالي (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) وكتاب (المسالك والممالك) لأبي القاسم عبيد بن عبدالله بن خرداذبة المتوفى حدود سنة (٣٠٠هـ / ٩١٢م) وكتاب (نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة) المنشور مع كتاب (المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ومؤلفه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة (٢٣٧هـ / ٩٤٨م) . وكتاب (مسالك الممالك) لأبي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المتوفى سنة (٣٤١هـ / ٩٥٢م) وكتاب (صورة الارض) لأبي القاسم النصيبي المعروف بابن حوقل المتوفى سنة (٣٦٧هـ / ٩٧٧م) وكتاب المقدسي البشّاري محمد بن أحمد المتوفى سنة (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) بعنوان (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) . لقد كانت فائدة هذه المصادر عظيمة لموضوع الكتاب على الرغم من تقدمها على العصر الذي تناوله بالبحث اذ احتفظت المادة العلمية فيها بأهميتها حتى القرن السادس الهجري ولاسيما فيما يتعلق منها بجغرافية الجزيرة الفراتية وأهميتها الاستراتيجية والتجارية وطرق المواصلات والموارد والأحوال المالية وأمور الري والزراعة ، هذا فضلا عن فائدتها فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية وأحوال المدن والقرى ، وذلك على الرغم من التكرار الذي تميزت به بعض معلوماتهم . ولا بد من الإشارة الى كتاب (صورة الارض) لابن حوقل وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي ، اللذين كان لهما تأثيرهما الواضح في مسار البحث وخطوطه العامة ، حيث رسما صورة جليّة عن مدن وقرى الجزيرة وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية في القرن الرابع الهجري ،

وهي الصورة نفسها التي أوضحها ابن جبير وياقوت وابن سعيد المغربي في كتبهم عن الجزيرة السراتية ، مما يدل على استمرار الاوضاع فيها حتى القرن السادس الهجري . ولكن هؤلاء ذكروا معلومات عن المدن والقرى والمستوطنات خلال هذه الفترة شاهدها واطلعوا عليها بأنفسهم ، كان لها أكبر الأثر في موضوعات الدراسة ، اذ كانت رحلة ابن جبير محمد بن أحمد الكنانى الأندلسي المتوفى سنة (٦١٤هـ / ١٢١٧م) الى بلاد الجزيرة في (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) قد احتوت على الكثير والمهم من المعلومات الدقيقة المتعلقة بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، حيث وصف القرى والمدن وألقى ضوءاً كافياً على مظاهر العمران أو الخراب فيها وأسبابه .

كما احتل كتاب (معجم البلدان) لشهاب الدين أبي عبد الله الرومي البغدادي الملقب بـ (ياقوت الحموي) المتوفى سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) مكانة فريدة بين هذه المصادر ، فهو يُعَدُّ من أدق وأوسع المصادر عن مدن وقرى الجزيرة وخاصة فيما يتعلق بأحوال السكان الاجتماعية والاقتصادية أو التقسيمات الادارية التي نتلمس أثرها فيما ذكر عن المدن والقرى فاطلق عليها تسميات (الكبيرة أو الصغيرة) أو ذكرها مجردة ، كما ذكر القصبه والضياح والاعمال والرساتيق وهي اصطلاحات يمكن أن نفهم منها بما يفيد التقسيمات والأحوال الادارية ، وقد احتوى كتابه هذا على قدر وافر من المعلومات عن مواضع الجزيرة ومدنها وقراها وأنهارها ودياراتها ومؤسساتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية . ان أهمية ياقوت لهذه الدراسة تكمن في معاصرتة للأحداث ومشاهداته لمعظم بلاد الجزيرة .

وأخيراً ينبغي أن نشير الى الفائدة الملموسة التي حققها للبحث ، كتاب حمد الله المستوفي القزويني الذي عاش في القرن

السابع الهجري، بعنوان (نزهة القلوب) (٢)، باللغة الانجليزية، حيث قدم معلومات جغرافية ومناخية قيّمة عن مدن الجزيرة ومواقعها مما كان له تأثيره الواضح في النشاط التجاري والزراعي الذي تميزت به بلاد الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري، فضلا عما جاء في هذا الكتاب من حقائق وأخبار تتعلق بالأحوال الاجتماعية والصحية لهذه المدن والمستوطنات وكذلك ما يتعلق بالصناعة والاقتصاد والضرائب.

(٢) ترجمه عن الفارسية (كي لسترنج).

تمهيد

أ - جغرافية الجزيرة الفراتية •

ب - الأحوال السياسية في الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري •

أ - جغرافية الجزيرة الفراتية :

الجزيرة الفراتية ، هي البلاد الواقعة بين دجلة والفرات ، في أعالي اقليم العراق ، والمجاورة لبلاد الشام ، في مدلولنا في الوقت الحاضر •

ويبدو ، ان اقتران كلمة الجزيرة^(١) بنهر الفرات ، انما يرجع الى هيمنة هذا النهر - على الامتداد العام ، لمعظم سطحها -

(١) قال الهمداني المعروف بابن الفقيه «وانما سميت الجزيرة لانها تقطع الفرات ودجلة وقد تقطع في البر» مختصر كتاب البلدان (ليدن ، ١٣٠٢هـ) ص ١٢٨ •

وقال ابن عبدالحق في «مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع» (الطبعة الاولى - تحقيق علي البجاوي) ج ١ ص ٢٥٣ «انما سميت جزيرة لانها تقع بين نهري دجلة والفرات» •

فهو يتصل بعد خروجه من هضبة بلاد الروم (آسيا الصغرى) بمدن الجزيرة ، مبتدئاً بأرزن الروم في الشمال ومتفرعاً الى ارزنجان شرقاً ، ثم متجهاً الى الجنوب ، ماراً بملطية وسميساط وبالس والرافقة ، حيث يتجه ، بعد ذلك ، الى الجنوب الشرقي ، فيربط أهم مدن تلك النواحي الواقعة في الغرب ، وهي قرقيسيا والرحبة وعانة وهيت والحديثة (٢) .

لذا يرجح ان نعت الجزيرة ، بالفراتية ، يرجع الى انتشار روافد نهر الفرات في معظم مساحتها ، بحيث يشكل شبكة مترابطة من الانهار المتفرعة ، التي لا تترك الا مساحات صغيرة فيما بينها بعد دخولها أرض الجزيرة . وقد جاء اسم الجزيرة الفراتية عند ابن خلكان في معرض كلامه عن مدينة (دنيسر) التي كان ينتسب اليها عدد من الاعيان . قال : انها (مدينة «بالجزيرة الفراتية» بين نصيبين ورأس العين) (٣) .

وقد اطلق بعض البلدانين والمؤرخين كلمة «العراقية» على الجزيرة (٤) ، وذلك فيما يبدو لقربها من اقليم العراق دون بلاد الشام أو أرمينية وبلاد فارس . أما اطلاق اسم «بلاد الجزيرة» فقط ، فيأتي من تقسيم البلدانين والجغرافيين المسلمين (٥) .

(٢) انظر الخريطة لمعرفة مواقع هذه المدن .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان (الطبعة الاولى - القاهرة

١٣٦٧هـ) ج ٤ ص ٢٣٢ . وقد أيد رأي ابن خلكان ، المؤرخ القلقشندي

فقال «ان الجزيرة الفراتية هي أقرب أقطار هذه المملكة ، لمملكة الديار

المصرية والشامية ، لمجاورتها بلاد الشام» صبح الاعشى في صناعة الانشاء

(الطبعة الاميرية - دارالكتب - وزارة الثقافة والاعلام) ج ٤ ص ٣١٤ .

(٤) الاصطخري : مسالك الممالك (دي غوية ، بريل ، لندن ، ١٩٢٧م) .

ص ٧٨ ، التطيلي : رحلة بنيامين التطيلي (المطبعة الشرقية - بغداد -

١٩٤٥ ، ترجمة عزرا حداد عن العبرية) ص ١٢٦ ، ابن الاثير : الكامل ١١ /

١٨٤ .

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (باعتناء دي غوية بريل ، لندن ، ١٨٨٩م)

ص ٥ ، ٢٤٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان (باريس ١٨٤٠م) ص ١٤٠ .

واهتمامهم بأحوال تلك البلاد الاسلامية وما اتسمت به من معالم
تميزها عن غيرها ، مستهدفين بذلك تقديم صورة متكاملة عن
طبيعتها الجغرافية والبشرية والتاريخية .

وهناك تسمية أخرى للجزيرة ، جاءت عند المقدسي ، تحت اسم
« اقليم آقور » (٦) ويرى ياقوت الحموي ، ان « آقور هي كورة بالجزيرة
أو هي الجزيرة التي بين الموصل والفرات » (٧) . ويذكر « كي
لسترنج » ان اطلاق كلمة آقور على الجزيرة ، انما هو ، اطلاق عام ،
المقصود به ، اسم الشطر الشمالي من السهل العظيم في شمالي ما بين
النهرين ، وهي تسمية استمرت فترة من الزمن (٨) .

أهمية بلاد الجزيرة الفراتية :

نالت الجزيرة الفراتية اهتمام الجغرافيين والمؤرخين
المسلمين ، وتظهر هذه الأهمية بجلال في ما عقده عنها من فصول
مطولة ، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن حوقل ، عندما نقل انطباعات
علماء ومفكرين وحساب المسلمين وغيرهم بمسالك الارض وعلم
الهيئة ، وفي ما وضعوا من صفات الارض فقال « . . . انها مصورة
بصورة طائر ، فالبصرة ومصر الجناحان والشام الرأس والجزيرة
الجؤجؤ واليمن الذنب » (٩) وزاد قوله أيضا « . . . ومع ان الجزيرة

-
- (٦) المقدسي البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (تحقيق دي غوية ،
مطبعة بريل) ص ١٣٦ .
- (٧) ياقوت : معجم البلدان (ليبسك) ج ١ ص ٣٤٠ ، ج ٢ ص ٧٢ ، ج ٤ ص
٦٨٢-٦٨٣ .
- (٨) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشر فرنسيس وكوركيس
عواد - ١٩٤٥ - بغداد) ص ١١٤ .
- (٩) ابن حوقل : صورة الارض (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت)
ص ١٩٠ .

قريب مما قالوه ، فهي اقليم جليل بنفسه شريف بسكانه وأهله» (١٠)
وانها كانت معدن الابطال وعنصر الرجال وينبوع الخيل
والعدة» (١١) .

ودعم المقدسي أوصاف ابن حوقل عن أرض الجزيرة قائلا :
«هذا الاقليم نفيس له فضل ، وهو ثغر من ثغور المسلمين ، ومقل
من معاقلهم» (١٢) .

أما ياقوت الذي عاش في القرن السادس الهجري ، فيصف أرض
الجزيرة بقوله «انها صحيحة الهواء ، جيدة الريع والنماء ، واسعة
الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة» (١٣) . ولذلك يمكن
القول ، بان هذا الوصف الاخير دلالة على استمرار الاهمية التي
نعمت بها أرض الجزيرة طوال العهد الاسلامي .

وقد عزز المؤرخون المسلمون دراسات البلدانين عن أهمية
الجزيرة الفراتية ، وجاء ذلك عندما تحدث أولئك المؤرخون عن
ارتباط أرض الجزيرة الفراتية بالديار المصرية والشامية أيام
حكم الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٠-٦٧٦هـ / ١٢٥٩-١٢٧٧م)
فقالوا ان بعض بلاد الجزيرة مثل الرها وقلعة جعبر وماوالاهما
داخلة في أعمال حلب، التي كانت خاضعة آنذاك، سياسيا، الى المملكة
المصرية (١٤) . ويبدو ان الجزيرة الفراتية قد نالت أهمية خاصة

-
- (١٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٠ .
(١١) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٠ .
(١٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦ .
(١٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢ .
(١٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٩-٣٢٠ . ويذكر اليونيني ان
الظاهر بيبرس البندقداري ملك مصر ، قد سير الامير شمس الدين اقسنقر
بن عبدالله الفارقاني ، لكشف بلاد الجزيرة ، وقد استطاع اداء مهمته
فاجتمع هناك بقوم مواليين ونقلوا له رغبة أهلها بانضمام بلادهم الى المملكة
المصرية ثم عاد شمس الدين بعد اقامته هناك أياما ، حيث أكرمه الظاهر



من جانب المملكة المصرية أيام الظاهر بيبرس ، فقد كان هناك حاكم يكاتب الابواب السلطانية بالديار المصرية ، في كل من : شمشاط وحيزان وميافارقين وجزيرة ابن عمر وسنجار وتل اعفر والحديثة وعانة وتكريت والعمادية وقلعة كشاف(١٥) وهي من مدن الجزيرة المهمة(١٦) .

الموقع والحدود :

تمثل الجزيرة الفراتية ، المنطقة الشمالية من اقليم العراق بين نهري دجلة والفرات ، وتصل في امتدادها ، الى أقصى الشمال عند منطقة تعرف بالدروب في سلاسل جبال طوروس ، كما يلاحظ ان امتدادها من الشرق يصل الى الجبال الفارسية . ويكوّن نهر الفرات الحد الغربي للجزيرة عند مدينة الانبار ونهر دجلة الحد الشرقي عند مدينة تكريت . على أن بعض البلدانين يلحق المناطق الشرقية لنهر دجلة والمناطق الغربية لنهر الفرات ضمن أرض الجزيرة وذلك منذ القرن الرابع الهجري ، ويشير الاصطخري الى أن في غرب الفرات مدنا وقرى خارجة عن اقليم الجزيرة ، وان كانت تنسب اليها لقربها منها»(١٧) .

بيبرس وقدمه من أمير عشرة الى أمير بطبلخانة بالديار المصرية ، وهي رتبة عالية في الجيش المصري اذ ذاك ، مما يدل على أهمية بلاد الجزيرة لدى الملك الظاهر .

انظر عن تبعية بلاد الجزيرة للديار المصرية والشامية أيضا اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مطبوعة مجلس دائرة المعارف - حيدرآباد - الهند) ج٣ ص ٢٩٩ .

(١٥) أنظر : موقعها في الخريطة .

(١٦) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٣١٤ ، ٣٢٧ .

(١٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧١-٧٢ .

ويشير ابن حوقل الى أن نهر الفرات ، عندما يجتاز الانبار يخرج عن حدود الجزيرة (١٨) وهذه حقيقة يكاد لا يخالفه فيها البلدانيون الآخرون .

وهذا يوضح ان حدود الجزيرة الفراتية كانت تمتد خلال القرن الرابع الهجري - حيث تبدأ من الانبار على نهر الفرات الى تكريت على نهر دجلة ثم الى السن والى الحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر و آمد ، ثم يجتاز خط الحدود ، أرمينية وبعض بلاد الروم ثم الى الفرات عند ملطية ، لذلك فان قسما من أرمينية وبعض بلاد الروم والشام والعراق داخل نطاق الجزيرة (١٩) ، على ان بعض البلدانيين يوسعون رقعة الجزيرة الفراتية ، فيضيفون اليها بعض المدن مثل : العمادية وميافارقين وشميشاط و ارزن وخلاط قائلين انها من مدن الجزيرة . وعلى هذا يمكن القول على ضوء ما جاء عند ياقوت و ابى الفداء وابن عبدالحق ، ان خط الحدود لمنطقة الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري يبدأ من جنوب مدينة «أوانا» على نهر دجلة متجها الى الشرق حتى مدينة «شهرزور» حيث يتجه شمالا الى مدينة «شقلاباد» وخلاط وبدليس وشميشاط ثم الى ملطية على نهر الفرات ثم يتجه الى الجنوب فيمر في غرب مدينة جسر منبج حيث ينتهي عند مدينة الانبار (٢٠) .

(١٨) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٨٩ .

(١٩) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٣ . وقد ذكر ، ان كثيرا من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات ومن بر الشام ، قد ضمت الى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها مما يحيط بالجزيرة من حدود الروم وقال بأنه طرف الحد الجنوبي الغربي للجزيرة .

(٢٠) أنظر خط حدود منطقة الجزيرة الفراتية على الخريطة خلال القرن السادس الهجري الذي استقيناه مما كتبه هؤلاء البلدانيون .

السطح والتضاريس :

يبدو ان التباين في سطح الجزيرة الفراتية ، قد أدى الى التباين في أحوالها الطبيعية والبشرية ، اذ يتكون هذا السطح من السهل الرسوبي الذي يمتد في وسط وجنوب العراق والذي يحيط بدجلة والفرات ، ومن الهضبة الصحراوية في الغرب ، ومن المنطقة الجبلية في الشمال الشرقي (٢١) . اما السهل الرسوبي المرتفع " ويتكون من صخور الجبس الميوسيني ، وهو على تسدل حوض ضحل له انحدار عام نحو الجنوب ، وله انحدارات جانبية من الشرق والغرب ايضا " كما ان النطاق الجبلي الذي يقع في الشمال الغربي للجزيرة لا يوصل السهل الرسوبي فصلا تاما ، بسبب وجود فجوات منخفضة تتخلل جبل اللثام (امانوس) شرقي خليج اسكندرونه مما سهل المرور من البحر المتوسط الى سهول الجزيرة عن طريق حلب (٢٢) . والى الجنوب من منطقة الجبال (٢٣) العالية في الشمال الشرقي ، توجد المنطقة شبه الجبلية ، وهي تمتد من جبل سنجار ، باتجاه الموصل واربل وتنتهي

(٢١) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية - بين الاحتكاك العربي والاتصال الحضاري (القاهرة - ١٩٦٦) ص ١٤٨ .

(٢٢) فيصل السامر : الحمدانيون في الموصل وحلب ج ٢ (بغداد - ١٩٧٢) ص ٧ .

(٢٣) ذكر البلدانون والمؤرخون عددا من أسماء الجبال مثل جبل (حرم عباد) الذي يقع الى شمال ميفارقين (ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - قسم الجزيرة ، مخطوطة (كسفورد رقم ٣٣) الورقة ٧١ أ ، وجبل (السناسنة) نسبة الى القبيلة المعروفة بهذا الاسم والتي تستوطن بالقرب من آمد (الفارقي : تاريخ الفارقي ، تحقيق بدوي عبداللطيف عوض - القاهرة) ص ٤٦ ، وجبل (باجسمي) في الجهات الشمالية الشرقية لمنطقة ديار بكر (الفارقي : نفس المرجع السابق ص ٤٦) وجبل (طور عبيدين) الذي يقع الى جنوب نصيبين في ديار ربيعة (ابن سراييون : عجائب الاقاليم السبعة ص ١١٦) وجبل (ماردين) الواقع الى الجنوب الشرقي من ماردين (الاصطخري : مسالك الممالك ص ١٧٣) وهذه الجبال تمثل في الوقت الحاضر جزءا من الجبال التركية الجنوبية .

بالقرب من خانقين ، وتوجد في منطقة الجزيرة التواءات صغيرة مكونة من أحجار الجبس ، وقد أثّرت الرياح فيها ونحتتها وجعلت حافاتها حادة دقيقة ، مما يجعل التنقل عبرها صعبا جدا . وهذا بدوره يؤثر في المسالك والطرق التي كانت تتخذها القوافل التجارية في هذه المنطقة فيعرقل بعضها أو يغيّر مسارات بعضها الآخر .

ومن هضاب الجزيرة ، هضبة الموصل التي يقسمها نهر دجلة الى قسمين متساويين ويمكن تحديد هذه الهضبة من الشرق بنهر الزاب الكبير ومن الغرب بالسلاسل الجبلية المكونة من جبل (سنجار) وجبل (ابراهيم) وجبل (العطشان) . والمعروف ان الجزء الشرقي من هضبة الموصل ، هي اراض منحدرية تدريجيا نحو الغرب ، أما القسم الغربي ، فمكون من اراض متموجة ، ذات سطح غير منتظم وتظهر عليها طبقات من صخور الرمل والطفل والصخور المكتلة وحجر الطين والجبس كما توجد صخور صلبة تسمى «مرمر الموصل» وهي ما نطلق عليها في الوقت الحاضر اسم «صخور الأنهدريت ANHA ATE» (٢٤) .

أما الوديان التي تخترق سطح الجزيرة فأهمها «وادي الثرثار» (٢٥) الذي أشار اليه ياقوت - وقال بانه «نهر عظيم عليه قرى وجنان وتصب فيه أودية كثيرة» (٢٦) .

ويذكر أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان ، ان الثرثار يمر بالحضر وبرية سنجار ويصب في دجلة عند تكريت (٢٧) . ويلاحظ ،

(٢٤) راجع عن هذه الصخور ، جاسم الخلف : جغرافية العراق العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية (دار المعرفة - الطبعة الثالثة) ص ٧٥ .

(٢٥) ومنها وادي (الصلب) الذي كان يصب في نهر دجلة ويمتد بين آمد وميافارقين ووادي (ساتيدما) ووادي (الرزم) ووادي (سربط) .

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨٢-٢٨٣ .

وأنظر أيضا : ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢٧) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٥٥ .

ان منخفض الثرثار ، غريب في تكوينه ، حيث يتألف من واد طويل تنتهي اليه وديان كثيرة ، تنحدر من جبال سنجار وما جاورها من اراض في شمال المنخفض ، كما يؤدي الى ما يسمى ب «بحيرة الثرثار» التي أطلقت عليها المصادر «ملحمة الثرثار» وقد ينخفض قاعها في الوقت الحاضر الى ثلاثة أمتار تقريبا تحت سطح البحر(٢٨) .

وعلى الرغم من انه لم يعرف بعد ، أصل تكوين هذا المنخفض ، فان الابحاث الحديثة ترجح انه نشأ نتيجة انكسار في قشرة الارض وهبوطها(٢٩) .

ومما يدل على هذا الانكسار ، شكل الوادي الطويل الضيق وارتفاع حافته الشرقية ، وهذا يؤكد الحقيقة التي ذكرها ياقوت وأبو الفدا وابن عبدالحق من أن وادي الثرثار ، كان متصلا بنهر دجلة في جنوب مدينة تكريت(٣٠) ، ولكن ارتفاع الصخور في جنوب منخفض الثرثار بسبب انكسارها فصل وادي الثرثار عن نهر دجلة(٣١) .

المناخ :

تقع الجزيرة الفراتية في المنطقة المعتدلة الشمالية حسب التقسيمات الجغرافية الحديثة اذ تهب عليها الرياح العكسية شتاء

(٢٨) جاسم الخلف : جغرافية العراق الطبيعية ص ٥٥ .

(٢٩) جاسم الخلف : نفس المرجع السابق ص ٥٦ .

(٣٠) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٦ ، ٩٢١ ، ج ٢ ص ٢٨١-٢٨٢ ، أبو الفداء تقويم البلدان ص ٥٥ ، ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ٣ ص ٣١٣ .

(٣١) يرى جاسم الخلف «ان وادي الثرثار ، كان متصلا بنهر الفرات عند مدينة الانبار وليس بنهر دجلة ، ولكن انكسار الصخور وارتفاعها في جنوب منخفض الثرثار فصل هذا الوادي عن الفرات وجعل تصريفه داخليا «جغرافية العراق الطبيعية» ص ٥٦ .

والرياح الدائمة صيفا ، وقد تمتعت بمناخ مطير شتاء وجاف حار في بقية الفصول . وعند توزيع نسبة الامطار تنال المناطق الشماليه حميه احر من المناطق الجنوبيه ، والغريه احر من القريه وترتفع درجات الحرارة كلما اتجهنا جنوبا ، وبصورة عامه يمدنا القول ان الامطار يسقط معظمها في فصلي الشتاء والربيع ، لذلك فان الموارد المائيه للجزيرة الفراتيه ، في تلك المناطق تحون متغيرة في كميتها من موسم لآخر . اما المناطق الجبلية وشبه الجبلية فيسودها مناخ البحر المتوسط ومناخ (السهب «استبس») .

والمناخ الاخير يمتاز بانه انتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي لذا يمدن القول ان مناخ البحر المتوسط يسود المناطق الجبلية كلية . اما المناطق شبه الجبلية فتتمتع بمناخ السهب ، وترتب على ذلك ان المناطق الجبلية الشمالية الشرقية من الجزيرة تنخفض فيها درجات الحرارة . ويصف المستوفي القزويني المناخ في بعض مدن الجزيرة التي تقع في مناطق مختلفة منها فيقول «ان مناخ ديار بكر وديار ربيعة دافئ وان مدينة رأس العين تتمتع بمناخ جيد ومدينة اسعد (سمرت) مناخها جيد والعمادية تتمتع بمناخ جيد ونصيبين طقسها رطب وشرابها جيد يشرب ليقاوم رطوبة الجو» (٣٢) .

ان سقوط الامطار على أرض الجزيرة الفراتية في فصل الشتاء يجعل للسكان موردا مائيا ، يمكن الاعتماد عليه في الزراعة ، فضلا عن انتشار غابات النباتات الطبيعية مثل اشجار البطم والحبة الخضراء وأشجار الزعرور والسماق والكمثرى البرية واللوز البري وأشجار العرعر (٣٣) ، وأكثرها في المنطقة الجبلية ، على حين

(32) Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Geographical Part of the Nuzhat-Al-Gulub, (Translated, by G. Le Strange, Leyden, 1919). p. 102-105.

(٣٣) وهي أنواع من الاثمار الجافة .

تحرّم المناطق شبه الجبلية التي يسود فيها المناخ الصحراوي من هذه الاشجار ، وقد أثر ذلك أيضا في توزيع السكان وانتشار المدن والقرى .

ويشير المقدسي الى طبيعة المناخ في الجزيرة فيقول : «أما هواء هذا الاقليم فمقاربة للشام» أي يسود فيها مناخ البحر المتوسط ، ثم يمضى قائلا «وبه مواضع حارة» وهو يشير بذلك - على الأرجح - الى المناطق شبه الجبلية التي تتمتع بمناخ صحراوي . أما المناطق الجبلية التي يقرب مناخها من مناخ الشام فهي «كورة آمد لقربها من الجبال» أي منطقة آمد التي ذكرها هذا المرجع ، وهي تقع في المنطقة الجبلية الشمالية الشرقية من الجزيرة (٣٤) .

ويؤكد ابن الأثير ، هذا التفاوت في سقوط الامطار في الجزيرة الفراتية ، والفروق بين المناطق المناخية فيقول «ان الامطار قد قلت في البلاد ، فلم يجيء منها شيء الى شباط ، ثم انها كانت تجيء في الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا ، ولا يحصل منه الري للزرع» (٣٥) ثم يقول «الدنيا مازالت قديما وحديثا ، اذا غلت الاسعار ، متى جاء المطر ، رخصت ، الا ان هذه السنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٤م) فان الامطار مازالت متتابعة من أول الشتاء الى آخر الربيع» (٣٦) وينطبق ذلك على منطقة الموصل الذي حصل فيها هذا التفاوت في سقوط الامطار بصورة أوضح ، نتيجة وقوعها في الحافات الجنوبية والغربية للمناطق شبه الجبلية .

(٣٤) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٠ .

(٣٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ (مطبعة السعادة القاهرة - ١٢٩٠هـ) ج ١٢ ص ٤٢٤ .

(٣٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٤٧ ، ٤٧٣ .

أهمية الجزيرة الفراتية بين أقاليم الخلافة العباسية :

تميّزت الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، بأهمية خاصة بين أقاليم الخلافة العباسية (٣٧) ، وذلك بحكم موقعها المتوسط بين العراق وبلاد الشام وأرمينية واذربيجان وكذلك بحكم مواردها الطبيعية والزراعية وحركة مدنها الآهلة النشطة ، هذا بالإضافة الى انها تمثل جسرا أرضيا يوصل بين طرق المواصلات البحرية في جنوبي آسيا ، وكذلك في جنوبي أوروبا ، لانها تقع بين البحر المتوسط والخليج العربي .

فالتداخل التجاري بين اقليم العراق والجزيرة وبلاد الشام ، خلال القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وقرب الجزيرة الفراتية من بلاد فارس والخليج العربي في الجنوب واتصال مصر بها عن طريق بلاد الشام أعطى أهمية ، بالغة الخطورة ، لموقعها الاستراتيجي ، وأصبحت هناك مجالات رحبة للتجارة العالمية المارة بها . مضافا الى ذلك انها لعبت دورا حاسما بالنسبة لتجارتي الشرق والغرب ، اذ لم تكن قناة السويس قد فتحت بعد ، لذلك فهي تمثل أقصر الطرق بين غربي وجنوبي أوروبا وبين جنوب شرقي آسيا وأواسطها (٣٨) .

وأخيرا فمن الجدير ، القول ، بأن وجود الجبال ، في الاقسام الشمالية والشمالية الشرقية من سطح الجزيرة الفراتية ، قد طبع الحياة الاقتصادية والاجتماعية هناك بطابع متميز ، حيث أصبحت السهول ووديان الجبال وسفوحها مناطق لتجمع السكان ، اذ كانت

(٣٧) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٨٩-١٩٠ ، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢ .

(٣٨) محمد جمال الدين سروز ، تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق (القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٧) ص ١٤٤ ، فيصل السامر : الحمدانيون في الموصل وحلب ج ٢ ص ٢٠ .

الزراعة حرفتهم الرئيسية ومصدر عيشهم وصارت لبلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري - مكانة خاصة وسط أقاليم الخلافة العباسية .

ب - الاحوال السياسية في الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري :

كانت بلاد الجزيرة الفراتية، في مطلع القرن السادس الهجري ، ضمن ممتلكات سلاجقة العراق ، الذين كانت لهم السلطة الفعلية في ادارة الدولة العباسية . ونتيجة لما كان يعانيه السلاجقة من ضعف ، وتفكك في ادارة البلاد الواسعة التي كانوا يحكمونها ، واحتياجهم الى الاموال ، أخذوا يقطعون دولتهم على أمرائهم وكان شمس الدولة جكرمش (وهو أحد أمراء السلاجقة) قد تولى الموصل ، وهي إحدى الامارات المحلية المهمة في بلاد الجزيرة خلال الفترة الواقعة بين (٤٩٤-٥٠٠ هـ / ١١٠٠-١١٠٦ م) (٣٩) واعقبه في حكمها الامير السلجوقي جاولي سقاو (٥٠٠-٥٠٢ هـ / ١١٠٦-١١٠٨ م) (٤٠) ومن ثم اقطعت للامير مودود بن التونتكين سنة (٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) حتى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) (٤١) حيث اقطعها السلطان السلجوقي محمد ، للامير جيوش بك (٤٢) الذي خرج عن طاعة السلاجقة ،

(٣٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل) (تحقيق عبدالقادر احمد طليمات - دار الكتب الحديثة بالقاهرة - ١٩٦٣) ص ١٦ .

(٤٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٦-١٧ .

(٤١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٧ .

(٤٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٢٢ .
مخطوطة الجزيرة - الورقة ٥٨ ب - ٥٩ ب .

فتسلمها آقسنقر البرسقي اقطاعا من السلطان السلجوقي نفسه سنة (٥١٤هـ / ١١٢٠م) (٤٣)، وظل يحكمها حتى سنة (٥٢١هـ / ١١٢٧م)، حيث تولاها عماد الدين زنكي الاتابكي (٤٤)، وضم اليها أغلب امارات المدن وبعض الامارات المحلية، فعرفت بالدولة الاتابكية (٤٥)، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخها السياسي حتى سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) حيث انقسمت بعد هذا التاريخ الى قسمين رئيسيين، القسم الغربي ومركزه حلب، ويحكمه نورالدين محمود ابن عماد الدين زنكي، والقسم الشرقي ويضم الموصل وامارات المدن الاتابكية مثل جزيرة ابن عمر وسنجار ونصيبين واربيل،

(٤٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٢٤ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة -

(٣٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٢ ، واتابك ، لفظ تركي وهو مكون من مقطعين (أتا) بمعنى (أب) و (بك) بمعنى (أمير) وقد كانوا يطلقونها على من يربي أولاد السلاجقة من الاتراك .

انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٤ .

القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ١٦٧

(٤٥) الاتابكية ، هي امارة يقطعها السلطان السلجوقي لاجد خواصه ومماليكه المقربين الذين يجلبون من بلاد القفجاق ، ويربي بعضهم في قصور السلاطين السلاجقة ، ومنهم من تسولي الوظائف الحكومية ، كما يستخدمونهم في الجيش السلجوقي ، وأشهر هذه الاتابكيات ، اتابكية الموصل واربيل وسنجار ودياربكر ودمشق وحلب وارمينيا وفارس ولورستان واذربيجان وكرمان . وقد أصبح لهذه الاتابكيات نظم عسكرية واقتصادية وإدارية واجتماعية خاصة بها ورثها الاتابكة عن السلاجقة أو اقتبسوها عن غيرهم .

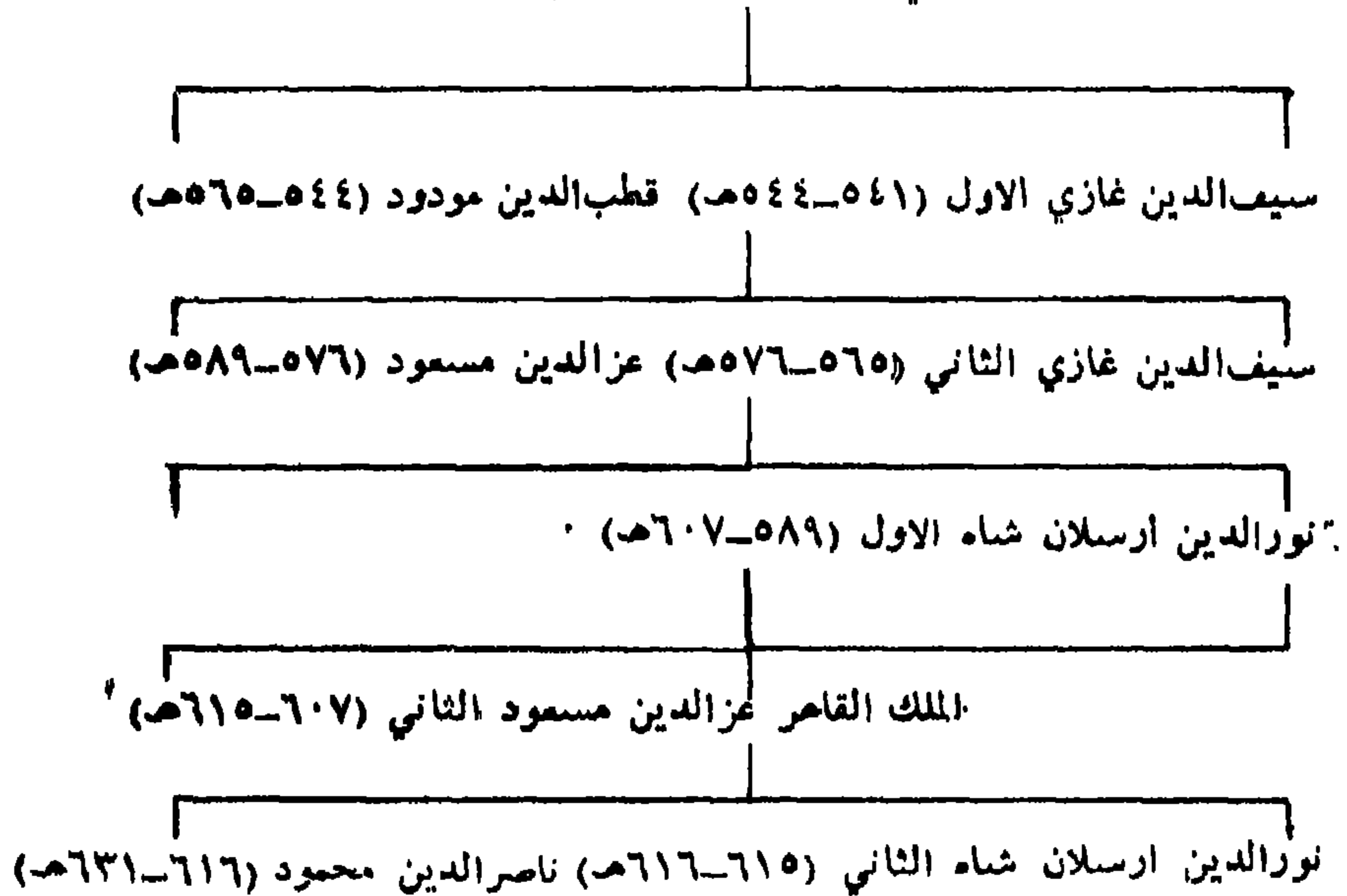
انظر :

LANE-POOLE: The Mohammedan Dynasties p. 159.

وشهرزور وغيرها ، وقد حكمه ثمانية ملوك اتابكيين حتى سنة
(٦٣١هـ / ١٢٣٣م) (٤٦) .

وقامت الى جانب الاتابكيات في الجزيرة الفراتية ، خلال القرن
السادس الهجري ، الامارات الارتقية التي كانت تحتل الجهات
الشمالية الشرقية ، ففي (٤٩٥هـ / ١١٠١م) استولى سقمان بن

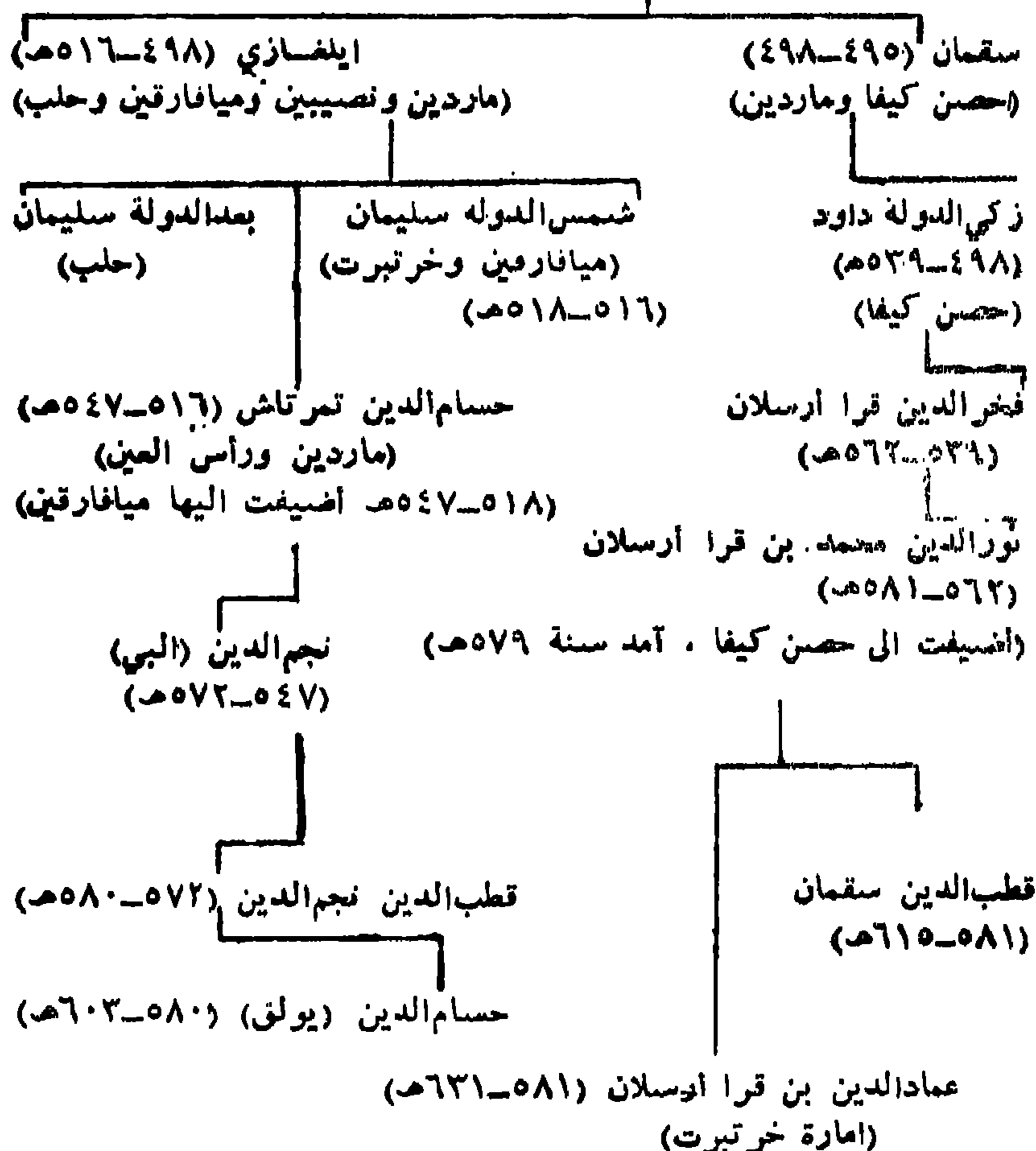
(٤٦) جدول باسماء اتابكة الموصل ٥٢١-٦٣١هـ / ١١٢٧-١٢٣٣م :
عماد الدين زنكي بن آق سنقر الاتابكي (٥٢١-٥٤١هـ)



ارتق الذي ينتمي اليه الاراتقة (٤٧) ، على مدينة حصن كيفا واتخذها قاعدة لامارته ومنطلقا لتوسيعها بضم بعض المدن والمناطق

(٤٧) جدول باسماء الامراء الاراتقة في الجزيرة الفراتية ٤٩٥-٦٣١هـ / ١١٠١ - ١٢٣٢م .

ارتق بن أكسك (أحد مماليك السلاطين في العراق) ٤٦٥-٤٨٥هـ
(في بلاد الشام) ٤٨٥-٤٩٥هـ (فترة حكم الامراء السلاجقة ومنهم ارتق) .



المجاورة لها(٤٨)، وفي (٤٩٦هـ/ ١١٠٢م) استولى ايلغازي الارتقي، على مدينة ماردين، وبذلك أصبحت هاتان المدينتان، عاصمتين لأمارتي حصن كيفا وماردين، وفي ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، نال ايلغازي مدينة حران من السلطان السلجوقي(٤٩)، واستطاع ايلغازي أن يضم مدينة حلب الى امارته سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م(٥٠)، وفي السنة التالية، أعاد سيطرته على مدينة حران، التي كان قد فقدتها، وكذلك على مدينة نصيبين(٥١) .

ونتيجة عقد الصلح بين السلطان السلجوقي وايلغازي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م حصل الأخير على مدينة ميفارقين(٥٢) . وفي هذه الفترة انفصلت امارتا ماردين وحصن كيفا عن بعضهما واتسمت العلاقات بينهما بالمنافسة والعداء، ولكن علاقة كل منهما بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانت طيبة حتى سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م، حيث كان الاراتقة يخطبون للخلفاء العباسيين وللسلاطين السلاجقة ويضربون السكة باسمهم ويعلنون لهم الطاعة في جميع المناسبات(٥٣) .

أما امارا خرتبرت(٥٤)، الارتقية، فقد ظهرت على المسرح السياسي في أقصى الشمال الشرقي للجزيرة الفراتية سنة ٥٨١هـ/

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٢٧-١٢٨ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٤١ ب .

(٤٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٧٣ ، ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٧ أ .

(٥٠) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٣٠ ب .

(٥١) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٧ ب .

(٥٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٢٥ .

(٥٣) الحسيني : اخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في اخبار

الامراء والملوك السلجوقية تحقيق محمد اقبال - لاهور - ١٩٧٣) ص ٩٢ -

٩٣ ، ١١٠-١١١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدرود -

بروت - ١٩٠٨) ص ١٤٧ .

(٥٤) انظر الخريطة .

١١٨٥م ، وكان مؤسسها عماد الدين بن قرا أرسلان ، أحد أشقاء نور الدين محمد أمير حصن كيفا وآمد . وقد استمرت هذه الامارة تحكم خرتبورت والمناطق المجاورة لها حتى سنة ٦٣١هـ / ١٢٢٢ وكان الأكراد يؤلفون ثالث القوى السياسية في منطقة الجزيرة الفراتية في مطلع القرن السادس الهجري ، فكانت القبائل الكردية تنتشر في المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية .

وكانت الامارات الكردية ، هناك ، تخضع لسلطة سلاجقة العراق (٥٥) ، وأهم حصونهم واماراتهم ، هي قلعة العقر والشوش والهكارية (٥٦) التي أخضعها عماد الدين زنكي صاحب الموصل سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م (٥٧) ، أما كواشي وآشب والزوزان فهي من قلاع الاكراد ومن مراكزهم الرئيسية المهمة لانها أكبر الحصون وأكثرها مناعة ، وفيها أموالهم وأهلهم (٥٨) ، فقد اكتسحها عماد الدين زنكي أيضا سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م (٥٩) ، وبذلك يكون هذا الاخير قد أخضع أغلب الامارات والحصون والمدن الكردية ، ثم ظل الاكراد يخضعون للأتابكيين حيناً ويستقلون حيناً آخر حتى سنة ٥٦٩هـ / ١٧٧٣م حيث خضعت المنطقة للناصر صلاح الدين الايوبي ، فوقف الاكراد الى جانبه وأيدوه في سياسته التي كان يتبعها لتوحيد الامارات المحلية وامارات المدن في الجزيرة الفراتية لمواجهة الخطر الصليبي الذي بات يهدد الجميع . كما أن الأكراد استمروا في تأييدهم

(55) Encyclopaedia of Islam, Kourd, (by. V. Minorsky)

(٥٦) وهي بلدان ونواحي وقرى فوق الموصل في بلاد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٩٧٨) .

(٥٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٤٨ ، الكامل ج ١١ ص ٥ .

(٥٨) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦٣ .

وأنظر أيضا : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ١٠٦ .

(٥٩) ابن الاثير : الباهر ص ٦٤ ، الكامل ج ١١ ص ٥ .

للايوبيين حتى بعد وفاة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٩هـ /
١١٩٣م (٦٠) .

يتضح من ذلك كله أن الوحدات السياسية التي كانت قائمة في
الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري هي :

أ - الامارات المحلية وهي (٦١) :

١ - الامارات الزنكية في الموصل وتدير مدن الحديثة والعمادية
ومدن الخابور .

٢ - الامارات الارتقية في ماردين وتدير مدن نصيبين
وميفارقين وآمد .

٣ - الامارة الارتقية في حصن كيفا وتتبعها قلعة الصور
وأرزن .

٤ - امارة خرتبورت الارتقية في أقاصي ديار بكر وتتبعها
عدة مدن وقرى .

ب - امارات المدن وهي (٦٢) :

١ - امارة سنجار الى شرق الموصل .

٢ - امارة اربل الى الجنوب الشرقي من الموصل .

٣ - امارتا دقوقا وشهرزور الى الجنوب من اربل .

٤ - امارة جزيرة ابن عمر الى الجنوب من خلاط على نهر
دجلة .

(٦٠) ابن الاثير : الباهر ص ١٤٢ .

(٦١) راجع عن الامارات المحلية : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي (بيروت -

١٩٦٧ - الدار العلمية) ص ٨٥-٩٨ .

(٦٢) عن امارات المدن راجع ما كتبه عماد الدين خليل : نفس المرجع السابق
ص ٦٩-٨١ .

- ٥ - امارتا الحديثة وعانة على الفرات
- ٦ - امارة الرقة في أقصى الغرب على الفرات .
- ٧ - امارة حران الى شمال الرقة على نهر البليخ الذي يصب في الفرات .
- ٨ - امارة الرها شمال حران .
- ٩ - امارة تكريت على دجلة الى الشرق من الانبار .
- ج - الامارات الكردية (٦٣) التي كان عماد الدين زنكي قد اخضع بعضها وبقي بعضها قائما خلال هذه الفترة .

(٦٣) عن الامارات الكردية راجع ما جاء عند محمد امين زكي في كتابه : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (ترجمة محمد علي عوني - مطبعة السعادة ، القاهرة - ١٩٣٦م) وكتابيه الآخر : تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي (ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٤٨م) .

الباب الاول

النظم الاجتماعية

الفصل الأول

السكان والمدن والتوزيع البشري

١ - السكان والمدن *

٢ - التوزيع الديني والثقافي للسكان *

الفصل الأول

السكان والمدن والتوزيع البشري

السكان والمدن :

أسهم في التكوين البشري لسكان بلاد الجزيرة الفراتية عدة عوامل ، أولها وأقدمها ، نزوح الموجات الجزرية ، التي خرجت من الجزيرة العربية في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وهي موجات آشورية وآمورية وآرامية ، تدفقت الى العراق ، ومنه زحفت الى الشمال ، حيث نزلت منطقة ما بين النهرين * وقد وضعت هذه الموجات الاساس البشري لغالبية السكان في تلك الفترات * وكانت اليمن وسورية ، ينابيع بشرية تزود بلاد الجزيرة الفراتية قبل الفتوح الاسلامية بمستوطنين جدد * ثم جاء الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع الميلادي ، فكان أعظم حدث في تكوين سكان هذه البلاد من الناحية العنصرية^(١) ، فقد مصرّ العرب المسلمون ، مدن البصرة وبغداد والموصل وغيرها ، وأنشأوا مدنا جديدة ، وأصبحت.

(١) البلاذري : فتوح البلدان (طبع دي غويه ، ليدن ١٨٦٦) القسم ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ١٠ .

جميع هذه المدن بمرور الزمن ، قواعد لاجتذاب عناصر عربية وغير عربية . وقد غلبت اللغة العربية والثقافة الاسلامية على تلك العناصر .

وظلت غالبية السكان ، في أرض الجزيرة الفراتية ، تتكون من العنصر العربي (٢) وذلك على الرغم من أن الهجرات البشرية القديمة قد تركت أثرها الواضح في دخول عناصر وأقوام غير عربية الى جانب العنصر العربي في تركيب السكان ، وظلت تؤلف جزءا من سكان بلاد الجزيرة الفراتية - حتى خلال القرن السادس الهجري - وبدأ هذا الطابع العربي يزداد في بلاد الجزيرة الفراتية رويدا رويدا من القرن الرابع الهجري ، حتى بلغ أوجه في القرن السادس الهجري ، وذلك على نحو ما صوره الجغرافيون والبلدانيون المسلمون في هذه المرحلة الزمنية فيذكر الاصطخري «أن المنطقة الواقعة وراء القوس الممتد بين الدسكرة وتقع على النهر وان في العراق ، الى تكريت وسامراء والعلث في أرض الجزيرة الفراتية (٣) يغلب عليها خلال القرن الرابع الهجري ، الاكراد والاعراب ، وهي مراعي لهم» (٤) .

كما ذكر ابن حوقل ، أن أهل الموصل ، عرب ، وأن بالقرب من سنجار بين شمالها وغربها ، يقطن قوم من العرب ، (منخفرين) أي ليسوا دائمي التنقل ، وأن الجزيرة «كان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، ازاحتهم منها بطون من قيس عيلان ، وملكوا أكثر من بلد واقليم منها ، والمنطقة بين الزابين الاعلى والاسفل مصائف لبني شيبان ، ومشاتي للاكراد الهذليانية» (٥) .

-
- (٢) . الهمداني : صفة جزيرة العرب (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣م) ص ١٣٣ .
(٣) . انظر الخريطة .
(٤) . الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٨٥-٨٨ .
(٥) . ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٥ .

وقال المقدسي البشاري ، أن اقليم آقور «منازل العرب في الاسلام وان ديار ربيعة فيها قصبته الموصل» (٦) .

أما في القرن السادس الهجري ، فيمكن الاطلاع على ماورد عند ياقوت عن مناطق استيطان الاقوام العربية وغير العربية ، مثل الاكراد والتركمان ، فقد أشار الى ما يفيد - أن مناطق الجزيرة الفراتية ، كانت في هذه الفترة تتوزع بين القبائل العربية في ديارات معينة (٧) وبين الاكراد في مناطق متفرقة (٨) وكذلك التركمان (٩) . ويلقي ابن جبير ضوءا مهما ، على تجمع السكان في المناطق الواقعة بين الموصل وتكريت ، اذ يقول «والقرى والعمائر من هذا الموضع - أي تكريت - الى الموصل متصلة» (١٠) ، كما يشير ياقوت ، الى كثافة السكان في منطقة الخابور التي تقع بين رأس العين والفرات من أرض الجزيرة الفراتية فيقول «بأنها ولاية واسعة وبلدان جمّة» (١١) . أما ابن بطوطة فيصف الطريق بين مدينة الانبار وهيت والحديثة وعانة ، وهي من مدن الجزيرة «بأنها من أحسن البلاد واخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة - كأن الماشي في سوق من الاسواق» (١٢) .

ويتضح من دراسات أولئك البلدانين والجغرافيين المسلمين ، أن توزيع السكان ومناطق تجمعهم في أرض الجزيرة الفراتية ، قد سار أيضا من القرن الرابع الى السادس الهجري جنبا الى جنب مع موارد المياه لنهري دجلة والفرات وكذلك الانهار التي تصب فيهما:

-
- (٦) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦، ١٣٧ .
 - (٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٣٦ .
 - (٨) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٥٨-٦٣-٨٧٢ - ج ٣ ص ٩٢٠ .
 - (٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٦٩٠ .
 - (١٠) رحلة ابن جبير (دار صادر ، بيروت ١٩٥٩) ص ٢٠٨ .
 - (١١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٣ .
 - (١٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٦٥٠ .

«والقنوات التي تتفرع منهما ، فضلا عن مناطق سقوط الامطار
والينابيع والعيون والآبار ومصادر المياه الأخرى » .

يقدم لنا ابن حوقل اشارات توضح ذلك بقوله «وللموصل
نواح عريضة ورساتيق عظيمة وكور كثيرة ، غزيرة الأهل
والقرى» (١٣) ويعدد هذه الرساتيق فيذكر نينوى والمرج وباهدرا
والخابور ومعلثايا وفيشخابور ويصفها بما يفيد الفنى وكثرة
المدن (١٤) ، ولكنه يشير الى البلاد الواقعة بين الزابين بما يفيد تحولها
الى الخراب وخلوها من السكان بسبب غزوات البدو واشتداد
الفتن (١٥) وعندما يصف المدن القائمة على الفرات بين مدينة عانة
والانبار ، يعدد القرى والمدن القليلة العدد ويقول ان بعضها غني
وبعضها على حال متوسطة ، ويضيف الى ذلك أنها قد تغيرت
وانتقلت الى النقص والاستحالة (١٦) . وأشار الى تركيز السكان في
القرى الكثيرة والمزارع والضياح الواقعة بالقرب من منطقة رأس
العين حيث كان «يسكنها العرب وبها لهم خطط ، وفيها من العيون
أكثر من ثلثمائة عين ماء جارية» ويضيف قائلا بأن «هذه العيون
تجتمع فتكون نهر الخابور الذي يجري الى نواحي قرقيساء من مدن
الجزيرة على نهر الفرات وكان على هذا النهر لأهل رأس العين نحو
عشرين فرسخا قرى ومزارع وكان لهم غير رستاق وناحية — كثيرة
الضياح ، وأن نهر الخابور عليه مدائن كثيرة» (١٧) .

وظلت هذه الظاهرة البشرية ، تسود بلاد الجزيرة الفراتية
حتى القرن السادس الهجري ، وذلك على نحو ما جاء عند ياقوت وما
شاهده بنفسه من مدن تلك البلاد أو ما وصل الى علمه من المدن

-
- (١٣) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٦ .
(١٤) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٦-١٩٧ .
(١٥) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ٢٠٥ .
(١٦) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ .
(١٧) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٢٠٠ .

والقرى فنجد أن مجموع ما ذكره عن مراكز التجمعات البشرية يصل الى المائتين ، وقد قال عن الموصل أنها عُمُرت ، ثم يعدد أعمالها فيذكر تسع عشرة مدينة وقرية (١٨) وعن مدينة أربل «فينضم الى ولايتها عدة قلاع» (١٩) ، ويقول عن الرافضة بأنها «بلد متصل البناء بالرقّة وهما على ضفة الفرات» (٢٠) ، وعن مدينة نصيبين «ففي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان» (٢١) ، وعن خابور الحسينية من أعمال الموصل وهو نهر ينبع من الجبال القريبة «عليه عمل واسع وقرى» (٢٢) وعن شهرزور قال بأنها «مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها» (٢٣) وعن أردمشت القريبة من جزيرة ابن عمر بأنها «ليست لها رستاق كبير وانما لها ثلاث ضياع» (٢٤) كما أنه أشار الى منطقة رحبة مالك بن طوق الواقعة بين الرقة وبغداد على نهر الفرات فقال بما يفيد اتخاذها مستوطنات للمزارعين ، فانتشرت القرى على ما يبدو في الاماكن المشرفة على الأراضي المنخفضة عن مستوى النهر ، حيث أن المياه تناسب اليها وتستمر مدة أطول فتكون «أسرع الأرض نباتا» (٢٥) وهذا يؤيد كثرة السكان في هذه المنطقة التي هي جزء مهم من بلاد الجزيرة الفراتية .

ويبدو من دراسة ما قدمه البلدانونيون والمؤرخون المسلمون عن مدن الجزيرة الفراتية ، أن أكبر تجمع للسكان في هذه البلاد ، استمر في القرن السادس الهجري ، كما كان عليه في القرن الرابع ، حيث تركّز السكان في المدن ، أما باقي المناطق كالقرى والضياع ،

-
- (١٨) . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٢-٦٨٣ .
(١٩) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٨٦ .
(٢٠) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٧٣٤ .
(٢١) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨٧ .
(٢٢) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٣٨٤ .
(٢٣) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٣ ص ٣٤٠-٣٤١ .
(٢٤) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٩٩ .
(٢٥) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٧٦٤ .

فتظهر ، مراكز تجمع السكان فيها مشتتة وغير ثابتة ، فقد وصفه الاصطخري وابن حوقل اغلب مدن الجزيرة وصفا عاما يساعدنا ، الى حد ما ، على تكوين صورة متقاربة عن سكانها في القرن الرابع الهجري وهي الصورة التي ظلت حتى القرن السادس الهجري ، فقال الاصطخري عن الموصل ودنيسر وهيت والحديثة ، بأنها مدن غناء ، نزهة ، عامرة أهلة كثيرة البيوت والعمارة (٢٦) . وذكر ابن حوقل عن الموصل ونصيبين وهيت والانبار وماردين بأنها تمتاز بفسحة الأعمال وكثرة الضياع وعظم المحل وغزر السكان ، فضلا عن انها عظيمة الشأن كأكبر البلدان فهي عامرة أهلة ومنغصة بالسكان (٢٧) مما يدل على وجود تجمعات سكنية في منطقة معينة من المدينة وهو ما يعرف بمحلات السكنى في الوقت الحاضر . ويبدو ان اشارة البلدانين الى اتساع العمران في المدن ، انما يدل على كثافة السكان ، فقد «عُمِّرت مدينة (سوق دنيسر) عمارة كثيرة ، واتخذ بها الجانات والفنادق والحمامات والاسواق ، فأستوطنها الناس من كل فج عميق» (٢٨) .

وقد استمرت هذه الظاهرة الخاصة بالتوزيع البشري لسكان بلاد الجزيرة حتى خلال القرن السادس الهجري فأورد لنا ابن جبير

(٢٦) جاء عن الموصل بأنها «مدينة عامة ابنيتهما بالجص والحجارة كثيرة غناء» وعن دنيسر، «مدينة كثيرة البيوت والعمارة» وعن هيت «عامرة أهلة» والحديثة مدينة نزهة جدا ذات بساتين وأشجار وزروع ولها مباخر .
الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

(٢٧) وذكر ابن حوقل ان للموصل أضعاف أعمال نصيبين في فسحة الأعمال وكثرة الضياع وعظم المحل وغزر السكان وأهل الاسواق ، وبها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب والساحات والعمارات ما دعت اليها سكان البلاد النائية فقطنوها وجذبتهم اليها برخصها وميرها وصلاح أسفارها فسكنوها وعن هيت بأنها «من أعمر المدن» وعن الانبار «مدينة عامرة أهلة» وعن ماردين بأن فيها «في ناحية الجنوب ربض عامر منغض بالسكان» صورة الارض ص ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٠٢ - ٢٠٥ .

(٢٨) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٢٠٢ .

ما يفيد كثرة السكان في مدن الجزيرة الفراتية التي مر بها في رحلته الى هذه البلاد في ٥٨٠هـ / ١١٨٤م فقال عن تكريت بانها «مدينة واسعة الارجاع ، فسيحة الساحة ، حفيلة الاسواق غاصّة بالخلق» (٢٩) ووصف الموصل بانها «مدينة عتيقة ضخمة فخمة» وانها «تشتمل على بيوت ومقاصر ومطاهر وسقايات ومدارس وبيمارستانات ومساجد وحمامات وحانات وأسواق وفنادق كثيرة» (٣٠) * وان مدينة دنيصر (دنيسر) مشحونة بشرا ولها الاسواق الحفيلة والارزاق الواسعة * وقال عن حرّان بانها «البلد الكثير الخلق واسع الرزق جم المرافق على أحفل ما يكون من المدن» (٣١) وقد فعل مثل ذلك ياقوت فقدم لنا معلومات عن السكان في مدينة الموصل ، حيث وصفهم بكثرة الخلق (٣٢) كما ذكر ما يشير الى كثافة السكان في مدينة أربل فقال عنها بانها «عريضة كبيرة طويلة وفي قلعتها أسواق ومنازل للرعية ، وهي شبيهة بقلعة حلب الا أنها أكبر وأوسع» (٣٣) وكذلك ما يتعلق بنصيبين فهي «مدينة عامرة من بلاد الجزيرة» (٣٤) * كما قال عن دنيسر بانها بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين وأضاف الى أنه قد شهدها بنفسه وقد «صارت مصراً لا نظير لها كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق» (٣٥) *

وأشار ابن الاثير الى مدينة الموصل في القرن السادس الهجري ، من حيث حجم السكان وكثافته فقال بانها كانت قبل أن يمتلكها

(٢٩) رحلة ابن جبير ص ٢٠٨ *

(٣٠) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢١٠ *

(٣١) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢١٦ *

(٣٢) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢٢٢ *

(٣٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٢-٦٨٣ *

(٣٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٨٦ *

(٣٥) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨٧ *

عماد الدين زنكي خراباً «فعمرها وامتلات اهلاً وسكاناً» (٣٦) كما أشار الفارقي الى مدينة ميفارقين والعمران الذي استحدث فيها خلال هذه الفترة «فقصدها الناس والتجار وجماعة من كل الاطراف» (٣٧) .

ويؤكد معلق مجهول من أهل القرن السادس الهجري ، وهو ناسخ كتاب صورة الارض لابن حوقل ، ما جاء عن عمارة الموصل في هذه الفترة فقال «أما في زماننا هذا «وهو سنة ٥٦٠ هـ» فقد عمرت الموصل عمارة لم تكن قط منذ أن أسست حتى أن العمارة قد استولت عليها ، ولم يبق بها موضع ، فامتدت العمارة الى خارج السور وصار في خراجها أسواق وحمامات وفنادق وغير ذلك من المرافق» (٣٨) مما يؤيد ازدياد حجم السكان وكثافتهم .

التوزيع الديني والثقافي للسكان :

ترتب على الفتوحات الاسلامية في القرن السابع الميلادي ، حدوث تغييرات أساسية في تكوين سكان الجزيرة الفراتية ، ليس عنصرية فحسب ولكنها أدت أيضاً الى تغيرات مماثلة في الاتجاهات الدينية والثقافية للسكان . فقد أصبحت اللغة العربية ، لغة الثقافة والعلم والدين وتغلبت في صراعها على اللغتين الآرامية والفارسية ، كما تغلب الدين الاسلامي في صراعه على المسيحية واليهودية والمجوسية

(٣٦) ابن الاثر : التاريخ الباهر ص ٧٧ ، الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١١١ . وقد ذكر قائلا «كان جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل حتى لقد ذهب كثير من المقابر وبنيت دوراً وقال بأن الانسان «يقف قرب محلة الطبالين ويرى جامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة وهو الآن وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها أرض براح» .

(٣٧) الفارقي : التاريخ ص ١٦٦ .

(٣٨) المعلق المجهول : كتاب صورة الارض ص ١٩٥ .

والصابئية • ونتيجة هذا الصراع ظهرت المدن الاسلامية الكبيرة في الجزيرة الفراتية مثل الموصل ونصيبين وميافارقين وحصن كيفا والرها والرقعة وآمد وماردين ودينيسر وأربل وغيرها ، وصارت مراكز ثقافية لعبت دورا كبيرا في الحياة الفكرية ، حيث ضمت المدارس والرباطات والخانقاهات والجوامع والتكايا وحلقات الدراسة ، واستوعبت عددا كبيرا من الناس الذين درسوا ، فنبح العلماء والفقهاء في مختلف أصناف العلوم مثل علوم اللغة العربية والقرآن والحديث والعلوم العقلية مثل الرياضيات والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والحساب •

وكانت الموصل تحتوي على خمسة وثلاثين جامعا وأربعة آلاف مسجد وثمان وعشرين مدرسة ومائة وثمانين دار للحديث وسبعة وعشرين خانقاه للصوفية (٣٩) ومن المرجح جدا ان هذه المؤسسات ترقى الى القرن السادس الهجري •

ويبدو أن عملية الاختلاط العنصري ، قد اكسبت السكان ثقافات متنوعة وقد حدث ذلك في أغلب المدن في الجزيرة الفراتية ومنها مدينة خلاط حيث كان سكانها يتكلمون ثلاث لغات هي العربية والفارسية والأرمنية (٤٠) •

كما كان أهل الذمة في الموصل وهم النصارى واليهود يقرأون التوراة والانجيل علي أبي الفتح كمال الدين بن يونس (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) وهو واحد من أبرز العلماء ، فكان يشرح لهم هذين الكتابين شرحا ، يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله (٤١) •

(٣٩) الخطيب العمري : منهل الالياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء (تحقيق سعيد الديوهجي - الموصل ١٩٦٧) ص ٦٠ (نقلت من

كتاب سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان وهو الجزء المفقود حاليا) •

(٤٠) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٦-٧ •

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٩٧ •

وكان لتيار التعريب الذي ظل قويا ، طيلة العهد العباسي في العراق ، تأثيره الواضح في بلاد الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، فناصر خسرو وشرف خان البديليسي والمستوفي القزويني ، على الرغم من فارسيتهم ، لا يشيرون الى وجود الفرس وتأثيراتهم الثقافية عند كلامهم عن مدن الجزيرة الفراتية وأخبارها وذكر ياقوت ان أكثر أهل مدينة أربل من الاكراد قد استعربوا (٤٢) وهذه اشارة واضحة الى تيار التعريب وتغليب العنصر العربي واللغة العربية وانتشاره في هذه المنطقة .

أما عملية توحيد سكان الجزيرة الفراتية دينيا وهي الرسالة التي كان قد سعى اليها المسلمون الأوائل ، فقد سارت سيرا بطيئا ، على الرغم من مضاعفة الجزية على نصارى بني تغلب في منطقة الفرات من بلاد الجزيرة الفراتية ، في عهد عمر بن الخطاب (رض) (٤٣) ، وهذا يرجع ، بطبيعة الحال ، الى التسامح الديني ، الذي عرف به المسلمون وترك هؤلاء الذميين (٤٤) يمارسون دينهم وعاداتهم .

(٤٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٨٦ .

(٤٣) يقول البلاذري « كتب عمر بن سعد (القائد الاسلامي) الى الخليفة عمر ابن الخطاب ، يعلمه انه اتى شق الفرات الشامي ، ففتح عانات (مدينة عانة وما جاورها من المدن) وسائر حصون الفرات ، وأنه أراد من هناك من بني تغلب ، فأبوه وهموا باللاحاق بأرض الروم ، فكتب اليه عمر يأمره أن يضعف عليهم الصدقة ، وان أبوا حاربهم ، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة » .

وقال أيضا : « حدثنا عن زرعة بن النعمان ، أنه كان كلم عمر في نصارى بني تغلب وقال : (قوم عرب نائفون من الجزية وانما هم أصحاب حروث ومواشي فأضعف عليهم الجزية من صدقاتهم في الارض والماشية) فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٥٠-٢٥١ .

(٤٤) كان في مدينة الموصل بيع للنصارى ومحلة الميهود ، كما كانت مدينة الحديثة تحتوي على بيعتين من بيع النصارى . وذكر ابن الفقيه الهمداني ، أن « أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومصرها ، هرثمة بن عرفة اليارقي وكان عمر عزل عتبة ، عن الموصل وأولاه هرثمة ، وكان بها



وفي القرن السادس الهجري يذكر لنا ابن جبير في رحلته الى مدن الجزيرة الفراتية ما يفيد استمرار هذا التركيب الديني المختلط للسكان هناك ، فقد اجتاز في طريقه قرية كبيرة لها حصن يعرف (بتل العقاب) هي للنصارى المعاهدين الذميين وأضاف بأنه وصل الى قرية أخرى تعرف (بالجسر) وهي لفرقة من فرق الروم (٤٥)، أما مدينة حران ، فقد ذكرها أبو الفداء صاحب حماة نقلاً عن الاصطخري بقوله «انها مدينة عظيمة للصائبين ، وبها سدنتهم السبعة عشر وبها تل عليه مصلى للصائبين يعظمونه» (٤٦)، كما يشير ياقوت الى مدينة (هاطري) في جنوب تكريت بأن أكثر أهلها من اليهود (٤٧) .

ويمكن القول ، أن ما جاء به البلدانيون والرحالة والمؤرخون العرب والمسلمون وغيرهم من أخبار ومعلومات حول ديارات النصارى واليهود وكنائسهم وعن الصابئة ومناطق تجمعهم وانتشارهم في بلاد الجزيرة الفراتية ، يعيننا على ادراك أصول التكوين الديني للسكان ، في فترة القرن السادس الهجري التي نعني بدراستها .

لقد أشار الاصطخري الى مدن الصابئة والنصارى (٤٨) والشابشتي الى ديارات النصارى ووصفها وأورد معلومات كثيرة عنها (٤٩) ، والاصطخري والشابشتي كلاهما من أهل القرن الرابع

الحصن وبيع النصارى ومنازلهم ومحلة اليهود فمصرها ، ثم بنى الحديثة ، وكانت قرية قديمة فيها بيعتان فمصرها واسكنها قوما من العرب فسميت الحديثة» مختصر كتاب البلدان ص ١٢٩ .

(٤٥) رحلة ابن جبير ص ٢١٧ .

(٤٦) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٧ .

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٩ ص ٩٤٧ .

(٤٨) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٦ .

(٤٩) الشابشتي : الديارات ص ١٠٩-١١٢-١١٣-١١٦-١٣٩-١٤٧-١٩٢-

١٩٥-١٧١-١٩٧-١٩٩-٢٤١-٢٤٤ .

الهجري ، حيث استمرت هذه المؤسسات قائمة حتى القرن السادس الهجري وما بعده أيضا فقد ورد عند صاحب مسالك الابصار عن أديرة النصارى وكنائسهم في الجزيرة الفراتية ما يعزز المعلومات التي وردت عند مؤرخي القرن الرابع الهجري ويلقي ضوءا مهما على تركيب السكان الديني خلال القرن السادس الهجري فقد ذكر عددا من الاديرة والكنائس في مدن الجزيرة الفراتية وقدم معلومات واخبارا كثيرة عنها(٥٠) .

أما الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ، الذي بدأ رحلته الى بلاد الجزيرة الفراتية في ٥٦١هـ / ١١٦٥م ، فيقدم لنا اخبارا عن مناطق تجمع اليهود وعددهم في مدن الجزيرة ، مثل بالس وقلعة جعبر والرقعة وحران ورأس العين ونصيبين والموصل والرحبة وقرقيسيام والانبار والعمادية(٥١) . ويذكر لنا الخطيب العمري نقلا عن كتاب مرآة الزمان (الجزء المفقود حاليا) للمؤرخ سبط ابن الجوزي ، أنه كان في مدينة الموصل ، أيام الأمير بدرالدين لؤلؤ الذي حكمها في نهاية القرن السادس الهجري(٥٢) ثمان وخمسون بيعة للنصارى وست عشرة كنيسة لليهود ، وأن رؤوس النصارى للجزية أي الذين كانوا يدفعون الجزية فعلا ثلاثة وأربعون رأسا ورؤوس اليهود ستة وثلاثون ألفا(٥٣) .

* * *

-
- (٥٠) العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٢٦١-٢٦٥-٢٧٠-٢٨١-٢٨٧-٢٨٩-٢٩٩-٣٠٠-٣٠١-٣٠٣-٣٠٧ .
- (٥١) التطيلي : الرحلة ص ١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٥٤ .
- (٥٢) راجع عن فترة حكم بدرالدين لؤلؤ للموصل : سوادى عبد محمد : امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ (مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٧١) .
- (٥٣) الخطيب العمري : منهل الاولياء مشرب الاضياء ص ٧ ، انظر أيضا : ياسين العمري : منية الادباء في تاريخ الموصل الجدياء (تحقيق سعيد الديوهجي الموصل ١٩٥٥) ص ٦٦ .

الفصل الثاني

المدن والقرى ومضارب القبائل العربية في الجزيرة الفراتية

أ - أحوال المدن والقرى في أرض الجزيرة •

ب - القبائل العربية :

١ - القبائل القحطانية والقبائل العدنانية في أرض الجزيرة
الفراتية •

٢ - تأثير القبائل العربية في أحوال الجزيرة الفراتية •

الفصل الثاني

المدن والقرى

ومضارب القبائل العربية في الجزيرة الفراتية

أ - أحوال المدن والقرى في أرض الجزيرة :

يقوم التصنيف الذي جاء عن المدن الاسلامية على أساس سياسي ، اذ يوضح الفروق بينهما على أساس تقسيمها الى الامصار ، التي كان يقطنها السلطان او والي ، وتجتمع فيها الدواوين وتقلد منها الأعمال وتضاف اليها الاقاليم^(١) ، والقصبات التي هي عواصم الاقاليم أو مدنها العظمى^(٢) ، وكانت تلي الامصار في الاهمية ، ومقامها منها مقام الحجاب من الملوكة^(٣) . ثم تليها المدن التي كانت تقوم مقام الجند . وتأتي بعد ذلك ، النواحي ، وهي من المصطلحات التي لم توضح تماما ، ولكن يبدو انها منطقة تابعة

-
- (١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٣٥ ، وانظر : آدم
متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٤-١٠٥ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٤٧ ، وانظر : آدم متز : الحضارة الاسلامية
ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٤) المقدسي : نفس المرجع السابق ص ٣٥-٤٧ .

للمدينة ، شأنها شأن القرى الملحقة بالمدن ، التي كانت تقوم
مقام الرجالة (٤) .

ويمكن أن نميّز في بلاد الجزيرة الفراتية ، الى حد ما ، بين
المدن والقرى على الرغم من الصعوبة القائمة للتوصل الى فروق
واضحة المعالم بينها وفق التصنيف سالف الذكر ، اذ ان هناك
بعض الاشارات ، يمكن الاستفادة منها في هذا السبيل .

وقد انقسم اقليم الجزيرة الفراتية الى ثلاث كور ، كانت
مناطق كبيرة تحتوي على المدن والنواحي والقرى ، وقد سمي
الجغرافيون والمؤرخون المسلمون هذه الكور ، في القرن السادس
الهجري ، بأسماء أهم المدن فيها ، كما كان الحال منذ القرن الرابع
الهجري ، وهذه الكور هي :

١ - الموصل :

ومن مدنها الحديثة ونصيبين ورأس العين ، ومن نواحيها
جزيرة ابن عمر وفيشخابور وباعيناثا والمغيثة والزوزان، والموصل
هو مصر اقليم الجزيرة الفراتية ، حيث يتبعه ، عدد من المدن
والقرى والنواحي (٦) ، كما يمثل قسبة الاقليم ، أي مدينته
العظمى (٧) .

٢ - الرقة :

وأهم مدنها ، المحترقة والرافقة وباجروان وحصن مسلمة.
وترعوز وحران والرها . ومن نواحيها ، سروج وكفرزاب .

(٥) وكان اسم الموصل «خولان» فلما وصل العرب بها عمارتهم ومصروها سميت

الموصل ، المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٨ .

(٦) المقدسي : نفس المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٥ .

٣ - آمد :

ومدنها ، ميفارقين وتل فافان وحصن كيفا .

وهناك بالاضافة الى هذه الكور الثلاث ، منطقة الخابور وقصبتها عرايان ومن مدنها ، الحصين وماكسين وسكير العباس والتنانير .

وقد ظلت أكبر مدن الفرات ، كما كانت في القرن الرابع الهجري هي :

رحبة مالك بن طوق وقرقيسياء وعنة والدالية والحديثة (٨) .
وقد جاء في وصف الموصل بأنه «بلد جليل ، حسن البناء ، حسن الاسواق والفنادق وله منازة وخصائص وحمامات ودور بهية» (٩) .
ولعل هذه المرافق من مزايا المدن (١٠) في بلاد الجزيرة الفراتية ، تلك المدن التي مصّرت بعد الفتوح الاسلامية أو التي انشئت لتكون على نسق متشابه ، فالموصل شبه طيلسان ، مثل البصرة ، ليس بالكبير ، في ثلثه شبه حصن يسمى «المربعة» على نهر زبيدة ويعرف بسوق الاربعاء ، ووصفت الساحة التي بداخل المدينة ، بأنها واسعة يجتمع فيها الناس للبيع والشراء وفي كل ركن منه فندق ، وكان يمكن الصعود من الشط (الجرف) الى المربعة بدرج مبني

(٨) المقدسي : نفس المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٩) المقدسي : نفس المرجع السابق ص ١٣٨ .

(١٠) قسم آدم سمث ، المدن في المملكة الاسلامية الى أربعة أنواع :

١ - مدن على الطراز الهليني في حوض البحر المتوسط .

٢ - المدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب .

٣ - المدن على الطراز البابلي .

٤ - ومدن شرق المملكة الاسلامية وتكون مدن الجزيرة الفراتية منها (الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٢٧) .

بالحجارة والآزاج ، وكذلك من الشط الى الاسواق بدرج آخر * وكانت أكثر الاسواق في مدينة الموصل مغطاة * اما شوارعها وأزقتها ، فكثيرة ومتشعبة وتسمى «الدروب» ومنها «درب دير الأعلى» و «درب باصلوت» و «درب الجصاصين» و «درب بني ميده» و «درب الدباغين» و «درب جميل» (١١) *

ويؤيد ابن جبير الذي كان قد مر في مدينة الموصل سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ما جاء عنها في القرن الرابع الهجري ، فيصفها بأنها مدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، وقد كادت أبراجها تلتقي انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض ، وأشار الى داخلها من البيوت المستديرة التي بنيت على جدار السور المطيف بالبار كله ، وفي أعلى المدينة قلعة عظيمة ، رص بناؤها رصاً ،

(١١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٣٩ . كما أورد وصفا لبعض مدن الجزيرة الأخرى مثل جزيرة ابن عمر التي قال بأنها كبيرة طيبة نزهة ، بناؤها من الحجارة السوداء والكلس ومدينة آمد وهو بلد حصين ، حسن عجيب وبرقيد وصفت بأنها صغيرة وفيها الحمامات الحسنة والقصور المتينة ، وكان سوقها من الباب الى الباب وعليها حصن من حجر وكلس ، والجامع وسط البلد . أما مدينة دارا فكان لها قناة تزودها بالمياه وبنائها من الحجارة السوداء والكلس ومدينة آمد وهو بلد حصين ، حسن عجب البناء ، له أبواب بنيت بالحجارة السوداء وفيه خمسة أبواب ، باب الماء ، وباب الجبل وباب الروم وباب التل وباب صغير يحتاج اليه أثناء الحرب وهو باب أنس . أما ميافارقين فمدينة مهمة (اسمها الآرامي) Mayharkath واسمها العربي تحريف له (Moufahin) وقد أسماها اليونانيون (Martyropolis) وبلد حصن له شرف وفصيل بحجارة فيها قلعة وريض وبنائها من حجر وطنين . وحصن كيفا بها قلعة وكنائس كثيرة (سماها الروم Kiphas Cephe) والرقعة سورها عريض يسير عليه فارسان ولها بابان وهي من المدن القديمة الخطة حسنة الاسواق ولها حمامات طيبة قد ظلمت أسواقها وبريقت قصورها . وحران نزهة وعليها حصن . والرها وهي إحدى عجائب الدنيا وهي محصنة وجامعها على طرف منها وبها كنيسة عجيبة بأزاج ملبسة بالفسيفساء ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ . ويبدو أن هذه المدن قد حافظت على كثير من معالمها العمرانية في القرن السادس الهجري *

ينتظمها سور عتيق البنية ، مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان . وأضاف بأن الشارع المتسع الممتد من القلعة الى شرقي المدينة ، قد فصل بين المدينة ودور السلطان . ويصف ربض المدينة ، أي الساحة في وسطها ونسميها الآن «الميدان» بما يفيد بأنه كبير . فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ، وقد بنى فيها جامع يطل على نهر دجلة ، وبنائه يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الآجر ، وكان يطيف به شبابيك من حديد تتصل بها المصاطب ، التي تشرف على نهر دجلة (١٢) . وكان أمام هذا بيمارستان حويل . وفي السوق قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض ، وكان بناؤها مزخرفا لا مثيل له (١٣) .

ويمكن القول ان ما أوردته ابن جبير ، هو تفريق واضح بين المدينة التي كانت تمتاز بوجود هذه المرافق ، وغيرها وبين القرية الكبيرة ومثالها قرية «تل العقاب» ، وكان قد مر بها فقال عنها «وتحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار ويربي أهلها الماشية» (١٤) .

وكان ابن جبير يحس بمعالم الحضارة التي كانت تصطبغ بها المدن ، فيقول عن مدينة رأس العين « . . . وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء وللحضارة عنها استغناء» (١٥) ، ويظهر ان ابن جبير ، كان يعد الاسوار والدور الانيقة البناء والمساجد والحمامات والاسواق

(١٢) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ .

(١٣) نفس المرجع السابق ص ٢١٠ .

(١٤) نفس المرجع السابق ص ٢١٧ وقد أوحى له هذه القرية بما يشابهها في بلاد الأندلس .

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٢١٩ .

والبيمارستانات والارياض والمدارس والقيساريات من مظاهر الحضارة في المدن

أما ياقوت الحموي ، فقد أشار إلى المدن والقرى حسب مساحتها وسكانها وعمراتها فسمى بعضها «مدنا كبيرة» وهي الموصل وأربل ورأس العين وشهرزور وقسطلية^(١٦) ، وأطلق على أخرى لفظة «مدينة» فقط وهي سنجار والسن وبلد وصرعون وميافارقين^(١٧) ، كما وصف مدنا أخرى «بالبلدة» وهي السويداء والهكارية وهيت ودنيسر^(١٨) ثم أطلق على أخرى لفظة «بلد» مثل الرافقة وأمد وتل موزن ومجادل وبرزمهران وقرقيسياء ووصف أخرى بأنها «بليدة» مثل تل هفتون وباشزي وأوانا وأخرى وصفها «بالقرية» مثل باعشيقا وتل عبدة والمؤنسة وقرادي والقريشية وكراثا وكفر عزا والزراعة ووصف غيرها «بالقرية الكبيرة» مثل المراوزة ومرق والمزرفة وباصفراء وباعيناثا والجبول وجدال ودوغان والدولعية وشاقرد وصريفون وكفر توثا .

ويمكن أن نستنتج فروقا عامة من خلال ما أورده ياقوت عن هذه المدن والقرى ، فقد وصف مدينة أربل بأنها «مدينة كبيرة عريضة طويلة» ثم زاد قوله «ومع سعة هذه المدينة فبنيانها وطباعتها بالقرى أشبه منها بالمدن»^(١٩) أي أنه كان يشير إلى الفروق من حيث عدد النفوس وسعة البناء والعمران . ووصف الفضيلية وباعيناثا بأنها قريتان كبيرتان كالمدينتين^(٢٠) وإن برطلي قرية

(١٦) انظر مواقعها على الخارطة .

(١٧) انظر مواقعها على الخارطة .

(١٨) انظر مواقعها على الخارطة .

(١٩) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٨٦ .

(٢٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ١٨٦-٤٧٢-٤٧٣ .

كالمدينة (٢١) ، ثم يبدو أكثر توضيحا لهذه الفروق في كلامه عن مدينة دنيسر التي قال عنها بأنها «بلدة عظيمة مشهورة ، وقد صارت قرية ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، وقد صارت مصرا لا نظير لها كبيرا وكثرة أهل وعظم أسواق» (٢٢) .

ويقتضي فهم الكثير عن الفروق بين المدينة والقرية في القرن السادس الهجري ، وذلك باستعراض ما جاء به ياقوت عن مدينة الموصل والمدن الأخرى والقرى من حيث أهميتها وموقعها وبنائها وكذلك من حيث عيوبها ، فأشار إلى ما يفيد شهرة مدينة الموصل العظيمة وأنها إحدى قواعد بلاد الإسلام القليلة النظير كبيرا وعظما وكثرة خلق وسعة رقعة ، وأضاف بأنها باب العراق ومفتاح خراسان ، وقد عدها من المدن الثلاث العظام في بلاد الدنيا بعد نيسابور ودمشق . وقال بأنها مدينة قديمة ، أبنيتها حسنة جيدة وثيقة بهية المنظر لأنها مبنية بالنورة والرخام ، وكانت الدور كلها أزاج وسرايب وان سورها يشتمل على جامعين . أما عيوبها فهي قلة بساطينها وعدم جريان الماء في رساتيقها وشدة حرها في الصيف وعظم بردها في الشتاء (٢٣) ، ووصف ميفارقين بأنها أشهر مدينة بديار بكر وأشار إلى أبراجها الثلاثة (٢٤) وأبوابها ومرافقها وإلى المرأة العظيمة التي كانت موضوعة بين برج المرأة وبرج الطبالين

(٢١) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٧ .

(٢٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٦١٢ .

(٢٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٦٨٢-٦٨٣ .

(٢٤) وهي برج الرومية وبرج الراوية المعروف ببرج (علي بن وهب) وبرج باب البيض ، وفيها حمام النجارين ، وجعلت لها ثمانية أبواب وهي باب أرزن ويعرف بباب الخنازير وباب قولنج وباب الشهوة وباب الفرح والغم ويسمى هذا الباب باب القصر وباب الميدان ولم يذكر بقية الأبواب . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٧٠٣-٧٠٤ .

وهي تعكس نور الشمس على ما حولها من الجبال ، ثم أشار الى زقاق
اليهود قرب كنيسستهم التي تحتوي على جرس من رخام أسود
مزجج (٢٥) .

أما مدينة آمد فهي من أعظم مدن ديار بكر واجلّها قدرا
وأشهرها ذكرا وهي بلد حصين ركين مبني بالحجارة السود وفي
وسطها عيون وآبار (٢٦) .

أما وصفه للقري فيختلف عن ذلك فيقول عن القرية الكبيرة
بأعيناثا أن لها نهرا كبيرا يصب في دجلة وفيها بساتين كثيرة وهي من
أنزه المواضع (٢٧) .

وعن الفضيلية بأن لها نهرا جاريا وكروما وبساتين وبها سوق
وقيسارية وبازار (٢٨) ، وبأعشيقا لها نهر جار يسقي بساتينها (٢٩) ،
والمراوزة ، ذات بساتين ومياه جارية (٣٠) ويبدو أن القرية بهذا
الوصف الموجز ، إنما كانت تقتصر على البساتين وتوفر المياه
والارض المزروعة .

ويقدم المستوفي القزويني وصفا مفيدا يساعد على التمييز
بين حجم المدن الكبيرة والصغيرة والمتوسطة ، فقال أن سنجار يبلغ
محيطها ثلاثة آلاف ومائتي خطوة ، والانباز محيطها خمسة آلاف خطوة ،
وتكريت بأسدة متوسطة محيطها ستة آلاف ومائة خطوة وحربي

(٢٥) نفس المصدر السابق ص ٧٠٤ .

(٢٦) باقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٧٠٤ .

(٢٧) باقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٦٦ .

(٢٨) باقوت : نفس المرجع ج ٣ ص ٩٠٣ .

(٢٩) باقوت : نفس المرجع ج ١ ص ٤٧٢ .

(٣٠) باقوت : نفس المرجع ج ٤ ص ٤٨٠ .

متوسطة الحجم ومثل ذلك عانة والمحول . ولكن الموصل عاصمة الجزيرة وأكبر المدن فيها محيط سورها ثمانية آلاف خطوة (٣١) .

أما ابن شداد ، فقد وصف مدن الجزيرة الفراتية وصفا دقيقا ومنيدا في هذا السبيل ، يمكن أن يعيننا على ادراك طبيعتها من حيث حجمها وسعة البناء والمرافق والاسوار . فقال عن مدينة «حران» بأنها مبنية بالحجر والكلس ، متسعة الشوارع ولها سور منيع وربض صغير ، متصل بسور المدينة ، وقلعة كانت تسمى قديما «المدور» وللمدينة سبعة أبواب (٣٢) ، وتسعة حمامات (٣٣) . ومن المدن الشبيهة بحران مدينة حصن كيفا التي وصفها هذا المرجع بأن لها قصورا ودورا وأبرجة للسلطنة وغيرها مبنية بالحجر ، وفيها ميدان أخضر وجامع وأمامها أرض منخفضة ، فيها دور ومساكن وحوانيت معطلة لا يوجد فيها مساكن ولها ربض من جهة الشمال فيه الأسواق والحوانيت والمدارس والحمامات ولها سبعة أبواب يصعد إليها . وأضاف بأن لها ربض آخر يعرف بالقرية ينتهي الى ميدان وجوسق (٣٤) .

(٣١) Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Nuzhat Al-Qulub p. 34-53. 102-104.

(٣٢) باب الرقة وهو مسدود والباب الكبير وباب النيار وباب يزيد وباب الفدان والباب الصغير وباب السرور وباب الماء وكان مسدودا . ابن شداد : الاغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - مخطوطة قسم الجزيرة الورقة ١٣ب-١٤أ .

(٣٣) حمام الكنيسة وحمام الدليان وحمام الولي وحمام الشيخ وحمام الرئيس وحمام السباع وحمام باب الفدان وحمام علي وحمام الزكي وفي الخارج منها أربعة حمامات على الباب الكبير وحمامان على باب يزيد ، كما أن في المدينة حماما من البلاط . ابن شداد : نفس المرجع السابق - الورقة ٢٠ب-٢١أ .

(٣٤) ابن شداد : نفس المرجع الورقة ١٢٧أ - ١٢٧ب .

أما مدينة «ميفارقين» فلها أربعة أبواب (٣٥) وثلاث مدارس (٣٦) وثلاثة عشر حماما (٣٧) ، ومن المدن المدورة التي يذكرها ابن شداد مدينة «ارزن» وهي على تل ، عدة أبراجها خمسة وثلاثون برجاً وأمامها خندق عليه جسر مبني بالحجر المنحوت على قناطر ارتفاعها نحو مائتي ذراع ، وفي المدينة أسواق ومعاش ومدرسة وبیمارستان وأكثر أهل «ارزن» يصيفون على الشط (٣٨) . والمدينة الأخرى التي يحيط بها الخندق خارج أسوارها مدينة «ماردين» لها سور لا يرتفع كثيراً ، وفي الشمال منها (وادي الرحلة) تكثر فيه البساتين والجنات . وأضاف بأن مدينة ماردين مبنية على الجبل كالدرج بعضه دون بعض وهي مشرفة على البلد ، ولسور المدينة ستة أبواب (٣٩) ، وفي وسط المدينة ساحة مسورة أنشئت فيها الجواسق والبساتين فسمى هذا الوضع «البونة» أي : الفردوس (٤٠) .

ثم يصف مدينة «الرها» فيقول عنها بأنها تتصل بمدينة «حران» لها سور من الحجر ، تحيط بها الأشجار والبساتين ولها

(٣٥) وهي باب المحدثه والباب الجديد وباب الروض وباب الهوة ، ولها بابان مسدودان ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٦٩ .

(٣٦) مدرسة الحنفية ومدرسة الحنابلة ومدرسة الشافعية ، ويقول إن فيها مائتي مسجد ، انظر ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٧١ .

(٣٧) وهي حمامات : القاضي وسعيد والعقبة والحطابين والأزج والحمام الجديد وخزيمه ، وبالمحدثه خارج البلد حمامان وبالربض حمامان ، حنباض وجوزة .

ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٧١ .

(٣٨) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٨ ب .

(٣٩) باب السور وهو مفتوح والباب الجديد مفتوح أيضاً وباب الزيتون مغلق وباب الخماره مغلق ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٠ .

(٤٠) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٠ ب .

ثلاثة أبواب (٤١)، ولا يعني اتصال المدينتين ببعضهما من حيث امتداد حجم العمران وسعة البناء ، إنما المقصود هو اتصال القرى والمناطق المزروعة بكلتا المدينتين .

وبعض المدن لها سوران ، مثل مدينة آمد ، كان أحدهما أكبر من الآخر. وكلاهما عريضان ، بحيث تمشي عليهما خمسة أفراس ، وهو مبني بحجر أسود مانع ، أصلب من الحديد (٤٢) ، كما أن للمدينة خمسة أبواب (٤٣) ، وكذلك مدينة سنجار التي كان لها سوران، أحدهما أعلى من الآخر وكل منهما مبني بالحجر والجص (٤٤) .

أما مدينة «رأس العين» فكانت طواحينها وأرجاؤها ، قد ركبت على سورها (٢٥) وذلك لضخامته وعلوه ، حيث ان هذه الطواحين ينبغي نصبها في الأماكن العالية لتحركها الرياح .

ومن المدن الحديثة في القرن السادس الهجري ، مدينة جزيرة ابن عمر المسورة التي تحيط بها دجلة من ثلاثة جوانب ، وفيها ثمانون مسجداً وبیمارستان واربعة عشر حماماً وثلاثون بستاناً (٤٦) .

(٤١) هي : باب حران وباب اقساس وباب شاع . وكان أكثر سكانها من النصارى وبها لهم ما يناهز ثلثمائة بيعة ودير .

أنظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة - مخطوطة ، قسم الجزيرة - الورقة ٢٧ أ .

(٤٢) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٦ أ .

(٤٣) وهي : باب أثيل وباب الماء وباب الفرج وباب الروم وباب وراء السور . ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٦ أ .

(٤٤) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٥ أ .

(٤٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٢ ب .

(٤٦) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٥٧ ب .

التخصص الوظيفي للمدن :

أشار ابن خلدون الى الاختلاف بين المدن ، من حيث اتساع العمران ، فقسمها الى أنواع ثلاثة ، المدن الصغيرة والمتوسطة والمدن الكبيرة ، وخص كلا منها ببعض الخصائص التي يفتقدها النوع الثاني من هذه المدن ، فقصر أسباب المعيشة التي كانت تقتضيها الحياة ولوازمها على المدن الصغيرة والمتوسطة (٤٧) ، أما عن الامصار والمدن الكبيرة ، فقد خصها بصنائع الترف وأحواله لانها «مدن مستبصرة في العمارة» و «أخذة في عوائد الترف والحضارة» وأمثلة هذه الصنائع ، الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح وغيرها ، كما ذكر ان المدن اذا استكملت أسباب الحضارة والترف ، انتشرت فيها صنائع المدن الكبيرة (٤٨) .

وهذه الفروق التي يشير اليها ابن خلدون هي ، في الواقع ، اختصاص كل مدينة وتميزها ببعضها عن بعض ، فاذا استعرضنا مدن الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، نلمس مثل هذا الاختلاف بينها ، ولكن لا يوجد تخصص وظيفي واحد لمعظم هذه المدن ، وذلك حسب مفهوم التخصص الحديث الذي يعني قيام المدينة بنوع من الانتاج الزراعي أو الصناعي أو تقديمها نوعا متميزا من الخدمات العامة ، سواء على النطاق التجاري أو بسبب وقوعها على طرق المواصلات ، فقد كانت الموصل وأربل وآمد وماردين ، مراكز ادارية لامارات الجزيرة التي كان يقطن فيها

(٤٧) وذكر «أن أعمال مصر يستدعي بعضها بعضا كما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الاعمال ، يختص ببعض أهل مصر ، فيقومون عليه ويستبصرونه فيه ورزقهم منه ، والحاجة اليه وما لا يستدعي في مصر يكون غفلا اذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة العاش ، فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها «ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ١ (طبعة بولاق) ص ٣١٥ .

(٤٨) ابن خلدون : نفس المرجع السابق ص ٣١٥ .

الامير وحاشيته ، ولكن حياة هذه المدن ، لم تكن تقوم على الادارة وحدها ، كما لم تكن هناك مدن صناعية بالمعنى الحديث، حيث تكون الصناعة المصدر الاول والوحيد لحياة السكان ، ولكن عددا من المدن ، كانت تشتهر بصناعة أو باخرى ، كشهرة الموصل بالنسيج الحريري الفاخر المسمى «موسلين» وصناعة الاواني النحاسية المطعمة (٤٩) ، وشهرة ملطية بصناعة غزول الصوف (٥٠) ، ومدينة (معرين) بعمل البسط المعرينية (٥١) ، كما اشتهرت مدينة «وان» بصناعة البسط (٥٢) أيضا ومدينة (باقداري) التي تصنع فيها الثياب القطنية الغليظة ، حيث كان أهل بغداد يضربون بها المثل (٥٣) * ويشير صاحب الكتاب الموسوم ب (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة) الى وجود محلة للعمال الجصاصين في الموصل يبدو أنها قريبة من الباب المسمى بالاسم نفسه (٥٤) ومحلة الطبالين التي يذكرها ابن الاثير (٥٥) .

والحقيقة أن أهم سمات مدن الجزيرة الفراتية آنذاك التجارة ، أي أن المدن كانت مراكز تسويق للريف المحيط بها أو لمنطقة كبيرة واسعة ، كما هو الامر بالنسبة للموصل التي قال عنها ابن حوقل أنها فرضة لاذربيجان وأرمينية والعراق والشام (٥٦) ،

(٤٩) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض في الطول والعرض ص ٩٠ .

(٥٠) وذكر انه كان بها اثنا عشر ألف نول تعمل الصوف على عهد بني ارتق .
انظر مخطوطة عجائب البلدان والجبال والاحجار وغير ذلك لمؤلفها علي بن عيسى المتوفي سنة ٨٧٣ هـ (وهي نسخة وحيدة في العالم في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب في جامعة بغداد رقم (١٤) الورقة ٧٤-٧٥ .

(٥١) ياقوت : كتاب المشترك وضعا والمفترق ص ٤٠١-٤٠٢ .

(٥٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٨٩٥ .

(٥٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٥ ، ثم انظر فصل الصناعة .

(٥٤) الحوادث الجامعة ص ٣٤٧ .

(٥٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٥ .

وبالنسبة الى مدينة «بالس» المشهورة بالتجارة الاغنياء (٥٧) ومدينة «خلاط» المشهورة بأغنياء التجار (٥٨) أيضا .

وكانت جميع مدن الجزيرة الفراتية مسورة ، وأسوارها مبنية من الاحجار الصلدة البيضاء أو السوداء ذات الاحجام الكبيرة ، يشير ناصر خسرو الى مدينة «ميافارقسين» المحاطة بسور عظيم من الحجر الابيض الذي يزن الحجر منه خمسمائة من «كما كان للمدن قلاع خاصة بها وهذا ما كانت تقتضيه ضرورة تأمين سلامة السكان والدفاع عنهم ، في عهود تميزت بعدم الاستقرار والقلق السياسي والتعرض لغارات الامراء المتنازعين أو البدو أو الغزاة من الاجانب» (٦٠) .

فالواصل لها سوران ، خرب بعضها وأربل لها قلعة على تل عال داخل السور (٦١) وعانة لها قلعة حصينة و «تكريت» لها قلعة حصينة تقع على نهر دجلة ومدينتها محاطة بسور (٦٢) و «ماردين» قلعة على قمة الجبل (٦٣) و «حران» لها سور منيع وقلعة (٦٤) و «رأس العين» لها سور (٦٥) ومدينة «جزيرة ابن عمر» مسورة (٦٦) و «آمد» لها سوران

(٥٧) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص ٨٩ .

(٥٨) ابن سعيد المغربي : نفس المرجع السابق ص ١٠٤ وقال عنها أيضا «انها كشرة الملاهي والساخر» .

(٥٩) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٨ .

(٦٠) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول ص ١٦٦ .

(٦١) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٨٥-٤١٣ .

(٦٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ١١٥-١٨٤ .

(٦٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الورقة ١٣٠ أ .

(٦٤) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٣ ب-١٤ أ .

(٦٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٢ ب .

(٦٦) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ٥٧ ب .

عريضان (٦٧) و «الرها» لها سور (٦٨) ، و «سنيجار» لها قلعتان (٦٩) .
ولا بد من القول أن قلب المدينة ومحورها الذي تدور عليه ضم
مؤسستين مهمتين ، هما المسجد والسوق - شأنها في ذلك شأن سائر
المدن الإسلامية خلال القرن السادس الهجري (٧٠) ، فالموصل لها ربض
في وسطها ، وفيه المساجد والأسواق (٧١) .

وذكر صاحب مراصد الاطلاع «أن في داخل سور مدينة الموصل
جامعين أحدهما وسط السوق ، جديد والآخر عتيق» (٧٣) وفي أربل
أسواق وجامع للصلاة في قلعتها (٧٣) ، و«باعشيقا» لها سوق كبير فيه
حمامات وقيسارية وجامع كبير حسن له منارة (٧٤) ، ومدينة «حران»
لها أسواق حافلة الانتظام مسقفة كلها بالخشب ويتصل بهذه
الأسواق جامعها المكرم وهو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن وله
صحن كبير (٧٥) ، وزاد قوله «ان من حسن بناء هذا الجامع وحسن
ترتيب أسواقه المتصلة به يمثل مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل
انتظامه» (٧٦) .

ويكشف هذا التلازم بين المسجد والسوق عن الترابط بين
الجانبين الروحي والمادي في حياة السكان ، كما يرى الدكتور جعفر
خصيباك ، فالمسجد ضروري لاهل السوق والسوق يزود رواد المسجد
بما يحتاجونه من لوازم العبادة (٧٧) وغيرها .

-
- (٦٧) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٦ أ .
(٦٨) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٢٧ أ .
(٦٩) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٥ أ .
(٧٠) أنظر جعفر خصيباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٦٦ .
(٧١) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ .
(٧٢) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٧٣ .
(٧٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٨٦ .
(٧٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٢ .
(٧٥) رحلة ابن جبير ص ٢٢٠-٢٢١ .
(٧٦) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢٢١ .
(٧٧) جعفر خصيباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١١٦ .

ونجد في كثير من مدن الجزيرة الفراتية ، في هذه الفترة قيسارية (٧٨) وهي سوق مغلقة مداخلها خلال الليل ، وتحفظ فيها البضائع الثمينة * فأشار ابن جبير الى قيسارية الموصل فوصفها «كأنها الخان العظيم تنفلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت» (٧٩) * وفي مدينة السلامية قيسارية للبز وجامع ومنازة (٨٠) ، وفي «باعشيقا» قيسارية يباع فيها البز (٨١) ، كما أشار ابن جبير أيضا الى وجود ما أسماه (البازار) في بعض مدن الجزيرة (٨٢) وهو سوق يجتمع فيه الناس للبيع والشراء عن طريق المزايدات العلنية لأثمان السلع والبضائع في أيام معلومة (٨٣) *

وينتظم كل أصحاب حرفة معينة في زقاق واحد ، أو في محلة واحدة أو أكثر كما تقوم دكاكين وأسواق صغيرة في المحلات البعيدة عن قلب المدينة *

ويلاحظ ذلك بصورة خاصة في المدن الكبيرة مثل الموصل وأربل وميافارقين وآمد وحصن كيفا وماردين ، ففي الموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والأسواق وفي طرفها (سوق الخيل) وفي رأسه جامع * وفي شرقي المدينة ميدان وجوسق (٨٥) *

(٧٨) وجمعها قياسر ، مجموعة من المباني العامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن وفي بعضها مساجد ويعلوها رباع ذات مساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر * انظر الدكتور محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٦٠ (نقلا عن المقرئزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ٢/٨٦-٩١) *

(٧٩) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ *

(٨٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١١٣ *

(٨١) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٢ *

(٨٢) رحلة ابن جبير ص ٢١٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩٠٣ ، ج ٤ ص ٤١٨ *

(٨٣) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢١٧ *

(٨٤) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ *

(٨٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة الورقة ١٧١ *

وفي قلعة مدينة أربل التي هي في طرف من المدينة ربيض فيه أسواق وقيساريات (٨٦) .

وتكثر الإشارة الى الحمامات (٨٧) في مدن الجزيرة الفراتية ، فيذكر ابن جبير الحمامات في ربيض الموصل (٨٨) ، كما يذكر ياقوت أن في مدينة السلامية عدة حمامات (٨٩) وأن في «باعشيقا» سوق كبير فيه حمامات (٩٠) . ويعدد ابن شداد الحمامات في مدينة «حران» ، فيذكر خمسة عشر حماما (٩١) وفي مدينة جزيرة ابن عمر أربعة عشر حماما (٩٢) وثلاثة عشر في مدينة ميفارقين (٩٣) وأربعة في مدينة حصن كيفا (٩٤) .

ولم تكن هناك خطة واضحة لبناء المدن في هذه الفترة ، فتبدو المدينة وكأنها مجموعة غير منتظمة من الأزقة والدروب الضيقة مثل مدينة الموصل (٩٥) وهذا يؤمن في الواقع السيطرة على مداخلها من الاخطار المتأتية من سطو اللصوص ويحمي سكانها من قساوة:

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٨٦ .

(٨٧) ومما جاء في وصف حمام لاحدى المدن ، انه كان حماما جميلا واسع القباب . وقد كانوا يتخذون الحمام مكانا لشرب الخمر والاكل والقصف بسر ويلهم الخضر وغلائلهم الحريرية ومازرهم التي يأتزرون بها ، ويبدو ان القيان كن يقمن حفلات الغناء في داخل الحمامات ، وقال أحد الشعراء في وصفه :

كأنما قباب من سقفه صحن من البلور مكبوب

انظر : فيصل السامر : الحمدانيون في الموصل ٢/٢٧٧ .

(٨٨) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ .

(٨٩) ياقوت : معجم البلدان ٣/١١٣ .

(٩٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ١/٣٧٢ .

(٩١) انظر ص ٤٦ .

(٩٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة الورقة ٥٨ أ .

(٩٣) انظر ص ٤٧ .

(٩٤) ابن شداد : الاعلاق الورقة ١٢٧ أ - ١٢٧ ب .

(٩٥) ياقوت : معجم البلدان ٢/٤٤٨ ، ٤/٣١٥ .

المناخ كالبرد في الشتاء والحر في الصيف • كما أنها مناسبة في عهد كانت الدواب أهم وسائل النقل داخل المدن وخارجها •

ب - القبائل العربية :

أن مجموعات القبائل التي كانت تعيش في الجزيرة الفراتية أكثرها بدوي في طبيعته ، وهي دائم التنقل وراء الماء والكلاً ، وغالباً ما تجتذبه ثروة المدن وحضارتها ، فيسعى اليها للحصول على ما فيها من الزاد والمتاع وبتوالي القرون يندمج في سكانها وأحياناً يغير عليها إذا أحس بضعف الحكومات المسيطرة عليها •

ومن الجدير بالذكر ، أن الصبغة البدوية التي احتفظت بها مجموعات كبيرة من هذه القبائل - تجعل من الصعوبة تحديد ديار كل منها بدقة لأنها قد تتغير من عهد لآخر ، خصوصاً وأنها ظلت مرتبطة بقبائل جزيرة العرب وأطرافها بعلاقات الدم والقرباة والجوار ، فضلاً عن العلاقات الاجتماعية والسياسية ، حتى يمكن اعتبار الجزء الشمالي من جزيرة العرب الممتد من الحجاز غرباً إلى الأحساء ، والبحرين شرقاً ، ومن بادية الشام إلى الجزيرة الفراتية والعراق شمالاً (٩٦) ، دياراً واحدة تنتقل فيها قبائل عديدة كبيرة ، يعيش فرع منها في الحجاز وآخر في الجزيرة الفراتية والعراق وغيره في بادية الشام ، وكانت العوامل الاقتصادية والسياسية هي التي تحركها ، كأوضاع الحكومات ومناطق الرعي أو خفارة الطرق ورعاة الدجاج •

وقد قدم ياقوت معلومات تتعلق بتوزيع القبائل العربية وتجمعيهم وأحوالهم في أرض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، فأوضح تخطيط هذه البلاد بحسب ديارات القبائل

(٩٦) انظر : جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٨٦ •

الثلاث (٩٧) ، فيقول عن ديار بكر بأنها «بلاد كبيرة واسعة تنسب الى بكر بن وايل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وأضاف الى ان حدودها «ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين» أما ديار ربيعة فيذكر أنها بين الموصل الى رأس العين ، وزاد قوله أنه ربما «جمع بين ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ديار ربيعة لانهم كلهم ربيعة وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الاسلام» (٩٨) «أما ديار مضر فهي ما كان في السهل بالقرب من شرقي الفرات نحو منطقة حران والرقعة وشمشاط وسروج» (٩٩) فيما يقول أبو الفداء ، «ان الجزيرة تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر وبعض ديار بكر» (١٠٠) .

ومن الجدير بالاشارة ان ما ذكره ياقوت حول القبائل العربية في الجزيرة الفراتية هو تأكيد لما جاء عند البلاذري في القرن الثالث الهجري عنها ، وما ورد عند الهمداني والاصطخري وابن حوقل والمقدسي في القرن الرابع الهجري عنها أيضا . فأول اشارة لاسكان القبائل العربية في الجزيرة الفراتية في العهد الاسلامي أوردتها البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) فقد ذكر أن طليعة عياض بن غنم

(٩٧) من امراء القبائل العربية في ديار ربيعة يذكر الفارقي :

أ - الامير ابراهيم بن قريش بن المقلد .

ب - حسين بن نصرالدولة بن مروان .

ومن امراء ديار بكر :

أ - الامير ابراهيم صاحب آمد .

ب - سكمان بن ارتق .

ج - السبع الاحمر وهو من اسعرد .

د - الامير شاروخ .

هـ - حسام الدين (التاريخ ص ٢٣٣) .

(٩٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٣٦ .

(٩٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٦٣٦ .

(١٠٠) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٢٤ .

انتهت الى الرقة فاغاروا على حاضر كان حولها ، وأضاف بأن
سنجار كانت في أيدي الروم ، فسار عياض من خلاط الى الجزيرة
ففتحتها صلحا واسكنها قوما من العرب وقال أيضا «لما ولي معاوية
الجزيرة لعثمان ، أمر أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن
والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي لا حق فيها لاحد ، فأنزل
بني تميم الرايية وأنزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد
وغيرهم وفعل ذلك مع جميع ديار مضر ورتب ربيعة في ديارهم على
ذلك والزم المدن والقرى بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء» (١٠١) .

وتعتبر اشارات البلدانين في القرن الرابع الهجري، الى تحديد
مواطن وديارات القبائل العربية ، حيث ظلت على حالها اذ ذاك ،
أساسا لمواطنها ودياراتها خلال القرن السادس الهجري ، فيشير
الهمداني الى غرب الفرات من بلاد الجزيرة حيث تقيم قبيلة كلب ،
وفي شرقه ، ديار مضر ، ومن مدنها ، الرافقة ويسكنها اخلاط
مضر ، وحران التي استوطنها بنو تميم ، ومن يخالط من بني سليم،
والرها لبني سليم ومربعا والخابور لبني عقيل وبني مالك وبني
حبيب ويطون تغلب ، ومن مدن ديار مضر ، رأس العين للنمر بن
قاسط (١٠٢) وأضاف قوله «ان ديار ربيعة وما خلفها أولها وآخر ديار
مضر رأس العين ، ثم كفر توثا ، لجشم ثم دارين ونصيبين وهي دار
آل حمدان بن حمدون موالي تغلب . أما جبل سنجار ، فهو جبل
شراة بني تغلب ، والشراة منها بنو زهير وبنو عمرو ، ومن رحبة
مالك بن طوق وقرقيسياء ثم ترجع الى أذرمة وبرقعيد وهي ديار
عبد ، من تغلب ، وأكثر أهل الموصل (١٠٣) مذحج ، وهي ربيعة وان

- (١٠١) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٣٧-٢٤٤-٢٤٥ .
(١٠٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٣٢ .
(١٠٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٢٩ (ويذكر ان استيطان العرب في
الموصل ، كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب) .
انظر : الفصل الاول ص ١٢ هامش رقم (٣) .

تيامننت من الموصل تريد بغداد ، وهو أول حدود ديار بكر ، وهو لبني شيبان وذويها ولا يخالطهم الى ناحية خراسان الا الاكراد» (١٠٤) أما الاصطخري ، فيذكر ان الجزيرة ، ما بين دجلة والفرات ، تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر (١٠٥) ولم يذكر ديار بكر . ولكن ابن حوقل يقول ديار مضر ، فهي من هذه الجزيرة ، قائمة حدودها ، وكذلك ديار بكر وديار ربيعة ، تعرف كل ناحية من المجاورة لها بأوصافها واقطارها وحدودها ومدنها (١٠٦) وقال عن الموصل «بأن أهلها عرب ولهم بها خطط وأكثرهم ناقلة الكوفة والبصرة» (١٠٧) . وأضاف قوله «بأنهم أهل مروعة ظاهرة كبني فهد وبني عمران من وجوه الازد واشراف اليمن وبني شخاج وبني أود وبني زبيد وبني الجارود وبني أبي خداش والصداميين والعمريين وبني هاشم وغيرهم» (١٠٨) وعن برقعيد ، قال : يسكنها بنو حبيب وهم قوم من تغلب ومن سنخ وبني حمدان (١٠٩) ، وعن رأس العين «فيسكنها العرب ولهم بها خطط ، وهم ناقلة ، من الموصل أصلهم» (١١٠) . وقسم المقدسي اقليم الجزيرة الفراتية ، على بطون العرب «لتعرف ديارهم وغيرها وجعلها ، ثلاث كور على عدة بطونهم ، أولها من العراق ، ديار ربيعة ثم ديار مضر ثم ديار بكر أربع نواح» (١١١) .

وخلال القرن السادس الهجري ، تقدم النصوص التي جاءت عند ياقوت وأبي النداء ، صورة فيها شيء من الوضوح عن القبائل العربية وديرة كل منها وهي تؤكد ما جاء عنها في القرن الرابع الهجري ، فقد استوالت القبائل الرئيسة الثلاث ، وهي قبائل

-
- (١٠٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٣٣ .
 - (١٠٥) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧١ .
 - (١٠٦) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٣ .
 - (١٠٧) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٥ .
 - (١٠٨) ابن حوقل : نفس المرجع ص ١٩٥ .
 - (١٠٩) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٢٠٠ .
 - (١١١) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٣٧ .

ربيعية ومضر وبكر ، داخل رؤوس مثلث يضم سطح الجزيرة الفراتية ، فكانت ديار بكر تكون رأس هذا المثلث في أقصى الشمال الشرقي حيث نزلت في سقي دجلة من منبعه حتى منعطفه عندما يغير اتجاهه ، من اتجاه غربي شرقي الى الاتجاه الجنوبي الشرقي ، وقد افادت بطون هذه القبائل وتفرعاتها من روافد نهر دجلة الكثيرة وتشعباتها ، فبنت لها المستوطنات من القرى (١١٢) وانتشرت جنوبا حتى أسفل مدينة (تل فافان) وكانت عاصمتها آمد التي تقع في الجهة الغربية لنهر الفرات في الشمال الغربي لمدينة (ميفارقين) وتحيطها المياه من جهات ثلاث وأهم مدنها «ارزن» و «ميفارقين» و «قلعة جعبر» و «الرحبة» و «حصن كيفا» (١١٣) .

أما اذا اتجهنا الى الجنوب الغربي ، فنجد قبائل مضر حيث تتمثل في أكثر جهات الجزيرة تطرفا نحو الغرب ، وتشمل الاراضي المحاذية لنهر الفرات شمال مدينة سميساط حتى مدينة عانة ، وتستغل هذه القبائل نهر البليخ الذي يأتي من «حاران» ويصب فيه قرب مدينة الرقة التي كانت تعتبر عاصمة مدنها . ومن أهم مدن هذه الديار الرها وحران وبالس والرافقة وسروج (١١٤) .

وتمثل قبائل ربيعة ، المناطق التي تقع في شرقي نهر الخابور الكبير الذي يغذي نهر الفرات والذي ينحدر من مدينة رأس العين والاراضي التي تقع في شرقي نهر الهرماس ، وهو النهر الذي كان يمد نهر الخابور بالمياه . لقد استوطنت هذه القبائل أيضا ، المناطق

(١١٢) كي لسترنيج : بلدان الخلافة الثانية ص ١١٥ «وكانت ديار بكر هي سقي دجلة من منبعه الى منعطفه العظيم في الجنوب ، وكانت ديار مضر الى الجنوب الغربي أو هي المناطق المحاذية للفرات من سميساط الى عانة ، أما ديار ربيعة ، فقد كانت في شرق ديار مضر ، وتتألف من المناطق التي تقع في شرق الخابور الكبير المنحدر من رأس العين ومن الاراضي التي في شرق الهرماس وهو النهر الذي يصب في نهر الثرثار نحو الشرق الى دجلة» .

(١١٣) ابوالفدا : تقويم البلدان ص ٢٧٧-٢٧٩ .

(١١٤) ابوالفدا : نفس المرجع السابق ص ٢٧٨-٢٧٩ .

المتددة على ضفتي نهر دجلة من مدينة (تل فافان) وهي حدود ديارات بكر حتى مدينة تكريت ، أي الجهات التي تقع غرب دجلة ، حتى مدينة نصيبين ، وتعتبر هذه الرقعة من سطح الجزيرة الفراتية ، أكثر أقسامها أهمية ، حيث تتوسط السهل الرسوبي وتشرف على موارد مائية عظيمة في دجلة والفرات وفيها العاصمة الموصل بالإضافة الى المدن المهمة مثل رأس العين وماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر وتكريت وبرقعيد(١١٥) . وكانت للقبائل العربية الثلاث المشار اليها ، فروع وبطون وعشائر تتحرك بين منطقة الجزيرة الفراتية والمناطق المجاورة أو البعيدة وقد استقر قسم منها وظل القسم الآخر متنقلا . وهذه الصورة عن استيطان القبائل العربية في أرض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، هي نفسها التي رسمها لنا جغرافيو ومؤرخو القرن الرابع الهجري ، يقول الهمداني أن ديرة بكر بن وائل تمتد من اليمامة الى البحرين الى أطراف سواد العراق من الأبلسة الى هيت(١١٦) . ويخطط الاصطخري ديرة قبائل أسد بأنها ما بين القادسية ، الى الشقوق في الطول ، ومن السماوة الى حد بادية البصرة عرضا ، ويضيف الى ذلك ، أن بادية الجزيرة فيها أحياء من ربيعة واليمن وأكثرهم كلب اليمن(١١٧) وقال أيضا : «ان من الجبل شرقا الى الخط الممتد بين العلت الى الدسكرة الى واسط غربا مزارع يغلب عليها الاكراد والاعراب»(١١٨) . وذكر ابن حوقل «أن بالقرب من سنجار بين شمالها وغربها ، واديا يسكنه قوم من قشير ونمير وعقيل وكلاب(١١٩) ، وان

-
- (١١٥) . ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٧٢-٢٧٨-٢٨٠ ، ج١ ص ٥٧١ ، أبو الفدا : نفس المرجع السابق ص ٢٧٩-٢٨٠ .
 (١١٦) . الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٦٩ .
 (١١٧) . الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٧ .
 (١١٨) . الاصطخري : نفس المرجع السابق ص ٧٦ .
 (١١٩) . ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٩ .

بين الزاين الاعلى والاسفل مراعي صارت مشاتي للاكراد الهذبانية
ومصائف لبني شيبان» (١٢٠) .

١ - القبائل القحطانية والقبائل العدنانية في أرض الجزيرة الفراتية :

ان القبائل العربية ، أما قحطانية أو عدنانية ، فاهم قبائل
الجزيرة الفراتية القحطانية في القرن السادس الهجري ، هي آل
ربيعة من طي بن كهلان وهي جماعات كثيرة أهمها ، آل فضل ولهم
ديرة في مدينة قلعة جعبر ونواحيها ثم على سقي الفرات الى أطراف
المراق . ومن قبيلة طي من القحطانية أيضا قبيلة زبيد وديرتها ،
منطقة سنجار ومن طي كذلك غزية (١٢١) وسنيس وبنولام وآل بشار
من ربيعة من القحطانية ومنطقتهم بالقرب من سنجار (١٢٢) ، وبنو
معروف وهم فرع من ربيعة يستوطنون غربي الفرات من الجزيرة
الفراتية (١٢٣) .

وأهم القبائل العدنانية في هذه الفترة ، هم بنو عقيل وأسد
ونان كل منهما يتكون من فروع عديدة ، فأهم فروع عقيل ، بنو
الفرات وبنو خفاجة وكانت هذه القبائل تتنقل ما بين دجلة
والفرات (١٢٤) ، أما أسد فأهم فروعها بنو خالد ، وهم متفرقون في

(١٢٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(١٢١) وغزية ، بطون عديدة منهم قبيلة البطين وأفخاذها آل دعيج وآل ربيع وآل
سرية وآل تميم وآل شرود . ومن بطونها أيضا الأجود وأفخاذها آل منيع
وآل سنيد وآل منال وآل ابي حزم وآل علي وآل عقيل وآل مسافر وأولاد
الكافرة ومساعدة بني جميل وآل ابي مالك .

(١٢٢) جعفر خصباك : نفس المرجع ص ١٧٠ .

(١٢٣) الغساني : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك
(تحقيق شاكر محمود عبد المنعم) ص ٢٨٨ .

(١٢٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦١)
ج ٣ ص ٢٣ .

الشام والحجاز وبغداد وفيما بين العراق والحجاز (١٢٥) * وأشار
ياقوت الى قبيلتين ، هما بنو حلوان وبنو عوف وقال بأنهما من
قضاة وقد تفرقت في سائر البلدان ومنها الى أطراف الجزيرة
الفراتية «وخالطوا قراها وكثروا بها وغلبوا على طائفة منها» ،
وأضاف بأنهم «هزموا أعاجم الجزيرة فأصابوا فيهم» (١٢٦) *

تأثير القبائل العربية في أحوال الجزيرة الفراتية :

كان تأثير القبائل العربية في الجزيرة الفراتية ، يتجلى في امداد
هذه البلاد بالسكان العرب الذين ساعدوا على تعريبها وتغليب
الثقافة الاسلامية فيها ، بعد أن حملت هذه القبائل الاسلام اليها *
ثم أنها كونت المادة الاساسية لسكان المدن كالموصل وأربل ونصيبين
وميفارقين وآمد والركة وغيرها وتغلغلت في الريف والقرى وزودت
المدن والقرى ومناطق الاستيطان الاخرى بالنفوس ، فسدت بذلك
جزءاً من الفراغ ، الذي كان يحصل من النقص الذي كانت تعانيه
نتيجة انتشار الاوبئة والامراض أو الهجرة أو الحروب *

* (١٢٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ٢١٥ *

* (١٢٦) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٧٢ *

الفصل الثالث

المسلمون وأهل الكتاب ودور

عبادتهم

- ١ - المسلمون •
- ٢ - المسيحيون •
- ٣ - اليهود •
- ٤ - المساجد والكنائس •

الفصل الثالث

المسلمون وأهل الكتاب

ودور عبادتهم

المسلمون :

لا شك في ان الفتوحات العربية للجزيرة الفراتية في أوائل القرن الاول الهجري، وضعت بداية لتأريخ انتشار الإسلام في هذه البلاد وأقامت أساساً متيناً له في تحدي الوثنية^(١) التي ظلت على ما يبدو لفترة طويلة تطبع تلك البلاد بطابعها ، على الرغم من وجود

(١) أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٩٢هـ / ٨٠٧م) كتاب الخراج (مصر - ١٣٠٢هـ) ص ٧٥ ، البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) فتوح البلدان (القاهرة - ١٩٠١) ص ١٧٨ ، أما المجوسية فيذكر ماري بن سليمان ، بأن ملوك الفرس كان يغلبونها على المسيحية ، مما يشير الى وجودها في هذه البلاد (اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجلد) ص ٣ ، ٢١-٢٩ انظر أيضا المطران ادى شيز ، تاريخ كلدو جا ص ١٦٠ ولكن المقدسي ينفي وجود المجوس في الجزيرة بقوله : «وليس به مجوس» احسن التقاسيم ص ١٤٢ .

التصاري (٢) واليهود (٣) والصابئة من أهل الكتاب (٤) ، الذين لم يغيروا من الواقع المتمثل بالهيمنة الوثنية وذلك بالوقوف ضدها أو الحد من تأثيراتها أو انتشارها وتوسعها *

ويمكن القول ، ان هذه السيادة التي وضع أساسها العرب المسلمون في بلاد الجزيرة الفراتية ايان الفتوحات ، جعلت المقدسي يؤكد بعد ثلاثة قرون من ارسائها ، ان هذه البلاد هي « ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم » (٥) ، لذلك أوجدوا لهم فيها قواعد ثابتة ومدناً وحواضر لعبت دوراً مهماً في تأريخ المشرق *

وعلى الرغم من ان بعض القبائل العربية كانت قد استوطنت الجزيرة الفراتية قبل ظهور الاسلام حيث هاجروا من موطنهم الجزيرة العربية واستقروا فيها (٦) ، ولكن معظم القبائل العربية قد تدفقت اليها بعد توطد الاسلام فيها (٧) ، فأصبح المسلمون يؤلفون الغالبية العظمى من سكانها في العصور التالية (٨) ، وغدا التقسيم الديني لسكان الجزيرة الفراتية بناء على ذلك يقوم على أساس وجود المسلمين الى جانب المسيحيين واليهود والصابئة ، وكانت

-
- (٢) البلاذري ، المصدر السابق ص ٣٢٧ .
(٣) المقدسي ، المصدر السابق ص ١٢١-١٢٣ ، التطيلي ، الرحلة (بغداد ١٩٤٥) ص ١٩٧ .
(٤) ان بعض صائبة الجزيرة وثنيون وخاصة صائبة حران وبعضهم أهل كتاب (انظر محمد جاسم حمادي ، الجزيرة الفراتية والموصل ، بغداد - ١٩٧٧) ص ١٨٩-١٩٤ .
(٥) المصدر السابق ص ١٣٦ .
(٦) انظر : محمد جاسم حمادي ، الجزيرة الفراتية والموصل (بغداد ١٩٧٧) ص ١٤٧-١٥٤ « يذكر عوامل هجرتها هي خراب سد مأرب والعامل الاقتصادي الذي يتلخص بالبحث عن الاراضي الزراعية والعامل الديني المتمثل بالفتوحات الاسلامية (المصدر نفسه ص ١٥٥-١٥٩) .
(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٢ ويقول ابن شداد ، ان الجزيرة «فتحت على يد عياض بن غنم بن زهير» سنة ١٧هـ ، الاعلاق الخطرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ج ٣ ق ١ (تحقيق يحيى عباره - دمشق - ١٩٧٨) ص ٧-٨ .

مناطق توزيعهم واضحة الى حد ما في القرن السادس الهجري ، وهي الصورة نفسها التي كانت عليها خلال القرن الرابع الهجري *

وتذكر لنا المصادر ان الخلفاء العباسيين كانوا يؤكدون على ضرورة التسامح مع الرعايا من أهل الذمة من النصارى وغيرهم ، فقد وفق الخليفة المهدي سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م بين النصارى والمسلمين عند زيارته للموصل وأرضى الجميع^(٩) ؛ وفي ولاية عبدالله ابن طاهر من قبل العباسيين رفض هذا الوالي هدم كنائس النصارى^(١٠) .

ويورد الباحث محمد جاسم حمادي ملاحظاته عن الشواهد التاريخية التي تظهر تمتع النصارى بقسط وافر من الحرية والتسامح الديني في ظل الحكم الاسلامي في الجزيرة الفراتية^(١١) .

على ان بعض القبائل العربية من نصارى الجزيرة ومنهم بنو تغلب أعلنوا استيائهم من الجزيرة فارتحلوا من أرض الجزيرة الشراتية وكانوا نحواً من أربعين ألفاً^(١٢) ، لكن الدولة الاسلامية اتخذت على ما يبدو اجراءات من شأنها الحيلولة دون هجرة القبائل العربية التي كانت على النصرانية الى بلاد الروم أو أرمينيا الا من كان على الاسلام^(١٣) .

-
- (٨). البلاذري ، المصدر نفسه ص ١٨٢ ، ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى (القاهرة - ١٩٥٩) ص ١١-٢١٧ .
- (٩). الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٤٧-١٤٨ ، الأزدي تاريخ الموصل (تحقيق د. علي حبيبة ، القاهرة - ١٩٦٧) ص ٣٤٣-٣٤٤ .
- (١٠). ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١ ص ٢٥ .
- (١١). الجزيرة الفراتية والموصل ص ١٨٦ .
- (١٢). البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٥-١٨٦ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ١٧٦ .
- (١٣). البلاذري ، المصدر السابق ص ١٨٦ .

ومعروف ان التأثير الذي تركه العرب المسلمون في الجزيرة
الفراتية وخاصة فيما يتعلق بنشر الاسلام فيها ، كان كبيرا لدرجة
ان القبائل العربية التي كانت مستقرة هناك استجابت للدين الجديد
ودخلت في حضيرة الدولة الاسلامية ، فيذكر البلاذري «ان عياضا
ومن معه من المسلمين افتتح الجزيرة ومدائنها صلحا وارضها
عنوة» (١٤) *

وقد لعب الاكراد المسلمون دوراً مهماً في الفتوحات الاسلامية
وساندوا العرب في فتح الكثير من المدن والمواقع سواء في العراق أو
في سورية (١٥) حيث تجند اغلبهم في الجيوش الاسلامية وأصبحوا
عناصر مهمة فيها *

ويبدو ان اشارة المسعودي التي ترجع أصل الاكراد الى العرب
حيث تنسبهم الى قبيلة ربيعة بن نزار وبعضهم الى قبيلة بكر بن
وائل (١٦) تجعلهم أكثر استجابة للعرب في اعتناق الدين الاسلامي
الذي جاءوا به الى بلاد الجزيرة الفراتية والانخراط تحت لواء
الدولة الاسلامية *

(١٤) فتوح البلدان ص ١٧٩ *

(١٥) الازدي ، تاريخ الموصل ص ٢٠٨-٢٠٩ *

(١٦) يقول ، ان الاكراد ينسبون الى ربيعة بن نزار ، أما الذين ينسبون الى بكر
ابن وائل فانهم تفرقوا على اثر الحروب التي خاضوها مع الاعاجم فصاروا
شعوبا وقبائل كثيرة *

كما يذكر في كتابه الاخر ، ان اجناس الاكراد من ربيعة بن نزار بن
معد بن عدنان بن بكر بن وائل ، كانوا قد سكنوا الجبال والادوية وصاروا
هناك أمما يقيمون في المدن والعمائر ، ومنهم يرى انهم من ولد كرد بن
مرد بن صعصعة بن هوازن أو من ربيعة ومضر استوطنوا المنطقة الجبلية
لاصابة الماء والكلا لما شيتهم وتركوا لغتهم العربية وتكلموا بلغات الامم
المجاورة (مروج الذهب ومعادن الجوهر - القاهرة - ١٩٥٨) ج ٢ ص ١٢٢
- ١٢٣ *

٣ - المسيحيون :

ان السياسة التي اتبعها العرب المسلمون في البلاد التي فتحوها ومنها بلاد الجزيرة الفراتية ، هي ترك أهل الذمة ومنهم المسيحيون (١٨) يمارسون طقوسهم الدينية وعاداتهم (١٩) ولغتهم (٢٠) والاكتفاء بأخذ الجزية منهم ، ومع ذلك ، فقد توطدت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، القائمة على التسامح والاحترام ، وعقدت بين الكثير منهم والمسلمين عرى الصداقة وشـارك بعضهم بـقيـة السـكان في الادارة والوظائف فتولى الوقف في مدينة ميفارقين رجل نصراني (ابن شليطا) سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م حيث كانت له جهود في أعمار المدينة (٢١) ، كما لقي محترفو الطب منهم ترحيبا عند الامراء

(١٧) ظهرت المسيحية في بلاد الجزيرة الفراتية في القرن الاول الهجري ولكن ملوك الفرس اضطهدوها في القرون التالية وارادوا تغليب المجوسية عليها، غير انها مع ذلك صارت دين أكثرية السكان بسبب الحماس الديني الذي كان يتحل به رؤساؤها والجامع الكنيسة التي كان يعقدها البطارقة (ماري بن سليمان ، اخبار بطارقة كرسي المشرق من كتاب المجلد ص ٣ ، ٢٩-٢١ .

(١٨) أحس أساقفة الكلدان بالخطر من جراء ظهور الدعوة الأيوسية (مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح) في أوائل القرن الرابع الميلادي وقاوموه فعقدوا مجمعا في بيت لابطاط في ٨٤٤م واعتنقوا المذهب النسطوري (اتباع نسطوريوس) ما عدا تكريت التي تمسكت بمذهب الطبيعة الواحدة ثم تحولت في القرن السادس الميلادي الى المذهب اليعقوبي (نسبة الى يعقوب البرادعي) الذي هو فرع من فروع مذهب الطبقة الواحدة .

(١٩) ذكر ابن تغري بردي : أنه عند افتتاح زنكي بن آق سنقر الاتابكي لمدينة الرها ٥٣٩ هـ كتب أمانا الى النصارى . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٥) .

(٢٠) كانت لغة المسيحيين هي الكلدانية ، وكان يطلق عليها الآرامية وقد دخلت في صراع مع اللغة العربية في القرن السابع الميلادي وهو عصر الفتوحات الإسلامية حيث تغلبت اللغة العربية في نهاية الامر فأصبحت بالتدريج لغة المسيحيين عموما .

(٢١) الفاروقى : التاريخ ص ١٦٤-١٦٥ ، وقال بأنه شرع بعمل القناة من رأس العين وادخلها في البلد وانتفع الناس بها كثيرا .

الاتابكيين ومن أطبائهم ابن أبي البقاء بن ابراهيم النيلي ، المعروف بأبن العطار (٢٢) ، الذي طلب من بغداد وأرسل الى الموصل لكي يشرف على علاج الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وقد وصف بأنه كان خبيراً بالعلاج (٢٣) ، وحسنون النصراني الرهاوي الطبيب وكان يتنقل بين الرها وآمد وميافارقين بصناعته وتوفي في الرها ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م (٢٤) . ومن أطباء حران المسيحيين يونس الحراني الذي دخل بلاد الاندلس (٢٥) ، وفي مدينة رأس العين ظهر الطبيب المسيحي تقي الدين الرأس عيني المعروف بابن الخطاب الذي حصل على اقطاعات جزيلة وقد خدم الملوك بزي جميل وأمر صالح وغللمان وخدم (٢٦) ، أما الطبيب الرحبي المسيحي من أهل الرحبة فكان من حذاق الاطباء (٢٧) وقد تعاظمي التجارة وحصل منها على أموال كثيرة (٢٨) . والى جانب ذلك فان كثيراً من أهل الذمة من كان من أرباب الحرف من العطارين والمخلطين والكسارين ومنهم الصاغة والجهايزة والصيارفة وبعضهم المال والجاه والمكاسب الجليلة (٢٩) .

وعلى الرغم من تناقص المسيحيين بعد الفتوح الاسلامية في بلاد الجزيرة الفراتية فقد ظل عددهم كبيراً الى أواسط القرن السادس الهجري ، بدليل كثرة أسماء المدن التي كانت تقوم فيها مراكز

-
- (٢٢) انظر ترجمته عند القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٣٢ .
(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٢٤) القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧٧ .
(٢٥) القفطي : نفس المرجع السابق ص ٣٩٤ .
(٢٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٤ .
(٢٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٤٠٢-٤٠٣ .
(٢٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٧ .
(٢٩) ورد ذلك في رسالة كتبها أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان مدرس الطائفة الشافعية في المدرسة المستنصرية الى الخليفة الناصر لدين الله .
انظر الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٦٣-٦٩ .

تلمطارنة والاساقفة ، مثل الموصل والبوازيج وحزة وحلوان
وتكريت والانبار وهيت وباجزمي وماذرايا (٣٠) .

وكانت أكبر مناطق تجمع للمسيحيين ، هي القرى المنتشرة في
منطقة الموصل مثل باعشيقا وكرمليس وقرقوش وشقلاوة وبيت
سحرايا وجدال وبرطلى ، ولكن المدن الثلاث الاخيرة كانت تشتمل
على أقلية من المسلمين (٣١) .

وكانت مدينة أربل وما يحيط بها، منطقة أخرى لتجمعهم (٣٢)،
كما أن أكثرية تكريت من المسيحيين (٣٣) ، وذكر ابن الاثير سنة
٥٤١ هـ / ١١٤٦ م «ان عامة أهل الرها كانوا من الأرمن» (٣٤) .

ونستدل على تجمع المسيحيين في بلاد الجزيرة الفراتية خلال
القرن السادس الهجري في ما ورد من أخبار كثيرة عن الاديرة (٣٥)
التي كانت قائمة فيها منذ القرن الرابع الهجري فهناك عدد من
الاديرة منها «دير مريحنا» الى جانب تكريت ، وهو دير كبير، عامر،
كثير القلايات (٣٦) و «دير قني» وفيه مائة قلابة وحول كل قلابة ،
بستان فيه الثمار والنخل والزيتون وتباع غلته بمائتي دينار (٣٧)

(٣٠) ماري بن سليمان : اخبار بطارقة كرسي المشرق من كتاب المجلد ص ٨٥
- ١٥٩ .

(٣١) : ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤-٣٨٥ ، ابن عبدالحق : مراصد
الاطلاع ج ١ ص ٣١٦ ، ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (ترجمة اسحق
ارملة السرياني) مجلة المشرق سنة ٥٠ ص ١٤١-١٤٤ .

(٣٢) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني ص ٣٩٤ .

(٣٤) ابن الاثير : الباهر ص ٨٦ ، الكامل ج ١ ص ١١٤ .

(٣٥) الدير ، بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون في مصر الاعظم ، وانما
يكون في الصحارى ورؤوس الجبال ، فان كان في مصر أصبح «كنيسة» أو
«بيعة» .

(٣٦) القلابة = الصومعة التي ينفرد فيها الراهب (الشابشتي : الديارات
ص ١٠٩) .

(٣٧) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

و «دير برقوما» بميفارقين «تنذر له النذور وتحمل من كل موضع» (٣٨) و «دير العجاج» بين تكريت وهيت ، وهو عامر كثير الرهبان (٣٩) و «دير عمر الزعفران» ويعده الشابشتي من أجل ديارات الجزيرة الفراتية في شرق ماردين - وقد صار هذا الدير كرسيًا للبطاركة منذ سنة ٢٩٣م قانجب واحدًا وعشرين (بتلريخا) وتسعه (مطارنة) ومائة وعشرة (أساقفة) (٤٠) .

و(دير ما سرجيس) في مدينة عانة على الفرات وهو دير كبير حسن كثير الرهبان والناس يقصدونه من هيت وغيرها (٤١) .

وذكر ياقوت عددا من الديارات في مواضع كثيرة من بلاد الجزيرة الفراتية أهمها (دير ابي يوسف) فوق الموصل وهو دير كبير فيه رهبان على شاطيء دجلة (٤٢) و (دير احويشا) كبير جدا فيه أربعمائة راهب في قلل ويقع بالقرب من اسعرد ومطل على أرزن (٤٣) و(دير برصوما) وهو قرب ملطية وفيه رهبان كثيرون (٤٤) و (دير سعيد) بغربي الموصل حسن البناء واسع الفناء وحوله قلالي كثيرة للرهبان (٤٥) و (دير العذارى) بين الموصل وباجرمي من أعمال الرقة وهو دير عظيم قديم وبه نساء عذارى قد ترهبين وأقمن فيه للعبادة (٤٦) . و(دير قنسري) على نهر الفرات من الجانب الشرقي في ديار مضر وهو دير كبير فيه ثلثمائة وسبعون راهبا (٤٧) و (دير

-
- (٣٨) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٩٧ .
 (٣٩) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٩٩ .
 (٤٠) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٩٩ .
 (٤١) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٤٧ .
 (٤٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٤١ .
 (٤٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٤٦ .
 (٤٥) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٦٩ .
 (٤٦) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٧٨-٦٧٩ .
 (٤٧) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٨٨ .

البقيارة) وهو لليعقوبية (٤٨)، بالقرب من الموصل في الجانب الغربي من أعمال الحديث (٤٩)، ومن الدير الاخرى التي يذكرها (دير مرتوما) بالقرب من ميفارقين وهو معظم عند النصارى (٥٠)، و (دير مريحننا) الى جانب تكريت على دجلة «وهو كبير عامر كثير القلايات والرهبان وله غلات ومزارع وهو للنساطرة» (٥١) .

ويؤكد ابن فضل الله العمري أن الدير هي أكبر تجمع للمسيحيين خلال فترة القرن السادس الهجري ، وأشار الى (دير الكلب) الذي يجتمع اليه خلق من النصارى نساء ورجال للاقامة فيه (٥٢) و (دير الزعفران) قرب معلثايا وهو كثير الرهبان والقلاي (٥٣)، ويبدو ان قرية الصالحية ذات القصور والدور التي تقع الى جانب (دير زكي) بالقرب من نهر البليخ الذي ذكره هذا المصدر ، كانت قرية مسيحية .

ومن الدير الاخرى ، (دير باربيثا) الذي كان له عند النصارى قدر جليل و (دير مريحننا) وهو عامر بالقلايات والرهبان و (دير

(٤٨) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٨٩ .

(٤٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٩٧ .

كان أكثرية نصارى بلاد الرافدين وبلاد الجزيرة من النساطرة مع أقلية من اليعقوبيين وكانت المدائن عاصمة البلاد المذكورة وهي قاعدة الرئيس الأعلى ، وعند انشاء بغداد انتقل اليها ولكن المدائن ظلت مركزا روحيا لهم (ماري ابن سليمان : اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ١١٩) .

(٥٠) ياقوت : نفس المرجع ص ٧٠١ ، ان الرئيس الديني الأعلى عند الكلدان النساطرة ، أيام الساسانيين يسمى «الجاثليق» وهو لفظ يوناني معناه العام ، ويقابله «البطريك»

انظر : ماري سليمان : اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ١١٩ .

(٥١) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ج ١ ص ٢٥٤ .

(٥٢) ابن فضل الله العمري : نفس المرجع السابق ص ٢٥٥ (القلاي جمع قلاية) .

(٥٣) ابن فضل الله العمري : نفس المرجع السابق ص ٢٦٥ ، وقال الشاعر :

قصور الصالحية كالعذارى لبسن حليهن ليوم عرس
تقنعها الرباض بكل نور وتضحكها مطالع كل شمس

سعيد) مطل على نهر دجلة بالقرب من الموصل وحوله قلال كثيرة
حسنة العمارة ظاهرة النضارة و (دير متي) يشرف على رستاق
نينوى بالموصل وهو حسن البناء وجيد الحصانة واكثر بيوته
منقورة في الصخر وله عدة ابواب مترطة في الكبر وكلها من حديد.
مصممت و (دير القيارة) وهو فوق (دير باعربا) على جانب دجلة
الغربي (٥٤) .

كان الجاثليق ، وهو الرئيس الديني للمسيحيين النساطرة ،
يقوم بتعيين ونقل الاساقفة (٥٥) والمطارنة في جميع البلاد التابعة له
التي كانت في أواخر القرن الخامس الهجري تشمل سورية وفلسطين
ومصر وايران والصين (٥٦) ، وكان يكتب له عهد من الخليفة
العباسي بجعل سلطته رسمية على رعيته ، كما يجري ذلك بالنسبة
لبطريق اليعاقة ، حيث يعين بعهد خاص من الخليفة أيضا . وكان
يمثل بلاد الرافدين والجزيرة الفراتية مطران الموصل وآثور
ومطران أربل وحزه ومطران حلوان ومطران باجرمي ومطران
البصرة ، وهم خمسة من بين سبعة يشتركون في انتخاب الجاثليق ،

(٥٤) ابن فضل الله العمري : نفس المرجع السابق ص ٢٨٩-٢٩٩-٣٠٠-٣٠١ .
٣٠٢-٣٠٥-٣٠٧-٣٠٩ .

(٥٥) وهم رؤساء الدين عند النصارى ومرتبتهم فوق القسس ودون المطارنة
واللفظة يونانية الاصل (Episcopos)
انظر الشابشتي : الديارات ص ١٥٢ .

(٥٦) ماري بن سليمان : اخبار بطاركة كرسى المشرق ص ١٢٤-١٢٦ .

(٥٧) عمرو بن متي : اخبار بطاركة كرسى المشرق من كتاب المجلد ص ١٢٦ .
انظر : أيضا : (Marco Polo, P. 29)

وجعفر خصبك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ، ص ١٨٦ .

(٥٨) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني «مجلة المشرق» مجلد ٥٠ لسنة ١٩٥٦
ص ١٤١ ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٣ .

(٥٩) واصلاها آرامي «مفريونو» "Mafryoho" ويراد بها درجة كنسية بين
البطريارك والاسقف .

وكان لكل من هؤلاء المطارنة عدد من الاساقفة يخضعون لرئاسته يتراوح عددهم بين الستة الى الاثني عشر اسقفا (٥٧) .

اما النصارى اليعقوبيون وهم الاقلية المسيحية فيمثلهم، مطران الرها ومطران تكريت ، وهم اثنان من بين خمسة يشتركون في انتخاب البطريق وكان النصارى في الموصل أو في مدن الجزيرة الفراتية الاخرى خلال القرن السادس الهجري - يلعبون دورا مهما في الحياة السياسية وقد ذكر ابن العبري ، ان نصارى الموصل ، كانوا يمتلكون الثروات والاموال (٥٨) . الوفيرة ، وكان الامراء يرضون عليهم مقادير كبيرة من الاموال مقابل ترشيح رؤسائهم الجدد لمناصبهم الدينية . فعندما عين اغناطيوس داود مغريانا (٥٩) لكنيسة برطلي (٦٠) سنة ٦١٣هـ / ١٢١٥م عارض امير الموصل في منحه التأييد وأوعز الى رئيس القرية والرئيس الديني السابق شمعون بمقاومته (٦١) ، ويعزو ابن العبري سبب اقدام امير الموصل على الايقاع بينهما الى قلة الاموال التي قرر اغناطيوس داود تقديمها له (٦٢) ، كما أشار الى أن أمير الموصل كان قد حصل كذلك على مبلغ عشرين ألف دينار ، بذلها له اشراف تكريت المقيمون في الموصل ، بغية توسطه لدى أمير تكريت باخراج المغريان اغناطيوس داود من سجن تكريت (٦٣) .

(60) Assyrie Chretienne Tome 11. P. 420-421, Mossoul Chretienne, By. J. Fiey.

(٦١) ابن العبري : التاريخ الكنسي (البيعي) وهو النص السرياني «الترجمة اللاتينية» ابيلوس ولامي مجلد ص ٣٩٤ .

(٦٢) ابن العبري : نفس المرجع السابق ص ٣٩٤ .

(٦٣) ابن العبري : نفس المرجع ص ٣٩٤ ، ذكره ابن الاثير باسم (حبس تكريت) الكامل ج ١١ ص ٢١٦ .

وكان النصارى الذين يؤلفون الاغلبية الساحقة من أهل قرية «باجبارة» وهي شرقي الموصل ، يعانون هم أيضا من وطأة بدرالدين لؤلؤ وتضييقه عليهم بطلب الاموال فأخذوا يميلون الى مظفرالدين كوكبري صاحب أربل



كما تركز المسيحيون وخاصة اليعاقبة الذين يعدون أكبر طائفة مسيحية في منطقة ديار بكر التي كانت تنتشر فيها الامارات الارثوذكسية ، وأهم المدن التي تركزوا فيها هي ماردين والرها وسروج . أما المسيحيون من الارمن الكاثوليك فيتركزون في مدن أرزن وحرزم وخرتبرت (٦٤) . وكان يقطن في أرزن وحدها اثنا عشر ألف مسيحي من الارمن (٦٥) . أما جبل جور وما يرتبط به من قلاع وكذلك قريتا العقاب والجسر القريبتان من دنيسر فكانت مناطق أهلة بالنصارى الارمن (٦٦) .

وكان الاراراتقة قد عاملوا رعاياهم من المسيحيين معاملة طيبة ، وتسامحوا معهم (٦٧) ، ومن مظاهر ذلك ، الرعاية التي كان يلقاها الشاعر المسيحي خالد بن محضر النصراني المارديني الملقب بالوحيد المتوفى ٦٠٠ هـ ، الذي كان قد نشأ وترعرع في بلاد الاراراتقة ، وخاصة من الامير قطب الدين ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين (٦٨) ونتيجة لذلك ، فقد استطاع هؤلاء المسيحيون ان

ويراسلونه بالانضمام الى امارته ، غير ان صاحب الموصل حرض مؤيديه على الهجوم على هذه القرية وتخريبها وقتل أكثر سكانها وتشريدتهم . انظر: بولس بهنام (مقالته في مجلة لسان المشرق - السنة الاولى ١٩٤٩ - المجلد (١) وعنوانها «قدي نصرانية») . هذا ومن الجهة الاخرى فقد ذكر الفارقي ، ان الامير فخر الدولة صاحب ميافارقين قد سمح للنصارى في هذه الفترة ، باقامة (دير عباد) مقابل تقديم ثلاثين ألف دينار أرمانوسية ، كما أمر بتهديم أحد الاديرة واتخاذها مسجدا ، فقدم النصارى له مبلغ خمسين ألف دينار (التاريخ ص ٢٢٠-٢٢٢) .

(٦٤) رحلة ابن جسر ص ٢٢٠-٢٢١ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ٦٥ ب ، ٩٥ أ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ح ٨ قسم ٢ ص ٦٧٠ .

(٦٥) البديليسي : شرفنامه ص ١٧٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٥-٢٠٦ .

(٦٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠ .

(٦٧) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤١-١٤٢ .

(٦٨) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤١-١٤٢ .

يحافظوا على نشاطهم في منطقة ديار بكر الارتقية فأقاموا تنظيماتهم الدينية الكنيسة ولا سيما المسيحيين اليعاقبة منهم ، فأسسوا لهم بترياركية ، حيث غدت ماردين مقرا للابرشية وذلك في أواسط القرن السادس الهجري ، وأصبح ماريوحنا مطرانا على ماردين ، وقد استمرت هذه الابرشية حتى نهاية القرن السابع الهجري حيث نشبت الخلافات الدينية بين الطوائف المسيحية .

وشهد دير الزعفران في ماردين عددا من المجامع العامة التي اتخذت فيها قرارات مهمة وسنت قوانين كنسية عديدة ، وأهم تلك المجامع : المجمع الاول الذي عقده سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م يوحنا الرابع ، مطران ماردين ، وجمدت خلاله القوانين الرسولية ، ثم وضعوا أربعين قانونا في الاسرار الدينية والوعظ والتعليم السريانية (١٦١) وانشاء الملاجيء للشقراء والغرباء (٧٠) . والمجمع الثاني ٥٦٢ هـ / ١٩٦٦ م وقد استمر سنة واحدة ، وكان قد عقده البطريرك ميخائيل الاول حيث سن تسعة وعشرين قانونا ، أما المجمع الرابع فقد عقد سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م برئاسة ميخائيل الاول أيضا ووضع ستة وثلاثين قانونا دينيا (٧١) .

(٦٩) ويلاحظ اسهام المؤسسات الدينية الكنسية في ازدهار الحركة الثقافية خلال هذه الفترة في منطقة ديار بكر ، حيث ألف النصارى ، الكتب واستنسخوها وجمعوها ، وأسسوا المكتبات وأنشأوا المعاهد الدينية ، التي احتوت على الكتب المقدسة وكتب الدين والمنطق واللاهوت والفلسفة والهيئة والكتب الادبية والتاريخية والعلمية ، وأهم تلك المكتبات ، مكتبة دير الزعفران . هذا فضلا عن المناقشات الدينية التي كانت تقوم بين كبار العلماء واللاهوتيين ، مما أتاح تأليف الكتب الجدلية واللاهوتية وعقد المجامع الثقافية . راجع عن نشاط رجال الدين المسيحيين في الحركة العلمية في ديار بكر : برصوم : نزهة الازهان في تاريخ دير الزعفران (المطبعة السريانية) ماردين : ١٩١٧ ص ٤٥-١٦٩ .

(٧٠) برصوم : المصدر السابق ص ١٣٠-١٣٣ .

(٧١) برصوم : نفس المرجع السابق ص ١٦٤-١٦٩ .

٣ - اليهود (٧٢) :

هيات الفتوحات الاسلامية لليهود ، في القرن السابع الميلادي الفرصة للعمل والثقافة والتسامح ، وقد انتفع اليهود من هذا المحيط انتفاعا كبيرا ، فازدادوا عددا وأهمية ، ليس في منطقة العراق والجزيرة الفراتية فحسب ، بل في ايران وفلسطين ومصر . وفي العهد العباسي ، كان التسامح الذي تميز به الخلفاء ، قد جعل اليهود مثل غيرهم ، يتمتعون بدرجة كبيرة من الاستقرار والطمأنينة والازدهار ، وقد استمر ذلك حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث بدأت عهود عدم الاستقرار التي تخللتها الحروب والفوضى والأوبئة ، فتركت أثرها على السكان جميعا من حيث تحديد مناطق تجمعهم أو محلات سكناهم ، اذ لم يسع الحكام المسلمون الى إجبار السكان أو الفئات على التجمع في مناطق أو شوارع أو محلات معينة ، ولكن التشابه العنصري أو اللغوي أو

٧٢) كان استيلاء الملك الآشوري ، سرجون على مدينة السامرة في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، وقضاؤه على مملكة اسرائيل ، بداية لتاريخ اليهود في العراق وبلاد الجزيرة الفراتية ، حيث نقل هذا الملك ، طائفة من اليهود الى أعالي الفرات والقرى القريبة من موقع مدينة الموصل . كما أن حادثة «الاسر البابلي» في الربع الاول من القرن السادس قبل الميلاد كانت أهم ما حدث في التاريخ اليهودي في هذه المنطقة ، فقد افتتح ملك الكلدانيين نبوخذ نصر مدينة القدس وخربها ونقل من أهلها حوالي الأربعين ألفا ، أسكنهم في بابل . وفي عام (٥٣٨ قبل الميلاد) بدأ عهد يهودي جديد فقد احتل كورش ملك الفرس الاخمينيين ، بلاد بابل ، حيث تمتع اليهود بالحرية والسماح لهم بالعودة الى فلسطين ، وبتشجيع الملوك الساسانيين خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، ترك قسم من اليهود ، فلسطين وهاجروا الى العراق وأعالي الفرات فازداد عددهم ونمت ثروتهم .

انظر : المصدر نفسه ص ١٧٠-١٧١ .

وأنظر أيضا : جعفر خصبك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص

١٩٧ .

الديني أو الاجتماعي كان يحمل في كثير من الاحيان بعض الفئات
ومنهم اليهود على التجمع في مناطق أو في مدن أو في محلات معينة (٧٣) .

كان اليهود ينتشرون في مدن وقرى عديدة من بلاد الجزيرة
الفراتية ، فقد ذكر ابن الفقيه وجود محلة لليهود في مدينة الموصل
حيث مصرّت ابناء الفتوح الاسلامية (٧٤) ولكن المسلمين لم يجبروا
اليهود على تركها ، فمكثوا فيها خلال القرن السادس الهجري وبعده
وأشار الشابشتي الى وجود اليهود في مدينة الموصل ، بدليل قيامهم
بأعمال ضد الشعائر الدينية المسيحية (٧٥) .

ويذكر ياقوت في القرن السادس الهجري وجود اليهود في مدينة
ميفارقين حيث يتجمعون في زقاق سمي باسمهم بالقرب من كنيسة
اليهود «التي فيها جرس من رخام أسود فيه منطقة زجاج» (٧٦) .

وزار الرحالة اليهودي بنيامين بن يونة التطيلي الاندلسي ،
بلاد الجزيرة الفراتية بين (٥٦١-٥٦٩ هـ / ١١٦٥-١١٧٣ م) وقدم
أحصائية عن سكانها اليهود ، يبدو ان فيها شي من المبالغة ، فقال عن
الموصل ، أن فيها سبعمائة يهودي (٧٧) والرحبة يقيم فيها نحو ألفي
يهودي على رأسهم «الربيون» (٧٨) حزقيا واهود واسحق (٧٩) ، وان في

(٧٣) جعفر خصباك : نفس المرجع السابق ص ١٩٨ .

(٧٤) ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ١٢٩ .

(٧٥) الشابشتي : الديارات ص ١١٦ .

(٧٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٠٤ .

(٧٧) رحلة بنيامين التطيلي (ترجمها عن العبرية وعلق على حواشيها عزرا حداد)
ص ١٢٧ ، ذكر من اعيان اليهود في الموصل زكاي بن سليمان وحسداي رأس
مشيئة اليهود وهو فلكي في بلاط سيف الدين غازي صاحب الموصل . كما
ذكر ان في الموصل كنيسة (عوبدية) من بناء النبي يونة بن امتاي وكنيسة
«ناحوم الألقوشي» .

(٧٨) ويسمى أيضا «الرابي» أو «الراب» : وهي لفظة عبرية ، تعني السيد أو
الاستاذ يلقب بها اليهود علماءهم ووجهاءهم . (رحلة بنيامين التطيلي)
ص ٤٨ هامش (٢) .

(٧٩) رحلة بنيامين التطيلي ص ١٢٨ .

قرقيسياء نحو خمسمائة يهودي منهم ، الربيان ، اسحق والحنان (٨٠) .
وفي مدينة الانبار ألفا يهودي ، بينهم العلماء والفقهاء (٨١) ، وفي
العمادية يقيم نحو خمسة وعشرون ألف يهودي - كما قال بأنهم
جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع من جبال خفتيان في
کردستان ويهودها من بقايا الجالية الاولى التي كان قد اسرها الملك
الآشوري شلمنصر ، وقال بأنهم يتفاهمون « بلسان الترجوم » أي
اللغة الآرامية الشرقية التي مازال يهود منطقة شمال العراق
يتكلمون بها الى الآن * وكان بينهم عدد من كبار العلماء (٨٢) .

وهناك نحو سبعمائة يهودي في مدينة الرقة على رأسهم الربيون.
زكاي ونديب البصير ويوسف ، وفيها كنيسة لهم يقال أنها من بناء
عزرا الكاتب « العزيز » (٨٣) * وفي مدينة قلعة جعبر يقيم نحو ألفي
يهودي وفي بالس عشرة يهود وفيها اطلال البرج الذي أقامه بلعم بن
باعور وفي حران نحو من عشرين يهوديا ولديهم كنيسة قديمة يقال
أنها من بناء عزرا الكاتب أيضا وفي خارج المدينة موقع يقال أنه
من اطلال (بيت تارح) والد ابراهيم الخليل ، وأضاف بأن المسلمين
كانوا يجلسون هذا المقام ويأمنونه للصلاة فيه (٨٤) * أما مدينة رأس
العين ففيها نحو مائتي يهودي * وقال عنها بأنها هي خابور الواردة
في التوراة عند نهر الخابور (٨٥) ، وفي نصيبين نحو ألفي يهودي ، وفي
جزيرة ابن عمر أربعة آلاف من اليهود ، وفيها كنيسة من بناء عزرا

-
- (٨٠) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .
(٨١) ومنهم الربيون « حين » و « موسى » و « الياقيم » وفيها كنيسة « ر » بستنائي
رأس الجالوت (نفس المرجع السابق ص ١٢٩) .
(٨٢) بنيامين التطيلي : نفس المرجع ص ١٥٤ .
(٨٣) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص ١٢٣ ، وقد شيدها عند مروره
بهذه المدينة قادما من بابل بطريقه الى القدس .
(٨٤) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٣-١٢٤ .
(٨٥) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص ١٢٥ ، الذي يأتيها من بلاد
مادي بعد اختلاطه بنهر غوزان (وهو النهر المعروف اليوم باسم سفيد رود
في شمال ايران) ومعناه النهر الابيض بالتركية .

الكاتب يزورونها في مواسم الاعياد لأقامة الصلاة ومن علمائهم
الربيون مبحر ويوسف ورحية (٨٦) .

ويذكر هذا الرحالة اليهودي ما كان قد حدث من الفتن قبل
عشر سنوات أي في ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م تقريبا، في مدينة العمادية بين
العالم اليهودي داود بن الروحي الذي كان قد تلقى علومه في بغداد
عن العالم اليهودي حسداي رأس الجالوت الذي تزلّع بالتوراة
والفقه والتلمود وسائر العلوم وبرع بلغة المسلمين وآدابهم ونبغ
بفنون السحر والشعوذة وبين السلطان السلجوقي ، فقد دخل في
ربوع هذا العالم اليهودي أن يعلن العصيان على السلاجقة وأمرائهم
ويجمع حوله اليهود القاطنين في جبال حبتون في كردستان ويقا تل
النصارى المتمكنين على أورشليم والاستيلاء عليها وطردهم منها ،
فشرع ينشر دعوته بين اليهود ويدعمها بالبراهين التي قال عنها
بأنها باطلة . غير أن السلطان السلجوقي طلبه اليه «فأمنت به جماعة
من بسطاء اليهود وحسبوه المسيح المنتظر» (٨٧) . وتدل هذه الحادثة
على تركيز اليهود في منطقة الجزيرة الفراتية وعلى ما كانوا يتمتعون
به من الحرية والثقافة والتسامح وعلى تأثيرهم في الحياة العامة في
هذه الفترة .

ومن الجدير بالذكر ان المراجع العربية المعاصرة والمتوفرة
لدينا ، لا تشير الى وجود مثل هذا العدد من اليهود ، ولكن هناك من
الاخبار ما يؤكد كونهم منتشرين فعلا في كثير من بقاع بلاد الجزيرة
الفراتية بأعداد ليست كبيرة ، يشير ابن الاثير الى استيلاء الديبسي،
وهو أحد الامراء على دار شخص يهودي في مدينة جزيرة ابن عمر
«فاستغاث اليهودي بعماد الدين زنكي فنهاء عن ذلك وعنفه» (٨٨) .

(٨٦) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص ١٢٥-١٢٦ .

(٨٧) بنيامين التطيلي : نفس المرجع ص ١٥٤ .

(٨٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٧٦ .

ويذكر ياقوت «أن هاطري» وهي قرية دون تكريت وأسفل،
منها ، كان أكثر أهلها اليهود (٨٩) ، وكان أهل الذمة في الموصل ،
النصارى واليهود يقرأون على أبي الفتح ، كمال الدين بن يونس ،
التوراة والانجيل ، ويشرح لهما هذين الكتابين شرحا يعترفون
«أنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله» (٩٠) .

ومما يدل على استمرار الوجود اليهودي في أرض الجزيرة
الفراتية من القرن السادس الهجري حتى القرن السابع ، الاشارات
التي وردت عند ابن خلكان واليونياني وابن تغري بردي ، يشير
الاول الى وصول الخليفة الذي كان قد أرسله الظاهر بيبرس
البندقداري ملك مصر ، بجيش لاسترداد مملكة العباسيين في بغداد.
بعد سقوطها بيد المغول ، الى مدينة هيت وهي من مدن الجزيرة
حيث اغلق أهلها الباب دونه ، فحاصرها ثم احتلها «ونهب من فيها
من اليهود والنصارى» (٩١) ، كما ذكر اليونياني ، أن الشيخ عز الدين
الحسن بن محمد بن نجا الغنوي ، الاربلي ، وكان أصله من قرية
«أقسا» من أعمال نصيبين ، قد أقام بأربل في عهد أميرها مظفر الدين
كوكبري الذي حكم حتى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م ، فكان يتردد عليه
«من السنة والشيعة واليهود والنصارى والسامرة وغيرهم» (٩٢) وذكر
أيضا ان «يهوديا دفن بقلعة جعبر مصاغا وذهبا وهرب بأهله الى
بلاد الشام» (٩٣) أما ابن تغري بردي ، فذكر ان في ٥٣٩هـ / ١١٤٤م.

(٨٩) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ٩٤٧ .

(٩٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٣٩٧ .

(٩١) اليونياني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٥٤ ، أنظر أيضا :

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١١٦ .

(٩٢) اليونياني : نفس المرجع السابق ص ٥٠١ .

(٩٣) وكان هذا اليهودي قد سأل الملك الظاهر بيبرس ان يسبر معه من
بحفر ويأخذه ويدفع لبيت المال نصفه فوجهه مع رجلين لقضاء غرضه ،
فلما وصل أخذ في الحفر ، واذا بطائفة من العرب على رأسه فسألوه عن



«حفروا أساسا عميقا في مدينة الرها ، فظهرت صخرة في هذا الأساس ، وكان مكتوبا عليها ، سطران بالسريانية ، «فجاء شيخ يهودي فحلها الى اللغة العربية» (٩٤) .

كان «رأس الجالوت» أو «رأس مشيئة اليهود» رئيسا ليهود بغداد والجزيرة الفراتية واليمن وبلاد اللام وسيبيريا والتركمان وجورجيا حتى تصل سلطته الى نهر جيحون وسمرقند والتبت ، وكان يشرف على تعيين رؤساء اليهود ، وهو يستمد سلطاته على رعيته من قبل الخليفة ، حيث يوجه اليه كتابا بهذا المعنى ، وينتقل سلطاته الى ذريته بالوراثة (٩٥) .

وقد أصبح ذلك قاعدة متبعة ، وخاصة خلال القرن السادس الهجري .

أما الاسلوب الذي كان يرتب فيه رئيس هذه الطائفة في منصبه ، فهو أن يجلس بين يدي قاضي القضاة ، ويتلو عليه الكتاب ، الذي يخوله السلطات على أهل ملته ، ثم بعد تلاوة هذا الكتاب ، يلبس طرخته ، في دهليز القاضي ، ويتوجه الى بيته ومعه.

حاله ، فأخبرهم فأرادوا قتله ، فأخرج لهم كتاب الملك الظاهر مطلقا الى من عساه يقف عليه ، فكفوا عنه وساعدوه حتى استخلص ماله ثم توجهوا به الى حماه وسلموه الى الملك المنصور وأخذوا خطة انهم سلموا اليهودي اليه سالما وما تبعه . اليونيني : نفس المرجع السابق ص ٢٥٣ .

(٩٤) وهذا السطران هما بيتان من الشعر في مدح الاتابك عماد الدين زنكي وهما :

أصبحت خلوا من بنى الاصفر اختال بالاعلام والمنبر
فظهر الرحب على انسي لولا ابن سنقر لم اظهر

(ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٥) .

(٩٥) رحلة بنيامين التطيلي ص ١٣١-١٣٨ .

جمع من اليهود واتباع الديوان (٩٦) وقد سأل عالي ابن زخريا اليهودي الاربلي ، الخليفة الناصر لدين الله العباسي أن يرتبه رأسا لمشيئة اليهود ، فأجيب الى ذلك «وشافهه الوزير ، وأرسله الى قاضي القضاة وتلي عليه الكتاب» (٩٧) .

وأما موارد رأس الجالوت ، فتتغير ، تبعا لتقلب الاحوال السياسية ففي القرنين الثالث والرابع الهجريين ، كان يتمتع بسلطة واسعة لفرض الضرائب على أهل دينه (٩٨) ، ولكن خلال القرن السادس الهجري ، حددت هذه الضرائب وأخذ بنظر الاعتبار حالة الافراد الذين يدفعونها ، وخاصة في بلاد الجزيرة الفراتية (٩٩) .

٤ - المساجد والكنائس :

المساجد هي دور عبادة المسلمين ، تقام فيها الصلاة ، وتمارس فيها الشعائر الدينية ، كما انها أصبحت في بعض الاحيان مؤسسات

(٩٦) أرسل دانيال بن شمويل من قبيل الوزير محمد بن احمد العلقي وزير الخليفة المستعصم بالله العباسي الى قاضي القضاة ، عبدالرحمن بن اللغمان ، فأجلسه بين يديه وقال له : «رتبتك ، زعيما على أهل ملتك ، ومن أهل دينك المنسوخ الذي نسخته الشريعة المحمدية لتأخذهم بحدود دينهم وتأمروهم بما أمروا به في شريعتهم وتنهاتهم عما نهوا عنه في شريعتهم وتفصل بينهم في وقائعهم وخصوماتهم بموجب شريعتهم والحمد لله على الاسلام» انظر : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٢١٨ .

(٩٧) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص ٢٤٨ .

(٩٨) وكانت الضرائب تؤخذ كما يلي : «درهما وثلاث الدرهم عن كل حيوان يذبح طبقا للطقوس الدينية ، وأربعة دراهم عن كل عقد زواج أو طلاق أو اجازة لبناء دار ورأس الجالوت كان مسؤولا عن رعاية أطفال اليهود غير الشرعيين» . انظر :

Baron, History of the Jews, vol. 11, P. 12.

(٩٩) Ibid., 111, P. 139.

تعليمية ، يتلقى فيها الناس علوم العصر ، ومراكز لالتقاء مختلف فئات المسلمين وطبقاتهم من أشدهم ، فقرأ الى أعظمهم ثروة ومكانة . كما اتخذت ملاجئ ودور عجزة يأوي اليها الفقراء والمعوزون والمتطلعون والجائعون والمرضى واليتامى ، فيصيبون فيها المأوى والطعام والكساء ، فضلا عن أنها كانت دور ضيافة ونداق ، يلجأ اليها الكثير من المسافرين والغرباء ، خصوصا من طلاب العلم والفقهاء والفقراء» (١٠٠) .

وكانت المساجد ، لا تخلو منها مدينة أو قرية في بلاد الجزيرة الفراتية، يشير ياقوت الى وجود المساجد والجوامع في مدن وقرى ومواقع الجزيرة ، وأحيانا يورد معلومات مفصلة عنها . كما وصف لنا ابن جبير ، أثناء مروره في هذه المدن والقرى في منتصف القرن السادس الهجري جوامعها ، قال عن مدينة الموصل ، ان فيها «جامع كبير في صحنه قبة ، داخلها سارية رخام قائمة وفي أعلاها بركة أو حوض رخام مئمنة ، يخرج منها انبوب من الماء فيرتفع في الهواء» (١٠١) وأضاف بأنه لم ير «أحفل من الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايمار في الموصل ، فقد كانت مقصورته ، يطيف بها شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب ، تشرف على نهر دجلة» (١٠٢) . ووصف الجامع في مدينة نصيبين وقال ان «له سقايتين حوله» (١٠٣) . أما مدينة حران فان أسواقها المسقفة تتصل بجامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد ، قد جاء على غاية من الحسن ، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب

(١٠٠) ويرى جعفر خصباك ان هذه المؤسسات كانت تقوم بدور يشبه ما تقوم به النوادي والصالونات والمقاهي في اشباع دافع حب الاجتماع عند الناس. والترفيه النفسي عنهم وتعريف بعضهم بمشاكل بعض ، وتكوين رأي عام في القضايا الدينية والسياسية وغيرها والتقليل من الفروق الطبقيّة بين السكان . (العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٢٣٣) .

(١٠١) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ .

(١٠٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٠ .

(١٠٣) نفس المرجع السابق ص ٢١٧ .

مرتفعة على سوار رخام وتحت كل قبة بئر عذبة وفي الصحن قبة رابعة عظيمة قد قامت على عشر سوار من الرخام طول كل سارية تسعة أشبار وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم طوله خمسة عشر شبرا (١٠٤) * وزاد قوله ان هذا الجامع المكرم قد سقف بجوانث (١٠٥) الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال بسعة البلاط وسعته خمس عشرة خطوة ، وما رأينا جامعا أوسع حنايا منه وجداره المتصل بالصحن الذي عليه المدخل له تسعة عشر بابا ، تسعة يمينا وتسعة شمالا والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب يمسك قوسه من أعلى الجدار الى أسفله بهي المنظر جميل الوضع كأنه من أبواب المدن الكبرى ، وخلص الى القول بأنه شاهد من حسن بناء هذا الجامع وحسن ترتيب أسواقه المتصلة مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن قبل انتظامه (١٠٦) *

وأشار الفارقي الى جامع مدينة ميفارقين الذي صنعت له باب من الصفر ويصف المنطقة التي يقع فيها هذا الجامع بأنها أنزه المواضع وأحسنها كما يوجد في قرية «باطري» القريبة من ميفارقين مسجد بنفس الحسن (١٠٧) *

أما المسجد في مدينة آمد فيشير اليه ناصر خسرو ، قال بأنه بني من الاعمدة على هيئة جملون ، وفي ساحة المسجد حوض كبير مستدير من الحجر ، وفي وسط الحوض أنبوبة نحاس يتفجر منها ماء صاف وفي المسجد ميضأة عظيمة جميلة الصنع بحيث لا يوجد أحسن منها (١٠٨) *

(١٠٤) ابن جبر : نفس المرجع ص ٢٢١ *

(١٠٥) جوائز الخشب ، الاخشاب المعترضة بين حائطين *

(١٠٦) ابن جبر : نفس المرجع السابق ص ٢٢١ *

(١٠٧) الفارقي : التاريخ ص ١٤١ *

(١٠٨) ويقول ان اكثر عمارات آمد بنيت من الحجر الاسود ، أما ميفارقين فمن الحجر الابيض لذلك سميت آمد (المدينة السوداء) وميفارقين (المدينة البيضاء) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٩ *

أما الكنائس ، فهي مؤسسات اتخذها أهل الذمة من النصارى واليهود يمارسون فيها طقوسهم وعاداتهم الدينية ، وقد أطلقت ، المراجع على كنائس المسيحيين في بلاد الجزيرة الفراتية اسم «البيع» جمع بيعة ، حيث ورد أن في «مدينة الموصل ثمان وخمسون بيعة للنصارى وست عشرة كنيسة لليهود» (١٠٩) .

ومن كنائس النصارى المهمة في منطقة الجزيرة الفراتية والتي كانت قائمة خلال القرن السادس الهجري ، (كنيسة الرها) «فليس في بلاد الاسلام كنيسة أعظم منها ، فقد كان لها مياه وبساتين كثيرة وزروع» (١١٠) وقد ذكرها المقدسي ، مما يدل على وجودها منذ القرن الرابع الهجري قال «انها كنيسة عجيبة بأزاج ملبسة بالفسيفساء وهي احدى عجائب الدنيا» (١١١) وقد استمرت على هذه الحالة في القرون التالية ووصفها أبو الفداء فقال بأنها «كنيسة عظيمة» (١١٢) . أما في مدينة آمد فيذكر ناصر خسرو «ان بالقرب من المسجد كنيسة عظيمة غنية بالزخارف مبنية كلها من الحجر وقد فرشت أرضها بالرخام المنقوش» ، وأضاف بأنه رأى فيها على الطارم وهو مكان العبادة عند النصارى ، «باباً من الحديد المشبك لم ير مثله في أي مكان» (١١٣) .

(١٠٩) ياسين خراطة العمري : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدياء ص ٦٦ ، الخطيب العمري : منهل الاولياء ج ١ من ٦٠ .

(١١٠) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٦ .

(١١١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٤٠ ، وقال عنها ابن الفقيه : ومن عجائب الجزيرة «كنيسة الرها» فالروم تقول ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرها ولا بناء بالخشب أبهى من «كنيسة منبج» لانها بطاقات من خشب العناب» مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٤ .

(١١٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٧ .

(١١٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠ .

وكانت الكنائس والاديرة والجوامع تقام أحيانا في أماكن وعرة لم تحط «بحصون مانعة» (١١٤) . كما ان هذه الكنائس قد تعددت في المدينة الواحدة فكان في مدينة الرها وحدها حوالي ثلثمائة كنيسة (١١٥) ، وكانت منطقة حصن كيفا تضم كنائس عديدة (١١٦) . ولم يرد في المراجع المتوفرة لدينا ، ما يفيد ، بأن الحكام المسلمين ، في امارات الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، كانوا يتعرضون الى حرية أهل الذمة فيما يتعلق بتشبيدهم للكنائس والاديرة والصوامع والبيع (١١٧) او معارضتهم للطقوس والشعائر التي كانت تمارس فيها .

-
- (١١٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٦٥ ب ، العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ياقوت ج ٢ ص ٦٩٧ .
(١١٥) ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب (مطبعة عثمان عبدالرزاق) القاهرة ١٣٠٦ هـ / ص ٢٦ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٧ .
(١١٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٤١ .
(١١٧) راجع حول الاديرة في المنطقة : برصوم : تاريخ دير الزعفران ، حيث يشير الى أسماء عدد من الاديرة والابرشيات والكنائس والبيع ، ثم راجع أيضا : Fiey (O.P.), *Assrie Chretienne*, Vol. 1, 11.

وقد ذكر ان الكنيسة الموجودة في قرية برطلي بالقرب من الموصل خلال القرن السادس الهجري ، كانت كنيسة خاصة للسريان الكاثوليك وعلى نمط كنيسة «مارزينا» في تكريت وتعتبر من الكنائس الكبرى للتكرادة :

Ibid, vol. 11, P. 421.

الفصل الرابع

الأحوال الصحية

- ١ - الأمراض وانتشارها •
- ٢ - البيمارستانات •
- ٣ - الأطباء •
- ٤ - الأدوية والعقاقير والعلاج •

الفصل الرابع

الأحوال الصحية

تعرضت بلاد الجزيرة الفراتية لهجمات من الأمراض الوبائية والمتوطنة * وكانت الأمراض المعدية تنتشر في بعض السنين ، فتنحول الى أوبئة فتاكة ، نتيجة للظروف الاقتصادية وتقلب أحوال المعيشة ، وانخفاض مستوى الطب آنذاك ، كما ان هذه البلاد شأنها شأن سائر البلدان الأخرى ، تبيح حرية تنقل الإنسان والحيوان ، على نطاق واسع ، وهي مفتوحة ، وليست لها حواجز صحية تعيقها ، كما هو الحال في الوقت الحاضر * وكان المسافرون والنازحون ، متى شاءوا خرجوا من هذه البلاد ، فدخلوا غيرها ، وهو الأمر الذي ساعد الى حد كبير على انتقال الأمراض وسريانها *

الأمراض وانتشارها :

وكان يتسبب في انتشار الأمراض عاملان رئيسان ، الأول تعرض البلاد للقحط والضييق الاقتصادي ، نتيجة لقلة الموارد

المائية في بعض السنين أو هجمات الجراد وأمراض الحيوانات، والآفات الزراعية ، مما يؤدي الى قلة المواد الغذائية الضرورية للجسم الانساني ، نباتية كانت أم حيوانية ، فتنتشر المجاعات التي تضعف مقاومة الاجسام للأمراض ، فتفتك بها ، أشار ابن الاثير الى انقطاع الامطار في بلاد الجزيرة الفراتية سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م. فاشتد الغلاء وتمذرت الاقوات وأكل الناس الميتة ودام كذلك الى آخر سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، ثم تبعه بعد ذلك ، وباء عام شديد ، كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو «السرسام» (١) ، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى (٢) ، كما ذكر ان في ٥٩٥هـ / ١١٩٨م كان أهل ماردين قد عدت الأقوات عندهم وكثرت الأمراض فيهم ، حتى أن كثيرا منهم كان لا يطيق القيام (٣) .

وأضاف بأن «الغلاء قد اشتد في ديار الجزيرة ، فأكل الناس الميتة والكلاب والسنانير ، فكثرت الأمراض واشتد الوباء ، وما زالت الاشياء هكذا الى أول الصيف ، فكثر الموت والمرض في الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى» (٤) - وتبع ذلك أن انقطع المطر في بلاد الجزيرة ، «ثم خرج الجراد الكثير فزاد الناس اذى ، وكانت الاسعار ، قد صلحت شيئا ، فعادت لكثرة الجراد غلت» (٥) حيث قلت الاطعمة التي تحوي المواد الغذائية .

وكانت الامراض تنتشر بين الجند خاصة، فتفتك بهم، ففي ٥٩٤هـ / ١١٩٧م تضعع عسكر الموصل لكثرة الامراض واستيلاء المرض.

-
- (١) قال الشيخ الرئيس ابن سينا «السرسام» لفظ فارسي ، فالسر هو الرأس. والسام هو الورم - المرض - أي أن مظاهر هذا المرض وأعراضه أورام الرأس - (القانون في الطب ، القاهرة ١٢٩٤هـ) ج ٢ ص ٤٤ .
- (٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٤٥١-٤٥٢ .
- (٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١٢ ص ١٤٨ .
- (٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٨٤ .
- (٥) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٩٣ .

على كافة العسكر (٦) كما أصاب العسكر الموصل مريض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام (٧) .

وفي ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م أيضا حاصر نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل مدينة نصيبين فأصاب عسكره ، الوباء الشديد ، فمات كثير منهم ، فعادوا الى الموصل (٨) .

ويذكر ابن خلدون «أن من أسباب موت أهل تلك العصور ، كثرة المجاعات ووقوع الوباء» وان هذه الطواعين وأمراضها مخصصة بالرثة (٩) .

أما العامل الثاني ، الذي أدى الى انتشار الامراض ، في بعض مدن الجزيرة الفراتية فهو وقوعها في مناطق الوديان المحصورة بين الجبال أو في المنخفضات ، لذلك وصف بعضها بالوخامة والوباء والرداءة ، هذا على الرغم من أنها تقع في مناطق بعيدة عن الاهوار والمستنقعات أو الى ما يعرضها الفيضان الى حدوث بقاع من المياه الآسنة ، تؤثر على صحة الناس ، بسبب كونها مصدرا للبعوض ، كما هو الحال في العراق خلال القرن السادس الهجري .

والجدير بالاشارة ، أن الأحوال المناخية لمدينة الجزيرة الفراتية خلال هذه الفترة ، هي استمرار لما كانت عليه في القرن

(٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٩٣ .

(٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٨) الغساني : المسجد السبوك ص ٨٣ .

(٩) ذكر ابن خلدون ان كثرة الموت لها اسباب «من كثرة المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدولة ، فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة ، واذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني ، فيسري الفساد الى مزاجه ، فاذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرثة ، وهذه الطواعين وأمراضها مخصصة بالرثة . وان كان الفساد من القوى والكثير ، فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الامزجة وتمرض الابدان وتهلك» .
(مقدمة ابن خلدون ، القاهرة - ١٩٥٨ - الطبعة الاولى) ج ٢ ص ٧١٠ .

الرابع الهجري ، ذكر الاصطخري بأن مدينة رأس العين كثيرة العلل والوباء ، ونصيبين مدينة «وبية كثيرة العلل والوباء» ، «وميفارقين وخمة كثيرة العلل والوباء والمياه تجري في منازلها وأسواقها» (١٠) ، وقال ابن حوقل «ان مدينة حصن كيفا وخمة الهواء وبية لاسيما في الصيف» (١١) ، وعن مدينة ميفارقين «ان في هوائها وخامة ما» (١٢) . وقال ياقوت في القرن السادس الهجري في وصف تل أعفر «ماؤها سيه عدوبة ولكنه وبىء رديء» (١٣) . كما وصف القزويني مدينة الموصل بكثرة البساتين «وكون خريفها كثير الحمى تأتي سنة سليمة وسنة موبئة يموت فيها عدد كبير من الناس» (١٤) .

ومن الجهة الاخرى يصف المقدسي بعض مدن الجزيرة الفراتية في القرن الرابع الهجري بأنها طيبة نزهة وطيبة الهواء وبلد طيب وبعضها ريح الجنوب فيها مؤذية وأخرى بها مواضع حارة وغيرها باردة لقربها من الجبال ، وهذا الوصف ينطبق على القرن السادس الهجري لأنها لم تغير موقعها ولم يطرأ عليها ما يؤثر في مناخها ، مثل الموصل التي اعتبرها بأنها أصبح بلدانه وليس فيها «ماء رديا ولا واديا وبيا ولا طعاما لا نجده مريا» (١٤) . كما ذكر سبط ابن الجوزي «ان مدينة سنجار اصح من دمشق وهي وسط البلاد» (١٦) .

أما الاشارات التي أوردها المستوفي القزويني عن بعض مدن الجزيرة الفراتية فأكثرها يتعلق بالمناخ الذي يؤثر تأثيرا كبيرا في

-
- (١٠) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٦ .
 - (١١) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٢ .
 - (١٢) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ٢٠٢ .
 - (١٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥ .
 - (١٤) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٦١ .
 - (١٥) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦-١٤٨ .
 - (١٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٦٤ .

الصحة ، فوصف بعضها بأن مناخها معتدل وأخرى طقسها رطب
وأخرى مناخها دافئ غير أنه وصف مدينة «برتالا» في ديار ربيعة
أنها «مدينة صحية» (١٧) .

وفضلا عن ذلك فإن بدائية الطب من حيث عدم المقدرة على
تشخيص الامراض وعلاجها وقلة عدد البيمارستانات وعدم العناية
بها وانعدام المحاولات ، للقضاء على مسببات الامراض أو حصر
الوبئة ومنع الناس من مغادرة مناطق الوباء كانت هي السمة
المميزة للقرن السادس الهجري الذي لا يمكن تحديد الامراض
الشائعة فيه سواء أكانت أمراضا متوطنة أم وافدة ، ثم ان أغلب
معلوماتنا عن الامراض وصلتنا عن طريق ما ذكره مؤرخون غير
متخصصين بالطب مثل عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى ٥٦٩ هـ وابن
الاثير وابن الساعي وابن الفوطي ، ممن يقدمون اوصافا غير دقيقة
عن أسماء الامراض وطبائعها ومدى فتكها بالناس ولو وجدت مثل
هذه المعلومات فيما كتبه اطباء مثل الرازي وعلي بن العباس
المجوسي أو ابن سينا لكانت أكثر وضوحا ونفعا (١٨) ، فالأخبار التي
نقرأها عن الامراض أكثرها في اطار مسميات عامة غامضة ، مثل
الوباء أو الطاعون أو الحمى التي لم تكن تمثل مصطلحات دقيقة في
دالتها ، كما أن الوباء الذي ورد في أخبار المؤرخين هو انتشار أي
مرض معد وبشكل واسع كالملاريا أو التيفوئيد أو الطاعون .

وترد هذه الاخبار عند المؤرخين أيضا وهي قليلة مختصرة، وانها
لا بد أن تكون في حقيقتها أوسع وأكثر انتشارا لان ظروف البلاد
الاقتصادية والصحية كانت تساعد على انتشارها (١٩) ، وأهم
الاخبار التي جاءتنا عن تلك الامراض ، ظهرت في القرن الرابع

(١٨) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٢٠٩ .

(١٩) جعفر خصباك : نفس المرجع السابق ص ٢١٠ .

الهجري ، وظلت تتكرر حتى القرن السادس الهجري وما بعده ، لعدم تغير الاحوال العامة وعدم تقدم الطب تقدما مؤثرا ، فيذكر ابن الجوزي ، وقوع بعض الامراض في العراق وبلاد الجزيرة - ففي ٣٢٦هـ / ٩٣٧م وقع الوباء في البقر وظهر عند الناس جرب وبشور (٢٠) وفي ٣٢٩هـ / ٩٤٠م وقع المرض في المواشي والناس وكثرت فيهم الحمى ووجع المفاصل (٢١) وفي ٣٤٣هـ / ٩٥٤م انتشرت بين الناس امراض وحميات ونزلات وأوجاع الحلق (٢٢) . وفي ٣٤٦هـ / ٩٥٧م في التشرينين أي في فصل الخريف حيث يتقلب المناخ فتتخفض درجة الحرارة ، أصابت الناس أورام الحلق والماشرا وكثر بينهم الموت الفجأة ، فمن اقتصد في هذين الشهرين أما مات أو اشرف على الموت (٢٣) وفي ٣٧٦هـ / ٩٨٦م كثر الموت بالحميات الحادة حتى هلك الكثير من الناس (٢٤) وأخيرا أشار الى انتشار مرض الطاعون في بغداد وتواحيها في ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م وكان غالب المرض هو الصفراء «حيث يعرض للرجل شناج وبرسام وصداع» . واعقب هذا المرض موت الفجأة ثم انتشر الجدري في الاطفال وأعقب ذلك

-
- (٢٠) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم (مطبعة دائرة المعارف الاسلامية - حيدرآباد الدكن ١٩٥٩م) ج ٦ ص ٢٩٣ .
- (٢١) ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص ٣١٩ ، ومن المحتمل أن يكون هذا المرض نوعا من (الانفلونزا) .
- (٢٢) ابن الجوزي : نفس المرجع ص ٣٧٥ .
- (٢٣) ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص ٣٨٤ . ذكر علي بن العباس المجوسي الطبيب «أما الامراض الحارة التي تعرض في الدماغ فمئها المعروف بالماشرا ، وهو مرض دموي يعرض للدماغ والشرابين والوجه وجميع ما فيه يرم حتى يظن بالشؤون انها سنفرك ويعرض في ذلك وجع شديد وحمرة في الوجه وتؤ في العينين ويتبع ذلك غثيان بسبب مشاركة الدماغ للمعدة» كامل الصناعة الطبية (المطبعة الكبرى ١٢٩٤م) ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .
- (٢٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٤٣ .

موت الوحوش في البرية والدواب والمواشي ثم انتشرت بعد ذلك بين الناس الخوانق والاورام والطحال (٢٥) .

وأشار ابن الاثير الى وفاة قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م وكان مرضه حمى حادة (٢٦) والى وفاة نورالدين محمود ابن زنكي بعلة الخوانيق - وأشار الى أعراض هذا المرض فقال «حكى لي الطبيب الرحبي وهو من حذاق الاطباء، قال لقد استدعاني نورالدين محمود في مرضه مع غيري من الاطباء فلا يكاد يسمع صوته حيث تمكنت الخوانيق منه وشرعنا في علاجه واشرنا بالفصد فقال : ابن ستين لا يفتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء» (٢٧) .

(٢٥) ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج ٩ ص ١٤-١٥-٢٧ ، قال ابن سينا «والبرسام هو فارسي ، البر هو الصدز والسام هو الورم» ثم قال «الحمى الصفراوية ثلاث غب دائرة وغب لازمة ومحرقة كالغب الدائرة أما خالصة وتكون عن صفراء خالصة وأما غير خالصة» . وللغب غير الخالصة نوبة واحدة وهذه «غير الخالصة» ربما طالت مدة طويلة وقريبا من نصف السنة وربما أدت الى الترهل والى عظم الطحال وأما المحرقة فانها من جنس اللازمة الا أن تفاوتت اشتدادها وفتورها غير محسوس وأعراضها شديدة وفي الدائمة تكون مبعثرة في عروق البدن التي تبعد عن القلب وشدة العطش والقلق والارق والهذيان والغثيان وحرارة الفم . . والصداع يكثر في الحميات الصفراوية «ولعل هذا ينطبق على مرض الملاريا ، أما الحمى المحرقة فربما تكون التايفوئيد فقد قال عنها «علاماتها اللزوم وخفاء الفترات وشدة الاعراض من خشونة اللسان ومن اصفراره أولا ومن اسوداده ثانيا ومن احتباس العرق الا عند البهران وشدة العطش» . القانون في الطب ج ٢ ص ٤٤ ، ج ٣ ص ٣٣-٣٤-٣٨ .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٥٥ .

(٢٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٠٢-٤٠٣ . قال ابن سينا (العرض العام لجميع أصناف الخوانيق ضيق النفس وبقاء الفم مفتوحا وصعوبة الابتلاع وجحوظ العينين وخروج اللسان في الشديد منه مع ضعف حركته . . وان اشتد الوجع فربما انتفخت الرقبة كلها والوجه وتدلى اللسان) . القانون في الطب ج ٢ ص ٢٠٠ .

أما في ٥٧٦هـ / ١١٨٠م فقد توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه في آخره سرسام ومات (٢٨) وفي ٥٨٩هـ / ١١٩٣م وصل الاتابك عز الدين مسعود الى مدينة تل موزن ومرض بالاسهال فأقام عدة أيام فضعف عن الحركة وكثر مجيء الدم منه واستولى عليه الضعف (٢٩) وفي ٦١٥هـ / ١٢١٨م توفي الاتابك عز الدين مسعود بن ارسلان شاه وكان سبب موته «أنه أخذته حمى ثم فارقت الغدو بقي يومين موعوكا ثم عاودته الحمى مع قيء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقي كذلك الى وسط الليل ثم توفي» (٣٠) .

وهناك من الامراض ما أسماها ابن الاثير «بالباردة» مثل «الفالج» وغيره فقد ذكر «ان عين القيارة بالقرب من الموصل شديدة الحرارة فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لانها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما» (٣١) .

وأشار ياسين العمري الى انتشار الطاعون العظيم بالموصل والجزيرة وامتد الى أربل والهكارية وكذلك انتشر في الموصل ، فمات فيه خلق كثير (٣٢) ، وذكر ابن العبري أنه نتيجة لوقوع الامراض في بغداد على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥-٦٢٢هـ انتشر الوباء في العراق وبلاد الجزيرة وبلاد الروم (٣٣) .

-
- (٢٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٦٢ .
 (٢٩) نفس المرجع السابق ج ١٢ ص ١٠٠ .
 (٣٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٣٣ . وقد يكون هذا المرض نوعا من الملاريا .
 (٣١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٦٦ .
 (٣٢) ياسين العمري : منية الادباء ص ١٧١ .
 (٣٣) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق - ١٩٥٦) ص ١٣٤ ، وانظر أيضا : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ٣٢١ .

وجاء في كتاب رسائل ضياء الدين بن الاثير، رسالة كتبها الى بعض الاخوان يهنئه ببرئته من المرض ، وكان قد مرض (بالقولنج) (٣٤) ، كما جاء ذكر هذا المرض على لسان ابن العديم ، حيث ذكر أن الملك الصالح صاحب حلب قد مرض سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م بمرض القولنج واشتد به (٣٥) .

أما أمراض «النقرس» و«التشنج» و«الأورام الجاسية» و«الرياح الغليظة» فهي أمراض تصيب العضل في جسم الانسان على ما يبدو ، فكان بعضها يمكن الشفاء منه بعد الاستحمام في المياه المعدنية في «حمة القيارة» وتقع بالقرب من الموصل حيث تشفى من النقرس وتيسط التشنج وتزيل الأورام الجاسية والرياح الغليظة وتلحم الجراحات (٣٦) .

البيمارستانات :

وقد خفف من وطأة تلك الامراض المتوطنة والوبائية ، الاهتمام بالبيمارستانات وهي المستشفيات التي كانت تضم عددا من الاطباء والحكماء والمرضى ، يقومون بمعالجة المرضى المقيمين

(٣٤) ضياء الدين بن الاثير : رسائل ابن الاثير (تحقيق انيس المقدسي) بيروت ١٩٥٩ ، ص ١١٥ .

(٣٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب (المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٨) ج ١ ص ٤٣ ، ويبدو ان هذا المرض هو نوع من الدوسنتاريا المعوية او الالتهابات التي تصيب المعدة .

(٣٦) العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٠١ - وذكر الشافعي - ان بالقرب من الموصل عين كبيرة تعرف بعين الكبريت فيها عدة معادن كبريتية ينفع المصابين قبيهم ببعض امراض الجلد أشهرها اثنان الواحد لاستحمام الرجال والآخر للنساء وهي تبرى من الجرب والحكة وتنفع المقرعين والزمنى . (الديباجات ص ١١٢) .

(٣٧) بيدارستان لفظ فارسي . مراد لا أصل له في لغة القرآن . وانظر أيضا : مادة «بيمارستان» في دائرة المعارف الاسلامية .

فيها ، وكانت تختلف من حيث سعتها وتنظيمها وعدد أطبائها ودرجة العناية بمرضاها . وكانت تستمد بقاءها من الهبات والوقوف التي كان يمدّها بها أصحاب الثروة واليسار من الخلفاء والملوك والامراء والاغنياء ، وكان عددها ضئيلا والعناية بها ليست مستمرة ولا على مستوى واحد ، وذلك لأنها لم تكن تمثل ضرورة قائمة وفعالية ، كما هي مستشفيات العصر الحالي ، بسبب انخفاض مستوى الطب الانساني من الناحيتين التشخيصية والعلاجية . ولم تحدثنا المراجع عن الاهتمام الذي كانت تثيره في نفوس الناس ، أو حتى عند المؤرخين من ناحية عناية الدولة الشديدة بها أو اهمالها وغلقها .

أن أهم بيمارستانات الجزيرة الفراتية في فترة القرن السادس الهجري كانت في مدينة الموصل ، حيث زارها ابن جبير سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وذكر ان فيها بيمارستانين أحدهما في ربض المدينة ، وهو بيمارستان حفيل وآخر في داخل البلد (٣٨) . وذكر ابن الفوطي - ان مجاهد الدين قايمار «دردار» المرسل أي محافظ قلعتها قد عمر بظاهر الموصل بيمارستانا للمرضى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م وانفق عليه ما يزيد على مائة ألف دينار أحمر (٣٩) (أي ذهباً) ويبدو ان هذا البيمارستان هو أحد البيمارستانين اللذين أشار اليهما ابن جبير ، كما أورد ابن أبي أصيبعة ، أن الملك العادل نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي (٥١٤-٥٦٩ هـ / ١١١٦-١١٧٣ م) قد أنشأ البيمارستان الكبير في الموصل (٤٠) .

(٣٨) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ ، أنظر أيضا : أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ١٧٨-١٨٧ .

(٣٩) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٥ (نشر محمد بن عبدالقدوس) ص ١١٢ .

(٤٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٦٢٨ .

وفي مدينة أربل كتب علي بن عثمان بن علي الاربلي الى
شرف الدين أبي البركات ابن المستوفي وزير أربل سنة ٦٢٦هـ/
١٢٢٨م وتحديث معه يرجوه أن يعهد اليه رئاسة البيمارستان
الموجود هناك (٤١) .

وقدم لنا ابن أبي أصيبعة ، معلومات مفيدة عن بيمارستان
مدينة نصيبين الذي بناه مطران المدينة «فنفق الناس به وأنفق
عليه أموالا كثيرة ووقف له املاكا تقوم بكفايته ، وجعل فيه من
الآلات وجميع ما يحتاج اليه شيئا كثيرا جدا» (٤٢) . كما أشار الى
بيمارستان مدينة الرقة «الذي كان يعمل فيه الحكيم بدر الدين» (٤٣)
أما في مدينة جزيرة ابن عمر ، فيشير ابن شداد الى وجود
بيمارستان (٤٤) وكذلك في مدينة ارزن (٤٥) في الشمال الشرقي من بلاد
الجزيرة الفراتية .

الانبياء :

أشرف على البيمارستانات عدد من الاطباء الذين حفلت بهم
بلاد الجزيرة الفراتية في فترة القرن السادس الهجري وفي مقدمتهم

(٤١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٨١ ، ومما كتبه له قال :

يا ايها المولى الوزير	ذي الرعاية والعناية
ان العلاء اضلني	بالقول عن طرق الهداية
لألي لمارستانكم	واقوم فيه بالكفاية
اني محتاج اليه	مستى اجبت الى الولاية

(٤٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ج ٢ ص ٣٤١ .

(٤٣) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص ٧٥١ .

(٤٤) ابن شداد : الاعلاق الخطرة - مخطوطة - قسم الجزيرة الورقة ٥٧ ب .

(٤٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٨ ب .

(٤٦) لقد «ع العرب في ميدان الطب وكانت لهم شهرة واسعة منذ القرون
الوسطى الاسلامية خصوصا في أوربا ، وكان أشهر الاطباء العرب (الرازي

بشبه

الطبيب رضي الدين الرحبي يوسف بن حيدرة بن الحسن الذي ذكره ابن أبي أصيبعة بقوله أنه «كان من أكابر الأطباء في صناعة الطب شديد الاجتهاد في مداواة المرضى رؤوفا بالخلق طاهر اللسان» وكان والده من بلد الرحبة وهي مدينة على نهر الفرات وكان له أيضا ، نظر في صناعة الطب ومزاولته الا أن صناعة الكحل (طب العيون) كانت أغلب عليه وعرف بها ، وكان قد نشأ في جزيرة ابن عمر وأقام بنصيبين وبالرحبة وسافر الى بغداد واشتغل بصناعة الطب ومهر بها ، واجتمع في ديار مضر بالشيخ الموفق المعروف بابن جميع المصري وانتفع به (٤٧) . ومن الأطباء الذين نسمع عن جهودهم في القرن السادس الهجري علي بن أحمد البغدادي المعروف بابن هبل المتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م الذي ولد ونشأ في بغداد وقرأ الطب هناك ثم استوطن بالموصل فأخذ الناس يترددون اليه أو يقرأون عليه الطب ، وقد وضع كتابا أسماه (المختار في الطب) (٤٨) وكان قد

٢٣٦-٣٢٠ هـ / ٨٥٠-٩٣٢ م) وأهم كتبه (الحاوي) وعلي بن العباس المجوسي (ت ٨٤٠ هـ / ١١٨٣ م) وقد عرف بكتابه المسمى (الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية) والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠-٤٢٩ هـ / ٩٨٠-١٠٣٧ م) وأهم مؤلفاته (القانون في الطب) وما جاء فيه مشيرا الى عدوى مرض السل الرئوي وانتقال الامراض بالماء والهواء . كما بين الرازي لأول مرة الفرق بين الجدري والحصبة وقال بالعدوى الوراثية وقد اعتمدت هذه المؤلفات على ما توصل اليه اليونانيون وأطباء الهند والفرس وغيرهم ثم صنفت وجمعت اليها الخبرات الطبية التي نشأت في ظل المدنية الاسلامية . وقد أوجدت هذه المصنفات والمؤلفات في القرون التالية عددا من الأطباء المسلمين والمسيحيين واليهود . انظر جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٢١٨ ، أحمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٤٢ .

- (٤٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ج ٢ ص ٦٧٢ .
(٤٨) قال الصفدي : ان هذا الطبيب اعتزل مهنته ولزم منزله لانه عمى بماء نزل في عينيه عن ضربة وانقطع للتأليف ووضع كتابا آخر اسماه (الطب الجمالي) وكان يلقبه هذا المرجع : البيع . مهذب الدين . وقال أيضا : بأن كتابه «المختار في الطب» كان يشتمل على علم وعمل .
انظر : الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٠٥-٢٠٦ .

حصل على ثروة طائلة من جراء اشتغاله بالطب في الموصل (٤٩) . وذكر ابن أبي أصيبعة أنه «كان يعرف بالخلاطي نسبة الى مدينة خلاط في أقصى الشمال الشرقي من بلاد الجزيرة الفراتية وكان أوحده زمانه وعلامة زمانه في صناعة الطب ، وقد أقام بماردين ثم توجه الى الموصل وعمي في آخر أيامه ، وكان يجلس على سرير ويقصده الناس» (٥٠) . وأشار الصفدي الى أن هذا الطبيب ، دخل بلاد الروم السلاجقة - آسيا الصغرى - وصار طبيب السلطان هناك «فكثر ماله وارتفع مقداره» (٥١) .

أما الطبيب ابن أبي البقاء بن ابراهيم النيلي المعروف بابن العطار وهو مسيحي ، فقد طلبه الاتابكة من بغداد وأرسل الى الموصل لكي يشرف على علاج الملك الاتابكي نورالدين أرسلان شاه ابن عزالدين مسعود سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م وقد وصف بأنه كان

-
- (٤٩) وكان هذا الطبيب قد قصد اذربيجان أيضا ليطب صاحبها . وقد أرسل من خلاط الى الموصل وديعة مقدارها بين ستة وثلاثين ألف دينار ومائة وثلاثين ألف دينار الى مجاهد الدين قايماز دزدار الموصل . انظر : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٠-٢٤١ ، ابن أبي أصيبعة عيون الانباء ج ٢ ص ٤٠٧ ، الصفدي : نكت الهميان ص ٢٠٥ .
- (٥٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ج ٢ ص ٤٠٧-٤٠٨ ، وقد ذكر القفطي : «ان بعض الطشت دارية (الطشت دار لفظ فارسي مركب من مقطعين الاول : «الطشت» وهو اناء يفتسل فيه والاخر «دار» ومعناه ممسك فيكون المعنى «ممسك الطشت» القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩ » قال يوما وهو يعالج شاه أرمن صاحب خلاط ، وقد نظر الى قارورة الملك في بعض أمراضه يا حكيم لما لا تذوقها فسكت عنه ، فلما انفصل عن المجلس قال له في خلوة : قولك هذا اليوم عن أصل من قول غبرك أو هو شيء خطر لك فقال : انما خطر لي ، لانني سمعت ، ان ذوق القارورة من شروط اختبارها فقال له : الامر كذلك ولكن لا في كل الامراض ، وقد أسأت بشرط الي بهذا القول ، لان الملك اذا سمع هذا ظن انني قد اخللت بشرط واجب من شروط خدمته وقوانين الصناعة فيها . تاريخ الحكماء ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- (٥١) الصفدي : نكت الهميان ص ٢٠٥ .

خبيراً بالعلاج قيماً به ، كما عرف عنه انه كان طبيباً خاصاً
بالنساء (٥٢) .

أما الطبيب ثابت بن قرّة الحراني فقد كان من الصابئة المقيمين
بمدينة حران وقد اشتغل بالصيرفة ووصف بأنه «لم يكن في زمنه من
يمثله في صناعة الطب» (٥٣) ومن أطباء الصابئة أيضاً ابن وصيفه
الصابئي (وكان طبيباً بعلاج أمراض العين) (٥٤) وثابت بن ابراهيم
الحراني «وكان طبيباً فاضلاً كثير الدراية وافر العلم بارعاً في
صناعة الطب مطلعاً على أسرارها» (٥٥) .

وفي مدينة الموصل عرف الطبيب محمد بن ثواب الموصلية
المشهور بأبن الثلاج «وكان فاضلاً في صناعة الطب خبيراً بالعلم
والعمل» (٥٦) وفي مدينة بلد الطبيب أحمد بن محمد البلدي كان
خبيراً بصناعة الطب حسن العلاج والمداواة وله كتب في تدبير الحبالى
والاطفال والصبيان وحفظ صحتهم (٥٧) . وأشار القفطي الى عدد
من أطباء الجزيرة الفراتية في هذه الفترة من المسيحيين وأشهرهم
حسنون النصراني الرهاوي الذي قرأ الطب على أطباء الرها ورحل
الى ديار بكر ومنها آمد وميافارقين وتنقل في البلاد بصناعته ورجع
الى الرها وتوفي سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م (٥٨) وممن اتقن صناعة الطب

(٥٢) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٣٢ ، ذكر ابن واصل انه أشار على الاتابك
نورالدين أرسلان شاه بالاستحمام في عين القيارة التي تقع الى جنوب
الموصل . مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، ج ٣ ص ٢٠٢ ، ومنهم من هو
خاص بالخلفاء والامراء وهم طبقات وأصناف فمنهم الجراح والفاسد
والكحال والاسناني ومن يطب النساء ، انظر : جرجي زيدان : التمدن
الاسلامي ج ٣ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٥٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٥٤) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص ٣١١ .

(٥٥) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص ٣٠٧ .

(٥٦) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(٥٧) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(٥٨) القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧٧ .

يونس الحراني الذي صنع معجوناً كانت السقية منه بخمسين ديناراً
لاوجاع الجوف ، وقد اجتمع خمسة من الاطباء ولم يستطيعوا أن
يتوصلوا الى صنعه (٥٩) . والطبيب تقي الدين الرأس عيني المعروف
يابن الخطاب ، وهو من رأس العين وطبيب مشهور متقن لصناعة
الطب علمها وعملها غاية الاتقان (٦٠) .

وأشار الفارقي الى المنزلة الكبيرة التي كانت للطبيب أبي
سالم لدى أمير ميفارقين ، وقد تقدم عنده وارتفعت منزلته ، وكان
له حانوت بسوق العطارين (٦١) الذي ذكره ابن شداد باسم «سوق
العديم» (٦٢) ويبدو أنه كان يتعاطى فيه بيع الادوية والعقاقير
«الطبية في نهاية القرن الخامس الهجري» .

الادوية والعلاج :

كان الطب يقوم أكثره على الادوية النباتية (٦٣) . ومن
النباتات الطبية التي ذكرها ياقوت «حب الزنم» وهو نبات جبلي
يكثّر في أرض الجزيرة ويصلح لحالات المرض التناسلية
والجنسية (٦٤) والنيلوفر الذي أشار اليه أبو البقاء الدمشقي وهو

-
- (٥٩) القفطي : نفس المرجع السابق ص ٣٩٤ .
(٦٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٤ ، وقال انه خدم الملوك بزي
جميل وأمر صالح وغلما وخدم .
(٦١) الفارقي : التاريخ ص ٢٠٦ .
(٦٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة - مخطوطة -
الورقة ٩٣ ب .
(٦٣) ويمكن وصفها بالمسكنات ، فلم يلجأوا الى الادوية المركبة المعقدة التي
يسمونها (الترياق) الا في الحالات المستعصية . انظر جعفر خصبك :
العراق في عهد المغول ص ٢١٩ .
(٦٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٠-٣٤١ ، وانظر أيضا : ابن عبدالحق
مراصد الاطلاع ج ١ ص ٥١٦ ، القزويني : آثار البلاد واخبار العباد
ص ٣٩٧ .

نبات هندي يسمى (حب العروس) وأكثر ما ينبت بنفسه في مستنقعات الماء ورواكدھا كما ينبت في الماء العذب الواقف من أرض طيبة وهو بارد رطب مسكن للصداع الحار اذا شرب منه درهم كشراب الخشخاش ويذهب وجع الاسنان اذا استعمل مضغته ، وينقي السواد والبلغم وانفعه الاصفر (٦٥). وينبت هذا في مدينة نصيبين * وكان الفصد والاسهال والحجامة أكثر أساليب المعالجة شيوعا *

وجاء في إحدى رسائل ضياء الدين ابن الاثير اشارة تفيد باتباع أهل ذلك العصر نوعا من العلاج يلجأ اليه الاطباء فأول ما يشرع به الطبيب هو ملاطفة المريض وتدييره ، حيث « يغنى مالا يغنيه الطبيب من علاجه الذي يأتي فيه بملاطفة التدير » ثم يوضح قائلاً ، أن « صناعة الطب انما هي معالجة الاضداد بالاضداد » (٦٦) *

ويبدو أن الاطباء كانوا يعالجون مرضاهم ، بعقاقير وأدوية شبيهة بما تقوم به في الوقت الحاضر على ما يسمى في الطب « بالمضادات » وهي عقاقير طبية مكونة من الميكروبات (الفيروسات المرضية) الميتة ، تعالج بها الامراض التي سببتها نفس هذه الميكروبات ، كما يفهم من اشارة أخرى له ، ان الطبيب يهتدي في علاجه بمعرفة الطبائع الاربع وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة (٦٧) لذلك كان يجتهد في معرفة درجة حرارة المريض على ما يبدو ويشرع في علاجه ويبدو أن مداواة الجدري والحصبة ، قد اثارت اهتمام الاطباء والحكماء في تلك العصور فقال علي بن العباس المجوسي من أهل القرن الرابع الهجري « ينبغي أول علامات ما يظهر الجدري والحصبة من يوم الى ثلاثة أيام ان يبادر الى فصد

(٦٥) أبو البقاء الدمشقي : نزهة الانام في محاسن الشام (القاهرة ١٣٤١هـ) ص ١٧٢ *

(٦٦) ضياء الدين بن الاثير : رسائل ابن الاثير ص ١١٦ *

(٦٧) ضياء الدين بن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١١٢ *

صاحبه من الاكل ويخرج له الدم الى أن يغشى عليه اذا ساعدت.
القوة والمزاج والسن والوقت الحاضر من أوقات السنة ، وان كان
العليل صبيا فليحجم من الكاهل ويخرج له من الدم مقدار ما يصلح
أن يخرج لمثله ويعطيه بعد الفصد ماء الشعير قد طبخ فيه عنب.
وسيستان وعدس مثل ثلث الشعير ويسقيه أياه بشراب الخشخاش.
أو شراب العناب ان كان هناك سعال وألم في الحلق وان لم يكن.
هناك سعال فماء الرمان . . . الخ» (٦٨) .

أما علاج الجروح وتطبيبها ، فلدينا اشارة أوردها ابن خلكان،
تتعلق بمعالجة المبارك ابن المستوفي وزير اربل سنة ٦٢٦هـ /
١٢٢٨م، وذلك عندما جرح بضربة سكين من أحد مناوئيه في عضده،
«فجرحته جرحه متسعة فأحضر في الحال (المزين) وخاطها ومرخها
وقمطها باللفائف» (٦٩) .

ولعل كلمة (المزين) هنا تعني (الحلاق) الذي كانت له هذه
المهنة فيشارك بها الجراح حيث يقوم بمهمة معالجة المرضى ويخيط
جراحهم ، ويضمدها .

وكان الاطباء يعالجون بعض حالات الامراض العصبية فقد
أشار ابن شداد الى وجودهم في مدينة ميفارقين حيث كانوا يعالجون
من يصاب بالجنون (٧٠) .

(٦٨) ابن العباس المجوسي : كامل الصناعة الطبية ج٢ ص ١٩٣ ، انظر أيضا :
ما قاله في علاج مرض ذات الرئة ، نفس المرجع السابق ص ٣١٧ ، ومرض
الاورام الدموية التي تسمى شوصة وبرساما وذات جنب ، نفس المرجع
السابق ص ٢٣٨ .

(٦٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٣٩٦ .

(٧٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - مخطوطة
الجزيرة - الورقة - ٦٧ ب - ٦٨ أ .

وهناك نوع من العلاج يعرف (بالوصايا الطبية) كما هو الحال في الوقت الحاضر وهي ما يوصي به الاطباء مرضاهم ، فذكر اليونيني، ان الاطباء لم يوافقوا على اقدام أحد المرضى على أكلة الارز باللبن (٧١) وان الطبيب (ابن سكره اليهودي) أشار على الملك الصالح صاحب حلب سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م بشرب الخمرة وقال «يا مولانا شفاؤك في الخمرة» (٧٢) .

« (٧١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٥٠٢ .

« (٧٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٣ ص ٤٠ .

الفصل الخامس

العادات والتقاليد

١ - الأعياد الإسلامية :

- أ - عيد الفطر *
- ب - عيد الاضحى *
- ج - عيد المولد النبوي *

٢ - الأعياد المسيحية :

- أ - عيد الصليب *
- ب - عيد الفصح *
- ج - عيد الشعانين *
- د - عيد صوم العذارى *

الفصل الخامس

العادات والتقاليد

درج الناس على عادات سيطرت على حياتهم اليومية ، فأصبحت يمرور الزمن تقاليد واعرافا . ومن الصعوبة الالمام بمجمل العادات والتقاليد المستحكمة في حياة الانسان في هذه الفترة التاريخية من القرن السادس الهجري في مجتمع المدن في بلاد الجزيرة الفراتية ، وذلك لسعة تلك الحياة وتعقدها وصعوبة التوصل الى معرفة النوازع والضوابط التي كانت تسيطر على حياة الناس اليومية .

وكانت القيم الدينية تحكم تصرفات غالبية الناس وتوجه حياتهم الدنيوية وتجعل من التفكير بالعالم الثاني ويوم الحساب أساسا لمعاملاتهم وعلاقاتهم المتبادلة من جهة ، كما ان متطلبات الحياة اليومية ، أصبحت لا تخضع لرقابة الدين أو الضمير من جهة أخرى . فالى جانب الاهتمام بانشاء المؤسسات الدينية مثل المساجد والمدارس والربط والزوايا والانفاق عليها والتي تمثل مظهرا دينيا ، نسمع كثيرا عن اخبار الحروب التي استهدفت التوسع وتحقيق المغانم الدنيوية وقطع طرق الحجاج وسلبهم وغزو المدن ونهبها وقتل الناس وتزايد اللصوص وقطاع الطرق .

ان هذا النزاع القائم في نفوس الناس والمتمثل بالقيم الدينية ومتطلبات حياتهم اليومية من جهة أخرى كان قد ولد نوعاً من التقاليد والعادات أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة ، فالمسلمون يكونون غالبية سكان الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، ويأتي بعدهم المسيحيون ثم اليهود والصابئة وأقلية ضئيلة من المجوس . وكل هؤلاء لهم عاداتهم وتقاليدهم التي طبعها أديانهم ، فمنها ما تكون مشتركة بين الجميع ، مثل الخضوع للحاكم والتقيد بالنظام والقانون والالتزام بمظاهر التعايش والالفة طبقاً لما جاء في أديانهم وما نصت عليه بخصوص ذلك ومنها عادات وتقاليد تميز كل فئة منهم . وبلاد الجزيرة الفراتية تبدو عريقة التقاليد وهي أكثر وضوحاً من البلاد الأخرى نتيجة للتوزيع الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للسكان ، فعلى الرغم من وجود المدن المشتركة بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، نرى أن هناك مدناً وقرى تغلب عليها الأكثرية من المسيحيين أو المسلمين مما يجعل ظهور عادات الاغلبية واضحة متميزة ، على أن الاقلية تبقى تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وشعائرها الخاصة بها في مناطق الاغلبية أيضاً ، فالموصل وميافارقين وأربل وآمد ونصيبين وغيرها من المدن الكبيرة يتعارف الناس فيها على عادات وتقاليد متميزة كما هو الحال بالنسبة للمدن الصغيرة والقرى القريبة منها أو البعيدة عنها . ومن المفيد أن نستعرض بعضها ومن أهمها الاعياد الدينية والمواسم .

وهذه الاعياد اسلامية ومسيحية :

١ - الاعياد الاسلامية :

وهما عيد الفطر والاضحى ، وكان الاحتفال بهما في القرن السادس امتداداً لما سبق ان جرى في جميع المدن الكبيرة والصغيرة .

ينبدأ الاحتفال بعيد الفطر بحلول شهر رمضان حيث توزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين وتضاء المساجد ليلاً بالمصابيح ويذهب الناس إليها للصلاة وإذا قارب الشهر على الانتهاء استعد الناس لاستقبال عيد الفطر (١) . ويكون عيد الفطر في اليوم الأول من شوال (٢) ويستمر ثلاثة أيام وأهم المراسيم لإعلان يوم العيد تبدأ بمشاهدة الناس لهلال شوال ثم الشهادة لدى القضاة بذلك حيث يتولون امر ايصالها الى قاضي القضاة حيث يصدر أمره بحلول العيد .

وفي اليوم الأول للعيد يخرج الناس بملابسهم الجديدة لاداء الصلاة ولاعطاء الفطرة (٣) الى الفقراء والمحتاجين (٤) ، ويذكر الفارقي من أهل القرن السادس الهجري ، خروج الناس يوم العيد للصلاة في ميفارقين ، حيث يظهر الامير انه يريد الخروج ، ثم يتأخر عن الخروج ، وقال ان ما يظهر في ركب الامير من العدة والسلاح والزينة يوم العيد ، محملة على النجائب ، ما ليس بقليل وما لم ير مثله (٥) . ويبدو أن الاحتفال بعيد الفطر ، كان يجري على الصعيدين ، الرسمي والشعبي في قصبات الامارات المحلية الاتابكية والارتقية وفي امارات المدن في هذه الفترة .

أما في شهر ذي القعدة فتبدأ احتفالات جديدة في أغلب مدن الجزيرة الفراتية ، بحلول موسم الحج ، حيث يتوافد الحجاج الى

-
- (١) الكارزوني : مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية ص ٢٥ .
 - (٢) راجع القلقشندي عن تاريخ اتخاذ عيد الفطر: صبح الاعشى في صناعة الانشا ج ٢ ص ٤٠٦ .
 - (٣) المكي : قوت القلوب (المطبعة المصرية ، القاهرة ١٣٥١هـ) ج ١ ص ١٠٦ ، الكارزوني : مقامة في قواعد بغداد ص ٢٦ ، وهناك من يرى وجوب اعطاء الفطرة ليلة العيد وليس في صبيحته - انظر ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد (مطبعة الاستقامة القاهرة) ج ١ ص ٢٧٣ .
 - (٤) الحريري : (المطبعة الامبرية - بيروت ١٩٠٣) ص ٦٨ .
 - (٥) الفارقي : التاريخ ٦٧-٦٨ .

بغداد ، فيخرج من كل مدينة أو قرية عدد من الحجاج ينتظمون في مسيرة تدق لها الطبول وتنشر الاعلام كلما مرت في طريقها بمدينة أو أخرى . وعند وصولهم الى بغداد ، يجتمعون في الجانب الغربي منها ويضربون الخيم هناك ويقدم لهم الطعام والشراب من قبل الحكومة (٦) .

وقد اعتاد أهل الموصل الاحتفال بحجاج بلادهم في ذهابهم الى الاراضي المقدسة وعند عودتهم منها ، يخرجون مرتدين ثيابهم ، وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم (٧) ، فيصف ابن جبير مشهدا من مشاهد هذا الاحتفال الذي اقيم لاستقبال الحجاج ومنهم أم الاتايك عزالدين مسعود صاحب الموصل ٥٧٦-٥٨٩ هـ / ١١٨٠-١١٩٣ م فيقول «خرج الناس لاستقبال أم عزالدين ، فدخل الحاج صعبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الالف وسلاسل وتمائيل بديعة الصفات وصنّب ذلك الحلّ يسد المسامع ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب وكذلك زينت المطايا بالجلال المذهبة ، وارتدت الخاتونة عصاية ذهب على رأسها وأخريات عصبين رؤوسهن بالعصائب الذهبيات ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره» (٨) .

وفي اليوم العاشر من شهر ذي الحجة يحتفل الناس بعيد الاضحى فيخرجون مبكرين الى المساجد لاداء فريضة صلاة العيد ثم ينحرون الاضاحي ويوزعون لحومها على الفقراء والمحتاجين ، ثم يجلس الامراء في دار الامارة ليستقبلوا الناس ، ويذكر الفارقي «جلوس

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ج٨ ص ٤٤ ، راجع حول اختيار أمير الحجاج الذي يسمى (أمير الحاج) وتنظيم مواكبهم الى الديار المقدسة : بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد - ١٩٦٧) ص ١٩٣-١٩٧ .

(٧) رحلة ابن جبير ص ٢٠٦ ، ٢١٢ .

(٨) الفارقي : التاريخ ص ١١٠ .

الامير نصرالدولة صاحب آمد في اليوم الرابع للعيد لقبول التهاني
بيوم العيد على التخت ، فحضر الشعراء والقراء ، وكان يوما
عظيما وعيدا مشهودا» (٩) .

ومن الاعياد التي كان يقام لها احتفال مهيب في مدينة اربل في
هذه الفترة «المولد النبوي» فأشار سبط ابن الجوزي الى وصف من
حضر بعض السنين مولد النبي الذي كان يقيمه مظفرالدين كوكبري
أمير أربل (١٠) سنة ٥٨٦-٦٣٠هـ / ١١٩٠-١٢١٢م فقال ان الاموال
الطائلة كانت تنفق لآحيائه ويحضره الناس من جميع الجهات (١١) .

وجاء في الكتاب الموسوم «انسان العيون في مشاهير سانس
القرون» في معرض الكلام عن مظفرالدين كوكبري وصفا دقيقا
ليوم المولد النبوي والايام التي تسبقه والتي تعقبه ، فقال «أما
احتفاله بمولد الرسول فكان في كل سنة يصل من البلاد القريبة من
اربل مثل بغداد والموصل وجزيرة ابن عمر وسنجار وتصيبين وبلاد
العجم وبتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ
والقراء والشعراء وان توافد هؤلاء على اربل يبدأ من المحرم الى

(١٠) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٨١-٦٨٢ ذكر بأنه كان
ينفق على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ثم وصف مآدب الطعام التي
كانت تقام فعند على السماط مائة قرش قشلميش وخمسة آلاف رأس
مشوي وعشرة آلاف دجاجة ومائة ألف زبدية وثلاثين ألف صحن حلوى .

(١١) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص ٦٨١-٦٨٢ ويضيف بأنه بنى
دارا كان يدخلها جميع الناس وقسمها الى أربعة أقسام ، دار للزمناء ودار
للعميان ومكان لليتامى ومكان للمساكين وأجرى عليهم الجرايات والرواتب
والكساوى . وكان يبعث بالاموال والجواهر الى الشام فيشتري بها الاسرى
من الصليبيين ويعودون الى أربل وقد خلص ستين ألف أسير . ويبعث في
كل سنة مالا يفرق في الحرمين وعشرة آلاف تنفق في السبيل وألف دينار
برسم اجراء الماء الى البرك التي بعرفت .

أوائل شهر ربيع الاول ، ويتقدم مظفر الدين كوكبري بنصب قباب من الخشب كل قبة أربع أو خمس طبقات ، فيعمل مقدار عشرين قبة . ويبعدون هذه القباب تمثل المقصورات الواحدة فوق الأخرى . ثم تعمل قبة له وحده ، وهذه القباب للأمراء والأعيان في دولته . وذكر ان ترتيب تلك القباب وتحضيرها يبدأ من أول صفر حيث تزود بأنواع الزينة الفاخرة المتجملية . ثم تزود كل طبقة من هذه القباب بجوق من المغنيات ومن أرباب الخيالات ومن أصحاب الملاهي بحيث لا يتركون طبقة من تلك الطبقات في كل قبة بدون ان يرتبوا فيها جوقا . ثم تعطل الاعمال خلال هذه الفترة حيث ينصرف الناس الى مشاهدة وقائع الاحتفال . وكانت القباب تمتد من القلعة الى باب الخانقاه المجاورة للميدان ، وكان مظفر الدين كوكبري يشرف بنفسه ويتجول في هذه الأماكن ثم يرجع الى القلعة وقبل يومين من بدء الاحتفال « يخرجون من الابل والبقر والغنم شيئا كثيرا فيسبرونها من قرب اقامة الأمير بمسيرة تصحبها الطبول والمفاني والملاهي فيأتون بها الى الميدان ويشرعون في نحرها وينصيون القدور ويطلبخون اصناف الطعام » . وفي يوم المولد النبوي ينزل الأمير وبين يديه الشموع المشتعلة وفيها شمعتان كبيرتان أو أربع تحمل كل واحدة على بغل ومن ورائها رجل يسندها حتى تنتهي الى الخانقاه - ثم ينزل مظفر الدين كوكبري من القلعة ومعه الخلع يحملها الصوفية في يد كل شخص منهم بقجة وهم متتابعون كل واحد وراء واحد بأعداد كبيرة الى الخانقاه فيجتمع الأعيان والرؤساء وينصبون كراسي للوعاظ ثم ينصب لمظفر الدين كوكبري برج من الخشب له شبابيك مطلة على الميدان وعلى الناس من الجهة الثانية ، ثم يقام عرض عسكري في الميدان وبعد الانتهاء منه يقدم الطعام للناس المجتمعين . وبعد ذلك يطلب من الأعيان والرؤساء الذين وفدوا من البلاد الأخرى وخاصة الفقهاء منهم والوعاظ والقراء والشعراء ويخلع على كل واحد منهم ثم يعودون

الى اماكنهم . وقال انه بعد الفراغ من هذا الموسم يجهز كل انسان الى بلده فيدفع لكل شخص شيئا من النفقة (١٢) .

٢ - الاعياد المسيحية :

وهي اعياد موروثة منذ عهد قديم . ترجع الى عادات كانت لسكان العراق القدماء (١٣) . ويتفق النصارى في الاعياد العامة ويختلفون في الفرعية منها خصوصا التي كانت تقام في الاديرة والكنائس في اوقات معلومة من السنة (١٤) . والاعياد العامة للنصارى اربعة هي «عيد الصليب الطيب» و«عيد الفصح» و«عيد الشعانين» والاخير هو مجموعة من الاعياد تسمى «اعياد الصوم الكبير» (١٥) و«عيد صوم العذارى» كما ان هناك اعيادا خاصة بكل دير من الاديرة المبتوثة في بلاد الجزيرة الفراتية .

- (١٢) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون - مخطوطة مصورة في مكتبة المتحف العراقي رقم (٢٩٥) الورقة ٢٩٧-٣٠١ وذكر انه اعطى الحافظ ابا الخطاب بن دحية لكتابته كتاب (التنوير في مولد السراج المنير) ألف دينار وقال ابن كثير «صنف الشيخ ابو الخطاب بن دحية مجلدا في المولد النبوي سماه (التنوير في مولد البشير النذير) «البداية والنهاية في التاريخ ج ١٣ ص ١٣١ . وقال لقد بنى مظفر الدين كوكبري دارا للنساء الارامل ودارا للصغار الايتام ودارا للملاقيط وكان يتفقد البيمارستان ويقف على كل مريض ويسأله عن حاله ومبينه وما يشتهي» . الورقة ٢٩٦ .
- (١٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي ابوريدة - ١٩٥٧ ج ٢ ص ٢٧٦ .
- (١٤) الشابشتي : الديارات ص ٣ ، انظر بابو اسحق : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية (بغداد - ١٩٦٠م) ص ٩٧ .
- (١٥) يقسم حسب احاده ، وفي كل أحد يحتفلون بدير من الاديرة . ويقع الصوم الكبير في ثمانية واربعين يوما اولها يوم الاثنين وفطرهم يوم الاحد التاسع والاربعين من أول صومهم يسمونه (السعانيين) أو (الشعانيين) ويشترط أن يقع عيد الفصح بين الشعانيين . والفطر وهو آخر اسبوع من صومهم . انظر البيروني : الاثار الباقية عن القرون الخالية (لايبزك ١٩٢٣) ص ٣ . وقال بابو اسحق ٣ : وعند الانتهاء من الصوم الكبير يهل عيد القيامة أو العيد الكبير (أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية) ص ١٠٢ .

ان اخبار اديرة المسيحيين وأعيادهم في مدن الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، انما هي استمرار لما وضعه البلدانيون عنها في القرن الرابع الهجري ، لان اديرتهم بقيت قائمة ، فضلا عن احتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم الدينية ، فيذكر الشابشتي نقلا عن الحسين بن يعقوب قوله : انه وصل الى مدينة الرها واقام فيها ليلة وعند مغادرته قبل عيد الصليب بيوم واحد ، شاهد الاستعدادات الجارية للاحتفال بهذا العيد ، فوصف ذات الوجوه الحسان من النصرانيات اللائي خرجن لعيدهن وعليهن جيد الثياب وفاخر الجواهر ، وقد تعطرن بروائح المسك والعنبر كما فرش لهن على العجل وهن يجرين واخريات على الشهاري (وهي نوع من البراذين والخيل) الخراسانية والبغلات المصرية والحرر الفره ومشاة . وقال أيضا بانه كان معهن صبيان لم ير احسن منهم وجوها وقدودا وثيابا ، وكان الجميع يسعون للوصول الى دير زكي ليعيدوا فيه (١٦) كما وصف دير زكي آنف الذكر وهو بالقرب من مدينة الرقة على نهر الفرات ، بان «فيه عمارة نفيسة وموضع طيبة وتقام فيه المهرجانات والاعیاد المسيحية» (١٧) .

أما عيد الفصح وعيد صوم العذارى ، فليست لدينا معلومات عن الاحتفال بهما لدى نصارى الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، ولكن ورد ما يفيد ان النصارى كانوا يقيمون اعيادهم في الاديرة باستمرار وفي أوقاتها المعينة . وأشار الشابشتي الى احتفال النصارى بعيد الشعانين في دير الاعلى بالقرب من الموصل حيث

(١٦) الشابشتي : الديارات ص ٢٤٤ .

(١٧) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٣٩ . وذكر انه كان منطقة لصيد الغزلان والارانب وطير الماء والحبارى وتنصب مطارح الشباك للسماك ولا يخلو من المتطربين لطيبه ولاسيما اثناء الربيع حيث يكتسب في هذا الوقت منظرا عجيبا .

«يزين في ذلك باحسن زي» (١٨) ، كما كان يقام الاحتمال في دير مار
مخنيل وهو على بعد ميل من الموصل بعيد الشعانين أيضا (١٩) .

ويقيم النصارى اعيادا لهم في كل دير من أديرة الجزيرة
السرّاتية ومنها دير برقوما في مدينة ميفارقين «له عيد يجتمع
الناس اليه ويقصدونه من المناطق البعيدة وتنذر له النذور وتحمل
اليه من كل موضع» (٢٠) . ودير الكلب وهو قرب معلثايا «وله عيد
في وقت من السنة يخرج اليه خلق من النصارى نساء ورجالا للاقامة
عنده» بالاضافة الى المسلمين لمشاهدته والنزهة فيه والاستماع الى
الاغاني وانواع الملهي وتذبح فيه الذبائح وتشرب الخمر (٢١) .
ودير الخنافس الذي ذكره ياقوت فقال : «وله عيد يقصده أهل
الضياع في كل عام مرة (٢٢) لمدة ثلاثة أيام» (٢٣) «ودير مرتوما على
فرسخين من ميفارقين على جبل عال له عيد يحضره الناس ويقصده
أهل البطالة والخلاعة» (٢٤) ودير الابلق وهو بالقرب من الاهواز
يخرج اليه جماعة من أربل وأهل تلك النواحي في كل عيد يقام فيه
من أعياد النصارى فيمضون فيه مدة يومين أو أكثر يشاهدون

-
- (١٨) الشهابستي : الديارات ص ١١٢-١١٣ .
(١٩) العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ج ١ ص ٢٩٤ .
(٢٠) الشهابستي : الديارات ص ١٩٧ .
(٢١) الشهابستي : نفس المرجع السابق ص ٢٦٢ .
(٢٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٥٨ ، انظر أيضا القزويني : آثار البلاد
واخبار العباد ص ٣٧٠ ، ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٤٢٩ .
(٢٣) القزويني : آثار البلاد ص ٣٧٠ .
(٢٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٩٧ ، يقول : «ان النصارى يزعمون
باحتفاظهم بجثة (مارتوما) منذ ألف سنة وهو محفوظ في خزانة خشب لها
أبواب تفتح أيام الاعياد فيظهر فيه نصفه الاعلى وهو ظاهر قائم وانفه
وشفته مقطوعتان وذلك ان امرأة احتالت عليه حتى قطعتهما ومضت بهما
فبنيت عليهما دارا في البرية في طريق تكريت» .

بالإضافة الى ما تقدم كانت بعض الاديرة ملتقي للناس على مختلف أديانهم ، حيث تقام فيها المهرجانات والاحتفالات يشترك فيها المغنون واهل الطرب وتعزف فيها الالحان ويشرب الناس فيها أصناف الشراب وتقدم أنواع المأكول وهي لا تخلو من المتطربين والمتنزهين مثل دير مريحنا الذي وصفه الشابشتي بان «له بناء الى جانبه ينزله المجتازون فيقيم لهم الضيافة» (٢٦) ، كما وصف دير الشياطين بأنه «من مطارح أهل البطالة ومواطن ذوي الخلاعة» (٢٧) ودير مارسرجيس بالقرب من عانة يقصده الناس من هيت وغيرها للتنزه فيه وهو يحتوي على كل ما يحتاج اليه أهل التطرب والتفرج (٢٨) ، (دير الزعفران) الذي قال عنه ياقوت انه «دير فرح نزه لاهل اللهو به مشاهد» (٢٩) * و (دير صباعي) في شرقي تكريت وهو نزه مليح فيه مقصد لاهل الخلاعة (٣٠) و (دير قنسري) على شاطئ الفرات (٣١) * ودير مريحنا الى جانب تكريت على نهر دجلة «مطروق مقصود وينزل به المجتازون ولهم فيه ضيافة» (٣٢) * الاحتفال ويدخلون السوق التي كانت تقام فيه أيضا ثم ينصرفون بعد ذلك (٢٥) * .

- (٢٥) العمري : مسالك الابصار ج١ ص ٢٨٧ *
 (٢٦) الشابشتي : الديارات ص ١٠٩ *
 (٢٧) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١١٧ *
 (٢٨) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٤٧ *
 (٢٩) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٦٦٣ ، وهو قرب جزيرة ابن عمر تحت قلعة ادمشت في لحف جبل والقلعة مطلة عليه ولأهله ثروة *
 (٣٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٦٧٣ ، وفيه يقول بعضهم :
 حن الفؤاد الى دير تكريت الى صباعي وقس الدير عفريت
 (٣١) وقبلاً ياقوت في هيكله :

أنا ديو قنسري كبر بك نزهة لمن كان بالدنيا يلذ ويطرب
 فلا زلت معموراً ولا زلت أهلاً ولا زلت مخضراً تزار وتعجب

- (٣٢) ياقوت نفس المرجع ص ٦٨٨ *
 (٣٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٧٠١ *

ومن امكنة المسلمين التي كان يجتمع اليها الناس في مواسم الاعياد والربيع (تل التوبة) مقابل مدينة الموصل الذي وصفه ابن جبير في رحلته ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م فقال ان في هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة يضم الجميع باب واحد وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر ينغلق دونه باب كريم مرصع كله (٣٣) ، فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه (٣٤) وقال عنه ياقوت «انه تل فيه مشهد يزار ويتفرج فيه أهل الموصل كل ليلة جمعة» وهناك الآن مشهد محكم البناء اقامه أحد المماليك من سلاطين آل سلجوق وكان من أمراء الموصل ، قال : «وتنذر له النذور الكثيرة وفي زواياه الاربع أربع شمعات تزن كل واحدة بخمسمائة رطل مكتوب عليها اسم الذي عملها واهداها الى الموضع» (٣٥) . كما ذكر الفارقي حصن الهتاخ قرب ميافارقين وهو مطل على مروج وأراض مزهرة في أيام الربيع يذهب الناس اليه فيقيمون فيه ويتفرجون ويتصيدون ويلازمون الاكل والشرب والصيد أياما. ويحضر المغنون (٣٦) .

(٣٤) رحلة ابن جبير ص ٢١١ ، ذكر: انه كان الموضع الذي وقف فيه النبي يونس ، كما قيل .

(٣٥) رحلة ابن جبير ص ٢١٢ .

(٣٦) الفارقي : التاريخ ص ٨٨ .

الفصل السادس

الطبقات الاجتماعية

- ١ - معنى الخاصة والعامة •
- ٢ - أشهر الاسر في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري •
- ٣ - الطبقات الاجتماعية •
 - أ - طبقة الخاصة •
 - ب - طبقة العامة وفئاتها :
 - ١ - فئة الخدم (الجواري والرقائق والخصيان) •
 - ٢ - فئة الجند •
 - ٣ - فئة العمال •
 - ٤ - فئة التجار •
 - ٥ - فئة اللصوص والسراق وقطاع الطرق •

الفصل السادس

الطبقات الاجتماعية

نشأ مجتمع الجزيرة الفراتية من تجمع وحدات من العشائر التي كانت تستمد جذورها من القبائل العربية التي اتجهت صوب هذه المنطقة قبل الفتوح الاسلامية وقد ضمت كل عشيرة عددا من الاسر التي ارتبطت فيما بينها بروابط الدم والجيرة والقرابة . وأقامت هذه العشائر في القرى والمستوطنات التي صارت فيما بعد مدنا كبيرة مثل الموصل وأربل وآمد والرها وميافارقين وأصبحت كبقعة حلت فيها مختلف العناصر والقوميات ، بالاضافة الى كثرة الرقيق الذي أدى الى اختلاط الدماء والثقافات وقد تغلب العرب بالتفوق على العناصر الاخرى ، وخاصة بعد التطورات التي مرت بها المجتمعات في عهد الدولة العباسية واستيلاء الاتراك على السلطة ثم تسلط البويهيين والسلاجقة على الحكم .

ونتيجة لذلك فقد ضعف التمييز الاجتماعي القائم على العنصر أو القومية وظهرت مصطلحات جديدة للتعبير عن التنظيم الطبقي الجديد مثل الخواص والاعيان والكبراء من جهة والعامة والعوام والسوقة من الجهة الاخرى .

ولا بد لنا قبل دراسة الطبقات الاجتماعية في هذه الفترة التاريخية أن نستعرض المفاهيم التي تدل على التمايز الطبقي وتضع الأساس للطبقات الجديدة ، فالخاصة تعرف بأنها خلاف العامة (١) والخاصة هم أصحاب الخليفة أو الأمير ومن رجالات الدولة البارزين كالوزراء والكتاب والقادة والاشراف (٢) والقضاة والشهود (٣) ، كما يضاف اليهم بعض المقربين من أهل الفن الموهوبين والعلماء والادباء والفقهاء (٤) .

ويختلف هؤلاء الخاصة من حيث النفوذ والسطوة باختلاف الامراء والملوك ، واختلاف الظروف المحيطة بهم (٥) ، أما الاعيان فهم كبراء القوم وعلية القوم هم الافاضل (٦) . وهذه العلية هم جزء من الخاصة وقد ذكر المؤرخ ابن الساعي عشرات من أعيان الفقهاء والصوفية (٧) ممن ينتمون الى مدن الجزيرة الفراتية ، كما أشار الى وجوه الناس من الولاة والفقهاء والصوفية (٨) . وجاء عند القاضي ابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) سير الكثير من الاشخاص ذوي الحرف المختلفة والدرجات الاجتماعية المتباينة بينهم السلاطين والملوك والامراء والوزراء والعلماء والكتاب والشعراء والصوفية

-
- (١) اسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج٥ ص ١٩٩٣، ابن منظور : لسان العرب ج١٢ ص ٤٢٦ .
 - (٢) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج٧ ص ٤٠ ، ٢٧٦ ، ج٨ ص ١٩٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٥٨ .
 - (٣) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ٤١ ، الصابي : رسوم دار الخلافة ص ٢١ .
 - (٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٥ ص ٨٤ .
 - (٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج٥ ص ٢٧ .
 - (٦) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ج٩ ص ٢٨٩ .
 - (٧) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص ١١٩ .
 - (٨) ابن الساعي : نفس المرجع السابق ص ٢٥٩ .

وغيرهم وكلهم طبقا لعنوان الكتاب من الاعيان (٩) ، وقد عاش قسم منهم في مدن الموصل وآمد ونصيبين وسنجار والرقعة وميافارقين .

أما كتاب التاريخ المذيل به على تأريخ ابن السمعاني من أهل القرن السادس الهجري الذي وضعه المؤرخ ابن الديبشي (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) فقد ذكر مئات الاشخاص بينهم الفقهاء والصوفية والمقرئون والمدرسون والموسرون من ذوي الاموال وكل هؤلاء من الاعيان (١٠) . وضم كتاب تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقب الذي وضعه عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي أشخاصا يعتبرهم المؤلف بأنهم من أعيان العصور وقادته وبينهم كثير ممن أستوطن الموصل وأربل ومدن الجزيرة الاخرى (١١) .

أما العامة فهم السواد الاعظم من الناس (١٢) ، ويختلفون عن الخاصة بكثرة عددهم وبكونهم ليسوا من أصحاب السلطة . ومن معاني العامة السوق التي يقول عنها الجوهري (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠١م «خلاف الملك . والسوق من الناس من لم يكن ذا سلطان ، الذكر والانثى في ذلك سواء ، والجمع السوق وقيل أوساطهم (١٣) » أي أنهم الرعية التي يسوقها الملوك أو التي يسوقونها فتنساق لهم» (١٤) ويميز المؤرخ سبط ابن الجوزي بين العوام والخواص بقوله : في سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م . ويسمى ابن العبري العوام التي وردت عند سبط ابن الجوزي (بالعامة) أو (عامة الموصل) فيقول

(٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان .

(١٠) ابن الديبشي : التاريخ المذيل به على تأريخ ابن السمعاني ج ١ الورقة ٢٢٦ - ١٢٨ - ١٤٦ - ٢٣٥ - ، ج ٢ الورقة ٦٧ - ١٣٤ - ١٩١ - ١٦٥ .

(١١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقب ج ٤ (تحقيق الدكتور مصطفى جواد) .

(١٢) ابن عساكر : تبين كذب المفتري فيما نسب الى الامام أبي الحسن الاشعري (نشر المقدسي دمشق ١٣٤٧هـ) ص ٣٣١ .

(١٣) الجوهري : تاج اللغة وصحاح العربية ، ج ٤ ص ١٤٩٩ .

(١٤) ابن منظور : لسان العرب ج ١٠ ص ١٧٠ .

في هذه السنة المذكورة حاصر صلاح الدين الايوبي الموصل فبذل (العامه) نفوسهم غيظا وحنقا عليه ، وقال أيضا وكان (عامه الموصل) يعبرون دجلة ليقاتلوه (١٥) . وفي مدينة ميفارقين حصلت اضطرابات سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م فجمع الحسن أبو نصر الشاعر الفارقي تلامذته وجمهرة من السوقه والرعا ع والشباب والجهال ليحفظ المدينة (١٦) .

وذكر الفارقي ، ان أبا الريحان من أهل مدينة آمد ، كانت له عصابة وجوقة واتباع ، وقد اتفق مع أبي الحسن أحمد بن وصيف البزاز من مقدمي سوق البز ، وكان له مثل هؤلاء على ما يبدو ، وشرعوا في حفظ البلد والناس والنظر في أحوالهم (١٧) . ويصف ابن جبير ، أهل مدينة دنيسر سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٥م فيقول ، فيهم السوقه والملوك والفني والصعلوك ، وأوضح بأن الصعاليك ، انما هم الفقراء من الناس (١٨) .

وجاء ان الاعيان ، قد يعارضون حكم الامراء الاتابكيين والاراتقة والايوبيين فأشار ابن العبري ، الى قتل الملك الاوحد نجم الدين أيوب سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م كثيرا من أعيان مدينة خلاط لتمردهم عليه (١٩) .

وذكر صاحب الكتاب الموسوم بـ «انسان العيون في مشاهير سادس القرون» ، طوائف من الناس في مدينة أربل في هذه الفترة ، أطلق عليهم «بيضاى الناس» (٢٠) والمقصود هنا خلاف ما يقال «سواد الناس» أي عامتهم على أقرب الاحتمال .

-
- (١٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٩ .
(١٦) الفارقي : التاريخ ص ٢٣٢ .
(١٧) الفارقي : نفس المرجع ص ١٠٠ .
(١٨) رحلة ابن جبير ص ٢١٦ .
(١٩) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٨ .
(٢٠) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون ص ٣٠٠ .

وهناك عائلات كبيرة ظهرت شهرتها في القرن السادس الهجري ، على انها من الاعيان والكبراء ، وقد استوطنت مدن الجزيرة الفراتية ، وظهر من بينها الفقهاء والعلماء والشعراء والكتاب والسياسيون والتجار والوعاظ والمحدثون والقضاة والعدول . وأشهر هذه الاسر (٢١) :

١ - أبناء الاثير :

وقد نزحوا من مدينة جزيرة ابن عمر واستوطنوا الموصل وكان أبوهم الاثير عالما وكاتبا ، وتقلد عدة مناصب في دواوين الانشاء واشتهر من أولاده أربعة أشار اليهم ياقوت بقوله «كل منهم امام» (٢٢) وهم مجد الدين أبو السعادات (٥٤٤-٦٠٦ هـ) وهو فقيه ومحدث وقد صنف عدة كتب في التفسير والحديث والنحو والحساب ، كما كان مستشارا سياسيا ، اعتمد عليه الاتابكيون في تقرير الامور .

والآخر هو المؤرخ عز الدين بن الاثير (٥٥٥-٦٣٠ هـ) وهو من أعلام التاريخ وصاحب الكتاب المعروف باسم «الكامل في التاريخ» ولهذا الكتاب منزلة عظيمة لدى المؤرخين ، فقد كان ولا يزال تراثا اسلاميا خالدا في التاريخ امتاز بدقته وأمانته ، وكتابه الآخر الذي وضعه لاتابكة الموصل باسم «التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل» وغيرهما من المؤلفات .

ومن أبناء الاثير ، الوزير ضياء الدين بن الاثير (٥٥٨-٦٣٧ هـ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» . ومحمد بن ضياء الدين بن الاثير (٥٨٥-٦٢٢ هـ) وقد

(٢١) راجع عنها : سعيد الديوهجي : الموصل في العهد الاتابكي ص ٩٦-١٠٨ .

(٢٢) ياقوت : معجم البلدان ٧٩/٢٠ .

وضع عدة تصانيف وأهمها «نزهة الابصار في نعت الفواكه والاثمار» (٢٣) .

٢ - أبناء يونس بن منعة :

وأصلهم من أربل ، وكان جدهم رضي الدين يونس بن محمد ابن منعة بن مالك الاربلي (٥٠٨-٥٧٦هـ) شاعرا وفقيها ، وظهر من آل منعة ، جماعة من الفضلاء انتفع بهم أهل البلاد وقد قصدهم المريدون من أنحاء العالم الاسلامي وأشهرهم :

عماد الدين بن يونس (٥٣٥-٦٠٨هـ) شغل التدريس في عدة مدارس في الموصل ، وتولى قضاء الموصل ووضع عدة مؤلفات وقصده الفقهاء والعلماء من مختلف الاقطار (٢٤) . ومنهم أيضا ، كمال الدين بن يونس (٥٥١-٦٣٩هـ) الذي ذكره ابن خلكان ، فقال بأنه كان متضلعا بأربعة وعشرين علما (٢٥) وقد تعاظمت شهرته في نفوس علماء وفقهاء عصره مما جعل طلاب العلم يشدون الرحال اليه للانتفاع به ، وقد تخرج على يديه جمهرة كبيرة من فقهاء وعلماء بغداد وأربل ودمشق وغيرها من البلاد الاسلامية (٢٦) .

وكان شرف الدين بن كمال الدين بن يونس (٥٧٥-٦٢٢هـ) غزير المادة متفنتا بالعلوم وتخرج به خلق كثير . أما تاج الدين بن رضي الدين بن عماد الدين بن يونس (٥٩٨-٦٧١هـ) فكان فقيها وقد عين قاضيا في بغداد (٢٧) .

-
- (٢٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٣٤٧-٣٤٨ ، ج٢ ص ١٥٨-١٦١ .
(٢٤) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٢٣-١٢٤ .
(٢٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٣٩٦-٤٠٠ ، انظر ايضا : سوادى عبد محمد : امارة الموصل ص ١٨٤-١٩٠ .
(٢٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات اطباء ج٢ ص ٣٣٨ .
(٢٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٤٧٧ ، السبكي : طبقات المشافعية الكبرى ج٥ ص ٧٢ .

٣ - أبناء بلدجي (٢٨) :

وكان جدهم من كبار امراء الدولة السلجوقية (٢٩) ، وأشتهر منهم ، أبو محمد محمود بن مودود بن محمود البلدجي الموصل (٥٤٣-٦٢٣هـ) الذي كان عالما وكانت له مدرسة في الموصل تعرف باسمه . وقد تخرج على يده اناس كثيرون . وعبدالله بن محمود البلدجي أبو الفضل مجد الدين (٥٩٩-٦٨٣هـ) الذي كان من كبار الفقهاء وعبدالدائم بن محمود البلدجي (٦٠٤-٦٨٠هـ) الذي شغل وظيفة التدريس وعبدالعزیز بن محمود البلدجي الذي تقلد القضاء في الموصل وغيرها من المدن ، كما أنه كان فقيها وعالما يارعا .

٤ - آل الشهرزوري :

وأصلهم من شهرزور حيث كان جدهم القاسم بن المظفر بن علي بن قاسم الشهرزوري قد أنجب أسرة علمية ظهر منها عشرات الفضلاء الذين اشتهروا بمختلف العلوم والآداب . وقد أشار اليهم ابن خلكان بقوله : «وكان من أولاده وحفدته ، علماء نجباء كرماء ، تالوا المراتب العلمية وتقدموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم وتقلدوا القضاء في مدن الجزيرة والشام الى الان من نسله جماعات من الاعيان والقضاة بالموصل» (٣٠) . وكان أشهرهم أحمد بن القاسم الشهرزوري (٤٥٣-٥٣٨هـ) الذي لقب بـ «قاضي الخافقين» بسبب توليه القضاء بعدة مدن من بلاد الجزيرة . والمرضى عبدالله بن القاسم الشهرزوري (٤٦٥-٥١١هـ) وتولى

(٢٨) نسبة الى مدينة (بلد) شمال الموصل .

(٢٩) الحسيني : اخیار الدولة السلجوقية ص ٣١ .

(٣٠) ابن خلكان : وفيات الاعیان ج ١ ص ٤٢١ .

القضاء في الموصل ، وله شعر رائق (٣١) . وكمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري (٤٩٢-٥٧٢هـ) قاضي القضاة ، وقد ولاه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، قضاء الديار الشامية والنظر في أوقافها ، وكانت له عدة وقوف منها مدرسة بالموصل ونصيبين ، وقد كانت له مكانة رفيعة عند السلطان صلاح الدين الايوبي (٣٧) . ومحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن المظفر بن علي قاضي القضاة محيي الدين الشهرزوري (٥٢٤-٥٨٦هـ) تقلد قضاء الموصل وشغل وظيفة التدريس بمدرسة أبيه كمال الدين والمدرسة النظامية ، وقد قربه الاتابك عز الدين مسعود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل . وكان « ذا ثروة طائلة ينعم بها على الفقهاء والادباء والشعراء » (٣٣) وعلي بن القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري الذي ولي قضاء واسط ثم قضاء الموصل والبلاد الجزرية والشامية .

ولكن أشهر آل الشهرزوري ، هو القاسم بن يحيى بن عبدالله ابن القاسم أبو الفضائل الشهرزوري (٥٣٤-٥٩٩هـ) الذي كان سفيرا بين صلاح الدين الايوبي والخليفة العباسي ، وقد ولي القضاء في الشام والموصل ، وقلده الخليفة قضاء القضاة فأصبح بذلك « أقضى القضاة » في الدولة العباسية وهي وظيفة كبيرة تتصل بالقضاء وتقابل وظيفة وزير العدل في الوقت الحاضر ، وفوض اليه النظر بأوقاف الشافعية والحنفية وكان فقيها فاضلا ذا ثروة عظيمة .

٥ - أبناء مهاجر :

وهي من الاسر العلمية ، وكان جدهم يشتغل بالتجارة فنشأ أولاده علماء وتجارا ، وأشهرهم ، أبو القاسم علي بن مهاجر الذي

-
- (٣١) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٣٢) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج١ ص ٤٧٢-٤٧٣ .
(٣٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص ٩٩-١٠٠-٢٩٨ .

أسس دار الحديث المهاجرية في الموصل (٣٤) . ومحمد بن مهاجر المتوفي (٦٠١هـ) الذي كان تاجرا وشاعرا ، وقد بنى مدرسة فوق دار الحديث المذكورة (٣٥) ومحمد بن علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر شرف الدين أبو المظفر الموصلية (٥٤٢-٦١٥هـ) واشتغل بالتدريس في عدة مدارس بالموصل (٣٦) .

٦ - أبناء هبل :

وأصلهم من بغداد ، ولكنهم استوطنوا الموصل وأشهرهم : الطبيب ، مذهب الدين علي بن أحمد بن علي بن هبل (٥١٥-٦١٠هـ) وكان الناس يترددون اليه للانتفاع به وله كتاب اسماء «المختار في الطب» وهو يقع في أربعة مجلدات (٣٧) .

٧ - أسرة النقيب :

وهي من الاسر العريقة في الموصل ، وقد أنجبت أعلاما في العلم ، والدين والادب والسياسة ومنهم الشريف ضياء الدين أبو عبدالله زيد بن محمد بن عبدالله الحسيني نقيب العلويين بالموصل توفي سنة (٥٦٣هـ) (٣٨) . والمرضى بن محمد بن زيد المتوفي (٦٠١هـ) وقد شغل وظيفة وزير الاتابكة (٣٩) وابن شداد الموصلية (٥٣٩-٦٣٣هـ) وله عدة مؤلفات تاريخية أهمها كتاب «النوادر السلطانية

(٣٤) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص ١٥٢-١٥٣ .

(٣٥) السبكي : طبقات الشافعية ج٥ ص ٣٢ .

(٣٦) الذهبي : المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الديلمي (تحقيق مصطفى جواد بغداد - ١٩٥١م) ص ١٠٥ .

(٣٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ج١ ص ٣٠٤-٣٠٦ .

(٣٨) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع ج١ ص ٣٠٦ ، ابن الصابوني : تكملة اكمال

الاكمال (تحقيق مصطفى جواد - بغداد - ١٩٥٧م) ص ١٥٧-١٥٨ .

(٣٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٥٧ .

والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين الايوبي» وغيرها من الكتب (٤٠) ، والمبارك بن الشعار الموصلي (المتوفى ٦٥٤ هـ) صاحب كتاب «عقود الجمان» الذي يقع في اثني عشر مجلدا (٤١) ، وغير هؤلاء كثيرون من المقرئين والمفسرين والمحدثين والمدرسين والنحويين والشعراء واللغويين والكتاب ينتمون الى هذه الاسرة .

الطبقات الاجتماعية :

يمكن القول على ضوء النصوص والحقائق التاريخية المتوفرة لدينا ، ان المجتمع في الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري ، كان مؤلفا من الطبقات الاتية :

أولا : طبقة الامراء وخاصتهم وحاشيتهم والاعيان والكبراء :

وهي أعلى طبقة اجتماعية تستمد قوتها بسبب كونها تمثل القيادة السياسية والاجتماعية ، وكان الامير على رأسها ويرعى مصالحها وأن كثيرا منهم ، يشغل مناصب كبيرة أو صغيرة في الدولة . تدر عليه الاموال .

وجاء في الوصف الذي أورده صاحب كتاب (انسان العيون في مشاهير سادس القرون) بعيد المولد النبوي الذي كان يجري في مدينة أربل في هذه الفترة ، ما يميز هذه الطبقة ويحدد معالمها فقال : «وهناك الاعيان والرؤساء وطائفة كثيرة من بياض الناس - تمييزا عن سوادهم - ينصبون لها الكراسي بعيدا عن الصعاليك - الفقراء من الناس - حيث يمد لهم سباطا عاما من الطعام خاصا بهم» (٤٢) .

(٤٠) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٢٠٥-٢٠٦ .

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٩٥-٣٩٦ ، ج ١ ص ٣٤٦-٣٤٧ .

(٤٢) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون ، الورقة ٣٠٠ .

وكانت هذه الطبقة الممثلة بالاعيان والرؤساء وعلية القوم ، تمتلك الوسائل التي كانت تؤهلها للحكم ومقاومة الغزاة ، فتتصدر الحركات السياسية والفتن وتقود الثورات ضد الامراء وضد مناوئهم (٤٣) ، فيشير ابن الاثير الى محاولة الملك الاشرف استبقاء بعض عسكرة في مدينة خلاط التي احتلها سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م غير أن أهلها ، اخرجوا هذه العساكر حال مغادرة الملك الاشرف لمدينتهم ، ثم احتلت مرة أخرى وأسر جماعة من أعيان البلد الذين كانوا يسرون هذه المقاومة على ما يبدو بوجه الملك الاشرف وقد سفروا الى ميافارقين وسجنوا هناك ، كما قتل أكثرهم (فذل أهل خلاط) ثم تفرقت كلمة «الفتيان» (٤٤) ، وكان الحكم اليهم وكفى الناس شرهم فانهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون اخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم واليه» (٤٥) .

أما الفقهاء والوعاظ والقراء والمحدثون والصوفية ، فكانت تضفي عليهم منزلتهم الدينية ، أهمية خاصة لتجعلهم في مصاف طبقة الاعيان والخاصة ذلك لان الدين كان أهم منظّم للحياة

(٤٣) وفي أغلب الاحيان كانت طبقة الاعيان والخاصة ، تنجد الامير وتحميه وتدافع عنه ، اذا تعرض لخطر ما .

(٤٤) جاءت هذه اللفظة من الفتوة ، وهي النظام الذي أوجده الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥-٦٢٢ هـ ، وكان له طقوسه الخاصة ومراسيمه التي لا بد من أدائها لمن أراد الدخول في فتوته ، كما كان للفتيان واجباتهم وحقوقهم تجاه السلطة والناس ولهم ملابسهم الخاصة بهم وقد سى تأثير هذا النظام الى مدن الجزيرة ، فظهر الفتيان الذين لم يكونوا خاضعين لنظام يقيدهم (ابن الاثير) : الكامل ج١٢ ص ١٨١ ، ابن المعمار : الفتوة (تحقيق مصطفى جواد ومحمد تقي الدين وعبدالحليم النجار - بغداد ١٩٦٠) ص ١٤٠-١٤٧ وانظر مصطفى جواد ، الفتوة والفتيان قديما - مجلة لغة العرب ص ٢٤١-٢٤٩ ، الفتوة وأطوارها وأثرها في توحيد العرب والمسلمين - مجلة المجمع العلمي العراقي العدد ٦٤ ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص ٥١-٥٤ ، تشيز : الفتوة والخليفة الناصر - ضمن كتاب المنتخب من دراسات المستشرقين ص ١٨٩ .

(٤٥) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٧٤-٢٧٥ .

الاجتماعية ، هذا فضلا عن ان كثيرا من هؤلاء كانوا من طبقة
الاعيان والخاصة (٤٦) .

ثانيا : طبقة العامة (العوام والسوقة والسواد والصعاليك) :

وهم اوسع الطبقات واشترها عددا في المجتمع ، وتسمى أحيانا
(طبقة السواد) وتضم اليها الناس من مختلف المهن والحرف
والصنائع وكذلك الفلاحين و«الزناطرة» (٤٧) و«الاحداث» (٤٨)
و«الصعاليك» (٤٩) ولم تكن لها امتيازات معينة سوى ما يقع عليها
من الواجبات ، كدفع الضرائب والخدمة العسكرية .

وتتكون هذه الطبقة من فئات عديدة أهمها :

١ - فئة الخدم (الجواري والرقيق والخصيان) :

وكانوا رقيقا وحرارا ، نساء ورجالا ، ومصدرهم الحروب ،
فهم كل من يقع أسيرا ، يذكر اسامة بن منقذ ان أباه قد غنم عدة
من الجواري الافرنج (٥٠) ، وذلك أثناء الحروب الصليبية . كما

(٤٦) مجهول : انسان العيون الورقة ٣٠٠ .

(٤٧) وهم طبقة معينة من سكان المدن مولعة بتحريك الفتن والقتال .

أنظر : أبو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية
(تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد - القاهرة - ١٩٥٦) ج ١ قسم ١
ص ٨٥ حاشية رقم (٥) : وذكر : «ان نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي
كان يرأسهم ويستميلهم في تسليم دمشق» ، مما يدل على تأثيرهم في الحياة
الاجتماعية والسياسية .

(٤٨) ويسمى ابن الاثير : - احداث البلد - التاريخ الباهر ص ١٠٧ وهم رجال
الشرطة المكلفون باخماد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيري الشغب أو هم
رجال الحرس الاقليمي في العصور الوسطى (أبو شامة : الروضتين ص ٨٥
حاشية رقم ٤) .

(٤٩) وهم فقراء الناس ومن على شاكلتهم . انظر : رحلة ابن جبير ص ٢١٦ ،

مجهول : انسان العيون ، الورقة ٣٠١ .

(٥٠) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٠ .

كانوا يحصلون عليهم بواسطة التجارة مع مصادر الرقيق ، أشار اليونيني الى تاجر الجواري الذي كان يجلب بضاعته الى بلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة (٥١) .

٢ - فئة الجند (الاجناد) :

وكان تأثيرهم الاجتماعي واضحا على الرغم من انهم كانوا يؤلفون بمجموعهم وأصنافهم المتعددة وفرقهم ورتبهم ، جيش الامارة . اذ غالبا ما يستغلون فرصة الضعف السياسي أو موت الامير لاحداث الفوضى والاعتداءات على الناس وأعراضهم وأموالهم وحياتهم ، فيذكر ابن الاثير ان بدرالدين لؤلؤ كان يحسن الى جنده ويكرمهم ، فلما سمع جند باقي في القلاع ما وصلهم من الاحسان والزيادة رغبوا كلهم في التسليم اليه ، فسير اليهم النواب واتفقت كلمة اهلها على طاعته والانقياد اليه (٥٢) . وقال أيضا ، ان قلاع المعقر والشوش وجل صورا سلمت الى نواب الملك الاشرف ، أما باقي القلاع فان جندها أظهروا الامتناع من ذلك (٥٣) .

٣ - فئة العمال :

الاحرار منهم والرقيق ، فالاحرار كانوا ذوي المهن والصنائع والمزارع للاشتغال في دكاكينهم أو مزارعهم فقد جاء ان في الموصل في نهاية القرن السادس الهجري تسعمائة وثمانون خاناً للحياكة وخمس وسبعون ألف (جومة) للحياكة ومائة وعشرون بزارة (معصرة للزبوت) ومائة وعشرون قيصرية وستة وثلاثون سوقا وثمان واربعون وخمسمائة وخمس عشرة حانوتا وثمان وستون رحي

-
- (٥١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص ٤١٩ .
(٥٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص ٣٤٦ .
(٥٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٤٥ .

على الماء ومائتان وخمسون دولا ب على دجمة ومائتا حمام واربعة
آلاف وعشرون مئارا للطحن (وهي طاحونة تدور بواسطة
الدولاب) (٥٤)، وهذه المراقق وغيرها وكلها تحتاج بطبيعة الحال الى
ايد عامه لا بد من توفرها وهي متوفرة فعلا ، واغلب الظن ، ان
العمال الذين كانوا يشتغلون فيها احرارا ورقيقا ، يدل عليه توسع
تجارة الرقيق وانتشارها .

٤ - فئة التجار على مختلف أصنافهم :

فمنهم (الخزانون والركاظون والمجهزون) (٥٥) وكانت لهم
أسواق خاصة انفراد كل نوع منها بصنف معين من التجارة ومنهم
أيضا الباعة مثل : البزازين والعطارين وغيرهم ، وينقسمون الى
باعة ثابتين وباعة متجولين ومنهم الدالون (٥٦) والسماسرة ، الذين
كانوا على ما يبدو يشكلون فئة مؤثرة في المجتمع ومن السماسرة في
مدينة ميفارقين أبي بكر محمد بن جري ، الذي قال عنه الفارقي ،
بأنه كان ذا مال ويسار (٥٧) ، كما ذكره ابن شداد فقال «أنه رجل من
أكابر التجار ومتقدميهم ، وكان سمسارا» (٥٨) .

-
- (٥٤) الخطيب العمري : منهل الاولياء ج١ ص ٦٠ ، ياسين بن خيرالله العمري :
منية الادباء في تاريخ الموصل الحدياء ص ٦٦ .
(٥٥) الخزانون : الذين يشترون البضاعة ويخزنونها ، والركاظون : الذين
يسافرون مع البضاعة ويحافظون عليها حتى وصولها ، أما المجهزون : فهم
الذين يقبضون البضائع التي تصدر اليهم فيتولون بيعها . انظر :
(الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٤٠-٥٢) .
(٥٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص ٤١٩ .
(٥٧) الفارقي : التاريخ ص ١٥٦ .
(٥٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - مخطوطة
الجزيرة - الورقة ٨٨ ب .

٥ - فئة اللصوص والسراق وقطاع الطرق :

ومن احترف مثل ذلك حيث يوجد منهم الكثير في المدن الكبيرة وغيرها ، وقد وصفت مدينة برقعيد الواقعة الى جنوب مدينة نصيبين ، بأن أهلها يضرب بهم المثل في اللصوصية وقطع الطرق (٥٩) .

وهناك فئتان أخريتان ، ترد الاشارة اليهما ، وهم الهاشميون ، وأمراء المماليك ، ولكن لم تقدم المراجع معلومات مفصلة عنهما ، فقد ورد عن الهاشميين انهم كانوا أعلى طبقة اجتماعية في العراق في القرن السادس الهجري ، بسبب قرابتهم من الخليفة العباسي ، رئيس الدولة الاعلى ونسبهم الرفيع الذي يربطهم بالنبي كما جاء عنهم أيضا ، انهم كانوا ينتظمون في نقابتين ، نقابة العباسيين ، ونقابة الطالبين (٦٠) . أما في بلاد الجزيرة الفراتية ، فقد تقلد بعضهم مناصب مهمة في الامارة ، فأشار اليونيني الى محيي الدين أبو المحاسن يوسف بن سلامة المعروف بابن زبلاق الذي عينه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كاتباً للانشاء في ديوان الموصل وكان سيداً كبيراً وعالماً واسع الاطلاع (٦١) . أما أمراء المماليك فهم الرقيق المعتقون ، وكانوا طبقة حاكمة في بغداد (٦٢) وقد شغلوا في الامارات الاتابكية والارتقية مناصب ادارية ، مثل حكام الاقاليم وأمراء الحج ومحافظين للقلاع (٦٣) .

ونتيجة لوجود الطبقات ، وخاصة طبقة الامراء والاعيان ، فقد تركزت الامتيازات والثروات بيد الامير وخاصته من الاعيان

-
- (٥٩) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥٧١ .
(٦٠) جعفر خصبك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٢٥٠-٢٥٨ .
(٦١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٥١٤ .
(٦٢) جعفر خصبك : العراق في عهد المغول ص ٢٥٢ .
(٦٣) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ٤٢ ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٢٥ .

والرؤساء وكبار العسكريين والموظفين * وقد وردتنا أخبار عن ثروات كبيرة كانت بأيدي اناس آخرين من غير الحكام والموظفين ، ففي مدينة ميفارقين ، أبوبكر محمد بن جري الذي عمل بالتجارة والسمسرة فربح مالا كثيرا (٦٤) وابن البهات الذي كان يكسب في التجارة في اليوم الواحد ما يقدر بخمسمائة دينار على ما ذكره الفارقي (٥٦) وفي مدينة آمد الحسن بن علي الآمدي المعروف بابن البغل - وكان من أكابر أهل آمد وجلتهم ، وكان له من الاملاك ، والاموال والعقار ظاهر البلد وباطنه ما ليس لغيره (٦٦) * أما في مدينة الموصل خلال القرن السادس الهجري فذكر ياقوت ، التاجر أبا المعالي عبدالسلام بن محمد ابن أحمد الذي كان تاجرا ذا ثروة ظاهرة وجاء عريض في كل بلد يقدم عليه (٦٧) * ومن مدينة تكريت يذكر اليونيني محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد التكريتي التاجر المشهور بسعة المال والجاء وكانت متاجره لا يتعرض لها متعرض ، وكانت عنده قضية كثيرة (٦٨) *

كما جاء عن الامراء الاتابكة بأنهم كانوا يمتلكون الثروات والعقارات الكثيرة ولاقطاعات الواسعة ، وتحدثت المراجع عن هذه

(٦٤) الفارقي : التاريخ ص ١٦٥ ، أنظر أيضا ابن شداد : الاعلاق الخطرة الورقة ٨٨ ب *

(٦٥) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١٦٦ *

(٦٦) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١٤٦-١٤٧ *

(٦٧) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٩٠٥-٩٠٦ ، وقال : «وكان من عادته انه يستصحب جميع أمواله أينما توجه» *

(٦٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٨٧ ، وجاء «وقد جعلت بيده دار الضرب ، حيث ضرب الفضة الى دراهم ، كما كان يعمل من الادوية على حسابه مثل التراييق والمعاجين والاكحال وينفق عليها أموالا طائلة ويفشرقها للثواب» *

الاموال وادارتها والاشراف عليها . وكان لاتابكة الموصل من،
الاموال والثروة ما جعل ابن الاثير يكثر من الكلام عنها ، وكذلك،
فعل الفارقي وابن شداد فيما يتعلق بالامراء المحليين في ميفارقين،
وآمد وماردين وبأمرء المدن مثل حران والرقّة وسنجان وأربل،
وقلعة جعبر وامتلاكهم للثروات . ويقول ابن الطقطقي ان بدرالدين،
لؤلؤ صاحب الموصل اهدى الى الخليفة المستعصم بالله كتباً وثياباً
ولعائف قيمتها عشرة آلاف دينار (٦٩) .

(٦٩) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٣٣٨ .

الباب الثاني

الأحوال الاقتصادية والإدارية

الفصل الاول

نظام الري والزراعة

١ - نظام الري :

١ - الأنهار :

أ : نهر الفرات •

ب - روافد نهر الفرات •

ج - نهر دجلة وروافده •

٢ - الامطار :

٣ - القنوات والعيون والسدود والدواليب والآبار •

٤ - الفيضان •

٢ - الزراعة :

أ - المناطق الزراعية •

ب - مناطق زراعية متفرقة •

ج - الفلاحون وأسباب هجرتهم •

د - انتشار الآفات الزراعية •

الفصل الأول

نظام الري والزراعة

١ - نظام الري :

ان السهل الرسوبي ، الذي يغطي معظم أرض الجزيرة الفراتية ، كان على شكل حوض ضحل ، يمتاز بانحدار تدريجي عام نحو الجنوب ، كما ان له انحدارات جانبية من الشرق والغرب^(١) ، ويعتبر وادي الثرثار ، المصرف الرئيسي لمياه أرض الجزيرة ، خلال القرن السادس الهجري^(٢) .

ومن المعتقد ، ان منطقة الجزيرة ، كانت ذات تصريف منتظم نحو الجنوب ، وربما كانت تتصل بالفرات ثم انفصلت عنه ، بسبب حركات باطن الأرض ، مما أدى الى كسر ورفع قشرة الأرض في جنوب المنطقة^(٣) .

وتمحاز منطقة الجزيرة أيضا ، بالتصريف الداخلي (المفلق) وبوجود مستنقعات ، جف بعضها فكون أحواضا ، أصبحت بمرور

-
- (١) جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ص ٥٣ .
 - (٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨١-٢٨٢ .
 - (٣) جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ص ٥٤ .

الزمن ذات سطح منبسط مملوء بالترسبات التي جلبتها باستمرار المياه الجارية .

ومن الملاحظ في الجهة الغربية من الجزيرة ، كثرة الكثبان الرملية ، وأحيانا ، تسبب الرياح الشديدة ، تغيرا ملحوظا في مجاري الوديان والأنهار ، وذلك بنقلها هذه الكثبان من محلاتها ، فتؤثر بذلك في نظام التصريف العام (٤) .

١ - الأنهار :

أ - نهر الفرات :

يشق العراق وبلاد الجزيرة الفراتية ، كما هو عليه الآن ، نهران عظيمان ، هما دجلة والفرات ، ولولاهما لكانت منطقة السهل الرسوبي التي تشكل أهم منطقة من أرض الجزيرة ، قطعة من الهضبة الصحراوية الغربية . ويجري نهر الفرات في أرض الجزيرة الفراتية ، وذلك بعد خروجه من هضبة آسيا الصغرى (بلاد الروم) والجبال التركية .

ويقدم لنا ابن رسته صورة جيدة عن منابع نهر الفرات وروافده وتفرعاته في أرض الجزيرة الفراتية تزداد وضوحا اذا اصفنا اليها ما ذكره كل من قدامة ابن جعفر وابن حوقل وجميعهم من أهل القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وهذه الصورة لم تتغير خلال القرن السادس الهجري ، حيث حافظ النهر على منابعه واتجاهاته ، فقال ابن رسته «ان الفرات يخرج من بلاد الروم ، فوق موضع يقال له «ابريق» فيقبل مع الشمال حتى يمر بالجزيرة ، فيصير انهارا عظاما» وهي روافده وتفرعاته ، ثم يمضي قائلا :

(٤) جاسم محمد الخلف : نفس المرجع السابق ص ٥٥ .

«ويصب نهر الفرات بعد دخوله أرض الجزيرة في البطائح» (٥)، وهي مجموعة الاهوار التي تقع في أماكن متفرقة من العراق والجزيرة . أما قدامة بن جعفر ، فيبدو أكثر دقة في تعيين منبع النهر وتتبع مجراه ، فيذكر عند كلامه عن الاقليم السادس الذي هو اقليم الجزيرة الفراتية ، ان فيه من الانهار ستة وعشرين نهرا ، منها الفرات وأوله من عين في بلد الروم تخرج من منطقة تسمى (جل بروجس) وبعد جريانه يمر غربا في بلاد الروم من حافة جبل يقال له (مسفينا) وينعطف نحو أربع مائة وخمسين ميلا ، ثم يتجه جنوبا وينزل الى بلاد الاسلام فيما بين مدينة ملطية وشمشاط في أقصى الشمال الشرقي لبلاد الجزيرة الفراتية ، وعندئذ يمر بمدينة (هنزيط) ويتجه غربا فيقترب من شمشاط وقلعتها الشهيرة وهو لا يزال يمضي باتجاه الغرب حتى مدينة جسر منبج، وبعد ذلك ينعطف جنوبا فيمر بمدينة بالس والركة وقرقيسياء والرحبة ، ثم يحيط بمدينة عانة وبعد ذلك يغادرها الى هيت فالانبار (٦) .

وبينما يشير الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) الى ان الفرات عندما يأتي من بلد الروم ينعطف الى العراق (ويقصد الجزيرة والعراق) في طرف الشام يذكر الاصطخري (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م) ان مخرج الفرات من داخل بلد الروم الى ملطية ثم الى شمشاط ومدينة

(٥) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ٩٣-٩٤ (مجموعة البطائح الاولى تمتد بين واسط والبصرة ، كان فيها الكثير من المواقع العالية التي ينكشف عنها الماء وتقوم عليها قرى ومزارع يكثر حواليتها القصب ويزرع فيها الرز وغيره) انظر بالاضافة الى ذلك (ابوالفداء) : تقويم البلدان ص ٤٣ . أما المجموعة الثانية فهي في موضع يسمى (كسكر) وهي في أرض الجزيرة بالقرب من نهر الخابور ويقول عنها ابن رسته ان هذه البطائح ثلاثون فرسخا ويحددها على الشكل الآتي : «حد منها جزيرة العرب وحد منها أرض ميسان وحد منها دجلة بغداد وحد منها مصب الفرات والنهر وان» الاعلاق النفيسة ص ٩٤ .

(٦) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج ص ٢٣٣ .

جسر منبج وبالس والرقّة وقرقيسياء والرحبة وهيت ثم الانبار (٧) *
ونقل ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) عبارات من سبقه في هذا
الموضوع فكتب يقول : ان مخرج الفرات من داخل بلد الروم ، الى
ملطية وشمشاط التي كانت بحوزة المسلمين ، ثم يمر على سميساط
ونواحي جسر منبج وبالس والرقّة وقرقيسياء والرحبة وهيت ثم
الانبار (٨) *

ويعد الشريف محمد الادريسي نهر الصرات بانه من الانهار
الستة الكبار التي هي النيل والدجلة والفرات (ومهران والسند
وجنجر الهند) و (بغمون الصين) و (جيحون خراسان) * ثم يعقب
فيقول ، ان الصرات يخرج من داخل بلاد الروم ومن (حومة نزاه) (٩)
من الجبال المتصلة (بقالي فلا) ثم يمر في بلاد الروم ويمتد الى (كمخ)
ويسير منها الى ملطية وشمشاط (١٠) * وهذه الاشارات وان كانت
ترجع الى القرن الرابع الهجري ، ولكنها ظلت سائدة في القرنين
التاليين مع حدوث تغييرات طفيفة ، فيذكر ياقوت في القرن السادس
الهجري ، وقد اطلع على هذه الكتابات فأوضح «ان مخرج الفرات
فيما زعموا من ارمينية ثم من قاليقلا قرب خلاط ويدور بتلك
الجبال حتى يدخل أرض الروم ويجيء الى (كمخ) ويخرج الى ملطية
ثم الى سميساط وتصب فيه انهار صغيرة مثل (سنجة) و (كيسوم)
(ديصان) و (البليخ) حتى ينتهي الى قلعة نجم مقابل مدينة (منبج) ،
ثم يسير بمحاذاة بالس ومنها الى دوسر والرقّة ورحبة مالك بن
طوق ، ثم الى عانة وهيت ، فيصير انهارا تسقى زروع السواد *
واكبر هذه الانهار نهر (سورا) و (الملك) ويطلق على الاخير اسم

(٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧١-٧٢ *

(٨) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٨٩ *

(٩) مساقط المياه - الشلالات - *

(١٠) الشريف الادريسي : كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - قسم الجزيرة
والعراق - (تحقيق ابراهيم شوكة - مجلة الاستاذ - المجلد ٥٣) ص ٢٩

(صرصر) ونهر (عيسى) بن علي و (كوثا) و (سوق أسد) و (السراة) و (الخوفة) «(١١)»، ومما يؤكّد وجود معظم روافد وتفرعات نهر الفرات في أرض الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، استمرارها حتى القرن الثامن الهجري حيث أشار إليها صاحب مراصد الاطلاع الذي عاش في هذه الفترة فذكر ان نهر الفرات يخرج الى ملطية ثم الى سميساط ، فتصب فيه انهار صغيرة مثل (سنجة) و (كيسوم) و (مرزفان) (١٢) و (البليخ) ثم يتجاوز بالس الى دوسر والرقّة ثم الى عانة وهيّت فيصير انهارا تسقي زروع السواد منها نهر (سورا) وهو أكبرها ، ويعتبر الآن عمود الفرات ، ونهر (الملك) و (عيسى) و (كوثي) (١٣) .

ومع ان هذا المرجع قد اعتمد على ياقوت في هذا المجال ، ولكن ما أورده يعزز ما ذهب اليه صاحب معجم البلدان من ان نهر الفرات قد لعب دورا كبيرا في ري وسقي هذه المنطقة وازدهار الزراعة فيها ، بجلبه الخصب الى أرضها ، وهو استمرار لما كان عليه خلال القرن الرابع الهجري فقد أشار الاصطخري والهمداني وابن حوقل والمقدسي الى أهمية النهر في ميدان الري ، مما يؤكده ياقوت وابن سعيد المغربي وأبو الفداء خلال القرن السادس الهجري ، حيث يكتثرون من القول بأن المياه واسعة أكثرها من دجلة والفرات والخابور مما جعلها تعدل في الخصب ، كما كان سكان الجزيرة واهلها رفة بخصبه ، وانها ذات اثمار وزروع ومباخس كثيرة .

ومن الرحالة الذين زاروا المنطقة واطلعوا عليها اطلاعا كافيا ، ابن سراييون ، فعلى الرغم من انه وضع كتابه في حوالي القرن الرابع الهجري ، ولكن المعلومات التي جاء بها تفيدنا حيث

(١١) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٨٦٠ .

(١٢) مقابل مدينة (ديصان) في الجزيرة الفراتية ، عند ياقوت .

(١٣) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٣٣٨-٣٣٩ .

تلقى بعض الضوء على المترة التي اعتبت وخاصة فترة القرن السادس الهجري ، فيتطرق الى مسيرة نهر الفرات بعد ان يمر بمدينة سميساط ومنها الى جسر منبج وبالس ومدينه الرقة والمبارك وهم نهر (سميد) وحرفيسياء والرحبة والداليه ثم يسير بين الروابي ، فيحادي (جبل القسوس) ثم الى مدينة عانه (والوسه والندوسه) وهي قرى صغيرة ومنها الى هيت ويذخر من الانهار التي تغذى نهر الفرات أي روافده ، نهر (ارسناس) ويطلق عليه احيانا نهر (شمشاط) وهو ينبع من احدى السلاسل الجبلية ويمر بمدينة (هنريط) ونهر (لوقية) و (ابريق) وهذان النهران يصبان فيه فوق مصب نهر (ارستاس) المذكور في أسفل مدينة كمخ في الجانب الغربي (١٤) وبذلك يكون ابن سراييون قد ذكر انهارا لم يتطرق اليها البلدانون الآخرون ، ظلت موجودة فعلا خلال القرن السادس الهجري (١٥) ، ويمضي هذا الرحالة ليكتشف بنفسه تلك الانهار التي كانت تصب في الفرات ومنها نهر يقال له (انجا) وينبع من جبل (ابريق) ونهر (جرجانية) . وقد قدر نهر (انجا) بحوالي عشرة فراسخ في الجانب الغربي ، ويصب في هذا النهر رافد آخر يقال له (قباقب) وهو نهر كبير ، تصب فيه انهار كثيرة يبدأ أولها من جوف بلاد الروم من نهر (جيجان) ، فيمر في أقصاه بين جبال وحصون وصحارى ومروج ، فيصب في الفرات من الناحية السفلى من مصب نهر جرجانية بحوالي الثلاثة فراسخ ومن الجدير بالذكر ان على نهر قباقب قنطرة عظيمة تعرف (بقنطرة قباقب) في الجانب الغربي (١٦) من المحتمل جدا انها اقيمت لغرض الري كتنظيم مجرى المياه وتوزيعها .

(١٤) ابن سراييون : كتاب وصف ما بين النهرين وبغداد (مخطوطة محفوظة في

المتحف البريطاني ، نشرها كي لسترنج في مجلس الجمعية الآسيوية الملكية

في انكلترا - عدد اكتوبر سنة ١٨٩٥) الورقة ٢ ، ٣ .

(١٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٨٦٠ .

(١٦) ابن سراييون : نفس المرجع السابق الورقة ٤ .

وبالاضافة الى ذلك فمن الانهار التي ذكرها . ياقوت مما يصب في الفرات هو نهر (البليخ) الذي يقع في ارض حرّان من عين يقال لها (عين الذهبانية) (١٧) ويروى الضياع والرساتيق والبساتين المنتشرة هناك ثم يسير الى (باجدى) (١٨) وحصن . مسلمة وياجروان والرقّة وهي من مدن الجزيرة ، ثم يصب في الفرات أسفل مدينة الرقة السوداء (١٩) في الجانب الغربي ويصب في الفرات نهران يجتمعان في موضع واحد يقال لاحدهما (الخابور) والاخر (الهرماس) وينبع الاول من عين (الزاهرية) في مدينة رأس العين والثاني من موضع يقال له (طور عبيد) في أرض مدينة نصيبين . ويعرف الهرماس بنهر نصيبين أيضا ، وهو يسقى ضياع رأس العين وبساتينها وعند التقائه بنهر الخابور يصبح نهرا واحدا حيث يروى البساتين والاراضي في شمال قرقيسپاء ثم يصب في الفرات في الجانب الشرقي . ويتفرع من الهرماس نهر يقال له (الثرثار) يبدأ من منطقة تفرعات نهر (سكير العباس) (٢٠) ثم يجري في مناطق سهلية خالية بالحضر (٢١) ويقطع جبل (بارما) (٢٢) . وينذكر ابن رسته والاصطخري في القرنين الثالث والرابع الهجريين معلومات يؤكدانها ياقوت في القرن السادس الهجري «ان نهر نصيبين ينبع من شعب

-
- (١٧) موضع قرب الرقة فيه مشهد يزار وعليه وقوف وغنمه عين نهر البليخ الذي يجري في بساتين الرافقة . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢٥ .
- (١٨) قرية كبيرة بين رأس العين والرقة فيها سور وبساتين تسقيها عين تنبع من وسطها يشرب منها الناس وما فضل يسقى زروعها . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٣ .
- (١٩) قرية من قرى الفرات ، تميزها لها عن الرقة البيضاء ، وهي من مدن الفرات الكبيرة .
- (٢٠) وهو اسم للسدود التي تسد بها فوهات الانهر ، وهي بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٩ .
- (٢١) اسم مدينة بازاء تكريت في البرية بينها وبين الموصل والفرات . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٨١-٢٨٢ .
- (٢٢) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٣ .

جبل يعرف (ببالوسا) حتى ينبسط في بساتينها ومزارعها * ويجعلها
انزله مجان ، وكلما يبتعد عن المدينة فانه يروى مباحس كثيرة» وقد
ساعد ذلك على انتشار اديرة وصوامع النصارى في تلك المنطقة وان
نهر الترتار هو نهر جار مادته من الهرماس ويروى البساتين
والضياع والمباحس الكثيرة ، ويصبه ياقوت بانه «كان نهرا عظيما،
عليه قرى وجنان ومادته من الهرماس (نهر نصيبين) وتصب فيه
أودية كثيرة ، ويقال ان السفن كانت تجرى فيه» (٢٣) *

كما يذكر بصورة أكثر وضوحا في موضع آخر من كتابه «بانه
واد عظيم اذا شئت الامطار ، فاما في الصيف ، فليس فيه الا مناقع
ومياه حاميه وعيون قليلة ملحة ، وتنصب اليه فضلات من مياه
الهرماس ، ويقال ان السفن كانت تجرى فيه ، وكانت عليه قرى
كثيرة وعمارة ، فاما الان فهو كما وصفت» (٢٤) *

اما صاحب تقويم البلدان فلا يذكر سوى انه «يتشعب من
الهرماس الذي يصب الى الفرات ويمر بالحضر في برية سنجار ويصب
في دجلة اسفل من تكريت وقيل فوق تكريت بفرسخين» (٢٥) * ويؤكد
صاحب مراصد الاطلاع ما كتبه ياقوت من أن «الترتار واد عظيم
بالجزيرة ، يمد اذا كثرت الامطار ، فاما في الصيف ، فليس فيه الا
مناقع ومياه حاميه وعيون قليلة ، وكانت عليه قرى كثيرة وعمارة
خربت» (٢٦) *

والواقع ، ان وادي الترتار في الوقت الحاضر ، هو واد طويل
تنتهي اليه وديان كثيرة تنحدر من جبال سنجار وماجاورها ، ويبلغ
طوله (٣٠٠) كم تقريبا وعرضه (٤٥) كم وارتفاعه يتراوح بين

-
- (٢٣) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٨١-٢٨٢ *
(٢٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ١/٩٢١ *
(٢٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٥٥ *
(٢٦) ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١/٢٢٦ *

(٢٢٥) م في الشمال الى حوالي مستوى سطح البحر ، بالقرب من بحيرة الثرثار التي ينخفض قاعها ثلاثة أمتار تقريبا ، تحت مستوى سطح البحر (٢٧) .

ب - روافد نهر الفرات :

كان لنهر الفرات روافد مهمة عديدة في بلاد الجزيرة الفراتية ، فيشكل نهر «البليخ» رافدا مهما من تلك الروافد ، وقد أقام الأمير الاموي مسلمة بن عبد الملك ، في احد مواضع هذا النهر ، سدا ارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعا ، وكان الماء يتدفق تحت هذا السد فيشكل تفرعات تسقى بساتين وقرى منطقة الرقة ، ثم لا تلبث هذه التفرعات ان تصب في نهر الفرات تحت مدينة الرقة بميل واحد .

ويقدم ياقوت تفصيلا دقيقا عن هذا السد بقوله : ان مسلمة ابن عبد الملك قد بنى بالقرب منه مخزنا للمياه طوله مائتا ذراع وعرضه مائتا ذراع وعمقه عشرين ذراعا ، معقود بالحجارة ، ويجري تخزينه من احد تفرعات نهر البليخ في كل سنة مرة واحدة ، وعند ملئه ، سيكون كافيا لاغراض السكان وسقى وري بساتينهم وأراضيهم ، وتبعد مصباته عن النهر بحوالي خمسة اميال (٢٨) .

وعلى الرغم من ان ياقوتا لم يشر الى وجود هذا السد في القرن السادس الهجري صراحة ، ولكن المعلومات التي أوردها في كتابه عنه والتي تعتمد على المشاهدة والمعاينة ، تمكننا من القول باطمئنان ، ان هذا المشروع المهم للري كان قائما في هذه الفترة .

(٢٧) جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ص ٥٥ .

(٢٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٨ .

ومن روافد النهر الاخرى ، نهر الخابور الكبير الذي يقع في منطقة من أرض الجزيرة الفراتية ، يصفها ياقوت بقوله : «انها ولاية واسعة وبلدان جمة - غلب عليها اسمه فنسبت اليه من بلاد قرقيسيا وماكسين والمجدل وعرايات» (٢٩) ومنبع هذا النهر من موضع يسمى رأس العين وسط بلاد الجزيرة * ومنبعه في الحقيقة من مجموعة من العيون ، ثم ينضاف اليها فاضل نهر الهرماس (نصيبين) ويكون مع هذا النهر نهرا كبيرا يمتد فيسقى هذه البلاد ثم ينتهي الى قرقيسيا حيث يصب في الفرات (٣٠) *

وأشهر هذه العيون التي تكون نهر الخابور هي أربعة (عين الآس وعين الصرار وعين الرباحية وعين الهاشمية) وفيها فضلا عن ذلك عين يقال لها (عين خسفة سلامة) (٣١) وتجتمع هذه العيون فتسقى المدينة ثم تصب في الخابور (٣٢) *

وشاهد ابن جبير في رحلته سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م منطقة مدينة رأس العين فكتب يقول : ان الماء يتفرع عند العين التي تقع عليها المدينة الى فرعين : فرع في الجهة اليمنى يشق خانقاه مبنية للصوفية والفرع بازاؤه والفرع الآخر في الجهة اليسرى ، يسير في جداول وتفرعات الى مرافق المدينة وضواحيها ، ثم تلتقي هذه الفروع

(٢٩) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٣٨٣ *

(٣٠) . ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٣٨٣ *

(٣١) . يذكر ياقوت «ان في هذه العين سمك كبار ينظره الناظر كان بينه وبينه شبر ، والحقيقة ان بينه عشر قامات ، وعين الصرار التي نثر فيها الخليفة المتوكل العباسي عشرة آلاف درهم ، ونزل أهل المدينة فأخذوها لصقاء الماء» * معجم البلدان ج ٢ ص ٧٣١ *

(٣٢) . وهناك عين تسمى (الزاهرية) وكانت الزواريق الصغار تدخل اليها والى عين (الهاشمية) والناس يركبون فيها الى بساطينهم والى قرقيسيا ان شاءوا ، أما الآن فليس هناك سفينة ولا يعرفها أهل رأس العين مع ان الماء كثير وهو يحمل سفينة صغيرة * ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٧٣١ *

مع النهر الرئيسي الذي تجرى فيه مياه العين ، وقد بنيت في مكان التقائهما وعلى شاطئيه بيوت من حجارة (الارحاء) (٣٣) الصلدة (٣٤) . وعند تجواله في هذه المنطقة شاهد العيون الاخرى التي تحف بها اشجار وبساتين قد انتطمت حافتيها الى آخر انتهائها (٣٥) .

وهذه القنوات التي اقيمت في مدينة ميفارقين ، ظلت قائمة خلال القرن السادس الهجري وكان ابن شداد قد اشار الى انشائها في القرن الرابع الهجري فقال : ان اهل ميفارقين كانوا يشربون من الآبار ، فاجرى سيف الدولة الحمداني من العين التي بالربض المعروفة برأس العين ، قناة وساقها في وسط البلد ، ثم شق مجرى لها من باب الربض الى ما بين السورين واجراها في المدينة وغرس بستان القصر ، ثم أوصل الماء الى القصر من رأس العين التي بالربض (٣٦) وقد عهد سيف الدولة الحمداني بانجاز هذا المشروع الى شخص يدعى (ابن شليطا) وهو رجل نصراني ، حيث شرع بشق القناة تحت المسجد من رأس العين الى وسط الربض من الجانب

(٣٣) وهي الحجارة التي كانت تستعمل لطحن الحبوب وتمتاز بصلابتها وهي موجودة في المناطق الجبلية من أرض الجزيرة الفراتية .

(٣٤) وبمقربة من ذلك مدرسة بازائها حمام يقول عنه ابن جبير : «ما أرى في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لأنها في جزيرة خضراء والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب والمدخل اليها من جانب واحد وأمامها ووراءها بستان وبازائها دولا بيلقى الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر وشأن هذا الموضع عجيب جدا فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، أن يكون لها مثل هذا الموضع جملا أو تتحلى بمثل هذه العيون» . رحلة ابن جبير ص ٢١٨ .

(٣٥) واعظم هذه العيون عينان : احدهما فوق الاخرى : العليا منهما تابعة فوق الارض في صم الحجارة حيث يخرج ويسيل نهرا كبيرا ، كأكبر ما يكون من الانهار وينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها . والعين الثانية تابعة تحت الارض من الحجر الصلد بنحو أربع قامات ويتسع منبعها حتى يسيل على وجه الارض وماؤها اصفى من الزلال ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون السمك . رحلة ابن جبير ص ٢١٧ .

(٣٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٦٩ أ - ٦٩ ب .

الشرقي ثم أوصلها الى تحت البرج ، وقد انفقت على هذا العمل
أموال طائلة (٣٧) .

كما ورد انه كان في مدينة ميفارقين تاجر يسمى أبا بكر محمد
ابن جري، شرع هو الآخر في حفر قناة الجامع من عين (حنباص) بعد
استئذانه الامير نصر الدولة وأوصلها الى أطراف المدينة من الجانب
الغربي ثم الى السور ومدها الى بستان الفصيل والى ما بين السورين
ثم الى السور الكبير عند الينبوع ثم الى وسط المدينة وعمل لها تسعة
أنابيب وأدخل المياه الى الحمامات وغيرها ، وقد انفق عليها حوالي
الخمس مائة ألف دينار (٣٨) .

ج - نهر دجلة وروافده :

أما نهر دجلة فلم يختلف البلدانانيون والجغرافيون العرب في
تحديد منابعه الا قليلا ، وتتفق معلومات هؤلاء البلدانانيين
والجغرافيين من أهل القرن السادس الهجري الى حد ما مع المعلومات
التي جاءت في القرن الرابع الهجري فيما يتعلق بتحديد منابع نهر
دجلة وجريانه . فابن خردادبه يشير الى ان مخرجه من جبال
السلسلة (٣٩) الواقعة في هضبة الاناضول ، وقدامة بن جعفر يقول
« ان انبعاثها من عين تمر بين جبلين عند مدينة آمد ، ثم تسير الى
مدينة بأسورين ، حتى تبلغ مدينة بلد » (٤٠) . وينوه الاصطخري الى
ان « مخرج دجلة فوق آمد من بلد الروم » (٤١) ، أما المقدسي فيذكر ان

-
- (٣٧) الفارقي : تاريخ الفارقي ص ١٦٤-١٦٥ .
(٣٨) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١٦٤-١٦٥ .
(٣٩) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ١٧٤ .
(٤٠) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج ص ٣٣٢ .
(٤١) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٢ . وقال المسعودي « ان دجلة تخرج
من جبال آمد من ديار بكر » مروج الذهب ج ١ ص ١١٩ .

«منابع دجلة تحت رباط ذي القرنين من كهف الظلمات» (٤٢) .
بينما يذكر ياقوت ان منابع دجلة من مكان فيه عين اسمها
«عين دجلة» بالقرب من آمد وبالتحديد بالقرب من موقع يعرف
بـ«هلورس» من «كهف الظلمات» (٤٣) .

ومهما يكن من امر فان منابع دجلة بالقرب من مدينة آمد عند
حدود بلاد ارمينية، وبعد اجتيازها الجبال المعروفة بجبال الجزيرة
يصب فيها رافد يعرف بـ (نهر بيرني) وهو يقع على الحدود المشتركة
بين ارمينية والجزيرة، وبعد دخولها أرض الجزيرة، يوافيها رافد
آخر وينصب فيها وهو نهر (بايناثا) (٤٤)، وعند وصولها مدينة
جزيرة ابن عمر، يصب فيها رافد ينبع من ارمينية يعرف بـ (البؤيار)،
وبعد ان تتوسط بين (باسورين) والجزيرة يصب فيها الوادي
المعروف بوادي (دوشا) الذي يخرج من منطقة الزوزان فيما بين
أرمينية واذربيجان، ثم تسير متوغلة في أرض الجزيرة . فيصب
فيها نهر الخابور - وبعد أن تستقيم في سيرها تصل الى مدينة
الموصل، فيصب فيها من الغرب نهر الزاب الاعظم (الذي هو نهر
العظيم الحالي)، وهو ينبع من جبال اذربيجان ويتكون في باديء
الامر، من فرعين هما (زركون) و (بابغيش) ثم بعد اجتيازها مدينة
(حديثة) بفرسخ ومدينة (السن) يصب فيها نهر الزاب الاسفل
وهو ينبع من أرض (شهرزور) (٤٥) .

-
- (٤٢) يقول أيضا ان «باب الظلمات باقليم آقور فوق الموصل» المقدسي البشاري
ص ١٤٤ ثم أنظر القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٢٠ .
(٤٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٥١ وانظر ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع
ج ٢ ص ٥١٥ .
(٤٤) وهي قرية كبيرة كالمدينة من انزه المواضع تشبه بدمشق، ذكرها ابوتام
في شعره فقال :

ولا اعتمادك كنت ذا منلوحة عن برقيد وارض بايناثا

ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٢-٤٧٣ .

ومما هو جدير بالملاحظة ، ان صاحب مراصد الاطلاع يزعم ، ان نهر (الكلاب) أحد روافد دجلة ، يصب فيه أثناء اقترابه من (سميساط) (٤٦) ، وفي الواقع ان هذا النهر هو احد روافد نهر الفرات يصب فيه شمال مدينة (شميشاط) ومن الوديان التي كانت تصب في دجلة وادي (صلب) ، وهو واد بين آمد وميافارقين ثم وادي (باسنفا) ثم وادي (السربط) وهو ينبع من أرمنية ، وبعد انحداره جنوب مدينة جزيرة ابن عمر ، يصب فيه واد يعرف بالبوازيج (٤٧) .

ويروى المنطقة الشرقية من دجلة ببساتينها وضياعها ، انهار اطلق عليها ياقوت اسم الزوابي (جمع زاب) ومنها الزاب الاعلى الذي يقع بين الموصل واربل وينبع من منطقة (مشتكهر) على الحدود بين اذربيجان وبافغيش - من عين في رأس جبل - ينحدر الى واد ويجري في جبال وأودية حتى يصل الى (باشزي) (٤٨) ، ثم الى كورة (المرج) وهي من كور الموصل ، يفيض في دجلة على بعد فرسخ من مدينة حديثة ويسمى هنا (بالزاب المجنون) لشدة جريه ، أما الزاب الاسفل ، فهو ينبع من جبال (السلق) (٤٩) التي تقع بين شهرزور واذربيجان ثم يمر الى ما بين دقوقا واربل ويكون قد قطع مسافة بينه وبين الزاب الاعلى تقدر بمسيرة يومين أو ثلاثة وبعد امتداده يفيض في دجلة عند مدينة (السن) (٥٠) . وجاء عند ياقوت ، ان بين

(٤٥) وهي كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمدان ، وأهل هذه النواحي كلهم

أكراد ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٥٥٢ ، ج٣ ص ٣٤٠ .

(٤٦) ويقول : ان دجلة نهر عظيم مشهور - ويسميه (البقر الصغير) . ابن

عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص ٣٩١ .

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٧٥٠ ثم انظر : ابن عبدالحق : مراصد

الاطلاع ج١ ص ٣٩١ .

(٤٩) وهو جبل عال مشرف على الزاب متصل بشهرزور يعرف (بسلق بني

الحسن) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص ٤٤-٤٥ .

(٥٠) (سن بارما) ، مدينة على دجلة فوق تكريت عند مصب الزاب الاسفل .

والسن قلعة بالجزيرة قرب سميساط ويعرف السن ابن عطي . ابن

عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص ٦٠ .

بغداد وواسط ، زابان آخراڻ أفضا ويسميان الزاب الاعلى والزاب الاسفل ، الاول بالقرب من مدينة (قوسين) وهو كما يظن ياقوت ، يأخذ ماءه من الفرات ، ويصب عند قرية (زرفامية) وقصبة كورثة النعمانية على دجلة ، أما الزاب الاسفل فقصبته نهر سابس قرب مدينة واسط . وهناك زاب النعمانية أيضا ، وعلى كل واحد من هذه الزوابي عدة من القرى والبلدان (٥١) .

ويوضح أبو الفدا ان الزابين «وهما نهران كبيران ، اذا جمعا يكونان نحو نصف دجلة ، وأكبر الزابين هو الذي يجري بعد مدينة حديثة ، وينبع من قرب جبال اذربيجان ومن بلاد الجزيرة ، حصن مسلمة والعمادية ، ومنبعه من عين على قمة جبل» ويروى بعد تدفق مياهه وانسيابها الى أسفل الجبل ، البساتين في شمال أربل وقرية (ثامنين) في الجهة الشمالية لمدينة العمادية ، ثم يصل الى قرية (كشاف) (٥٢) حيث يسقى مروجها الكثيرة ومراعيها (٥٣) ، وما ذكره أبو الفدا هو استمرار لما كان عليه في القرن السادس الهجري . أما خابور الحسينية ، فهو واحد من روافد دجلة ، شمال الموصل وقد وصفه ياقوت «بأنه نهر من الجبال» يقوم بارواء القرى والمزارع في المنطقة الشمالية لمدينة الموصل ، ويغذيه فرع يصب فيه ، في غرب مدينة الحسينية . وينبع هذا النهر الذي يطلق عليه أحيانا (الخابوران) من أرض الزوزان ، كما جاء في ياقوت نقلا عن المسعودي «ان منبعه من أرض أرمينية» ، ويصب هذا النهر في دجلة

(٥١) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٩٠٢ .

(٥٢) وهي قلعة عامرة بين الزاب والشط قريبة من مصبه في الشط ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٥ ، وفي مراصد الاطلاع «قلعة عظيمة يسكنها النصاري» ج٢ ص ٤٩٩ .

(٥٣) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص ٤٩٩ .

بين بلاد (باسورين) و (قيسابور) (٥٤) من بلاد (قردي) (٥٥) من أرض الموصل (٥٦) .

وبينما نقرأ ان جميع انهار الفرات تغذيه بالمياه ، وهي روافد دائمة له نسمع ، ان هناك نهرا يتزود من دجلة بالمياه ، وهو نهر (القاطول الاعلى) الذي يروى المزارع ويسقى القرى في الجهة الغربية لدجلة ، حتى يمر بقرية يقال لها (صولي) فاذا تجاوزها سمى (بالنهر وان) (٥٧) ، وهناك اشارة في تقويم البلدان يفهم منها انه كان موجودا في فترة القرن السادس الهجري ، حيث ما يزال يمر بالقرى والبلدان في تلك المنطقة فيسقيها ، ثم يعود ليصب في دجلة ، أسفل من مدينة (جرجرايا) (٥٨) في الجانب الشرقي (٥٩) . ولعل هذا النهر هو نفسه نهر (الغراف) الحالي الذي يأخذ مياهه من نهر دجلة ، قرب مدينة الكوت الحالية ، فيروى الاراضي الواقعة بين

(٥٤) بليد من نواحي الموصل ، من ناحية جزيرة ابن عمر . ابن عبدالحق ، مرصد الاطلاع ج٢ ص ٣٧٢ .

(٥٥) قرية في شرق دجلة ، ومن أعمال الجزيرة تنسب اليها ولاية كبيرة نحو مايتي قرية منها الجودي وثمانين ، ومن نواحي قردي ، فيروز ، سابور وهي قرية كبيرة فيها عمارات واسعة وآثار ، ياقوت ، معجم البلدان ج٤ ص ٥٦ .

(٥٦) ياقوت ، ج٢ ص ٣٨٤ ، ابن عبدالحق ، مرصد الاطلاع ج١ ص ٣٣٣ .

(٥٧) يقول جعفر خصبك ، ان هناك مشروعا بهذا الاسم ، وكان من أعظم مشاريع الري في عراق القرون الوسطى ، يجري مسافة طولها حوالي ثلاثمائة متر ويبلغ عرضه في بعض أقسامه مائة وعشرين مترا بعمق عشرة أمتار في بعض النقاط ، ويسير ما بين القائم ، الى موقع الكوت الحالي (شرق بغداد بحوالي ١٠٠ كم) جعفر خصبك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٥٧ .

(٥٨) تقع على دجلة الجنوبية ، وقد كانت عظيمة وهي اليوم مختلة متقطعة العمارة .

أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٣٢ .

(٥٩) أبو الفداء : نفس المرجع السابق ص ٥٥ .

دجلة والفرات الى جنوب بغداد • والمعروف ان هذا النهر لا يصب في الفرات •

وعلى الرغم من وجود رافد آخر لنهر دجلة هو نهر (ديالى) الحالي الذي يصب فيه جنوب بغداد بمسافة عشرة كيلومترات وهو ما يزال متدفق المياه في الوقت الحاضر ويروى اصقاعا واسعة ، فان اخبار هذه الفترة لا تشير اليه ، ويبدو انه كان جافا آنذاك •

ولدينا بعض المعلومات القليلة فيما يتعلق بوجود العيون والآبار الافقية ، والاخيرة يقوم الانسان بحفرها وكان يطلق عليها اسم (الكهاريز) وكانت سائدة الاستعمال في تلك المنطقة ، ومن المرجح جدا ان نهر ديالى الذي يخترق هذه المنطقة كان من الوديان الجافة العديمة الجريان طول أيام السنة ، فيما عدا اشارة واحدة في مراصد الاطلاع (٦٠) لا يمكن الاعتماد عليها ، لانها لا تلقي ضوءا كافيا على هذا النهر ولا تقدم صورة واضحة عن دوره في مجالات ارواء المنطقة ، يؤيد ذلك عدم اشارة البلدانين والمؤرخين اليه •

٢ - الامطار :

اعتمدت الجزيرة الفراتية الى جانب الانهار وروافدها وتفرعاتها على الامطار وسيلة مهمة من وسائل الري ، وخاصة في المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية (٦١) وحتى في بعض السهول والمنحدرات والمناطق الواقعة بين سلاسل الجبال ، ولذلك فان مناطق واسعة كانت تعتمد اعتمادا كلياً منذ وقت متقدم وحتى خلال القرن السادس الهجري على مياه الامطار ، فيذكر البلاذري أنه

(٦٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٥٠ ، ج ٢ ص ٥٤٨ •

(٦١) تتجلى أهمية المناطق الجبلية ، في تكوينها الثلوج وذوبانها في فصل الجفاف مما يجعل جريان المياه في الأنهار مستمرا تقريبا •

لما بلغ المسلمون الفاتحون ، الفرات كانت (بالس) والقرى المنسوبة اليها في حدها الاعلى والاوسط والاسفل اعذاء(٦٢) عشرية(٦٣) . ويشير الاصطخري الى ان مدينة جسر منبج البعيدة عن الانهار كان يغلب على مزارعها الاعتماد على الامطار فامتازت أرضها بالخصوبة(٦٤) .

ونقرأ في معجم البلدان ما يشير الى ذلك أيضا ، فقلعته الجديدة التي تقع في كورة بين النهرين على الطريق الذي يربط الموصل بنصيبين وهي قلعة قديمة أرضها خصبة جدا ومتصلة بأعمال حصن كيفا ولها قرى ومزارع وبساتين كثيرة تعتمد على الامطار(٦٥) .

ويعزو ابن الاثير سبب موجات الغلاء التي كانت تجتاح مدن الجزيرة والموصل بصورة خاصة خلال الربع الاخير من القرن السادس الهجري ، الى قلة الامطار أو انقطاعها أو تذبذبها بين وقت وآخر ويمضي هذا المؤرخ فيقول «انها كانت تجيء في الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الري للزرع ، فجاءت الغلات قليلة»(٦٦) كما ذكر في حوادث سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م ، ان الامطار قلت بديار الجزيرة والشام وغلت الاسعار بالبلاد ، وكذلك الحال في السنين التالية حيث ينقطع المطر فيزداد الغلاء(٦٧) .

(٦٢) الزروع التي يرويها المطر . البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٠٥ .
(٦٣) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٠٥ . ويبدو ان الامطار كانت تنقطع في فترات مما جعل أهل بالس ونويلس وقاصرين وعابدين وصفين وهي ثغور الجزيرة الفراتية مع بلاد الروم ، يطلبون من القائد الاسلامي مسلمة ابن عبد الملك الذي غزاها أبان الفتوح الاسلامية ، أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقي أراضيهم ، ففعل فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة . .
(٦٤) منبج مدينة في بركة ، الغالب على مزارعها الاغذاء وهي خصبة . الاصطخري مسالك الممالك ص ٧٤ .

(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢ يقول «ان أكثر زروعهم العدى» .

(٦٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٢٤ .

(٦٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٢٤ .

ان اشارات ابن الاثير الى العلاقة بين سقوط الامطار أو ندرتها أو انقطاعها وبين أسعار المواد الغذائية الزراعية تساعدنا على الاستنتاج بأن ذلك كان يجري في جميع الفترات السابقة لاشاراته وفي المناطق التي تعتمد في زروعها على مياه الامطار .

وأشار ابن خلكان الى حدوث موجة مفرطة من الغلاء سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م في الموصل ، ولم يذكر اسبابها (٦٨) ، غير ان ابن الاثير قال «اشتد الغلاء سنة ٥٧٥هـ وعم أكثر البلاد ، العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر وديار الشام ، وكان السبب قلة الامطار ، وقد دام ذلك أكثر هذه السنة ، واشتد المطر فرخصت الاسعار ووجدت الاقوات بعد أن كانت معدومة» (٦٩) .

أما (سمرت) وهي مدينة تقع في الشمال الشرقي من دجلة بالقرب من ميفارقين، وتحيط بها الوطاة من كل جانب، فيجري ري جميع بساتينها وأراضيها بواسطة مياه الامطار ، التي كانت كما يبدو تسقط بانتظام ، وبكميات كافية (٧٠) . وكذلك الحال بالنسبة لمدينة (غرسة) التي تقع في كورة بين النهرين بين الموصل ونصيبين، التي تعتمد على مياه الامطار التي تخص المنطقة (٧١) .

ويبدو ان هناك احتياطات كانت تتخذ في المناطق التي تعتمد في ريها على الامطار ، ضد موجات الثلوج والبرد التي تجتاح المنطقة في فصلي الشتاء والربيع ، وان هذه الاحتياطات كانت تستغرق الفصول الزراعية ، أي انها كانت دائمية ، يؤكد ذلك عدم

(٦٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٢٢٩ .

(٦٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٧٨ .

(٧٠) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٨٩ .

(٧١) ابن عبد الحق ، مرصد الاطلاع ج٢ ص ٣٠٧ . وعلى رأس جبل (طورزيتا) بالقرب من مدينة رأس العين عند قنطرة الخابور «شجر زيتون عذري يسقيه المطر ولذلك سمي طورزيتا» أنظر ياقوت ، معجم البلدان ج٣ ص ٥٥٨ .

إشارة البلدانيين والرحالة والمؤرخين ، الى تعرض تلك المناطق •
وعلى الرغم مما كنا نسمعه في المراجع من حدوث موجات من هذا
القبيل في بلاد الشام وفارس وأرمينية وبلاد الروم ، فلم نعثر سوى
على اشارتين ضعيفتين لا تساعدان الباحث على الاستنتاج وتقديم
صورة دقيقة ومتكاملة عن ذلك ، فيذكر ابن الاثير في حوادث ٦٢٣ هـ
/ ١٢٢٥ م وهو يتكلم عن الموصل «ونزل بها برد كثير أهلك زروع
أهلها وأفسدها» (٧٢) • وفي (٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م) «سقط الثلج بالموصل
مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله - فأهلك الازهار التي
خرجت كزهر اللوز والمشمش والاجاص والسفرجل وغيرها» (٧٣) •

٣ - القنوات والعيون والسدود والدواليب والآبار :

عمد سكان القرى وأصحاب الزروع والبساتين في مناطق
الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ، الى اتخاذ وسائل أخرى
للري تتوفر لها الامكانيات اللازمة لارواء مزارعهم وحقولهم
وايصال المياه اليها عند الحاجة ، فشقوا القنوات والسدود
والبرك (٧٤) وخزانات المياه لهذا الغرض •

وتحدثنا المصادر أنه منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهاية
القرن الثامن الهجري ، كان سكان الجزيرة الفراتية في السهول

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ج٢ ص ١٩٣ •

(٧٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤١٨ •

(٧٤) من البحيرات والبرك التي يذكرها المؤرخون بحيرة (المنخرق) وبركة (الغدران)
فالاولى بين ماكسين والفرات مساحتها أكثر من مساحة جريب مربع وهي
عميقة ، وقد جرت محاولة مبسطة لمعرفة مدى عمقها وفشلت ، حيث جيء
بحبل طوله مائتين ذراع وضعت في طرفه ائقال ، فظهر انها أعمق من ذلك •
(ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩١) • والاخرى تقع في منتصف الخندق
الكبير الذي يواجه مدينة ميافارقين وتصب فيها ما يناهز الستين بركة
صغيرة تحيطها ، وأصل مائها من العيون المنتشرة هناك وخاصة عين
حنباص : (ابن شداد الاعلاق الخطيرة - مخطوطة - الورقة ١٧١ (٧١ب) •

المحصورة بين المناطق الجبلية أو القاطنون على ضفاف الانهار ، أو في وسط الجزيرة ، كانوا ينشطون في ابتداع الطرق والاساليب لري أراضيهم ومزارعهم وقد كان يتم ذلك بجهودهم ومبادراتهم أو تحت اشراف وحماية سلطة الامراء والملوك الاتابكة أو الاراتقة فيذكر مجهول من أهل القرن السادس الهجري ان «ماردين حصن حصين منيع لا يرام مبنى على قلة جبل شاهق في الهواء ، وهو مشرف على تلك الجبال من جميع الجهات ، وتحتته من الناحية الجنوبية ريش عامر مياههم من عيون مجرورة في قنوات ، وقد استحدثوا الآن الصهاريج والبرك ، ليجمعوا ماء المطر(٧٥) لري أشجارهم ومزارعهم» .

أما حصن مسلمة بن عبد الملك فيمثل مشروعا للري ، أقيم بالجزيرة الفراتية بين مدينة رأس العين والرقعة ، ويبعد بمسافة ميل ونصف عن نهر البليخ وذلك بناء على طلب سكان مدينة بالس(٧٦) ، ويبدو ان هذا الاثر الاروائي بقي قائما حتى خلال القرن السادس الهجري .

وأشار ياقوت الى القنطرة العظيمة التي عدها من عجائب الارض والتي بنيت على نهر (صنجة) الذي يجري بين ديار مضر ودياربكر(٧٧) ، ويبدو انها كانت توزع الماء أو تحصره فيرتفع وعندئذ يمكن التحكم فيه والاستفادة منه لارواء الاراضي الواقعة بعدها ، كما جاء ذكر لوادي (خوسر) الذي يقع في شرق مدينة الموصل .

(٧٥) الكلام هنا معلق من أهل القرن السادس الهجري ضمن كتاب صورة الارض لابن حوقل بملاحظاته وردوده على ما جاء به أصل الكتاب ص ٢٠٢ .

(٧٦) انظر ص(٨) ، ١٧٢ من هذا الفصل .

(٧٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٩ .

ويصب في دجلة ، وقد كان مجراه من قرية (باجباره) (٧٨) المعروفة مقابل الموصل «تحت قناطر فيه الى الآن» (٧٩) .

ولا بد لنا من الاشارة الى السدود التي كانت موضوعة على فوهة الانهار عند مدينة (سكير العباس) (٨٠) والتي تمثل مشروعا للري ينظم توزيع المياه ويتحكم فيها ، حيث ترتفع مناسيبها في هذه الانهار فوق مستوى الاراضي الزراعية التي تقع على ضفافها ، أو حتى الاراضي البعيدة عنها فتدخل في الجداول المعدة لهذا الغرض . ومن الملاحظ أن فكرة بناء مشاريع الري الحديثة متشابهة مع هذه الفكرة الى حد كبير مع تطويرها .

ويصف ابن شداد في القرن السادس الهجري ، الابواب التي ركبت على النهرين في مدينة سنجار فالنهر الاول يعرف ب(دار العين) والآخر يخرج من «ثرة» في البلد تسمى (عين الاحتات) ، ولها أربعة ابواب ، ثلاثة منها في جنوب المدينة وهي (باب الماء) و (الباب العتيق) و (الباب الحديد) أما الباب الرابع ففي شمالها وتسمى (باب الجبل) (٨١) ، ويبدو ان هذه الابواب كانت تنظم دخول المياه وانصرافها الى خارج المدينة حيث تذهب لأرواء الاراضي والمزارع التي اشتهرت بها مدينة سنجار (٨٢) .

(٧٨) «قرية كبيرة عامرة ، وكان نهر الخوسر قديما يمر بها تحت قناطرها ، باقية الى هذه الغاية وجامعها مبني على هذه القناطر ، رأيتها غير مرة» .
ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص ٤٥٢ .

(٧٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٤٩٨ ، ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج١ ص ٣٧٤ .

(٨٠) وهي بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق . ياقوت : نفس المرجع السابق ج٣ ص ١٠٩ .

(٨١) ابن شداد الاعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة - قسم الجزيرة - مخطوطة الورقة ٤٥ ١ .

(٨٢) يذكر ياقوت ان القناة هي كورة بسنجار من جهة البرية سميت بذلك لان شربهم وشرب زروعهم من القنوات المستنبطة من تحت الارض .
المشترك وضعاً والمفترق صقعا ص ٣٥٨ .

أما القناة ، التي كانت توصل المياه من عين (رأس العين) وتقطع مدينة ميفارقين ، والقناة الأخرى من عين (حنباص) إلى طرف المدينة وضواحيها وقراها ، فقد كانتا مشروعين للري يشكّلان أهمية كبيرة لا جدال فيهما ، لمنطقة ميفارقين ، فالمشروع الأول يزود المدينة بالمياه ، أقامته سلطة الإمارة ، والثاني يقوم بعملية ري الأراضي والمزارع وسقي البساتين القريبة من المنطقة أقامه أحد أعيان التجار الموسرين (٨٣) ، ويشير الفارقي ، إلى ما قام به ، أمير ميفارقين وآمد في نهاية القرن الخامس الهجري ، حيث «عمل دولابا على الشط يزود المدينة بالمياه ، كما حفر البرك والسواقي ، لسقي البساتين والزروع ، وأقام «المصنع» الذي هو بئر كبير تتفرع منه ، وقنوات في بستان الرئيس علي بن منصور بن كك وحفره إلى أن ظهر فيه الماء وأحسن عمارته» (٨٤) .

ويبدو أن المصنع الذي ذكره الفارقي إنما هو بئر كبير ، وهو يتصل بمجار ، ويعمل على توفير المياه لحاجة السكان أو لأغراض الري وقد ظل قائما في القرن السادس الهجري . وذكر ياقوت أن مدينة أربل «كانت أكثر زروعها تقوم على القنى المستنبط تحت الأرض» (٨٥) وكان أهل مدينة «الرحبة» وهي بلدة صغيرة على نحو فرسخ من الفرات ، يستقون من «قناة» تتصل بنهر سعيد الخارج من الفرات (٨٦) . كما فعل سكان مدينة سنجار فقد أشير إلى أن مياههم كثيرة من «الفنى» (٨٧) (جمع قناة) وأهل ماردين ، وهي قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، وتشرف على دنيسر

(٨٣) أنظر ص ١٦٧ .

(٨٤) وقال أيضا «وعمل فيها كل ما يراد ، وهي أنزه المواضع وأحسنها» .

التاريخ ص ١٤١ .

(٨٥) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٨٦ .

(٨٦) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٨١ .

(٨٧) أبو الفداء : نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ .

ونصيبين «أكثر شربهم من صهاريج معدة في بيوتهم» (٨٨) أما ري مزارعهم وبساتينهم والتي اشتهرت بها ماردين فكانت من مياه الامطار .

وفي دير (متى) بالقرب من الموصل في الجانب الشرقي يوجد «صهريج» عظيم يجتمع فيه ماء المطر ، عمقه اثنا عشر ذراعا يفتح من موضعين في أعلاه وفي أسفله (٨٩) ومع ان المراجع المتوفرة لدينا لا تشير الى الاغراض التي أنشئ هذا الصهريج من أجلها ، ولكن من المحتمل جدا أن يقوم بسقي الاشجار والبساتين الملتفة حول هذا الدير بمسافات ليست متباعدة كثيرا .

أما دير (أبون) الذي يقع بين جزيرة ابن عمر وقرية «ثمانين» فقد انشئت بالقرب منه أنابيب من النحاس توصل المياه بين جبل الجودي وصهريج كبير لتخزينها واستعمالها لسقي «ضياعها الغناء الكثيرة البساتين» (٩٠) . كما تستعمل الصهاريج (٩١) المحفورة بين الصخور والتي تجتمع فيها مياه الامطار لارواء بساتين دير «عمر الزعفران» وأشجار الفواكه فيه (٩٢) .

وفي دير (الزعفران) (٩٣) وهو بالقرب من مدينة (معلثايا) من

-
- (٨٨) ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ٣ ص ٢٩ .
(٨٩) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٣٩ ، العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ج ١ ص ٢٩٩ .
(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٤٠ ، العمري ، مسالك الابصار ج ١ ص ٢٥٥ .
(٩١) وتجدر الاشارة الى ما ذكره ابن جبير في رحلته ، حول تجمع ماء العيون بالقرب من مدينة رأس العين في خزان وصفه «كالصهريج العظيم حيث يخرج ماءه الى عين أخرى ويدخل في صهريج آخر عمقه نحو أربع قامات أو أكثر ، وعندما ترتفع المياه فيه توزع لاغراض الري» ص ٢١٧ .
(٩٢) العمري ، مسالك الابصار ج ١ ص ٢٨٩ .
(٩٣) ويبدو ان ياقوتا وصاحب مرصد الاطلاع الذي نقل عنه ، لم يفرقا بين دير (الزعفران) ودير (عمر الزعفران) فالاول يقع بالقرب من قرية (معلثايا)



نواحي الموصل حيث توجد المزارع والبساتين الكثيفة ، فان ريهـم يتم سـيـحـا ، فـقـد أشـير الى أن ماء هذا الدير «سائح من ينبوع في جبـله» (٩٤) ، ومن المحتمل أنه اتخذ ما يلزم لتأمين ايصال المياه في الظروف التي تتطلب ذلك .

والظاهر أن «قنطرة خانقين العظيمة» التي ذكرها صاحب مراصد الاطلاع ، المتكونة «من أربعة وعشرين طاقا ، كل طاق يبلغ عشرين ذراعا عليها جادة خراسان الى العراق» (٩٥) ، كانت بمثابة تهيمـن على توزيع المياه لأغراض الري بالاضافة الى انها كانت جسرا للعبور (٩٦) .

يتضح من ذلك ، أن الجزيرة من حدودها الشمالية والشمالية الشرقية حتى الجنوبية والجنوبية الغربية ، تقطعها شبكة من الانهار والجداول والعيون والآبار والينابيع والقنوات والصهاريج تشكل نظاما للري لا مثيل له في تلك الفترة في بلدان العالم الاسلامي ، يضاف الى ذلك سقوط كميات من الامطار تكفي

المجاورة الى مدينة جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل ، أما الثاني فهو بالقرب من مدينة نصيبين . ويظهر انهم كانوا يحسبونهما ديرا واحدا ، حيث اختلط عليهم الامر . مسالك الابصار ج ١ ص ٣٠٥ ثم انظر الشهابستي ، الديارات ص ١٢١-٢٤١ ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦٣ مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٣٠ .

(٤٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦٣ ، مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٣٠ ، العمري ، مسالك الابصار ج ١ ص ٢٥٥ .

(٩٥) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ص ٣٣٦ .

(٩٦) ونشر هنا أيضا الى القنطرة العالية الحسنة البناء التي استحدثها الامير فخرالدين قرا أرسلان بن داود في سنة ٥١٠هـ على نهر دجلة بالقرب من مدينة حصن كيفا . انظر كتاب صورة الارض (المعلق المجهول) ص ٢٠٢ ، وياقوت يصفها «لم أر في البلاد التي رأيتها أعظم منها وهي طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران» معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٧ وقنطرة نهر الخابور وهي «من أعجب قناطر بنيت في الدنيا في الارتفاع والبناء» (انظر : شيخ الربوة : نخبة الدهر) ص ١٩٠ .

للزراعة في مناطق الجبال وعلى سفوحها الجنوبية والغربية، مما يؤكد اسهاب البدائيين والمؤرخين العرب في الكلام عن الجزيرة ومخارج أنهارها وتفرعاتها. وازدهار الزراعة في قراها وأراضيها (٩٧) .

وقد ظلت هذه الانهار والقنوات قائمة الى عهد طويل تؤدي مهمتها ، ولم يحدث من جراء تحول مجاري الانهار ، أي سوء ، بانقطاع المياه عن المدن والقرى والمزارع القائمة عليها بسبب تنوع وسائل الري في أنحاء الجزيرة ، حيث لا تتحكم وسيلة واحدة بأمور الري هذا فضلا عن اهتمام القسم الأكبر من سكان المدن والقرى بهذه الوسائل ، حيث تكون مهنتهم الرئيسية هي الزراعة . وهذا الاهتمام في الغالب يركز وسائل الري وينوعها كالقنوات والجداول والتحكم في جريان مياه الامطار للاستفادة منها الى أبعد مدى .

٤ - الفيضان :

يبدو أن أرض الجزيرة الفراتية كانت تتعرض الى فيضانات في بعض مناطقها ، وخاصة المناطق المجاورة لنهري دجلة والفرات ، وهناك إشارة أوردها ابن الاثير الى تعرض مدينة «قلعة جعبر» (٩٨) وهي إحدى مدن الجزيرة الى الفيضان سنة ٥١٦ هـ / ١١١٨ م حيث «زاد البفرات زيادة عظيمة لم يعهد مثلها ، فدخل الماء الى ربض قلعة جعبر ففرق أكثر دوره ومساكنه» (٩٩) .

(٩٧) أنظر الصفحات السابقة .

(٩٨) «على الفرات بين بالس والرقه قزب صغين ، كانت قديما تسمى (روس) فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر فنسبت اليه» ابن عبدالحق: مرصد الاطلاع ج١ ص ٢٥٦ (كان الفرات يمر بها قبل القرن السادس الهجري - أنظر الخارطة) .

(٩٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٦٠٥ .

ولكن مع ذلك ، فان حوادث الفيضانات كانت قليلة ومتباعدة ، اذا قورنت بما كان يحدث في اقليم العراق على جانبي دجلة والفرات ، كلما انحدرنا الى الجنوب . والفرق بين حالتي الفيضان في العراق وبلاد الجزيرة يعود الى أن نهري دجلة والفرات وروافدهما تقطع أرض الجزيرة في مناطق جبلية أو شبه جبلية في معظمها ، وتكون ضفافهما عالية وانحدارهما شديدا ، مما يجعل فيضانهما غير ممكن ، أما بعد أن يدخل النهران في السهل الرسوبي الذي يلي المناطق شبه الجبلية ، فيكون جريانهما سريعا ووديانهما تحت مستوى الاراضي المحيطة بهما ، فلا تتكون الترسبات بفعل الطمي في وسط النهرين ، تلك الترسبات التي تسبب حدوث الفيضانات ، هذا فضلا عن ان الانهار المتفرعة عنهما وروافدهما في أغلب المناطق ، يسهل السيطرة عليهما في أرض الجزيرة في حالات ازدياد مناسيب مياه النهرين . كما أن الابار والعيون التي تزود الانهار بالمياه تكون محددة الكميات واستغلالها مستمر مما لا يساعد بأية حال على حصول فائض من مياهها يمكن أن يطفئ على الضفاف .

أما الاجراءات التي كانت تتخذ لدرء أخطار الفيضانات ، فليست لدينا عنها معلومات ، سوى اشارة واحدة فقط ، ترجع الى فترة سابقة للقرن السادس الهجري زودنا بها صاحب مرصد الاطلاع ، ومفادها ان نهر الهرماس (نهر نصيبين) كان مسدودا بالحجارة والرصاص وما يخرج منه من المياه الى نصيبين كان قليلا «لأن الروم بنت هذه الحجارة عليها لئلا تفرق هدم المدينة» (١٠٠) ويبدو ان هذا النهر كان يتعرض للفيضان فيفرق ما يجاوره .

٢ - الزراعة :

يكتسب النشاط الزراعي في الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، أهمية كبيرة ، حيث كان

(١٠٠) ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج١ ص ٣٢٩ .

يمثل المنطلق الاساسي للتطور الاقتصادي بفروعه المختلفة • وشهد ازدهار الزراعة وانتشارها استغلال مساحات غير قليلة من الاراضي الخصبة والعناية بنظام الري واستغلال مؤسساته واصلاحها والسيطرة على الفيضانات التي تضر بالزراعة •

وعلى الرغم من عدم توفر الاحصائيات الدقيقة عن مساحة الاراضي المستغلة في الزراعة في بلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، وعن القوة الانتاجية للوحدات الزراعية فيها ، ولكن يمكن القول أن أغلب المناطق في أحواض الانهار ، دجلة والفرات وروافدهما وتفرعاتهما ، ومناطق العيون والآبار والقنوات ، والمناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية والوديان والسهول المحصورة بين المناطق الجبلية والتي تسقط فيها الامطار ، باستثناء أراضي الهضبة الصحراوية الغربية أن جميع هذه المناطق كانت تستغل في الانتاج الزراعي فتشكل بمجموعها أراضي واسعة • ونتيجة لذلك فقد ازدادت القوة الانتاجية للوحدات الزراعية ، وذلك مقارنة مع القوة الانتاجية للوحدة الزراعية في اقليم العراق (١٠١) •

وكان لأحوال المناخ التي سادت الجزيرة الفراتية تأثير كبير على قيام الزراعة بنطاق واسع ، اذ تهب على تلك المنطقة الرياح العكسية الدائمية التي غالباً ما تسبب سقوط الامطار التي يذهب أكثرها للاستغلال الزراعي • كما ان الفصول الزراعية تتمتع بوفرة في الانتاج نظراً للمناخ المعتدل في الصيف والممطر في الشتاء •

(١٠١) كانت الاراضي المزروعة في العراق في القرن السادس الهجري قليلة ، لا تتناسب مع مساحة الاراضي الصالحة للزراعة حيث اقتضرت على حوضي النهرين دجلة والفرات مما أدى الى انخفاض القوة الانتاجية للوحدة الزراعية •

انظر : جعفر خضباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين (الطبعة الاولى - بغداد - ١٩٦٨) ص ٩٥ •

وكان الانتقال من فصل زراعي الى آخر يتم بتدوين قواضل
زمنية ، أي أنه لا يستغرق حلول فصل جديد فتزة من الزمن ، بل
كان هذا الوقت يدخل ضمن الفصول ، فيؤثر في رفع كمية الانتاج
الزراعي .

وتتميز الفصول الزراعية بالتنوع الزراعي ، فالى جانب زراعة
الحبوب مثلا الحنطة والشعير ، كانت هناك أشجار الفاكهة
المختلفة وزراعة الخضر بالاضافة الى حقول المراعي .

ان معرفة المساحة الكلية للأراضي المزروعة ، تتيح لنا تحديد
الأرض المستغلة فعلا لكل منطقة زراعية من سطح الجزيرة
الفراتية ولكن مثل ذلك يواجه صعوبات غير قليلة ، فالمعلومات
الواردة في المصادر المتوفرة لدينا قليلة ومشتتة لا يمكن الاعتماد
عليها في معرفة أرقام دقيقة ومحدودة بهذا الشأن ، ولذلك
فلا بد من ان نلجأ الى مقارنة جديدة في الإيرادات التي تدرها إحدى أهم
منطقتين رئيسيتين في اقليم العراق خلال القرن السادس الهجري ،
وهي ما مجموعها ٩٢٦٠٥٠٥ دينار (١٠٢) كواردات للخزينة عن
منطقتي نهر عيسى ونهر الملك ، فيما تبلغ إيرادات إحدى مناطق
الجزيرة الفراتية ٩٥٣٠٣٠ دينار (١٠٣) . وعلى ضوء
الاستنتاج العام ، فان مساحات الأراضي المزروعة في اقليم الجزيرة
تبلغ أكثر من ضعفي مثيلتها في العراق تقريبا .

وعلى ضوء دراسة النصوص والحقائق التاريخية وتحليلها
ومقارنتها يمكن القول ان الجزيرة الفراتية ، كانت مخزنا
احتياطيا يمكن الاعتماد عليه للمنتجات والفلات الزراعية في

(102) Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Geographical Part of the Naz-
hat-Al-Qulub, Translated by G. LeS Strange, (Leyden, 1919) P. 52.

(103) Mustawfi of Qazwin, Ibid, P. 13 103-105.

العالم الاسلامي منذ القرن الرابع وحتى نهاية القرن السادس الهجري ، فيشير ابن حوقل والمقدسي وكلاهما من أهل القرن الرابع الى أن اقليم الجزيرة «رفه بخصبه» (١٠٤) وان «هذا الاقليم منه ميرة أكثر العراق» (١٢٥) وقد استمرت الاحوال فيه على هذا المتوال خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ، فصاحب معجم البلدان وصف الجزيرة بأنها «جيدة الريع والنماء ، واسعة الخيرات» (١٠٦) كما جاء في هذا الكتاب الاكثار من ذكر المدن والقرى الجذرية ، التي تتعدد فيها أنواع المحاصيل الزراعية والاشجار والفواكه (١٠٧) ونجد مثل ذلك في مراصد الاطلاع (١٠٨) أيضا . أما في تقويم البلدان ، فان هناك تفصيلات أكثر أهمية فيما يتعلق بذلك (١٠٩) .

وقد أورد ابن شداد ، في كتابه الذي ضمنه تاريخ الجزيرة الفراتية ، تفصيلات دقيقة ومهمة عن مواردها فيقول «لما ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين الايوبي (خلال القرن السادس الهجري) بعثني اليها لاكتشفها ، فكان ارتفاعها ألفي ألف درهم - (أي بمقدار مليوني درهم) - وبلغني انه كان في زمن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة ، ثلاثة آلاف ألف درهم - (أي بمقدار ثلاثة ملايين درهم) (١١٠) - ويضيف هذا المؤرخ قوله «وكان في عملها ، من القرى ، ثمانمائة قرية منها

-
- (١٠٤) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٠ .
(١٠٥) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦ .
(١٠٦) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢ .
(١٠٧) راجع الملحق «ما ذكره ياقوت عن بلاد الجزيرة الفراتية» .
(١٠٨) وقد نقل ابن عبدالحق في كتابه مراصد الاطلاع معظم ما جاء عند ياقوت عن بلاد الجزيرة الفراتية .
(١٠٩) أبوالفداء : تقويم البلدان : راجع فصل «ذكر الجزيرة بين دجلة والفرات» .
(١١٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٢١ - ٢١ ب .

عامر خمسمائة قرية ، يصرف من فعلها في ألف فارس ، والباقي
خملا لبيت المال» (١١١) .

وكانت المناطق التي تكونت منها ثروة اقليم الجزيرة الزراعية
كما يأتي :-

أولا : منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات :

وهي المنطقة الواقعة بين مدينة الانبار على الجانب الشرقي
من نهر الفرات ومدينة تكريت على الجانب الغربي من دجلة .

وهذه كما يبدو هي أكبر البقاع وأغناها وأكثرها انتاجا
للثروة الزراعية ، لأنها تضم مدنا عديدة (١١٢) تحدث عنها
الجغرافيون والرحالة والمؤرخون كثيرا ، وخاصة فيما يتعلق
بشروعاتها الزراعية ، وقد وصفها ابن جبير عند مروره بها في رحلته
سنة ٥٨٠ هـ فقال «والقرى والعمائر من هذا الموضع الى الموصل
متصلة» (١١٣) ويشير بذلك الى رحلته التي بدأت من مدينة تكريت ،
حيث تتصل المزارع والبساتين والحقول فيفيد «وانسابت جداول
في مروج خضر ، فكأنها سبائك اللجين ، تحف بها أشجار وبساتين ،
قد انتظمت على حافتيها الى آخر انتهائها» (١١٤) ، كما يذكر كذلك
«أنها في بسيط من الارض فسيح وحولها بساتين الرياحين والخضر
تسقى بالسواقي» (١١٥) .

ويدخل ضمن هذه المنطقة الزراعية ، منطقة الموصل التي ظلت
منذ القرن الرابع الهجري ، تحتفظ بأهميتها في القرن السادس

(١١١) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٢١ أ - ٢١ ب .

(١١٢) أنظر الملحق في نهاية البحث .

(١١٣) رحلة ابن جبير ص ٢٠٨ .

(١١٤) نفس المرجع السابق ص ٢١٧ .

(١١٥) نفس المرجع السابق ص ٢١٦ .

الهجري ، فهي ستاز بوجود الشجر والزروع الكثيرة (١١٦) ، كما أن القطن كان يجلب منها (١١٧) ، وهناك جبل بالقرب منها يطلق عليه اسم «شعران» لكثرة أشجاره ، وهو جبل (قنديل) الحالي ، حيث تكثر فيه أشجار الكمثري والعنب ، وفيه أنواع الطيور وكانت أشجاره الكبيرة تقطع وتحمل أخشابها الى العراق (١١٨) .

كما وصفت هذه المنطقة بأن لها نواحي عريضة ورساتيق (١١٩) عظيمة (١٢٠) وهي كثيرة المواشي والسائمة من الاغنام والكراع ، وكان ارتفاعها من الحاصل دون قسمة المزارعين وصل الى ستة آلاف كر حنطة وشعيرا ، وقيمتها تبلغ ثلاثة آلاف ألف درهم أما الخبواب والقطاني ثلاثمائة كر تبلغ قيمتها عشرة آلاف دينار (١٢١) وقد بلغت

(١١٦) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٣ .

(١١٧) الاصطخري : نفس المرجع السابق ص ٤١ .

(١١٨) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ١٣١-١٣٢ .

(١١٩) رساتيق ، جمع رستاق ، وهو لفظ فارسي ، معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري (محيط المحيط - مادة رستاق) ومن رساتيقها ، نينوى ، وهو قائم على آثار المدينة القديمة ، عاصمة الدولة الآشورية ، ثم رستاق المرج ، وهو فسيح وواسع ، كثير الضياع والماشية والكراع والمرج ، مدينة كثيرة الخير والخصب ، تحدها الجبال وتجاورها أراضي مدينة حزة ورساتيقها التي وصلت وارداتها ٦٠٠٠٠ كر من الحنطة والشعير بلغت قيمتها ٣٠٠٠٠٠ درهم . وهناك رستاقان عظيمان متجاوران ، وهما قردي وبازيدي ، وفيهما ضياع عظيمة يدر كل منها ألف كر من الحنطة والشعير في كل سنة . ورستاق باهدرا وهو كثير الضياع والدخل . ورستاق الخابور وفيه مدن كثيرة وأعمال واسعة . ورستاق معلثايا وفيشابور وهما رستاقان معدودان بكثرة الغلات والخيرة ولجميع هذه الرساتيق مدخولات كثيرة عن سائر وجوه الغلات والفواكه اليابسة والربطة (ابن حوقل صورة الارض ص ١٩٦) .

(١٢٠) ابن حوقل : نفس المرجع ص ١٩٦ .

(١٢١) الكر يساوي (٦٠) قفيزا ويساوي (٤٠) أردبا .

الأردب يساوي (٢٤) صاعا .

الكر يساوي ٩٦٠ صاعا .

انظر عباس العزاوي : تاريخ النقود العراقية (المكايل) ص ١٠٢ .

واردات ضواحي الموصل القريبة وهي المنطقة الممتدة بين قرية (باعيناثا) الى (سريا) بفرسخ طولاً وعرضاً و(بازيدى) و(باهدرى) و(برقميد) ١٦٠٠٠ كر من الحنطة والشعير ، بلغت اقيامها حوالي ٢٠١٧٠٠٠ درهم (١٢٢) .

اما قصبة مدينة الموصل فلم يكن بها شجر ولا بساتين الا التافه .
اليسير قبل القرن السادس الهجري ، حيث غرست الاشجار وكثرت .
الكروم وغرزت الفواكه وغرس النخيل والخضر (١٢٣) . ويؤكد المقدسي البشاري كثرة المزارع والبساتين والمياه وغزارة الدخل في رساتيق الموصل مثل نينوى ومعلثايا وباعيناثا (١٢٤) ، التي استمرت كذلك في أيام ياقوت الحموي في القرن السادس الهجري حيث أشار الى أن ولايتها ورساتيقتها (١٥٢) التي كان يبلغ خراجها ٢٠٠٠٠ ر ٤٠٠٠ درهم ، قد تضاعفت وكثر دخلها بعد أن عمرت . ويعزو ياقوت النقص الذي كانت تعانيه المدينة من قلة البساتين الى عدم جريان الماء في رساتيقتها (١٢٦) ، وسبب هذا على ما يبدو هو ارتفاع المدينة عن مستوى نهر دجلة .

ويقدم لنا ابن الاثير الذي عاش بالموصل حتى الربيع الاول من القرن السادس الهجري معلومات مفصلة عن مدينته ، فقد كانت قليلة الفاكهة (١٢٧) ، فلما عمرت البلاد أنشئت البساتين بظاهرها

(١٢٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٦ .

(١٢٣) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٤ .

(١٢٤) المقدسي لبشاري : أحسن لتقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٧ .

(١٢٥) ذكر ياقوت من أعمال الموصل «الطبرهان والسن والحديثة والمرج وجهينة والمحبية ونينوى وبارطلي وباهذرا وباعذرا وحبتون وكرمليس والمعة ورامين وباجرمي ودقوقا وخانيجار والموصلان وجزيرة ابن عمر» معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٣ .

(١٢٦) ياقوت : نفس المرجع السابق ، ص ٦٨٣ .

(١٢٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ص ٢٨ ، وانظر ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص ٩٠ .

في ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة فالرمان يبقى الى أن يدرك العتيق الجديد ، وكذلك الكمثرى والعنب ، أما التفاح ، فيجمع العتيق والجديد» (١٢٨) .

ويكثر النخيل في سنجار (١٢٩) وهيت والانبار (١٣٠) يضاف الى أن في سنجار كذلك يزرع السماق والجوز واللوز والزيتون والسهم والرمان الكبير المجفف (١٣١) ، ويرجع سبب غرس أشجار النخيل في هذه المدينة الى أنها تقع في بقعة منبسطة ومكشوفة من الارض وتتوفر فيها المياه (١٣٢) حيث يجري في وسطها نهر تحف به الاشجار والنخيل والاترج (١٣٣) وامتازت نصيبين ببساتينها ومزارعها وحقولها الممتدة (١٣٤) في أرض منبسطة ، حيث الضياع والمباخس الغزيرة السائمة والكراع ، وكان انتاجها من الفلات المتنوعة وفيرا (١٣٥) وخاصة الحبوب والقمح والشعير والكروم الرائعة ، كما عرفت بكثرة الثمار (١٣٦) أيضا .

وقد حافظت مدينة نصيبين على شهرتها الزراعية حتى القرن السادس الهجري حيث وصف ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ أطراف المدينة ومدخلها قائلا «يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار ، ينساب

-
- (١٢٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٧٨ .
 - (١٢٩) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٤١ .
 - (١٣٠) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٩ .
 - (١٣١) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٩ .
 - (١٣٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٨ .
 - (١٣٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٥٨ .
 - (١٣٤) الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٠ .
 - (١٣٥) ابن حوقل : صورة لارض ص ١٩١ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٣٧ .
 - (١٣٦) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٢ .

بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار والحدائق ، تنتظم بحافته وتفي ظلها الوارفة عليه» (١٣٧) .

والمعروف عن نصيبين شهرتها بزراعة الورد الأبيض (١٣٨) الذي يصنع منه ماء الورد (١٣٩) المفضل على سائر الانواع ، وكان يصدر الى البلاد الاخرى .

وعلى مقربة من الموصل بثلاثين فرسخا ، جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة صغيرة لها أشجار وثمار ومياه ومرافق وخصب ومن أشجارها الجوز واللوز والبندق والتين والكروم (١٤٠) . ويشير ياقوت الى ذلك بقوله «انها بلدة فوق الموصل ولها رستاق مخصب واسع الخيرات» (١٤١) . كما وصف ابن شداد جزيرة ابن عمر بقوله «ان في داخلها تحت السور ما يناهز الثلاثين بستانا ولها من القلاع الخراجية (١٤٢) ، قلعة فرج وبرجه وفنك والجديدة والقصر وأروخ وكنكور» (١٤٣) . أما المستوفي القزويني فيقول عنها «انها تشمل على

(١٣٧) رحلة ابن جبير : ص ٢١٤ .

(١٣٨) ويبدو ان هذا النوع من الورد الذي كان يطلق عليه اسم «اللينوفر» قد شاعت زراعته دون الاصناف الاخرى ، وأورد ابن شاعر الكتبي قول الشاعر علي بن المظفر ابن ابراهيم الوداعي ليدل على ذلك :

واذا هم أن يقبل خد الورود شوقا تفسر الاقحاح الشنيب
خال ان اللينوفر الغض والنرجس اذن الواشي وعين الرقيب

(فوات الوفيات ج ٢ ص ١٧٦) .

(١٣٩) ابن سعيد المغربي : بسط الارض ص ٩٠ ، وتكثر زراعة هذه الورد في قرية «الزراعة» شرقي الموصل ، حيث توجد فيها عين كثيرة المياه .

(ياقوت : المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ٢٣٢) .

(١٤٠) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٩ .

(١٤٢) الاراضي المزروعة التي تركها المسلمون بيد أصحابها تزرع عن طريق الصلح .

(١٤٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ٥٨ أ ، ثم انظر : ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٥٤ .

مائة قرية وفيها مساحات كثيرة مزروعة بالكروم وقد بلغ دخلها ٢٠٠ ر. ١٧٠ دينار «(١٤٤)» وفي قرية القريشية التي لا تبعد عنها كثيرا وهي من نواحيها يكثر التفاح المسمى «التفاح القريشي» «(١٤٥)» واشتهرت من مدن هذه المنطقة الزراعية أيضا «الرحبة» التي تزرع فيها أنواع الفواكه ، وفيها تسعة وعشرون نوعا من الأعناب (١٤٦) كما عرفت «بالكمثري الرحبي» بالإضافة الى نخيلها ، حيث أشار المؤرخ الدمشقي أبو شامة الى أن الرحبة وعانة والكبيسات والمعر والعين وشفائا قرى فيها عيون جارية ونخل كثير ومنها يجلب التمر الى الشام (١٤٧) .

ثانيا : المنطقة التي تقع بين شهرزور وارزن الى جنوب ميافارقين :

وهي تمتد في شرق دجلة ، وأهم مدنها شهرزور (١٤٨) وأربل والعمادية وارزن وقد ألقى ياقوت على أحوالها الزراعية بعض الضوء من خلال استعراضه لاحوال البلدان في تلك الجهات ، فقد جاء عن الاكراد الجلالية والباسيان والحكمية والسولية ، الذين كانوا يستوطنون شهرزور بأن لهم مزارع كثيرة في تلك الديار ، وقد اشتهرت مدينة «منصورة» القريبة من خانقين ب (العنب

(144) Mustawfi of Qazwain, The Nuzhat-AL-Qulub, P. 103.

١٤٥) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٧٩ .

١٤٦) جمال الدين أبو الحسن القفطي : تاريخ الحكماء (ليبسك ١٩٠٣) ص ٢٩٥ .

١٤٧) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الطبعة الاولى ١٩٤٧) ص ١٥١ .

١٤٨) الواقعة بين أربل وهمدان ، أحدها أكراد «بها نوع من الكروم يأتي سنة بالعنب وسنة بثمرة شبيهة «بالجزر» شديدة الحمرة» زكريا القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٩٧ .

السونايا) (١٤٩١) المنسوب الى منطقة سونايا في هذه المدينة ، كما أن أكثر زروع مدينة أربل ورسايتها من مياه الابار ، حيث عملت القنوات لريها ، وان الجبال القريبة منها قد اشتهرت بأشجار الفواكه المختلطة والتي كانت «فواكهها تجلب الى أربل» (١٥٠) .

وفي الطرف الغربي من اذربيجان ، تقع قرية «أشنه» القريبة من اربل ، حيث توجد بساتين الكمثري الذي كان يفضل على غيره ويحمل الى جميع ما يجاورها من البلاد (١٥١) . ويزرع في قرية «شاقرد» الواقعة بين داقوقا واربل شجر التين الذي لا يوجد مثله في غيرها (١٥٢) . ويحدثنا صاحب مرصد الاطلاع عن أثمار التين التي كانت تغلب على أشجار مدينة «حلوان» (١٥٣) التي تقع في أقصى الشرق على حدود العراق العجمي ويطلق عليها اسم «حلوان العراق» أيضا كما كانت فيها الى جانب ذلك ، أشجار «الرمان الذي ليس في الدنيا مثله» (١٥٤) وكانت محاصيل أربل الحبوب والقطن الجيد ، حيث تزرع في رسايتها المنتشرة من حدودها الجنوبية حتى شمال مدينة شهرزور ، بما فيها حوض نهر الزاب الصغير «الاسفل» .

(١٤٩) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٣٤٠-٣٤١ .

(١٥٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص ١٨٦ ، وجاء في مرصد الاطلاع ان مدينة «شقلاباد» ولعلها «شقلاوة» الحالية ، قرية كبيرة في لحف الجبل المطل على أربل ، ذات كروم كثيرة وبساتين وافرة ، ينقل عنبها الى أربل السنة بطولها . ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج٢ ص ١١٩ .

(١٥١) زكريا القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٨٤ .

(١٥٢) زكريا القزويني : نفس المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(١٥٣) ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج١ ص ٣١٤ ، (وذكر ان تينها يسمى «بام الخير» لجودته .

(١٥٤) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص ٣١٤ ، وذكر ياقوت ان في مدينة «قسطيلية» من أرض الزاب الكبير يوجد التمر) معجم البلدان ج٤ ص ٩٧ .

وقد بلغ دخلها مع مدينة أرزن (١٥٥) من هذه المحاصيل ٢٩٧٥٠٠ دينار (١٥٦) أما مدينة «العمادية» التي يسود فيها مناخ جيد يساعد على انبات الغلات الزراعية والمحاصيل المختلفة ، فقد بلغت مواردها ٦٨٠٠٠ دينار (١٥٧) .

واذا رجعنا الى ما كتبه المؤرخون والرحالة والبلدانيون العرب والمسلمون يبدو ان هذه المنطقة كانت على جانب كبير من الاهمية الاقتصادية وخاصة في الانتاج الزراعي والنشاط التجاري في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، مما جعل الخلفاء العباسيين الاربعة المتأخرين ، ابتداء من الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥-٦٢٢ هـ حتى آخر خليفة عباسي وهو المستعصم بالله ينشطون في أية فرصة مواتية لبسط سيطرتهم على مدينة أربل ونواحيها التي كانت تمثل أهم مركز اقتصادي في هذه المنطقة ، كما فعل ذلك بقية الامراء والملوك وأصحاب الاطراف الآخرون، فكانوا يسعون لتكوين الاحلاف وتسيير العساكر ضد مظفر الدين كوكبري صاحب أربل لاسقاط امارته (١٥٨) .

ثالثا : المنطقة الجبلية وشبه الجبلية :

وتمتد في الشمال والشمال الشرقي من أرض الجزيرة الفراتية وتشمل بعض السهول والمنحدرات والفواصل والوديان التي

(١٥٥) وتزرع في أرزن الكروم الكثيرة وأشجار الفواكه .
انظر ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ١٢٨ ب .

(156) Mustawfi of Quzwin, The Nuzhat-AL-Qulub, P. 102-103.

(157) Mustawfi of Qazwin, Ibid. P. 104.

(١٥٨) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٣٨-١٤٧ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٨٠ ، وانظر : سوادى عبد محمد : امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ ص ١٤٣-١٤٨ .

تحصرها الهضاب أو السلاسل الجبلية * ويمكن تحديدها بالطريق الموصلة بين مدينة رأس العين وماردين وحصن كيفا وميافارقين وآمد ومدينة «خرتبرت» في أقصى الشمال الشرقي حيث الحدود الارمينية ، وهي تقابل جزءا من كردستان العراق في الوقت الحاضر *

وهذه المنطقة هي منطقة ري مستديم وأن الفصول الزراعية فيها متداخلة لاعتمادها المشترك على مياه الامطار من جهة ، وعلى مياه الانهار وتفرعاتها أو العيون والآبار والينابيع من جهة أخرى * وقد نتج عن ذلك ازدياد في مواردها الزراعية ، اذا قورنت بالمناطق الاخرى من حيث المعدل الانتاجي العام * ولدينا احصائية عن أربع مدن من مدنها المهمة ، وهي ماردين وميافارقين وآمد وحصن كيفا حيث يبلغ مجموع مواردها ٥٧٢٢٧٠٠ دينار (١٥٩) في السنة الواحدة حسبما جاء عند المستوفي القزويني خلال الربع الاخير من القرن السادس الهجري ، بينما أشار الفارقي الى ان هذه الديار قد ضمنت في هذه الفترة بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠ ر دينار وهو ما يستحصل ويدخل من البساتين والكروم ومن الضياع من الفاكهة والخضر والبقول وكذلك الفحم والحطب (١٦٠) * ومن المحتمل جدا ان مواردها هي أكثر من الرقم المذكور ، لان المتحصل منها فعلا ، أي انتاجها السنوي ، لا يطابق الرقم الذي كانت تضمن فيه *

وأشهر ما تنتجه هذه المنطقة هو «القطن» ويبدو ان زراعته قد وجدت في تلك المنطقة منذ وقت متقدم عن فترة القرن السادس الهجري فعلى الرغم من أن (ايرنست باركر) لا يذكر انتقال زراعة

(159) Mustawfi of Qazwin, Ibid P. 102-105.

(١٦٠) الفارقي : التاريخ ص ٢٢٤ ، ثم انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ١٩٦ *

نبات القطن من شرق بحر الروم (البحر المتوسط) الى غربيه ، من ضمن النباتات والحاصلات التي انتقلت في هذه الفترة الى بلاد الشام والعراق (١٦١) مما يدل على وجود زراعته ، غير أن الدكتور محمد جمال الدين سرور يذهب الى ان القطن لم يكن يزرع في العراق والجزيرة ، وانما نقل اليها من شمال بلاد فارس ومن بلاد ما بين النهرين ، حيث ادخل الحمدانيون هذه الزراعة الى بلاد الجزيرة الفراتية ، وأصبحت مدن ، مجدل ورأس العين وحران ، مراكز مهمة لزراعته (١٦٢) ، كما تتركز زراعة القطن في الطريق الممتد بين المجدل وعرابان على جانبي الخابور ، حيث يرتفع قطن كثير ، وكذلك من طابان والمطرية والسحيمية وتنينير ، حيث يحمل الى خلاط والموصل (١٦٣) .

وقد ظلت مدن رأس العين وماردين وبرتالا وحصن كيفا وسابدا (١٦٤) تحتفظ بزراعة القطن (١٦٥) ، حتى في أيام المستوفي القزويني ، فقد اشار الى الظروف المناخية الملائمة لزراعته ، اذ كان يأتي في مقدمة محاصيل هذه الاصقاع (١٦٦) . وتشير المصادر الى أن القطن لكثرتة في بلاد الجزيرة الفراتية «كان يحمل الى خلاط وبلاد الشام وغيرها من البلاد» (١٦٧) .

(١٦١) ومن هذه النباتات والحاصلات ، السمسم والخروب والذرة والارز والليمون والبطيخ والمشمش والثوم المعروف باسم "Sha'lots" (وهو البصل العسقلاني) ايرنست باركر : تراث الاسلام ج١ (الحروب الصليبية ترجمة علي أحمد عيسى) ص ١١٦ .

(١٦٢) الدكتور محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٣٥ .

(١٦٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٣ .

(١٦٤) انظر الخريطة .

(١٦٥) يذكر الاصطخري ، (ان هناك أراضي فسيحة وواسعة في مدينة رأس العين، يغلب على زراعتها القطن) ص ٧٤ .

(166) Mustawfi of Qazwin, Ibid P. 102, 103.

(١٦٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧١ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٠ .

ويقدم لنا المستوفي القزويني معلومات مفيدة عن مساحة الاراضي المزروعة في ماردين ، فيشير الى المزارع الكثيرة التي تسقى من نهر (سور) وهي تشكل حوالي (١٠) فراسخ أي ثلاثة أميال طولا (و ١٠) فراسخ عرضا تزرع فيها الحبوب والقطن والفاكهة ، وتبلغ مدخولات محاصيلها ٢٣٦ر٢٠٠ دينار، كما هوشأن مياقارقين فييسود فيها المناخ الجيد وتزرع فيها كثيرا - ورأس العين ذات المناخ الجيد والفاكهة الجيدة مثل الاعناب والحبوب والقطن وهي تنمو جيدا وايرتالا المدينة الصحية النزهة ، تنتج الفاكهة ، وكذلك الحبوب والقطن الجيد وتصل مدخولاتها الى ١٣ر٢٠٠ دينار (١٦٨) .

وبما ان هذه المنطقة جبلية في بعض اقسامها وسهلية في الاقسام الاخرى لذلك فان محاصيلها كانت تختلف من منطقة لاخرى ، فبينما نجد المناطق الجبلية ، كثيرة الشجر الدائم والمثمر كشجر البندق والجوز واللوز والفسق والبلوط ، نرى زراعة الحبوب كالقمح والشعير والذرة وكذلك الرز ، فضلا عن أشجار الفواكه والاثمار مثل الكروم والتين والسفرجل وزراعة الخضر وحقول الرعي الطبيعية ، تسود المناطق السهلية ، ففي «حيزان» القريبة من آمد ، وهي منطقة جبلية ، تكثر الاشجار وخصوصا شجر البندق (١٦٩) . وفي الجبال المطلة على طور عبيدين وقردي يكثر شجر البندق والفسق واللوز والفرك والزيتون والبطم (١٧٠) وانتشرت المزارع والبساتين في السهول المحيطة بمدينة رأس العين ، التي ترويه أكثر من ثلثمائة عين (١٧١) ، كما أن جميع الضياع التي كانت

(168) Mustawfi of Qazwin, The Ibid P. 102, 103.

(١٦٩) ابوالفداء : تقويم البلدان ص ٢٨٣ ، مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٣٢ .

(١٧٠) العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٠٢ .

(١٧١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، الورقة ٤٢ ب .

تحيط بميفارقين قد زرعت بالكروم وأنواع الفاكهة الأخرى
والخضر والبقول (١٧٢) *

ويبدو ان زراعة ما يبدو في الوقت الحاضر «بالمدرجات» (١٧٣)
كانت سائدة في بعض جهات هذه المنطقة الجبلية ، حيث ورد ان في
شمال مدينة ماردين واد يقال له «وادي الرحلة» وهو معمور
بالبساتين والجنات على حد قول ابن شداد ، والجبل الذي تقع عليه
المدينة «كالدرج بعضه دون بعض بحيث ان الدور تشرف بعضها
على بعض والماء ينزل من أعلى الى أسفل» (١٧٤) *

وفي الميدان الذي يقابل مدينة حصن كيفا ، تمتد مزارع القمح
والشعير والحبوب الأخرى ، ما يكفي أهلها سنة كاملة ويجري ريها
بطريقة المدرجات أيضا ، حيث تنساب اليها مياه العيون والآبار
ومياه الأمطار من أعلى الجبال المحيطة بها من جهات ثلاث عدا الجهة
الشمالية (١٧٥) *

ويمكن القول بان الانتاج الحيواني في هذه المنطقة هو جزء
متمم للانتاج الزراعي ، فقد اتجهت العناية الى تربية النحل الذي
ينتج العسل وقد ذكر ناصر خسرو في كتابه ما يفيد ، ان في مدينة
«بطليس» التي تقع على مقربة من خلاط التابعة الى ميفارقين من
يجني في السنة الواحدة من العسل ثلثمائة وأحيانا أربعمائة جزء

(١٧٢) الفارقي : التاريخ ص ٢٢٤ ، وهناك قرية تقع الى الغرب من ميفارقين
تعرف بقرية (العطشا) يصل انتاجها من الحنطة ٣٦٠ جريبا *

(الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١١٤) *

(١٧٣) الزراعة التي تسود بعض المناطق الجبلية في الوقت الحاضر في شمال
العراق حيث تستغل سفوح الجبال المنحدرة انحدارا تدريجيا بالزراعة ،
بعد التحكم في مياه الأمطار أو العيون للاستفادة منها في ري هذه
المدرجات *

(١٧٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ١٣٠ أ *

(١٧٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٧ أ *

عسل ، وكان كل مَنْ منه يبيع بدينار (١٧٦) ، وذكر ياقوت «ان في مدينة هرور قرب العمادية يوجد عسل كثير جدا» (١٧٧) ، كما جاء في مرصد الاطلاع ، ان قرية قلوذية من بلاد الجزيرة اشتهرت بالعسل المسمى باسمها والذي توجد فيه رائحة (١٧٨) .

وكانت بحيرة «أرجيش» التي تقع على مقربة من خلاط «ليس لها نظير في الدنيا ، يجلب منها السمك المعروف «بالطرينخ» الى ساير البلاد» (١٧٩) .

وأوضح ابن سعيد المغربي ، أن الطرينخ انما «هو السمك الذي كان يجلب من بحيرة أرجيش حيث يملح ويحمل الى الاقطار» (١٨٠) .

ويبدو ان ميفارقين وآمد قد صارتا سوقا دائمية لمنتجات المنطقة الجبلية الزراعية منها والحيوانية خلال القرن السادس الهجري (١٨١) ، كما كانت الموصل سوقا لبلاد الجزيرة الفراتية برمتها (١٨٢) تعرض فيها الغلات والمواشي من أغنام وأبقار وجاموس . وأشار الفارقي الى ما أسماه «بيوت الغلات» في مدينة آمد (١٨٣) ، من المحتمل انها مخازن للحبوب والمحاصيل الاخرى تنقل اليها من المناطق المجاورة لتوزيعها عند الحاجة .

وذكر ابن الاثير ان منطقة الزوزان ، كانت سوقا لبيع الاغنام والماشية ، فالتركمان والاكرد والكيلكان وهم رعاة الماشية منهم بصورة خاصة ، يتنقلون في فصلي الربيع والصيف من الاماكن التي شتوا بها الى مدينة الزوزان وهي في شرق دجلة في موقع

(١٧٦) ناصر خسرو علوي : سفرنامه (بالفارسية - ترجمة يحيى الخشاب -

الطبعة الاولى - القاهرة) ص ٧ . (المن الواحد = رطلان) انظر عباس

العزاوي : تاريخ النقود العراقية - المكايل - ص ١٠٢ .

(١٧٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٩٧٠ .

(١٧٨) ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٤٤٥ .

(١٧٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٧-٤٥٨ .

(١٨٠) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص ١٠٤ .

وسط بين جبال أرمينية في الشمال الشرقي وخلاط وأذربيجان
وميفارقين والموصل فيبيعون الغنم هناك رخيصا (١٨٤) .

رابعاً : المنطقة الممتدة بين مدينتي الرقة وملطية :

وتشمل الاراضي الواقعة الى شمال مدينة الرقة على نهر
الفرات حتى مدينة ملطية في أقصى الشمال الغربي والواقعة على
الفرات أيضا ويحدها نهر البليخ أحد روافد الفرات ، جنوبا .
وهذه المنطقة لا يفصلها عن الهضبة الصحراوية من جهة الشرق .
ويقدم لنا الاصطخري (١٨٥) وابن الفقيه الهمداني (١٨٦) وابن

(١٨١) الفارقي : التاريخ ص ٩٥ .

(١٨٢) ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٤٤٣-٤٤٤ (وجاء ان الخليفة الظاهر بأمر الله
العباسي ، أطلق حمل الاطعمة الى الموصل ، وان يبيع كل من أراد البيع
للغلة فحمل منها الكثير الذي لا يحصى) نفس المرجع السابق ج ١٠
ص ٥٦٤ .

(١٨٣) الفارقي : التاريخ ص ٩٥ .

(١٨٤) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٧٣ .

(١٨٥) وصفها الاصطخري بقوله : «انها كثيرة الجوز» ويفهم بان أشجار الفاكهة
فيها هي أشجار من نوع النباتات الطبيعية ، «كما تنتشر فيها البساتين
والزروع النزهة وهي كثيرة الاعناب» مسالك الممالك ص ٦٢ . ووصف
مدنها قائلا «ان الرقة أكبر ما فيها من المدن ثم تليها الرافقة وهما كثيرتا
الأشجار والمياه وكذلك مدينة سميساط وجسر منبج ، مدينتان نزهتان
لهما زروع ومياه وبساتين» نفس المرجع السابق ص ٧٤ .

(١٨٦) ذكر الهمداني أحصائية عن خراج هذه المنطقة ، موزعة على الشكل الآتي :
حرا ٧٤٠٠٠٠ درهم ، الرها ١٣٠٠٠٠٠ درهم ، سميساط
١٠٠٠٠٠٠ درهم ، سروج ٦٠٠٠٠٠ درهم ، الرقة ١٦٠٠٠٠ درهم ،
الرافقة والروابي ٧٥٠٠٠ درهم (مختصر كتاب البلدان ص ١٣٢ ، ١٣٤ ،
١٣٦ .

حوقل (١٨٧) والمقدسي (١٨٨)، وجميعهم من أهل القرن الرابع الهجري، معلومات مفيدة عن هذه المنطقة تلقي ضوءاً كافياً عن أحوالها الزراعية في الفترات التالية، حيث نقرأ عند ياقوت وابن سعيد المغربي (١٨٩) وأبي الفداء وابن شداد ما يفيد استمرارها على الانتاج الزراعي في القرن السادس الهجري * فيشير ياقوت الى شهرة مدينة حران (١٩٠) التي جاءت بسبب نشاطها الزراعي، حيث تقع في الطريق الموصلة الى مدينة جسر منبج الكثرة المياه والبساتين والتي تحتوي على أنواع من الفواكه مثل الرمان الجيد والسفرجل والخوخ والكمثرى (١٩١) كما اشتهرت قرية «دامان» بالقرب من الرقة «بالتفاح الداماني»، وكان يصدر الى المدن ومنها بغداد ويضرب بحمرته المثل (١٩٢)، ويلاحظ انتشار «شجر التوت» في مدينة جسر منبج، لتربية «دودة القز» للحصول على الحرير الطبيعي (١٩٣)، كما

(١٨٧) أشار ابن حوقل الى المكانة الاقتصادية لهذه المنطقة، حيث كانت لها عمارة وأعمال ورسايق، وكور، وهي كثيرة المياه والزروع والبساتين وأعنابها جيدة كما كان يعمل من زبيبها «الرب» أي الشراب لكثرتة، (صورة الارض ص ٢٠٥-٢٠٧) *

(١٨٨) قال المقدسي عن الرقة بأنها «طيبة، نزهة كثيرة القرى والبساتين والخيرات والزيتون» وعن حران انها جيدة الاقطان، وعدد اهم منتجات المنطقة الزراعية فقال: هي الزيت والعسل والقطن والالبان والاعناب والفواكه الرطبة والقنب * (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٠-١٤٦) *

(١٨٩) يصفها ابن سعيد المغربي بأنها كثيرة المياه والبساتين والرمان المفضل والكمثرى والخوخ والسفرجل، كما ألقى بعض الضوء على المنطقة الممتدة بين حران وبالس عبر مدينة جسر منبج والرقة البيضاء، لا بيضا في رملها، فقال بأنها ذات فواكه كثيرة وهي أرض زيتون ونخيل وفيها الكثير من الغاسول المعروف بالقلبي وهي شجر السدر الذي يفيد باغتسال الموتى (كتاب الارض ص ٨٨-٨٩) *

(١٩٠) ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٠-٢٣١ *

(١٩١) ابن سعيد المغربي: كتاب بسط الارض ص ٨٨ *

(١٩٢) ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣٨ *

(١٩٣) ابن سعيد المغربي: بسط الارض ص ٨٨ *

تكثر المياه والبساتين وأشجار الكمثرى والرمان والسفرجل والخوخ في مدينة سروج ، احدى أهم المدن الواقعة الى الغرب من مدينة حران (١٩٤) . وأشار ابن شداد الى أهمية مدينة الرها من الناحية الزراعية خلال القرن السادس الهجري ، فقال «ان بساتينها وورق الثوت فيها والاعناب وغيرها ، تدر واردات تدخل في الحقوق السلطانية لخمسمائة فارس» (١٩٥) ، هذا بالإضافة الى ان ما يتبعها من القرى ، يقدر بسبعمائة قرية ، تشتمل على أربعة عشر ألفا وستمئة فدان من الاراضي الزراعية» (١٩٦) .

ويحدثنا ابن شداد عن غرس البساتين الكثيرة في مدينة الرقة ، حيث جلب لها الغروس الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق عندما استولى عليها في نهاية القرن السادس الهجري فزرع فيها النخيل واشجار الموز وبنيت فيها الجواسق (١٩٧) ، وتجاور مدينة الرقة مساحات واسعة من الاراضي الزراعية فيها نباتات كثيرة يطلق عليها «المروج» وأهمها «مرج الضيـازن» (١٩٨) و «مرج عبد الواحد» (١٩٩) و «مرج الموصل» (٢٠٠) الذي يمتد في موضع بين الجبال في منخفض من الارض ، شبيهة بالغور ، فيها مروج وقرى كثيرة (٢٠١) ، ولعل أغلب هذه الارض كانت مناطق رعوية ، تستغل لتربية الماشية .

(١٩٤) ابوالفداء : تقويم البلدان ص ٢٨٤ .
 (١٩٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ٣٠ ب .
 (١٩٦) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٣٠ ب ، ٣١ أ .
 (١٩٧) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٢٢ ب .
 (١٩٨) منسوب الى «الضيـزن» صاحب مدينة الحضر بازاء تكريت في البرية بينها وبين الموصل (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨١-٢٨٢) .
 (١٩٩) وهو ابن عم الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان . (ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ٨٤) .

(٢٠١) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ج ٣ ص ٨٤ .

هذه أهم المناطق الزراعية في أرض الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري . وهناك مناطق صغيرة أخرى غيرها ، تقع في أنحاء متفرقة من أرض الجزيرة ، عرفت بجودة غلاتها ووفرتها مثل منطقة «الفيضة» وهي ناحية في شرق الموصل تضم عدة قرى. تقدر قيمة استغلال أراضيها ومزارعها في هذه الفترة بأكثر من خمسة آلاف دينار (٢٠٢) ومدينة أسعرد (سعرت) قرب ميفارقين ، حيث تنتشر أشجار التين والرمان والكروم (٢٠٣) وقد بلغت مواردها الزراعية ٦٥٠٠ دينار (٢٠٤) . ومنطقة «كردستان» الواقعة بمحاذاة العراق العربي ، حيث يحدها من الجنوب والعراق العجمي من الشرق واذربيجان ، من الشمال ، وتشكل ديار بكر حدودها الغربية . وقد بلغت قيمة موارد هذه المنطقة الزراعية ٢٠٥٠٠ دينار ، بينما كانت قد وصلت هذه الموارد أيام السلطان السلجوقي سليمان شاه في بداية القرن السادس الهجري ٢٠٠٠ ر ٢ دينار (٢٠٥) . وكانت «باصفرا» (٢٠٦) و «باعشيقا» (٢٠٧) و «باعيناثا» (٢٠٨) ، مناطق البساتين الكثيرة في شرق الموصل حيث يغلب عليها شجر الزيتون والنخل وال نارنج والكروم (٢٠٩) أما قرى «سوق ثمانين» و «خرستاباذ» وهي شرق.

-
- (٢٠٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٨٢٨
 - (٢٠٣) ابوالفداء : تقويم البلدان ص ٢٨٩

(204) Mustawfi of Qazwin: Ibid P. 103.

(205) Mustawfi of Qazwin, Ibid, P. 105.

(٢٠٦) وجاء عند ياقوت «ان عنبها يجيء في وسط الشتاء» معجم البلدان ج ١ ص ٤٧١

(٢٠٧) وتجاورها قرية أخرى كبيرة ذات بساتين متصلة (ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٤٧٢) .

(٢٠٨) وبساتينها تشبه بدمشق وقد ذكرها أبو تمام في شعره قائلا :
لولا اعتمادك كنت ذا مندوحة عن برقيد وأرض باعينا

(ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٤٧٢-٤٧٣) .

(٢٠٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٤٧١-٤٧٣ .

نهر دجلة الى الشمال ، فتمتد فيهما مزارع الاعناب الوفيرة الانتاج،
وذكر ياقوت ان ما يرد من الاولى تبلغ قيمته ٤٠٠ر ٢٧ دينار (٢١٠) .

ومن المناطق الرعوية المنتشرة هناك ، منطقتا «الاني»
و«دربند زنكي»، حيث كانت مراعي جيدة وأرض صيد جيدة، ومن
محاصيلها الحبوب (٢١١) .

ويجلب الى بغداد نوع من الرمان من منطقة «البواريج» بواسطة
نهر دجلة (٢١٢) ، كما يجلب من قرية يقال لها «شرملة» التابعة الى
مدينة «شوش» قرب الموصل ، حيث ينسب اليها «حب الرمان
الشوشي» (٢١٣) الذي اشتهر في مدن الجزيرة الفراتية وبغداد .

ولا بد من أن نشير الى أهمية بعض المدن والقرى الزراعية التي
تقع في أنحاء متباعدة من أرض الجزيرة ، حيث تمتد فيها البساتين
والمزارع وأشجار الشاكهة الكثيرة المتعددة الالوان والاصناف ،
ويبدو أنها تدر موارد زراعية كبيرة خلال القرن السادس الهجري،
استنادا الى اشارات الجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، ومن أهم هذه
القرى «نيربا» (٢١٤) و «وادي زمار» (٢١٥) و «بيسان» (٢١٦)

(٢١٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٤٢٢ ، Mustawfi, Ibid P. 104.
(211) Mustawfi of Qazwin, Ibid, P. 108-106.

- (٢١٢) ابن سعيد المغربي : بسط الارض ص ٩٠ .
(٢١٣) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٣٣٤ .
(٢١٤) قرية كبيرة في الموصل (ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج٣ ص ٢٥٦) .
(٢١٥) قرب الموصل (ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص ٢٦٥) .
(٢١٦) من قرى شرقي دجلة الى الشمال من الموصل . ياقوت : معجم البلدان
ج١ ص ٧٨٩ .

هو « باجدا » (٢١٧) و « الجديدة » (٢١٨) و « السلامية » (٢١٩) و « كرمليس » (٢٢٠) .

ومن الجدير بالذكر ، ان المصادر أوردت اسماء عدد كبير من الأديرة المنبثة في أنحاء الجزيرة الفراتية ، حيث كانت تؤلف مساحات واسعة من الارض المزروعة بالمحاصيل والاشجار والبساتين التي ضمت أنواعا من أشجار الفواكه والأثمار . ومن الأديرة التي كانت تدر موارد متعددة الاصناف «دير احويشا» الذي يقع بالقرب من حيزان ، حيث تنتشر حوله بساتين الكروم ويمتاز بكثرة الفواكه (٢٢١) و «دير الكلب» بالقرب من معلثايا وشجرة الزيتون والرمان والآس والكروم والزعفران والترجس وتمتد مزارعه في السهول القريبة منه (٢٢٢) ، وأديرة «باسهرا» و«الزرنوق» و«أكمن» و«الباعوث» و«جرجيس» و«الزعفران» ، وجميعها تقع بالقرب من الموصل ، حيث امتدت فيها البساتين والمزارع الواسعة وغطتها أشجار الفواكه والأثمار ، بالإضافة الى المحاصيل والحبوب كالحنطة

(٢١٧) قرية كبيرة بين رأس العين ومدينة الرقة . ياقوت : نفس المرجع السابق ص ٥٣ .

(١٢٨) بين نصيبين والموصل ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٤٤ .
(٢١٩) شرقي دجلة ، من نواحي الموصل ، فيها كروم ونخيل وبساتين . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١١٣ .

(٢٢٠) قرية من أعمال نينوى في شرقي دجلة . ابن عبدالحق : مراصد ج ٢ ص ٤٩٢ وذكر المستوفي القزويني أن مواردها الزراعية بلغت ١١٢٠٠ دينار .

Mustawfi, Ibid, P. 104.

(٢٢١) الشابشتي : الديارات ص ١٢٦-١٢٧ ، العمري ، مسالك الأبصار ج ١ ص ٣١٠ .

(٢٢٢) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ٢٦٢ ، العمري : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٤ .

والشعير ، كما ان هناك مساحات من الارض تركت لتكون حقولا
لرعي الماشية والدواجن (٢٢٣) .

أما أديرة «عمر الزعفران» قرب نصيبين و «ما سرجيس»
بالقرب من مدينة عانة و «باعربا» قرب تكريت و «قنى» غربي دجلة
قرب الجديدة و «مريحنا» الى جانب تكريت و «العجاج» قرب هيت
و «أبي يوسف» القريب من بلد فانها مناطق زراعية تكثر فيها زراعة
المحاصيل والاشجار وأشجار الفواكه ، مثل الزيتون والفسق
والبندق والكروم (٢٢٤) ، كما وصفت مزارعها بالاتساع وكثرة
الغلات (٢٢٥) .

وكان غالبية سكان الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس
الهجري ، فلاحين مرتبطين بالارض ، وكان الطابع الزراعي العام
يغلب على هذه المجتمعات وبعبارة أخرى ، انها مجتمعات زراعية ،
لم تلعب الصناعة أو التجارة فيها الا دورا محدودا فالذين يستوطنون
ضفاف الانهار أو السفوح والسهول الجبلية أو مناطق العيون
والابار والقنوات أو السهل الرسوبي ، جميع هؤلاء اتجهوا
للاشتغال بالزراعة ، وقد أشار الى ذلك ياقوت في مواضع كثيرة من
كتابه معجم البلدان (٢٢٦) مما يدل على أن عددا كبيرا من الناس كان
يشغل هذا القطاع .

(٢٢٣) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٢٦١ ، ج٢ ص ٦٤٤ ، ٦٦٣ ، ابن عبدالحق
مراصد الاطلاع ج١ ص ٤٢٤ (العمري : مسالك الابصار ج١ ص ٢٥٥ -
٢٨١) .

(٢٢٤) الشابشتي : الديارات ص ١٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٦٤٥ -
٦٧٨ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص ٤٣٨ ، العمري :
مسالك الابصار ج١ ص ٣٠٢ - ٣٠٥ - ٣٠٩ .

(٢٢٥) العمري : نفس المرجع السابق ج١ ص ٣٠٩ .

(٢٢٦) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٧٠ ، ٨٦ ، ج٤ ، ص ٥٧٦ .

أما هجرة الفلاحين الداخلية أو الخارجية (٢٢٧) ، فلم تقدم عنها المراجع المتوفرة معلومات مفصلة ، ولكن نلمس من خلال النصوص والحقائق التاريخية القليلة والمشتقة ان ذلك كان يحدث بين حين وآخر ، يدل عليه تناقض الانتاج الزراعي الكلي في بعض المناطق ، أو انعدامه في مناطق أخرى .

ووردت عند ابن الاثير اشارة تفيد أن عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، بلغه ، ان جماعة من فلاحي الموصل قد رحلوا الى ماردين إحدى الامارات الارتقية ، فأرسل الى صاحبها حسام الدين تمر تاش بن ايلغازي بن أرتق ، يطلب منه أن يعيدهم ، فلم يشغل ، وكان جوابه : «اننا نحن نحسن الى الفلاحين ونخفف عنهم ونأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم أنتم مثل فعلنا لم يفارقوكم» (٢٢٨) .

وقد تعرضت أرض الجزيرة الفراتية الى بعض الآفات الزراعية التي كانت تسبب تلف المحصول أو القضاء عليه ، ذكر ابن الاثير بأن غزو اسراب الجراد قد تسبب في اهلاك كثير من الغلات والخضر بالعراق وبلاد الشام والجزيرة خلال القرن السادس الهجري (٢٢٩) ، ويبدو ان هذه الموجة من الجراد كانت عامة شملت جلادا كثيرة . كما وقع سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م برد عظيم في مدينة ماردين «ولم تجر بمثله عادة ولا أبصر أكثر منه» وقد أدى ذلك الى تهالك المواشي واتلاف أكثر النبات والشجر» (٢٣٠) كما حدث مثل ذلك

«(٢٢٧) ويبدو ان معظم هؤلاء الفلاحين المهاجرين ، كانوا يفتشون عن الارض الزراعية العشرية ، أي تلك الارض التي يؤخذ للسلطان من ريعها ومواردها الزراعية العشر عند قسمة المحاصيل (انظر ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٧٨) .

«(٢٢٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤١٨ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ١٢٥ .

«(٢٣٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (بيروت - ١٩٠٨) ص ٢٠٢ .

في الموصل سنة ٦٢١ هـ حيث «خرج الجراد وكان كثيرا خارجا عن الحد» (٢٣١) . ونقل اليونيني ، الاحاديث التي كان الناس يتناقلونها فيما يتعلق ب (الدودة) التي أكلت ثمر التفاح ، في مناطق زراعته من مدن الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، بحيث يبست معظم أشجاره عندهم (٢٣٢) .

ولكن هذه الاشارات الخاصة بتلك الآفات كانت قليلة ومتباعدة. زمنيا ، مما يدل على أن القرن السادس الهجري ، كان عصر ازدهار الزراعة في بلاد الجزيرة الفراتية ووفرة بالمحاصيل الزراعية على شتى أنواعها وخيراتها .

(٢٣١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٢٤ .

(٢٣٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٣٠ .

الفصل الثاني

الاقطاع

أنواع الاقطاع :

- ١ - الاقطاع العسكري
- ٢ - الاقطاع الوراثي
- ٣ - الاقطاع السياسي
- ٤ - اقطاع المدن

الفصل الثاني

الاقطاع

نشأ الاقطاع في أرض الجزيرة الفراتية قبل القرن السادس الهجري ، واتخذ له مفاهيم متعددة ، كما هو الحال في جميع البلاد الإسلامية ، وأول اشارة الى هذا النظام في أرض الجزيرة الفراتية أوردها البلاذري في القرن الثالث الهجري ، فقد ذكر الأرض البوار التي أحيها المسلمون فأقطعوها «فان لبيت المال العشر فيها» (١) . لذلك أطلق على هذه الأرض المقطعة - الأرض العشرية (٢) - وذكر البلاذري جلاء أهل مدينة رأس العين في بلاد الجزيرة عن أراضيهم ، حيث اقطعت الى جماعات ليزرعوها (٣) ثم تطور الاقطاع

-
- (١) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٠٧ .
(٢) البلاذري : نفس المرجع السابق ص ٢٤٨ ، ويذكر قائلا «سألت المشايخ عن أعشار بلد وديار ربيعة والبرية - وهي أرض من الجزيرة الفراتية - فقال هي أعشار ما أسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات الذي ليس في يد أحد أو رفضه النصاري فمات وغلت عليه الدغل فأقطع العرب» ، انظر عبدالعزيز الدوري «ان اقطاعات الأرض الموات تراوحت بين (٦٠) جريبا الى (٨٠٠) جريب (الجريب = ١٥٩٢ مترا مربعا)» مقالته «نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية» مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد ٢٠ / ١٩٧٠ .
(٣) البلاذري : نفس المرجع السابق ص ٢١٠ ، وانظر أيضا فهمي عبد الجليل محمود : النظام الاسلامي للأرض الزراعية حتى نهاية الدولة الاموية (رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة - ١٩٧٤) الورقة ٢١٩-٢٢٠ .

وأصبح . كما تشير النصوص الواردة عنه في القرن الرابع الهجري في بلاد الجزيرة الصراتية ، نوعا من الأساليب الإدارية الاقتصادية للاراضي الزراعية أو غير الزراعية وما يتبعها من ممتلكات أخرى . وكانت أساليب منح الاقطاع ، تختلف في مظاهرها العامة . فبعض الارض تمنح بملكية دائمة أو مدى الحياة وأخرى لفترة محدودة ، فالأولى لا يمكن استردادها من المقطاع (بالفتح) وهي شبيهة الى حد ما بالاقطاع الوراثي والثانية يكون التصرف في الارض المقطعة يختلف عن مفهوم الملكية الفردية حيث ينتهي استغلالها بموت المقطاع (بالفتح) كما يحق للمقطاع (بالكسر) أن يستردها متى شاء . أما منح ملكية الارض لفترة محدودة فيعني الاستغلال المؤقت للثروات ينتهي بانتهائه .

كما اتخذ الاقطاع سبيلا لدفع الرواتب أو العطاء ، حيث تمنح موارد الارض على مختلف أنواعها ، فأصبح الاقطاع محدودا بزمن أو بخدمة الى أن صار وراثيا ، ومن ثم تطور الى اقطاع مقابل تهيئة المقطاع (بالفتح) لعدد من الجند (٤) .

وشاعت الى جانب ذلك ، الاقطاعات التي يأخذها أصحابها على أنها ملكية مؤقتة ، وتكون فيها «تسيطرة رئيس الدولة تنفي صفة الاستقلال الكامل أو الجزئي للمقطعين الذين يحصلون على الاقطاع لاي سبب من الاسباب» .

وقد عمم السلاجقة النظام الاقطاعي (٥) بعد أن أخذوه عن البويهيين (٦) ونتيجة لذلك اقطع السلاجقة أكثر بلاد الجزيرة

(٤) انظر : عبدالعزيز : السوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٩٨ .

(٥) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق (مصر - ١٣١٨هـ) ص ٥٥ .

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٥٤ ، ج ٦ ص ٩٦ ، وانظر : ابراهيم علي طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة - ١٩٦٨) ص ٢٢ وذكر «ان البويهيين أساءوا التصرف في حكومتهم نتيجة لاتباعهم النظام الاقطاعي حيث خربوا البلاد» .

الفراتية لامرائهم فأدى هذا بالتدريج الى ظهور الامارات الاتابكية والارتقية (٧) وانفصالها عن الدولة السلجوقية ، ويرى الدكتور محمد حلمي محميد أحمد ان سعي السلاجقة لتعميم الاقطاعات والاتابكيات ، قد أدى الى عكس الهدف الذي كان يرمي اليه وزير السلاجقة نظام الملك ، اذ انفصلت هذه الاتابكيات عن السلطة ، مكونة امارات صغيرة ، فتفككت وحدة السلاجقة وتوزعت الدولة بين أمرائها (٨) وأخذ أمراء الجزيرة الفراتية ، النظام الاقطاعي السلجوقي وطبقوه خلال حكمهم الذي استغرق القرن السادس الهجري * واقطاع السلاجقة هو آخر صورة متطورة للاقطاع منذ القرن الثالث الهجري *

ومن الجدير بالذكر ، انه منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري ومع انتعاش الخلافة العباسية ، وانحسار ظل

(٧) ينتمون الى (ارتق بن اكسك) وهو احد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٧٥ هـ / ١٠٠٤-١٠٨٢ م) وكانت له مكانة حسنة لدى السلاجقة وقد استطاع الاستيلاء على عدد من أهم مدن ديار بكر مثل حصن كيفا وماردين ونصيبين وتشكيل امارة محلية * وبعد وفاته تمكن اخوه ايلغازي الاستيلاء على معظم ممتلكاته ، فيما عدا حصن كيفا الذي صار لداود بن سقمان ، وبذلك ظهرت امارتان للاراتقة ، هما ماردين وحصن كيفا * وفي عهد حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي توسعت املاك بني ارتق * واستمرت هذه العائلة تحكم المنطقة حتى مطلع القرن التاسع الهجري *

راجع عن الاراتقة : الفارقي : تاريخ أمد وميفارقين (المخطوطة) ، تاريخ الفارقي (القسم المنشور) ، ابن شداد : الاطلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - *

(٨) الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٢٠٧-٢٠٨ ولكنه يذكر ، ان النظام الاقطاعي الذي اقامه السلاجقة في وسط فارس وشمالها كان عاملا مساعدا للسلاجقة ، اذ انصرف أصحاب الاقطاعات الزراعية المدنية الى انشاء قوة عسكرية مشتركة بين المنتفعين بهذه الاقطاعات لتقوم بمهمة الحماية لهم والدفاع عن اقطاعهم ، فيسر هذا التفكك مهمة السلاجقة الذين كانوا يطوقون هذه الاقطاعات ويفصلونها بعضها عن بعض ، فلا تلبث ان تبادر الى التسليم لهم * نفس المرجع السابق ص ١٩٦-١٩٧ *

السلاجقة عن العراق وبلاد الجزيرة الفراتية أخذ الامراء الاتابكة والاراتقة يمارسون الاقطاع الذي أصبح يمثل نوعا من أنواع التولية الادارية ، وذلك بجعل المقطع (بالفتح) مسؤولا عن ارسال موارد اقطاعه الى خزينة الامارة بعد أن يأخذ نصيبه منها . وفي هذه الحالة كان المقطع يتولى الاشراف المباشر على اقطاعه أو يرسل نائبا عنه لادارتها . كما أن بعض الاراضي كانت تقطع مقابل دفع مبلغ معين أي بالضمان ، هذا فضلا عن استمرار الاقطاع باستثماره بدلا من مرتبات القادة العسكريين أو الجند أو الموظفين الثابتة أو كجزء منها (٩) .

وهناك بعض الاقطاعات في الجزيرة الفراتية ، كانت تعطى بالعشر في عهد الاتابكة والاراتقة ، كما كان الحال أيام السلاجقة ، فقد أشار ابن خلكان الى اقطاعات جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني وزير الاتابكة في الموصل سنة ٥٧٥ هـ ، التي كانت تقوم على عشر موارد الارض العامة على «جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية» .

ولكن مثل ذلك النوع من الاقطاع لم يرد ذكره ، كثيرا في النصوص المتيسرة لدينا عن الجزيرة الفراتية ، سوى ما يذكره ابن الاثير عن اقطاع كان يمارسه الاتابك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل (٥٦٥-٥٧٦ هـ / ١١٦٥-١١٨٠ م) فكان يسلم الارض أو الممتلكات الملحقة بها «على اقطاع يذكره فيجاب الى ذلك» (١٠) ، أي على قاعدة تستقر بينهم من اقطاع بين الاتابك وصاحب الاقطاع . كما أشار ابن العديم الى أن الاتابك نور الدين زنكي ، كان يرغب في الاقطاع ، فان لم يجب الى ذلك يعدل الى الشدة والعنف (١١) ، ويبدو أن هذه الاقطاعات كانت غير

(٩) . محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٢٠٣ .

(١٠) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٦٩-٣٤٦-٤١٢ .

(١١) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٣٢٥ .

مرغوبة لانها تفرض عشر الموارد للمقطعين (بالكسر) ، مما يجعل المقطعين (بالفتح) يفتشون عن نوع اخر من الاقطاع .

ويبدو ان الاقطاع الذي انتشر في ارض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، لم يكن النظام الوحيد المعروف هناك ، فقد وجد بجانبه اقطاع غربي ، انتقل مع الصليبيين من اوربا (١٢) الى الدويلات الصليبية ومنها امارة الرها في الجزيرة الفراتية (١٣) ولكن هذا الاقطاع كان بنطاق ضيق ، ولم يستمر طويلا نتيجة للتهديدات المستمرة التي تعرضت لها امارة الرها الصليبية من جانب الاتابكيين والايوبيين من بعدهم .

(١٢) مع اختلاف النظامين ، الاقطاعي الاسلامي الذي اوجده البويهيون وعممه السلاجقة ونظيره الاقطاع الاوربي في خصائص جوهرية ، فهناك اوجه شبه ، وخاصة في مجال مظاهر الاستغلال البشري والمادي . أما وجه الخلاف الكبير بينهما ، ففي النظام الاسلامي لم يكن الاقطاع تملكيا ، وانما استغلالا ، فلا يملك المقطع (بالفتح) حق الرقبة أي حق الامتلاك ، بل له حق الاستغلال بينما يسود نظام التابع والمتبوع في النظام الاقطاعي الاوربي ، حيث يرتبط الفلاح بالارض ويصبح جزءا منها ، وتكون منافع حق الرقبة والاستغلال والارتفاق للسيد الاقطاعي (المتبوع) . ويمكن القول ان النظام الاقطاعي الاوربي يمثل صفة أساسية للاقتصاد الاجتماعي العام .

راجع : حول الاختلاف بين الاقطاعين الاسلامي والاوربي بصورة مفصلة : الدكتور : ابراهيم الطرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط ص ٢٢ ، ٩٩ ، ١٥٣ ، ٢٣٥ . ثم انظر : عن الاقطاع الغربي :

Runciman: A History of The Crusades vols. 1,11,111; Baldwin, M. (Ed) The First Hundred years (A History of the Crusades vol. 1).

وارنست باركر : الحروب الصليبية (ترجمة الباز العريني - مصر - ١٩٦٠) .

(١٣) اتخذ الصليبيون الاوائل قاعدة في التوزيع الاقطاعي ، ويتضمن هذا التوزيع معنى اقتسام الغنيمة فجعلوا للقادمين الاولين ، أي لانفسهم ، الحق الكامل في كل حصن أو بلد أو إقليم يضعون أيديهم عليه .

انظر : ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص ٤٧-٤٨ .

ويمكن القول ، ان أنواع الاقطاع التي قامت في أرض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت كما يأتي :

١ - الاقطاع العسكري (١٤) :

درج الاتابكة والاراتقة على هذا الموضوع من الاقطاع منذ عهد السلاجقة (١٥) ، حيث كان الاقطاع السلجوقي ، في طبيعته آنذاك اقطاعا عسكريا ، ويتضمن اقطاعا للموارد ولفترة معينة .

وحل هذا الاقطاع ، على ما يبدو مشكلة الجند الذين كانوا يقيمون بالمدن ويديرون اقطاعاتهم بالوكلاء ، حيث أصبح الزراع والفلاحون تابعين للجند المقطعين (بالفتح) ويهيئون لهم الموارد المالية . لكي ينصرفوا للخدمة العسكرية (١٦) ولاعداد الجند ، ففي ٥٨٧ هـ ، اقطعت حران والرها للجند ، ليصبحوا قوة يعتمد عليها في مقاومة الصليبيين (١٧) ، وكذلك ماردین التي اقطعت لمساكر الاتابك نورالدين أرسلان شاه صاحب الموصل (٥٨٩-٦٠٧ هـ/ ١١٩٣-١٢١٠ م) ، ولكن «لم يستحصلوا منها شيئا لتأخر ادراك الغلات» (١٨) وقد ذكر ابن الاثير ، أنه «لو بقى الاقطاع بأيدي هؤلاء

(١٤) ظهر الاقطاع العسكري نتيجة الحاجة الى المال ، وكانت بدايته تعزى الى المؤثرات التركية المغولية ، وقد بدأه في العراق وأرض الجزيرة البويهيون ، وسار السلاجقة على خطتهم : انظر : عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ٨٧-٩٦ .

(١٥) انظر محمد حلمي محمد أحمد : الدولة والخلافة في العصر العباسي ، ص ٢٠٨ .

(١٦) كانت الخدمة العسكرية في الاقطاع الاوربي مقررة نظريا بأربعين يوما يخدمها التابع عند سيده مع اتباعه ، ولكن هذه المدة لم تحدد بالنسبة للاقطاع الاسلامي . انظر : ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص ٤٨ .

(١٧) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٦٢ .

(١٨) ابن الاثير : الباهر ص ١٩٥-١٩٦ .

الجند الى أن يأخذوا منها ما ينفقون على الحرب لكان مصلحة» (١٩) .
 كما أن الاتابك قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي (٥٤٤-
 ٥٦٥هـ/ ١١٤٩-١١٦٩م) اقطع جنده اقطاعات في قرى كواشي
 والزعفران وقلاع الزوزان (٢٠) واستجاب الى طلب أحد مماليكه
 المسمى «أغلبك» بالاقطاعات «وصار عنده من أكابر الامراء ، اذ
 كان يزيده اقطاعا وقربا وجعله مقدم عسكريه» (٢١) . ومن الامراء
 الآخرين الذين حازوا الاقطاعات العسكرية في عهد عماد الدين زنكي
 صاحب الموصل ، نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، فقد
 «اقطعهما اقطاعا سنيا في شهرزور» (٢٢) .

٢ - الاقطاع الوراثي :

يبدو ان توارث الاقطاعات كان سائدا ، منذ العصر العباسي
 الاول ، ونفهم مما رواه البلاذري ، أن «عين الرومية» وهي في أرض
 الرقة من الجزيرة الفراتية ، كانت للوليد بن عقبة بن أبي معيط ،
 ملكا فرديا ، ثم صارت للخليفة ، فاقطعها الى ميمون بن حمزة ثم
 ابتاعها الخليفة هرون الرشيد من ورثته (٢٣) ، كما اقطع ابن هبيرة
 من أرض سروج في الجزيرة ، فأخذت منه واقطعت الى بشر بن
 ميمون ، ثم ابتاعها الرشيد من ورثته (٢٤) أيضا .

أما في العهد الاتابكي ، فقد تطور الاقطاع العسكري الى جند
 مقطعين (بالفتح) للأرض يتوارثونها ، مقابل ضمان بقاء عدد من
 الجند في خدمة الأمير الاتابكي ، ولكن يحق للأمير وبإمكانه أن يلغي

-
- (١٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٩٦ .
 (٢٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١١٢-١١٩ .
 (٢١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١١٩-١٢٠ .
 (٢٢) أبو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد)
 ص ٩٥-٩٦-١٢٩-١٣٠ .
 (٢٣) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٤٨ .

أية اقطاعات متى شاء . ويذكر ابن الاثير بهذا الصدد ما كان يفعله الاتابك نورالدين محمود زنكي مع أجناده ، فاذا توفي أحدهم وخلف ولدا ، اقر اقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيرا اشرف بنفسه وتولى الاقطاعات وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يحق اليه فيتولى أمره الى أن يكبر ، فكان الاجناد يقولون هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عنها (٢٥) ، لاننا نتوارثها (٢٦) .

ويعزو ابن الاثير الى اقطاعات الجند المتوارثة هذه سبب ثباتهم في ساحات الحروب ومداومتهم على القتال (٢٧) .

ويمكن القول أن مفهوم الاقطاع الوراثي يجب أن يتضمن استمرار التبعية والولاء للامير الاتابكي (٢٨) ، ففي ٥٢٣ هـ مات صاحب منبج وهي من مدن الجزيرة ، فاقطع الاتابك نورالدين محمود زنكي أرض منبج الى ولده غازي بن حسان «فعصى عليه فسير اليه عسكريا وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان» (٢٩) . وفي ٦١٦ هـ ، اقطع الملك الاشرف موسى صاحب ديار الجزيرة ودمشق عماد الدين بن المشطوب وهو أحد أمراء المنشقين عليه ، مدينة رأس العين «وأقام عنده مخيما» (٣٠) .

-
- (٢٤) البلاذري : نفس المرجع السابق ص ٢٤٨ .
(٢٥) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٩ .
(٢٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان قسم ١ ج ٨ ص ٣٠٩-٣١٠ .
(٢٧) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٩ .
(٢٨) يقول القلقشندي نقلا عن ابن فضل الله العمري «والذي للامراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لان كل طائفة ، ورثت مالها من ذلك عن آبائها ، وأما الادارات من المبالغ والقرى ، فانها تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع ووصية ووقف لمن أرادها» صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦-٤٢٧ .
(٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٣٢٥ .
(٣٠) ابن العديم : نفس المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٠ .

ومن المحتمل جدا ، أن الملك الاشرف انما فعل ذلك لاسترضاء ابن المشطوب ، الذي كان قد خرج عن طاعته ، بجعله تابعا له وبخدمته .

وعلى أية حال فان الاقطاعات الوراثية والتمتع بايراداتها لا تعني المشاركة في الحكم ، ففي ٥٤١ هـ سار الاتابك نورالدين محمود زنكي الى قلعة جعبر وضرب حولها الحصار ، فلما طال عليه أرسل صاحبها لتسليمها اليه ، وفي هذه الحالة فانه يضمن له الاقطاع الكثير والمال الجزيل (٣١) . ونفهم ان ضمان الاقطاع والاموال لصاحبه قلعة جعبر كان لابعاده عن التحكم فيها والغاء سلطته عنها .

وجاء عن الاتابك قطب الدين مودود صاحب الموصل في ٥٦٣ هـ انه كان يوسع من اقطاعاته على نوابه «لئلا يمدوا عيونهم على غيرهم» فيأخذون اموال الرعية والرشاوي (٣٢) ، ومن المرجح أن ذلك لا يعني أنهم مستقلون في حكم اقطاعاتهم هذه ، كما ورد في اخبار بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل المستقل ، انه أمر الشاعر أبا الطيب بن الحلاوي الموصللي ان يلزم مجلسه كسائر الندماء واقطعه اقطاعا (٣٣) .

ويبدو ان اقطاع الشاعر المذكور لا يعني المشاركة في الحكم أيضا ومن الاطباء الذين حصلوا على اقطاعات جزيلة من الاتابكة تقي الدين عيني الرأس المعروف بابن الخطاب وهو من مدينة رأس العين ، وهذه الاقطاعات تفيد - كما هو واضح - في الحصول على موارد مالية لقاء خدمات هذا الطبيب في الحقل الطبي (٣٤) وهي متوارثة أيضا .

(٣١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٠٩ .

(٣٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق الباهر ص ١٤٩ .

(٣٣) ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٣٢ .

(٣٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٤ .

٣ - الاقطاع السياسي :

وهي مشاركة المقطع (بالفتح) في ادارة الاقطاعات وحكمها والاستقلال فيها بعيدا عن تانيرات المقطع (بالسر) وتدخلاته .

وكان هذا الاقطاع يشبه الاقطاع الاداري ، وهو ولاية على منطقة ، وللمقطع (أو الامير) السلطة التامة في اقطاعه ، وله أن يعطي اقطاعات بدوره (٣٥) . وقد عرف هذا النوع من الاقطاع في الجزيرة الفراتية أيام الاتابكة . وتتكون الاقطاعات هنا من المدن أو القلاع وما يجاورهما من أراض زراعية أو غير زراعية ، فقد أقطعت مدينة حران وقلعتها سنة ٥٧٨ هـ إلى مظفر الدين كوكبري ، حيث كان يثق فيه الاتابك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود ، ويعتمد عليه (٣٦) . والظاهر أن اعتماد الاتابك على مظفر الدين كوكبري ، كان نتيجة الثقة في قدرته على حكم المدينة وإدارتها سياسيا ، حيث شغل هذا الامير وظائف مماثلة كان الاتابكيون قد عهدوها اليه .

كما أقطع صلاح الدين الايوبي ، مظفر الدين كوكبري نفسه ، الذي كان يتمتع بمنزلة رفيعة لديه ، مدينة أربل وأضاف اليه شهرزور وأعمالها والرها وقد «سار إلى أربل فامتلكها» (٣٧) . أي احتلها عسكريا وأقام حكمه السياسي فيها ، ولكنه تنازل عن الاقطاعات الأخرى التي كان صلاح الدين الايوبي قد أقطعها إياه (٣٨) . وكان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي قد أقطع

(٣٥) عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٩٧ .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٤٨٢ .

(٣٧) ابن الوردي : التاريخ ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣٨) وقد سمي - بالملك المعظم - وهو من أصحاب صلاح الدين الايوبي :

انظر : ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب ج ٥ المنشور في مجلة (Oriental College Magazine) الهند - مجلة ٢٠

العدد ٢٢ ص ٤٨٩ .

شهرزور من أبيه (٣٩) وتعني هذه الاقطاعية فيما يبدو ، تخويل جميع صلاحيات الحكم الذي كان يمارسه سيف الدين غازي في هذه المدينة على أقرب الاحتمال . كما انه من غير المحتمل تصور ان معاملة عماد الدين زنكي لابنه ، هي نفس معاملته للمقطعين الآخرين ، الذين هم نواب له مسؤولون عن ارسال واردات الاقطاعات الى الحكومة بعد أن يأخذوا حصتهم .

٤ - اقطاع المدن :

اتباع الاتابكة والاراتقة في هذه الفترة ، اقطاعات عامة تضم مدنا أو قرى كاملة وما يلحقها . ويبدو من النصوص الواردة عن هذا النوع من الاقطاع بأنه أوسع الاقطاعات التي كان يلجأ إليها الامراء الاتابكيون والاراتقة . غير انه ليست لدينا معلومات مفصلة عن طبيعة هذا الاقطاع الذي يشمل المدينة أو القرية أو القلعة ، وهل ان المقطع (بالفتح) تطلق يده بالاستغلال المؤقت أو الدائم للثروات أو الارض الزراعية أو جباية الضرائب أو فرض ضرائب جديدة أو الحصول على موارد أخرى تنشأ عن التجارة أو الصناعة أو الاسواق ؟ ويبدو ان هذه الاقطاعات هي نوع خاص من التولية الادارية العامة ، ولكن بعيدا عن اللامركزية في ادارتها . فقد اقطع الملك الاشرف موسى بن الملك العادل مدن خلاط وميافارقين وحاني ، اخاه شهاب الدين غازي ، وأخذ منه مدينتي الرها وسروج ، والسبب هو لحمايتها من خطر غزو الجنود المغولية (٤٠) ، والقي ابن الاثير بعض الضوء على اقطاعات من هذا النوع ، فيشير الى ان في سنة ٥٦٦ هـ أمر سيف غازي صاحب الموصل ، الامير «كمشتكين» والذي لقبه ب «سعد الدين» بأن «لا ينفرد بقليل من الامور ولا بكثير ، وحكمه

(٣٩) ابن الاثير : الباهر ص ٨٥ .

(٤٠) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٩٨ .

في البلاد واقطع مدينة سنجار ، لعمادالدين ابن أخيه
قطب الدين» (٤١) .

أما الأقطاعات التي منحها صلاح الدين الايوبي لابن أخيه ،
الملك المظفر تقي الدين عمر وهي مدن الرها ونصيبين وسروج وبلاد
الخابور وسنجار ، وذلك بعد عبوره نهر الفرات سنة ٥٧٨ هـ
بجيوشه واستيلائه عليها عسكرياً (٤٢) ، فيمكن اعتبارها اقطاعات
خاصة ، تكون تحت ادارة المقطع (بالفتح) المسؤول أمام الادارة
المركزية أو سلطة الامارة عنها .

وكذلك الحال فيما أقدم عليه الملك العادل ، سيف الدين
أيوبكر ، حيث اقطع صاحب ماردن ناصر الدين الارتقي مدينة
سنجار ونصيبين واقطع أسدالدين شيركوه بلدة عانة وغيرها من
بلاد الخابور (٤٣) .

وغالباً ما يسترد المقطع (بالكسر) اقطاعه من المقطع (٤٤)،
لأسباب معينة ، فاما ان تستبدل باقطاعات أخرى غيرها ، أو يكتفي
بتقديم مبالغ من الاموال .

ومن المرجح جداً ، أن ينطبق ذلك فقط ، على اقطاعات المدن ،
ففي ٥٨٥ هـ حاصر الخليفة الناصر لدين الله العباسي مدينة حديثة
التي تقع بالقرب من عانة لاخراجها من مقلعيها ، وقد سلموها على
اقطاع معين ، كما اعطى صاحبها وأهلها اقطاعاً آخر (٤٥) ، أيضاً .
وفي ٦١٥ هـ استرد الملك الاشرف مدينة رأس العين التي كان قد

(٤١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٣٦٥

(٤٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٢٩٣ .

(٤٣) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ٢ ص ٢٧٠ .

(٤٤) وتسمى مجموعة من هذا الصنف من الاقطاعات (مسترجعات) انظر :

عبدالعزیز الدوري - مقالته «نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية» (مجلة

المجمع العلمي العراقي مجلد ٢٠ / ١٩٧٠) .

(٤٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٥٩ .

أقطعها الى صاحب ماردين وأخذ منه مبلغ ثلاثين ألف دينار (٤٦) ،
وبعد استيلاء نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٦٤ هـ
على قلعة جعبر ، أشار على صاحبها ان يأخذ عوضها منه مدينة سروج
واعمالها والملاحاة التي تقع بالقرب من حلب وعشرين ألف
دينار (٤٧) .

ثم ان المقطع (بالفتح) قد يتنازل عن اقطاعاته لدى المقطع
(بالكسر) فيطلب اقطاعا غيرها ، وكانت مدن حران والرها
وسميساط مقطعة لمظفر الدين كوكبري بن زين الدين ، فطلب
التنازل عنها والانتقال الى مدينة أربل لتكون في اقطاعه فأجابه
صلاح الدين الايوبي ، ثم ضم اليه مدينة شهرزور (٤٨) . واقطع
قطب الدين مودود سنة ٥٥٢ هـ أحد مماليك الاتابك سيف الدين
غازي اقطاعا كثيرا ، معوضا اياه عن جزيرة ابن عمر التي كانت في
حوزته (٤٩) ، كما منح الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٨٥ هـ
أصحاب مدينة تكريت اقطاعا غيرها (٥٠) .

وعندما حاصر الخوارزميون مدينة خلاط واستمر الحصار
طويلا التمس والي المدينة وهو مقطوعا من السلطان الخوارزمي
جلال الدين منكبرتي ، تعيين اقطاع له ، فاقطعت له مدينة «سلماس»
احدى مدن اذربيجان وعدة ضياع متفرقة أخرى (٥١) . ويبدو أن
تنازل هؤلاء المقطوعين (بالفتح) انما كان يجرى برغبتهم في الحصول
على اقطاع غيره لاسباب مختلفة يتعلق أغلبها بموارد الاقطاعات أو
موقعها أو مصيرها .

(٤٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٤٣ .

(٤٧) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٧ .

(٤٨) مجهول : مخطوطة «انسان العيون في مشاهير سادس القرون» الورقة

٢٩٢-٢٩٣ ، أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٠٤ .

(٤٩) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢١ .

(٥٠) الخزر جي : المسجد المسبوك ص ٤١ .

(٥١) المنشئ النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٢٠ .

الفصل الثالث

الضرائب : أنواعها ، أسلوب جبايتها

- أ - ضريبة الارض «الخراج» وضريبة الرؤوس «الجزية»
- ب - المساعدات والمصادرات والغرامات
- ج - المكوس
- د - أسلوب جباية الضرائب
 - ١ - الاقطاع
 - ٢ - الضمان
 - ٣ - الجباية المباشرة

الفصل الثالث

الضرائب

كان ظهور الاتابكيات والامارات الارتقية على المسرح السياسي في الجزيرة الفراتية (١) في بداية القرن السادس الهجري (٢) واستقلال الاتابكيين والاراتقة باماراتهم ، عاملا مهما في ازدياد

(١) كانت الجزيرة الفراتية أبان الفتوح الاسلامية واحدة من أغنى الامصار الاسلامية من حيث الموارد ، فلقد وفرت لبيت المال موارد كثيرة وخاصة بعد توقف الفتوحات الاسلامية الذي أدى الى حرمانه من مصادره المالية العظيمة، وقد كان أغلب هذه الموارد من الضرائب المتعددة الانواع والاساليب كضريبة الارض من خراج وعشور ، أو الضرائب المفروضة على رؤوس أهل الذمة من نصارى ويهود وهي ضرائب الجزية ومتى ما أسلموا أعفوا منها ، أما ضريبة الارض (الخراج) فتبقى الا اذا تركت الارض فتسقط . وهناك الضرائب الموضوعة على الصادرات والواردات والاسواق والتركات أو تلك الضرائب التي فرضت على التجارات والصناعات أو الضرائب التي كانت تستحصل من أملاك الكنيسة . وقد ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري ما يشير الى ذلك فقال «والجزيرة اقليم كثير الجبايات لسلطانه» صورة الارض ص ١٩٠ .

(٢) وفي القرن الخامس الهجري وبعد تغلب العناصر التركية وسيطرة البويهيين والسلاجقة على بلاد الجزيرة الفراتية ومدنها ، شاع القلق السياسي وعدم الاستقرار والفوضى ، فضعف الانتاج الزراعي وتقلص النشاط التجاري في الوقت الذي ازداد فيه اسراف الحكام وبذخهم وتعددت اشكال عسفهم بالسكان ، حيث انعكس كل ذلك على الضرائب بمختلف أنواعها ، ففرضت ضرائب جديدة وازدادت ثقلا على السكان من حيث كميتها وأسلوب جبايتها .

وانتشار العمران والرخاء في المدن والقرى ، مما جعل أمر فرض الضرائب من قبل الدولة وتعددتها ، مسألة طبيعية ، لا تثقل كاهل السكان آنذاك .

ولكن في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، صارت الضرائب تخضع لاهواء الامراء الاتابكيين والاراتقة ، وأصبحت تضم عددا من الضرائب الشرعية مثل ضريبة الارض (الخراج والعشور) وضريبة الجزية (على أهل الذمة) والضرائب غير الشرعية مثل المكوس .

ومن الضرائب التي نتلمس اثرها في الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري هي :

أ - ضريبة الارض (الخراج) وضريبة الرؤوس «الجزية» :

لا بد لنا اذا أردنا أن نفهم طبيعة هاتين الضريبتين في القرن السادس الهجري ، من أن نرجع الى نشأتها الاولى في هذه البلاد ونستعرضهما منذ أواخر الفتوح الاسلامية لانهما استمرارا لما كانتا عليه في تلك الفترة ، فقد فرضتا بشكل محدود في مدن الجزيرة الفراتية - ديناراً على كل رجل ومدى قمح وقسطي زيت وقسطي خل ، واعتبر الناس طبقة واحدة فيما يتعلق باستيفائهما ، كما

(٣) صنف الفقهاء الضرائب الاسلامية الى صنفين : الاول ضرائب شرعية ، والصنف الثاني الضرائب غير الشرعية ، ويدخل في الصنف الاول ضريبتى الجزية والخراج ويشمل الصنف الثاني كل ما استحدثت من ضرائب أخرى غيرها . وقد جاء ذلك نتيجة لتطور الدولة الاسلامية وظروفها المتغيرة الجديدة . انظر : الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الاموي ص ٢٢٨ ويذكر ان ضريبتى العشر والخسراج على الانتاج الزراعي هما ضريبتان متناظرتان ، فالعشر يؤخذ من الملاك المسلمين ، بينما يؤخذ الخراج من أهل الذمة وتؤخذ الجزية أو ضريبة الدفاع من أهل الذمة القادرين على العمل والحرب .

اعتبر القسم النقدي أي الدينار هو الجزية ، والقسم النوعي ضريبة الارض «الخراج» (٤) .

ولكن بالنظر الى أزمة الخزينة وتقلص مواردها من الجباية والاموال في عهد الدولة الاموية ، فقد أعيد النظر في الضرائب المقررة في الجزيرة الفراتية ، وبعد اجراء المسوحات الشاملة للمنطقة تقرر جعل الجزية أربعة دنانير ، كما ألغيت الضريبة النوعية على الارض وفرضت ضريبة نقدية عوضا عنها (٥) .

وعلى الرغم من استحصال هذه الضرائب بنسب عالية ، فقد عمدت الدولة العباسية الى زيادة نسبتها الى الربع في الموارد العامة للارض وأحيانا الثلث أو النصف مما جعل أهل الموصل ونواحيها يكسرون الخراج ولا يعطونه ، الامر الذي حمل الخليفة هرون الرشيد الى اتخاذ وسائل العنف باستحصال الضريبة فالزمهم بذلك واحتسب على أساس الربع في الموارد (٦) . وقد ورد عند قدامة بن

(٤) يذكر البلاذري : «ان عمر بن الخطاب فرض على كل انسان مع جزيته مدا قمح وقسطان من زيت وقسطان من خل» فتوح البلدان ج٦ ص ١٨٥ .

(٥) يقول أبو يوسف «فلما ولي عبد الملك ، بعث الضحاك عبدالرحمن الاشعري الى الجزيرة ، فاستقل ما يؤخذ منهم فاحصى الجماعم ، وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وآدمه وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الاعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعا وجعلهم طبقة واحدة ، ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب دينارا وعلى كل ألف أصل كرم مما قرب دينارا ، وعلى كل ألفي أصل مما بعد دينارا وكانت غاية البعد عنده مسيرة يوم أو يومين أو أكثر» الخراج ص ٢٣-٢٤ ، ثم أنظر : الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الاموي ص ٢٣٠ .

(٦) يقول الازدي سنة ١٧٥هـ «وفيها كسر خراج الموصل وكان البلد في البرية عشرا وما كان بنينوى والمرج مربعة يؤخذ من أهلها الربع - وكانت الخوارج تخرج ولا يصل أصحاب السلطان الى شيء الا دون الربع ، فاذا طولبوا



جعفر في القرن الرابع الهجري احصائية بالموارد المالية (التي كانت ترد سنوياً) لمدن الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، لا يد أنها اعدت لاحتساب ضريبة الخراج وهي أخذ عشر الموارد (٧) منها أو لتقدير الضرائب الاخرى (٨) .

احتجوا بالخوارج فحذر هرون الرشيد جماعة من أهل الموصل فناظرهم في ذلك ودعاهم الى ان يجعل عليهم دراهم معلومة ، فامتنعوا من ذلك فاضطرهم ، وكان المناظر لهم يحيى بن خالد البرمكي ، فقال لهم - فيما اخبرني أحمد بن عبدالرحمن : كنت فيمن نوظر على ذلك فقال لنا خالد البرمكي : اذا جاءت الغلات نصبتهم قصبه وجعلتهم على رأسها خرقة وأخذتم الغلات وقتلتم فعل المارق ، والله لا فارقتهموني الا على أمر بين وعلى ما تؤدونه ، كان مارقاً أو لم يكن ، واضطرهم الامر الى ذلك وحبسهم ثم عاودهم المناظرة ، وسألهم الجريب البذر في كم يقع من المساحة ؟ فأعلموه ، ان الجريب يقع في اربعة أجربة مساحة وثمان الجريب الحنطة في وقته ، فبلغ ثلاثين درهما وأخذ ربع الثلاثين فاذا هو سبعة دراهم ونصف فالزمها الجريب وسألهم عن جريب الشعير في اربعة مسابغ فعلم انه يدخل اربعة مثل الحنطة لانهم عرفوه ان دخل الجريب اربعة أجربة وقوم الشعير فبلغ الجريب في ذلك الوقت عشرين درهما ، فأخذ ربعها فصار لكل جريب خمسة دراهم .

تاريخ الموصل ج٢ (تحقيق علي حبيبة - القاهرة) ص ٢٧٥ .

(٧) ذكر ان موارد حران والرها وسروج والمدير وتل موزن وغيرها ، مما يدخل في هذا الديار ستة ملايين درهما . وموارد هيت وعانة والرحبة وقرقيسيا ٩٠٠٠٠٠٠ درهما . وتكريت والسن والطبرهان والبوازيج ٩٠٠٠٠٠ درهما وكورة الموصل ٦٣٠٠٠٠٠ درهما وقردي وبازبدي ٣٢٠٠٠٠٠ درهما ومدينتا ارزن وميافارقين ٤٢٠٠٠٠٠ درهما ومدن ديار ربيعة ٩٦٠٠٠٠٠ درهما وآمد ١٠٠٠٠٠٠ درهما ومدن ديار مضر ٦٠٠٠٠٠٠ درهما . نبذة من كتاب الخراج ص ٢٤٦-٤٥٠ .

(٨) ونجد الى جانب ذلك ضريبة تستوفي من الموارد ، يتفق عليها مقابل القيام ببعض الخدمات لاصحاب الارض ، ويبدو ان هذه الضريبة تستقطع بعد استخراج ضريبة السلطان التي مقدارها العشر أو الربع . فقد جاء ان القائد الاسلامي ، مسلمة بن عبدالملك ، اتفق مع سكان بعض مدن الجزيرة ، مثل بالس وقاصرين وعابدين ونوئيلس ، ان يحفر لهم نهرا لارواء مزارعهم فيجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان ففعل ووفوا له بالشرط .

انظر : البلاذري : فتوح البلدان ج٢ ص ٢٠٥ .

كما أوضح ابن الفقيه الهمداني في نهاية هذا القرن ضرائب
الخراج لمدن الجزيرة على الوجه الاتي :

مدينة حران ٤٧٠٠٠ درهم ، الرها ٣٠٠٠ ر ١٣٠٠ درهم ،
سميساط ١٠٠٠ ر ١٠٠٠ درهم ، سروج ٦٠٠٠ ر ٦٠٠٠ درهم ، رأس
كيف ٣٥٠٠ ر ٣٥٠٠ درهم ، الرقصة ١٥٠٠ ر ١٥٠٠ درهم ، والمازحين
والمديبر ١٨٥٠ ر ١٨٥٠ درهم (٩) . وهذه نسب عالية كانت توفر
موارد كبيرة تستوفيها الدولة آنذاك . ومن المرجح جدا أنها
استمرت بنسب أعلى في القرنين التاليين ، نظرا لازدياد أهمية مدن
الجزيرة من الناحية الاقتصادية فيرد عند ابن الاثير ما يشير الى عدم
ثبات ضريبة الارض الخراجية والمسماة ضريبة الاغشار (١٠) في
الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري فتكون أحيانا ضريبة
الربع أو الثلث أو الثلثين وأحيانا أخرى ضريبة النصف (١١) .
ويبدو ان هذه الضرائب كانت تخضع لظروف وأحوال الامراء
الاتابكة أو الاراتقة وأهوائهم وجشعهم (١٢) .

ونقرأ عن ضريبة الارض الخراجية وضريبة الارض
المسوحة (١٣) أيام الاتابكة (١٤) ، فالاولى تكون عشرية أو يؤخذ من

(٩) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٣٦ .

(١٠) ابن الاثير : الباهر ص ٧٩ ، وانظر الفصل الاول «نظام الري والزراعة» .

(١١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٩ ، ج ٣ ص ٩٨٥ .

(١٢) ابن الاثير : الباهر ص ٧٩ .

(١٣) القيام بمسح الارض لحصرها وتقدير درجة خصوبتها لربط خراج مناسب
عليها ويطلق على هذا النظام في مصر في العصور الوسطى اسم «الروك» وهي
كلمة قبطية أصلها «روش» ومعناها «الحبل» ثم استعملت للدلالة على عملية
قياس الارض بالحبل ، وهي مشتقة من اللفظ الديموطيقي «روخ» ومعناه
«تقسيم الارض» والروك نظام قديم عرفته مصر منذ فجر الاسلام ، كما عرفته
الدول الاسلامية قبل عصر المماليك (انظر : ابراهيم علي طرخان : النظم
الاقطاعية والشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة - ١٩٦٨) ص
٦٩-٩٥ .

(١٤) ذكر ابن رجب : ان عمرو بن رافع بن علوان الزرعي ، قد رحل الى حران خلال



مواردها الربع أو الثلث أما الثانية فيؤخذ منها شيء معلوم عن كل جريب (١٥) *

وهناك نوع آخر من ضريبة الارض المزروعة ، ما هي مطلقة من الجميع أي ليست أرضا تخضع لضريبة العشر أو الربع أو الثلث أو أرضا ممسوحة ، فقد ذكر ابن الاثير قال : «حدثني والدي قال : كنت اتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين مودود ، ومن جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى (العقيمة) مقابل الجزيرة يفصل بينهما دجلة ولا بساتين كثيرة وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شيء معلوم وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه الا القدر القريب . وكان لنا بها عدة بساتين ، فحكى لي والدي وقال : جاءنا كتاب فخر الدين عبدالمسيح الى الجزيرة ، وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم الى فيه على ما شوهده ، يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة قال : فشق ذلك علي لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون لي معهم أنس وهم فقراء قال : فراجعتهم وقلت له لا تظن انني أقول هذا لأجل ملكي لا والله ، انما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين ، وأنا أمسح ملكي جميعه ، قال : فأعاد الجواب ، يأمر بالمساحة ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه وشرع النواب

هذه الفترة وأقام بها مدة طويلة ، يشتغل على ما يقف على ما يندب اليه من المساحة والحدود «أي كان يقوم بتعيين المساحة والحدود للارض الزراعية واحتساب مقادير الضرائب المقررة عنها» . (الذيل على طبقات الحنابلة ج ٢ ص ١٦٦ *

(١٥) تستخرج مساحة الارض المزروعة وحدودها ، ويؤخذ منها على كل جريب شيء معلوم . (الجريب : مقياس للارض ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات . على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان) ابن الاثير : الباهر ص ١٤٧ *

يمسحون • ولكن بعد أيام ، وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر بإطلاق مساحة العقيمة» (١٦) •

وهناك «ضريبة الرؤوس» أو الجزية المفروضة على أهل الذمة من اليهود والنصارى (١٧) في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، وذلك مقابل حمايتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية (١٨) •

فقد أشار بنيامين التطيلي الى أن اليهود الذين كانوا يستوطنون في مدن الجزيرة الفراتية ، مثل قرقيسيا والانبار والعمادية وبالس وقلعة جعبر والرقعة ، يؤدون الجزية للمسلمين شأنهم شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الاسلامية (١٩) ، وقدرها ديناراً واحداً أميري ذهباً (٢٠) ، أي ما يعادل ديناراً مرابطياً ذهباً وثلاثاً ، لمن بلغ منهم الخامسة عشرة من عمره (٢١) •

أما النصارى ، فانهم يتوزعون ، في الاديرة والكنائس المنتشرة في أنحاء الجزيرة الفراتية ، وقد كانوا يؤدون هذه الضريبة - ولكن

(١٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ص ١٤٧ ، الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٥٦-٣٥٧ •

(١٧) وكانت تؤدي هذه الضريبة على قدر طاقة الشخص ، ولذلك قسم أهل الذمة الى طبقات ثلاث ، تدفع الطبقة الدنيا منها اثني عشر درهماً في السنة والطبقة الوسطى أربعة وعشرين والطبقة العليا ثمانية وأربعين • وكان مقدار هذه الضريبة في البلاد التي تستعمل فيها العملة الذهبية ، وديناراً ودينارين وأربعة دنانير على التوالي • انظر : الدكتور محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٠٩ •

(١٨) انظر الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الاموي ص ٢٢٨ ويقول «تؤخذ الجزية من أهل الذمة مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية» •

(١٩) يذهب نصف الجزية للسلطان والنصف الثاني لمرتبات رؤساء اليهود • انظر : رحلة بنيامين التطيلي ص ١٥٤ •

(٢٠) انظر فصل النشاط التجاري والنظام النقدي ص ٢٩٣-٣٠٤ •

(٢١) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٣-١٢٩-١٥٤ •

ليست لدينا معلومات مفصلة عن مقدار ما وضع على كل رأس منهم سوى ما ذكره العمري عن رهبان دير سعيد الواقع بالقرب من الموصل ، حيث ألزموا في وقت ما بجباية ما مقداره ثلثمائة ألف درهم (٢٢) .

ب - المساعدات والمصادرات والغرامات :

وهناك نوع من الضريبة ترد تحت اسم «المساعدة» ويبدو أنها نوع من الضرائب الطارئة التي كانت تفرضها الدولة ، وهي ليست ثابتة ولا مستقرة ولا محدودة ، فقد كان بدر الدين لؤلؤ ، أمير الموصل ، يكثر في طلب الاموال من الناس ويكلفهم «مالا على وجه المساعدة» (٢٣) . ومثلها المصادرة التي كان يعامل بها اليهود والنصارى (٢٤) ، والتي استمرت خلال القرن السادس الهجري أيضا .

وكان ناصر الدولة ، أمير مياقارقين ، يأخذ أموال أهل بلد ولم يبق فيها باقية (٢٥) . وفي ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م أكثر بنونيسان من الاضطهاد والاحفاف والمصادرات بحق سكان مدينة آمد والتضييق عليهم ومطالبتهم برسوم ومؤون ، وضعوها لم تكن فيها من قبل (٢٦) .

(٢٢) العمري : مسالك الابصار ج١ ص ٢٩٠ . وجاء عند ياقوت : «ان رهبان دير برصوما وهو قرب ملطية ، كانوا يؤدون في كل عام الى ملك الروم للمسلمين من ثلثه عشرة آلاف دينار ، وقال بان ذلك كان قطيعة عليهم الى صاحب الروم» معجم البلدان ج٢ ص ٦٤٦ .

(٢٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المنسوب لابن الفوطي ص ٢٧١ .

(٢٤) الشهابستي : الديارات ص ١١٦ .

(٢٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٨ .

(٢٦) مجهول : المعلق على كتاب صورة الارض لابن حوقل ص ٢٠١ .

كما صودر أهالي الرقة والرافقة ووضعت عليهم من الكلف والنوائب والمفارم مرة بعد أخرى (٢٧) .

وهناك نوع من الضرائب كانت تفرض تحت تبرير مواجهة الأخطار الخارجية أو الحالات الناجمة عن التهديدات العسكرية ، وهذه الضرائب تشبه ما ندعوها في الوقت الحاضر بـ (ضريبة الدفاع) وكانت تمثل هذه الضرائب في حقيقتها «قطائع» قسرية يقررها الحكام وتستحصل باستمرار (٢٨) ، ولكنها لا تذهب لفرض الانفاق العسكري .

ذكر سبط ابن الجوزي ما يشير الى ذلك ، حيث قررت على أهل الشام «قطيعة في كل سنة ، على الغني عشرة دراهم ، وعلى الوسط خمسة وعلى الفقير درهم ، وقرىء الكتاب على الناس وشرعوا في الجباية» (٢٩) . ويبدو ان جباية هذه الضريبة شملت جميع البلدان ومنها الجزيرة الفراتية .

أما ما يقال عن القطيعة بأنها ما يفرض من المال على بلد أو اقليم لفرض الانفاق على الاستعدادات العسكرية الدفاعية ، فانه

(٢٧) مجهول : نفس المرجع السابق .

(٢٨) واستمرت هذه الضريبة تؤخذ تحت مبررات مواجهة الخطر المغولي واحتمال التعرض لفضائعهم التي كانت تملأ الاسماع . يذكر ابن شداد وصول رسل (بايجو نوين) القائد المغولي ، ومعهم تجار من المغول يحملون حوالات تتضمن فرض الاموال على سائر ملوك المنطقة ومنهم : الملك الناصر صاحب دمشق وعليه أن يدفع (٢٠٠ ألف دينار) والسلطان عز الدين صاحب الروم السلاجقة (٢٠٠ ألف دينار) وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (١٠٠ ألف دينار) والملك السعيد صاحب ماردين (١٠٠ ألف دينار) والملك الكامل (١٠٠ ألف دينار) وصاحب جزيرة ابن عمر (١٠٠ ألف دينار) وصاحب حصن كيفا (٥٠ ألف دينار) الاعلاق الخطيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ٦٢ ب .

(٢٩) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٧٤٥ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تحقيق سامي الدهان) ص ٣١٩ ، المقرئ في السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ٢ ص ٣١٥ .

أمر لا صحة له البتة ، لان المراجع المتوفرة لدينا لا تشير الى ذلك في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري .

ويشير ابن الاثير الى ضريبة (الجناية) التي كانت تفرض على الناس ممن يرتكبون جنایات تخل بسلامة الناس أو النظام والأمن(٣٠) كغرامات تأديبية وهي ضرائب غير مستقرة أيضا ، فقد يحصل أن المقرين من الامير يتدخلون في أمر زيادتها أو الغائها أو تقليصها وفرضها .

ج - المكوس :

وهي ضرائب تفرض على السلع التي تباع في الاسواق(٣٢) موظفوها أو أصحاب الاقطاعات من الاموال . وقد وضها الفقهاء ومجموع هذه الضرائب هي كل ما يحصل عليه ديوان الدولة أو المسلمون في الصنف غير الشرعي من الاموال المستحصلة . وكانت هذه من الضرائب الثقيلة على الباعة ، وقد سادت في مدن الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، حيث أشار اليها ابن الاثير بما يفيد أنها ضرائب مفروضة على السلع المفروضة للبيع سواء تم بيعها أم لم يتم ، كما أوضح بأنها ضرائب ثقيلة الوطأة ،

(٣٠) المقريري : السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٢٠ هامش رقم (٢) .

(٣١) وتسمى أيضا : المال الهلالي ، ومن أنواعه ما يؤخذ في الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ومن أنواعها : (مكس القوافل ومكس البهار ومكس فندق القطن) المقريري : السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٢٠ حاشية رقم (٤) .

(٣٢) ويطلق عليها في الوقت الحاضر اسم (السلع الاستهلاكية والسلع الانتاجية) .

تستوفي من أصحاب البضائع والتجار بالقوة ، مما أدى في نهاية الامر الى ابطالها والغائها(٣٣) .

وقد وردتنا أسماء لضرائب غير واضحة المعنى ، كانت تجبى في بلاد الجزيرة الفراتية أيام الاتابكة والاراتقة مثل (الكلف) و (المؤن)(٣٤) و(الاقساط) و(البوائق)(٣٥) ، ففي (٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) اسقطت عن أهل ميفارقين هذه الضرائب وكل ما فرضه المحتسب واتخذ من الرسوم(٣٦) . وعادت وفرضت مرة أخرى ، حيث أزيلت عن أهل ميفارقين في ٥٠٢هـ / ١٠٨١م(٣٧) .

والظاهر ان الكلف والمؤن والاقساط والبوائق هي ضرائب استثنائية يقسطها الحكام على الباعة عند الحاجة . والطريقة الشائعة في استحصالها هو تعيينها أما نقداً أو عينا ، فإذا كانت نقداً فتؤخذ بنسب معينة من أسعار البضائع والسلع(٣٨) ،

(٣٣) قال ابن الاثير : « لما ملك نورالدين أرسلان شاه ، استغاث به انسان من التجار ، فسأله عن حاله ، فقيل انه قد ادخل قماشه الى البلد لبيعه فلم يتم له البيع ، ويريد اخراجه ، وقد منع من ذلك فقال من منعه ؟ فقيل : ضامن البز ، يريد منه ما جرت به العادة من المكس ، وكان القيم آنذاك مجاهدالدين قايماز ، وهو الى جانبه فسأله عن العادة ، وكيف هي ؟ فقال : ان اشترط صاحبه اخراج متاعه مكن من اخراجه وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة يأخذه فقال : والله ان هذه عادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاي شيء يؤخذ منه ماله ؟ فقال مجاهدالدين ، لاشك في فساد هذه العادة ، فقال اذا قلت أنا وأنت انها عادة فاسدة ، فما المانع من تركها ؟ وتقدم باخراج مال الرجل ، وان لا يؤخذ الا ممن باع » .

الكامل في التاريخ ج١٢ ص ٢٩١-٢٩٢ .

(٣٤) يرى عباس العزاوي انها كانت في أصلها هدايا ، اكتسبت مع مرور الزمان

شكل رسوم مقررة . انظر عباس العزاوي : الضرائب العراقية ص ٢٢ .

(٣٥) الفارقي : التاريخ ص ٢٣٦ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة) الورقة ١٠٠ ب .

(٣٦) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٣٧) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٣٨) الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٥١

أما عينا فتؤخذ مقادير معينة من تلك البضائع والسلع ، وفي كلتا الحالتين فإن الباعة يعتمدون بعد فرض الضريبة عليهم الى اضافة مقاديرها على أسعار البضائع الاصلية حيث ينتقل عبؤها في نهاية المطاف الى الناس (٣٩) وهذه الضرائب تقابل في الوقت الحاضر ما ندعوه بالضرائب غير المباشرة .

وهناك الى جانب هذه الضرائب نجد ما أطلق عليها «ضريبة الغريب» و «ضريبة البلدي» في مدينتي آمد وميافارقين (٤٠)، ولعلها في مدن أخرى . وهي ضرائب عينية تؤخذ من أصحاب بساتين الفواكه والكروم والخضر وغيرها وكذلك من الفحم والحطب ، ثم توزع على الغرباء الذين يدخلون البلد أو المحتاجين والمعموزين والفقراء من أهل ذلك البلد . ويبدو ان اتفاق هذه الضرائب لا يدخل في وجوهه المذكورة ، بل يذهب لمنفعة الحاكمين بعد المبالغة في زيادة نسبتها وجبايتها ، لذلك فإن الناس كانوا يخاطبون الامراء باسقاطها فيذكر الفارقي ان امير ميافارقين اطلق لاهلها هذه الرسوم سنة ٥٨٣ هـ ، غير ان باقي بلاد الجزيرة لم يسقط عنهم شيء وهذه الرسوم جميعها باقية في جميع ديار بكر وآمد وجزيرة ابن عمر وغيرها (٤١) الى نهاية القرن السادس الهجري .

وهناك نوع من ضرائب المكوس تستحصل من مرور بضائع التجار من بلد لآخر ويمكن ان نطلق عليها اسم «مكوس المرور» التي تمثل في الوقت الحاضر ما نطلق عليه اسم «رسوم الترانسيت أو ترانسيت المرور» (٤٢) وهي استمرار لما كانت عليه في القرن الخامس

(٣٩) الدمشقي : نفس المرجع السابق ص ٥١ .

(٤٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ١٩٦ .

(٤١) الفارقي : التاريخ ص ٢٢٤ .

(٤٢) يرى الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ان ضريبة العشور هي ضريبة العبور (الترانزيت) نفسها وكانت تجمع من التجار العابرين بأراضي الدولة من رعايا الدول الاخرى (الخلافة والدولة في العصر الاموي ص ٢٢٨) .

الهجري يذكر ناصر خسرو ان مدينة حلب تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم والجزيرة ومصر والعراق عندما يذهب اليها التجار من جميع البلاد .

ولا بد من وجود هذه الضريبة في البلاد التي ذكرها هذا المرجع ومنها الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ليكون استحصالها متبادلا على الاقل ، وخاصة ان نقل التجار للبضائع والسلع لا يقتصر على بلد دون آخر ، وذلك لاختصاص كل بلد بنوع معين من البضائع والسلع .

ونسلمع عن ضرائب «الشراب» التي سبق أن أطلق عليها ابن حوقل «عشور أموال اللطف» (٤٣) وكانت تستحصل من بيع الخمر وتدر موارد ضخمة لخزينة الامارة ، نظرا لتوسع صناعة الخمر وتعاطيلها المستمر في أغلب مدن الجزيرة (٤٤) ، حتى أن مواردها كانت تصل في مدينة الموصل ونواحيها الى مليون درهم سنويا (٤٥) . وقد استمرت هذه الضرائب في القرن السادس الهجري حيث أشار اليها سبط ابن الجوزي (٤٦) .

والى جانب تلك الضرائب يوجد نوع اشتهر باسم «مكس المسافرين» وهي ضرائب كانت مفروضة على السفر ، وتؤخذ بصورة مباشرة من المسافرين المغادرين أو القادمين في مدن الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، وقد بلغت أقيامها في احدى السنين (٥٠) ألف دينار عن مدينة (عزاز) و (١٠) آلاف دينار عن مدينة «تل باشر» و (١٠) آلاف دينار عن مدينة «الرحبة» و (٥) آلاف دينار عن مدينة «حران» وألف دينار عن مدينة «سنجار» (٤٧) .

(٤٣) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٣ .

(٤٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ ص ٣٢٥ .

(٤٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٧ .

(٤٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ ص ٣٢٥ .

(٤٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٨-٣٩ .

وهذه الضرائب تقابل بضعة رسوم تستحصلها الدول من المسافرين في الوقت الحاضر .

د - أسلوب جباية الضرائب :

كانت جباية الضرائب المذكورة تتم بالاساليب الآتية :

١ - الاقطاع : وكان متبعاً في تحصيل الضرائب بصورة غير مباشرة ، حيث تقطع المنطقة أو المدينة أو غيرها لأحد الأفراد بعد تعيين حصة متفق عليها من ضرائبها تدفع لخزينة الامارة (٤٨) .

٢ - الضمان : ويتم بتعهد أحد الاشخاص تقديم مبلغ معين لخزينة الامارة عن منطقة من المناطق أو عدة مناطق ، مقابل جباية ضرائبها لنفسه . ويبدو أن الضمان كان أكثر الاساليب شيوعاً في جباية الخراج وضرائب الاسواق والخمور والخواطيء والمعادن والمفارس وضريبة السفر والجناية والشراب وجميع الضرائب المستقرة والثابتة .

ان الضامن يقدم الاموال لخزينة الامارة ، ويحتفظ لنفسه بقدر منها ، بينما يقوم بدوره بضمان ضرائب كل منطقة لآخرين يتعهدون بتقديم ما يجب عليهم ويحتفظون بالباقي لانفسهم ، ومن ذلك كان يقوم الضامنون باستيفاء موارد الموصل من الضمانات حتى كانت تصل الى عشرة آلاف دينار (٤٩) ، كما كان الكتاب أي الضماناء يستوفون الضرائب المفروضة على ضياع الاخوة في بلاد الجزيرة الفراتية ، والتي بلغت مليونين من الدراهم (٥٠) .

(٤٨) انظر فصل الاقطاع .

(٤٩) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٧ . وقال ان «بالموصل تجبى أموالها ولها عامل بذاته على استيفاء أموالها ، فربما عملت بالامانة ، وربما كانت بضمان ، وقلما ضمننت لان أجوالها تزيد وتنقص» .

(٥٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٧ .

وقد اتبع الاتابكة والاراتقة هذا الاسلوب في جباية الضرائب والحصول على الاموال خلال القرن السادس الهجري ، يذكر ابن الاثير ان لكل بضاعة في السوق ضامنا لاستيفاء ضرائبها (٥١) ، كما ان في دير الاعلى بالقرب من الموصل عدة معادن كبريت قد ضمنه قوم من السلطان ولكن أصحاب هذا الدير أبطلوا هذه الضمانة وجعلوها لانفسهم (٥٢) وذكر أن الزراد الدمشقي كان يتجول بين حران والسويداء من أرض الجزيرة الفراتية على أصحاب القلاع لرسوم كانت له عليهم (٥٣) ويبدو ان هذا الشخص كان ضامنا لهذه المناطق وقد ضمنها لغيره .

وذكر سبط ابن الجوزي في ٦١٥ ان «المعتمد» وهو شخص ضامن الضرائب وكانت تستحصل من المغنيات والمفنين ، ويقوم بدوره في ضمانها الى ضمان آخرين يطلق عليهم اسم «ضامن القينات» (٥٤) وهذا النوع من الضمان استمرار لما كان سائدا خلال القرن السادس الهجري في مدن الجزيرة الفراتية .

٣ - الجباية المباشرة :

وهي الوسيلة المتبعة في استحصال ضرائب المساعدات والمصادرات والغرامات والحوالات والقطائع وكذلك استحصال ضريبة الجناية وجميع الضرائب التي لم تكن ثابتة ولا مستقرة ، وقد ذكر ابن الاثير انه كان لعماد الدين زنكي ، جماعة من الخراسانيين كانوا يجمعون الاموال والضرائب ويجبونها ثم

(٥١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٩١-٢٩٢ .

(٥٢) ابن عبد الجق : مرصد الاطلاع ج١ ص ٤٢٣ .

(٥٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص ٦٣١ .

(٥٤) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع ص ٥٩٤-٥٩٥ .

يقسمونها عليهم كرواتب كل ثلاثة أشهر مرة (٥٥) ، كما ان الجباية المباشرة كانت الاسلوب السائد في جباية الجزية وكثير من المكوس ، ولكن ليست لدينا معلومات تفيد بأن للجزية ديوانا خاصا بها كما هو الحال في الدولة العباسية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (٥٦) .

واذا استعرضنا الاحداث في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري نجد ان الضرائب كانت ثقيلة من حيث الكمية الى حد أن الضمناء أنفسهم كانوا يعجزون عن دفعها أحيانا ، فقد كان بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل يفرض أموالا طائلة على رجال الكنائس ، بحيث يعجزون عن الاتيان بها مما جعلهم يسلكون سبيل الضغط على اتباعهم بفرض ضرائب يكرهونها على دفعها . وقد قضى المفريان اغناطيوس صليبا الثالث عهده بالطواف في القرى يجمع الاموال التي طلبت منه غير انه لم يعد قادرا على ذلك مما جعله يفر من الموصل الى حلب (٥٧) .

وكانت هذه الضرائب غير ثابتة تخضع لارادة الحاكم أو الضامن أو الجابي من حيث كميتها ونوعيتها ووقت جبايتها . وكان الضامن يجبي المال لنفسه ، اضافة لما هو مكلف بدفعه لخزينة الامارة ، بحيث أن أكثر الاموال لا تصل اليها مما يدفع الحكومة أحيانا الى مصادرة الضمناء والجباة وتعذيبهم ، فقد ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري ما قام به بنو حمدان في مدينة نصيبين «من الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم وتجديد كلف لم يعرفوها ورسم نواشب ما عهدوها ، الى المطالبة ببيع الضياع والمسقف حتى حمل ذلك بني

(٥٥) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣ .

(٥٦) كان هذا الديوان يسمى «ديوان الجوالي» يأتي كل ذمي بنفسه حيث توزن له جزية ويكتب له بها ، أنظر : جعفر خصباك : العسراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١١٠ .

(٥٧) تاريخ الرهاوي المجهول «باللغة السريانية» طبع رحمانى - ١٩٠٤ ص ٤٢٢ .

حبيب الى ان خرجوا بذرارهم وعبيدهم ومواشيهم» (٥٨) ، وقد استمر ما اشار اليه ابن حوقل حتى القرن السادس الهجري فقد اتبع الاتابكة والاراتقة هذا الاسلوب ، حيث جاء قول المعلق المجهول في كتاب صورة الارض سنة ٥٣٤ هـ «أن جور بني نيسان في مدينة خلط واضطهادهم للناس ومصادراتهم وتضييقهم ومطالبتهم برسوم ومؤن وضعوها لم تكن فيها من قبل وتكلفهم ما لا يطاق فآلجأهم ذلك الى التشتت عن الاوطان» (٥٩) . كما ذكر ابن الاثير ان «الدردار» أي حاكم القلعة ، في مدينة جزيرة ابن عمر كان يفعل ما يريد (٦٠) وخاصة فيما يتعلق بتحصيل الضرائب وجبايتها أو الغائها أو مضاعفتها .

وكان عز الدين أفح بن محمد العبيدي ، الكاتب لدى الاتابكة ، جلدا وجريئا على أخذ الاموال لنفسه «وكان يؤخذ ويحبس ثم يخرج فيعود الى ما كان عليه اذا رتب في شغل» (٦١) .

ويشير الشاعر مجد الدين أسعد بن ابراهيم الشيباني ، الى معاقبة المتلاعبين في حسابات ديوان امارة أربل في عهد أميرها مظفر الدين كوكبري في نهاية القرن السادس الهجري ، هؤلاء الموظفون الذين كانوا على ما يبدو يأخذون الاموال لأنفسهم ويحبسون قسما منها عن الخزينة فقال :

جماعة ديواننا أصبحوا وهم في العذاب لسوء الحساب
فان يرجو الوزير الثواب فقتلهم من جزيل الثواب
وقال أيضا :

-
- (٥٨) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩١ .
 - (٥٩) المعلق المجهول : صورة الارض ص ٢٠١ .
 - (٦٠) ابن الاثير : الباهر ص ١٤٨ .
 - (٦١) ابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب في مجمع الألقاب (تحقيق مصطفى جواد) ج ٤ قسم ١ ص ٣٣ .

قد قسمنا الديوان خمسة أقسام . ثم عليها لكل قول دليل
 رب حق فلا يطاع ومنسو ثم شخص كأنه الحرف في النحو
 ومصر على التعريف والظلم واخو حاجة يمشي أحوا
 وله أيضا ، وقد حبس وزير ار بل ابن المستوفي جماعة الديوان
 لعمل الحساب فقال :
 جماعة الديوان في ليلة وقد خدت أيدي الوز
 لا رحم الله السدي
 ثم عليها لكل قول دليل ب الى الظلم قوله مقبول
 فلا فاعل ولا مفعول بعيد عن الصواب جهول
 لا لديه ان جاءه البرطيل
 شحط مظلومه
 يرمنهم منتقمة
 يرحم قوما ظلمه (٦٢)

(٦٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ١١٦-١١٧ .

الفصل الرابع

الصناعة

- ١ - صناعة النسيج والملابس •
- ٢ - صناعة الاواني والآلات والادوات •
- ٣ - المعادن :
 - النفط
 - الحديد
 - النحاس
 - الاحجار
 - الاملاح
- ٤ - صناعة الخمور والسكر •

الفصل الرابع

الصناعة

تحظى الصناعات في مدن الجزيرة الفراتية ، في الفترة الواقعة بين القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن السادس منه ، بإشارات غير قليلة من البلدانين والجغرافيين ، والمؤرخين العرب والمسلمين ، على الرغم من أن الزراعة والتجارة كانتا الغرضين الوحيدين اللذين يوجهان الحياة الاقتصادية في هذه الفترة .

وكانت المدينة ترد لدى كتاب ذلك العصر ومؤرخيه على انها نتيجة التوسع الذي يحصل في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة ، وذلك بخلاف مدينة العصر الحديث المبنية على التطور الصناعي الذي يقوم على العلم والتكنولوجيا الحديثة .

لقد غدت بلاد الجزيرة الفراتية بصناعاتها ، خلال القرن السادس الهجري بعد التطورات التي شهدتها في ميادين توفر رؤوس الاموال والموارد المختلفة والمواد الاولية والمهارة الفنية والصناعية ، وانتقال الصناع المهرة اليها^(١) ، مركزا حيويا يزود العراق وبلاد

(١) لم يكن هناك ما يدعو الصناع والحرفيين وأرباب المهن للهجرة من مدينة الموصل في هذه الفترة ، وذلك لانهم يتمتعون بتأييد وعون حكام بني زكي (الأتابكيين) في الموصل . انظر : صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي (مطبعة المعارف - بغداد ١٩٧٠) ص ٣١ .

الشام ، ومصر وبلاد فارس ، بسلع وبضائع مهمة ، كالمنسوجات والاثواب والاولاني والالات والاسلحة ، والخمور وغيرها ، وقد ألقى زكريا بن محمود القزويني ، ضوءا على طبيعة النشاط الصناعي في مدينة الموصل حيث نقل في كتابه معلومات مهمة في القرن السادس الهجري فقال «وأهلها أهل خير وتدقيق في الصناعات» (٢) . كما كان بفضل تطور صناعات الموصل وازيائها القديمة مثل الملابس القطنية وأقمشة «الموسلين» (٣) ان انتشرت في أوروبا وزاد شيوعها على أثر الحروب الصليبية والنشاط التجاري (٤) .

ويوضح ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والمؤرخون العرب والمسلمون عن صناعات مدن الجزيرة الفراتية منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين الاسس التي قامت عليها تلك الصناعات وأسباب ازدهارها .

١ - صناعة النسيج والملابس :

عرفت صناعات الانسجة القطنية والصوفية والحريرية في معظم مدن الجزيرة الفراتية ، ويمكن القول على ضوء النصوص المتوفرة ، بانها كانت صناعات تمتاز بجودتها وشهرتها اذا ما قورنت بمثيلاتها في بلاد العراق والشام وفارس ومصر وخاصة في فترة القرن السادس الهجري .

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني : آثار البلاد واخبار العباد (دار صادر دار بيروت ١٩٦٠) ص ٤٦١ .

(٣) وهو مأخوذ من اسم الموصل ويطلق عليه التجار الايطاليون اسم «موسولينا» (Mussolna) انظر كتاب تراث الاسلام ج ٢ (مقالة الفنون الاسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الاوربية (A.H. Christie) ترجمة زكي محمد حسن) ص ٦٢-٦٣ .

(٤) نفس المرجع السابق (مقالة ايرنست باركر - الحروب الصليبية - ترجمة علي أحمد عيسى) ص ١١٦ وما بعدها .

واذا تتبعنا وجود صناعات الانسجة في مدن الجزيرة الفراتية ، يبدو لنا أن أكثرها كان استمرارا للعهود السابقة للقرن السادس الهجري ، فيشير الجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ / ٨٦٨م) الى صناعة «الثياب الموشية والمناديل والمقارم» (٥)، الرقاق والطيايسة من الصوف في مدينة آمد» (٦) .

ويؤكد صاحب مراصد الاطلاع استمرار صناعة الوشي ، الذي توشى فيه الثياب في منطقة «عبر» في الجزيرة الفراتية (٧) . كما انتشرت صناعة الستور والموج في الموصل (٨) .

أما الانسجة والثياب القطنية والصوفية في بلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ، فترجع الاشارات اليها الى القرن الرابع الهجري ، فقد ذكر ابن حوقل ان مدينة «عرايان» القريبة من رأس العين كانت كثيرة الاقطان وثياب القطن تحمل منها وتجهز الى الشام وغيرها (٩) ، كما أشار المقدسي البشاري الى صناعة ثياب الصوف والكتان الرومية على طريقة العمل الصقلية (١٠) في مدينة آمد (١١) وأشار الشابشتي الى توشح رهبان دير الاعلى القريب

(٥) المقارم : أي المقرمة الستر ، وهي أثواب مصنوعة من الصوف فيها ألوان مختلفة ، فإذا خيط فصار كأنه بيت فهو كله . وقد تزن المقارم في أطرافها بالرجائز - وهي نسيجة حمراء عرضها ثلاثة أصابع وأربعة . انظر : الجاحظ : التبصر بالتجارة (نشر حسن حسني دمشق ١٩٣٤) ص ٣٠ .

(٦) الجاحظ : نفس المرجع السابق ص ٣٠ .

(٧) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٨) المسوح : كساء مخطط ، يكون في البيت ، يستتر به ويفترش : انظر : الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٣ ، وذكر الخطيب العمري ، ان أنوال الحياكة في الموصل خلال القرن السابع الهجري كانت (٧٥) ألف نول منهل الاولياء ج ١ ص ٦٠ .

(٩) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٠ .

(١٠) ويبدو انه كان يشير الى ما ذكره الجاحظ ، وهي صناعة الثياب الموشية (الموشاة) التي انتقلت بتأثير صقلية .

(١١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٥ .

من الموصل بالمناديل المنقوشة (١٢) التي ربما تكون هي نفسها المصنوعة في مدينة آمد التي أشير اليها آنفا . كما كان هذا المرجع يفضل بعض الانسجة في منطقة الجزيرة. على الانسجة المعدنية المشهورة (١٣) التي يبدو انها انتشرت هناك (١٤) .

واستمرت صناعة تلك المنسوجات والثياب في القرنين الخامس والسادس الهجريين فيشير مسكويه (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) الى صناعة ثياب الخز في الموصل (١٥) وصناعة الثياب والفرش الفاخرة في قلعة اردمش (١٦) ، ووصف الرحالة المغربي ابن جبير سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) موكب استقبال أم الاتابك عز الدين قره أرسلان صاحب الموصل ، فأشار الى (عصابة الذهب) (١٧) التي كانت تعصب بها رأسها ، وعصائب النسوة اللواتي جئن لاستقبالها ، كما خرج الناس وقد جللوا أبلهم بالحرير الملون (١٨) .

ومن المرجح أن صناعة العصائب المكونة من خيوط الذهب ، كانت صناعة رائجة في الموصل ، نظرا لشهرة المدينة في صناعة المعادن الثمينة كالذهب والفضة (١٩) ، هذا فضلا عن ذكر ابن

(١٢) الشابشتي : الديارات ص ١١٣ .

(١٣) تقع مدينة عدن على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٦٢١) وقد اشتهرت بالنسيج العدني والعمائم المعدنية ، انظر : ابن النديم : الفهرست (طبعة فلوجل - ليبزج ١٨٧٢م) ص ١٩٨ . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ١٢٠٤ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٦٢٧ .

(١٤) الشابشتي : الديارات ص ١٢٩ .

(١٥) مسكويه : تجارب الامم (طبعة مصر ١٩١٥) ج ٢ ص ٢٠٥ .

(١٦) مسكويه : نفس المرجع السابق ص ٣٩٢ ، وقلعة اردمش حصينة قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة على جبل الجودي تحتها دير الزعفران (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٩٩ ، ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٤٥) .

(١٧) وهي تنسج بخيوط رفيعة من الذهب .

(١٨) رحلة ابن جبير ص ٢٠٦ ، وذكر القلقشندي : ان اهل الموصل وتلك الديار كانوا يلبسون الحرير الاسود المرقوم (صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٠) .

(١٩) صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية ص ٢١-٢٦ .

الفوطي لعز الدين ابي الفضل الحسن بن الحسين الموصللي النقاش الذي عاش في القرن السادس الهجري «وكان يتعاطى صناعة النقش وخياطة الزركش» (٢٠) كما ورد عند ابن سعيد المغربي عن الموصل ، ان فيها صنائع جمّة ولا سيما ثياب المحرّزات ، وهي التي يخلط غزلها بالحريز (٢١) وتسمى الملحم من الثياب .

وهذه الثياب سداها ابريسم أي حرير ولحمتها غير ابريسم ، بخلاف الديباج .

وهناك ما يشير الى وجود «البز» (وهو قماش مصنوع من الحرير) ، فذكر ياقوت قرية السلامية بنواحي الموصل ، حيث توجد هناك قيسارية للبز (٢٢) كما ان في باعشيقا من قرى الموصل ، قيسارية أيضا ، يباع فيها البز (٢٣) ، ويؤكد ابن الفوطي ان عون الدين ابن زيد بن طه الفوارسي الاربلي استوطن اربل في عهد مظفر الدين كوكبري وله بها دكان يبيع البز (٢٤) وكان سوق البز في ميفارقين يتمتع بشيء كبير من الحرمة (٢٥) .

ونظرا لتوسع انتشار هذا النوع من النسيج ، فلا بد أن يكون البز هو صنف من أصناف ما أطلق عليه اسم «الموسلين» الذي امتازت بصناعته الموصل في القرن السادس الهجري ، وقد ورد في قصيدة الشاعر علي بن المقرب الاحسائي الذي زار الموصل في أواخر هذا

-
- (٢٠) ابن الفوطي : تلخيص معجم الاداب في مجمع اللقب ج٤ قسم ١ ص ٦٦ .
 (٢١) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض في الطول والعرض ص ٩٠ .
 (٢٢) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ١١٣ .
 (٢٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص ٤٧٢ .
 (٢٤) ابن الفوطي : تلخيص معجم الاداب في مجمع اللقب ج٤ قسم ٢ ص ٢٨٦ .
 (٢٥) قال الفارقي : «ان احدا لا يستطيع الدخول اليها راكبا البتة ، واتفق ان دخل أحد أقارب الامير السوق ذات يوم راكبا فشق عليهم ، فخرج وعاد بعد ايام فدخل راكبا ونزل في بعض الحوانيت ساعة فأنزلوه من الفرس لكي يحمل أوساخ فرسه خارج السوق ، وكان جهده بهم ان يرميه غلامه فلم يفعلوا » ، التاريخ ص ٦٦ .

القرن (٢٦) ، ذكر لنوع آخر من القماش تصنع منه الاثواب التي لا يخالط لونها لون آخر أو هي التي جميعها ابريسم أي حزين لا يخالطه قطن ولا غيره (٢٧) .

وأشار ياقوت الى مدينة «باقداري» القريبة من الموصل التي تعمل فيها ثياب القطن الغلاظ الصفاق التي يضرب أهل بغداد بها المثل (٢٨) ، والى بليدة «حربي» بالقرب من تكريت التي تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى ساير البلاد (٢٩) ، كما تنسب النصافي الحزبية وهي ثياب أو أردية (٣٠) تصنع من القطن الى بليدة «حزة» الواقعة بين نصيبين ورأس العين (٣١) وفي قرية «الحظيرة» بالقرب من تكريت تنسج الثياب الكرباسي الصفيق (أي السميك) ويحملها التجار الى البلاد (٣٢) .

(٢٦) قال من قصيدة امام بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل :

انزل لتلثم ذا الصعيد مقبلا شرفا واجلالا لمولى ذا الملا
الفا مصمته أنال وبفسلة تشاء النغامة والحزون وقرؤلا
ومن الملابس حلة لو قابلت روض الحمى أنفا لكانت أجملا

أنظر ديوان علي بن المقرب الاحسائي (تحقيق وشرح عبدالفتاح محمد الحلو - طبعة أولى ١٩٣٦) ص ٣٤٧ .

(٢٧) أنظر : الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس (المطبعة الخيرية ١٣٠٦) ج ١ ص ٥٦١-٥٦٢ (مادة ص م ت) .

(٢٨) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٥ .

(٢٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٥ ، ابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب ج ٢ قسم ٢ ص ٨٢٢ .

(٣٠) وردت عند ياقوت كلمة «ردية» أي غير جيدة . ولكننا نعتقد بأن ما جاء في مراصد الاطلاع هو أقرب الى الحقيقة فقد قال «اليها تنسب النصافي الحزبية وهي أردية» ابن عبدالحق ج ١ ص ٣٠١ .

(٣١) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٣ ، أنظر القلقشندي ، حيث اشار الى وجود هذا النوع من القماش الابيض النصافي في الموصل في الفترة التي اشار اليها ياقوت (صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٠) .

(٣٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩٢ .

أما في قلعة «وان» التي تقع بين خلاط وتفليس في أقصى الشمال الشرقي لبلاد الجزيرة الفراتية فتعمل البسط (٣٤) ، كما تعمل أيضا في بليدة «معرين» من نواحي نصيبين ، البسط المعرينية المعروفة (٣٤) . ويشير ابن أبي أصيبعة الى هذه البسط التي كانت من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة في مدينة الموصل (٣٥) . وامتازت مدينة «ماردين» التي تقع بين رأس العين ونصيبين بكثرة المرعز وهو صوف الجمل الذي كانت تصنع منه الأكسية وتحمل الى البلاد (٣٦) .

وكان السائح المغربي ابن بطوطة قد مر بمدينة «ماردين» وأشار الى صناعة الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز (٣٧) التي كانت صناعتها استمرارا لما هي عليه في الفترات السابقة .

واشتهرت مدينة «أرزن» في شرقي دجلة بالقرب من ميافارقين بالازر الرفاع والابراد والمصافي والبطاين وتحمل منها الى البلاد .

٢ - صناعة الأواني والآلات والأدوات :

شاعت هذه الصناعات في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري وتلمسها بنطاق واسع في مدينة الموصل ، حيث كانت على درجة كبيرة من الاتقان الفني ، وتعتبر الموصل مركزا لانتاج الاواني والآلات المعدنية المختلفة سواء من الذهب أو الفضة.

-
- (٣٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص ٨٩٥ .
(٣٤) ياقوت : كتاب المشترك وضعه والمفترق صقعا ص ٣٨٤ .
(٣٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٤١٠-٤١١ .
(٣٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص ٩٠ .
(٣٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٣٨ ، وكان التجار الايطاليون يطلقون على هذا النوع من القماش اسم (الكاملت) وهو اسم القماش الذي اتخذ من شعر الجمل أو الماعز ، انظر : ايرنست باركر : تراث الاسلام «الحروب الصليبية» ص ١١٨ .

أو النحاس ، وذلك لتوفر المواد الأولية اللازمة لتلك الصناعة (٣٨) .
وأهم ما جاء عن هذه الصناعات ، ما يتعلق بصناعة الغلب التي
يدخل فيها البرونز والنحاس الأصفر ومكففة بالفضة (٣٩) ، وصناعة
الاباريق من النحاس الأصفر ومكففة بالفضة والنحاس الأحمر أو
من البرونز المكففة بالذهب والفضة (٤٠) ، والشمعدانات المصنوعة
من النحاس وقد كفتت زخارفها بالفضة أو مصنوعة من البرونز ،
مكففة بالفضة ومن النحاس الأصفر المكففة بالفضة (٤١) .

وهناك صناعات الصواني والطسوت والآلات الفلكية
والزهريات ، أما الطسوت فمصنوعة من النحاس الأصفر مكففة
بمعدني الذهب والفضة (٤٢) والصواني المصنوعة من النحاس الأصفر
المكففة بالفضة (٤٣) .

والآلات الفلكية ، وهي دقيقة الصنع من النحاس الأصفر
ويستعين بها الفلكيون وتكففت بالذهب والفضة (٤٤) . والزهريات
المصنوعة من النحاس الأصفر ومكففة بالفضة (٤٥) .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص
١٩١ ج ١٣ ص ٢١٤ ، راجع التفاصيل عن ذلك في كتاب ، صلاح حسين
العبيدي : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي ص ٢٤-٢٥ .

(39) Combe: Cinq Cuivres Musluman, P. 56, Rice: Studies in Islamic
Metalwork, Part, 11, 62.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ٢٧-٣٨ .

(40) Rice: Inlaid brasses from Al-Dhaki, P. 297-323.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ٢٩-٨٤ .

(41) Rice. The Oldest Mosul Candlestick, P. 337-339.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ٨٥-١٠٥ .

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ١٠٦-١١٥ .

(43) Rice: Inlaid brasses from, Al-Dhaki, P. 301-308.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ١١٦-١٢٦ .

(44) Rice: Inlaid brasses from Al-Dhaki, p. 322.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ١٢٧-١٢٩ .

(45) Rot: L'epigraphic Arabs L'Exposition d'Art Persan, P. 36.

وقد اشار ابن سعيد المغربي الى هذه الصناعات عموما ، وتعدد صناعات الموصل التي كان من أهمها أواني النحاس المطعم التي تحمل الى الملوك (٤٦) .

ويبدو ان الآلات الفكية التي أشير الى صناعتها في الموصل في فترة القرن السادس الهجري ، هي نقسها الاصطرلابات (٤٧) التي كانت تعمل في مدينة حران في القرن الرابع الهجري (٤٨) ، كما ان صناعتها تقدمت على ما يبدو في القرون التالية ، حيث ذكر ابن حجر العسقلاني ، ان عبدالله ابن يوسف الاصطرلابي الاسعدي من مدينة «اسعد» احدى مدن الجزيرة الفراتية «قد تمكن من اتقان صناعة الاصطرلابات ففاق فيه وعمل أوضعا حسنة» (٤٩) .

ويذكر لنا الفارقي الذي عاش في القرن السادس الهجري ، صنع موائد من البلور في مدينة ميفارقين ، ارتفاع بعضها خمسة أشبار ، وغيرها من القطع البلورية ، والصحون والحليات والاقداح للشراب ، وهي منقوشة ومحفورة بصناعة متقنة لم ير أحسن منها (٥٠) .

ويفيدنا المقدسي المتوفي ٣٧٥هـ / ٩٨٥م في ادراك طبيعة تطور بعض الصناعات المحلية في مدن الجزيرة الفراتية ، التي انتشرت

-
- (٤٦) انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص ١٣٠-١٣٢ .
(٤٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص ٩٠ .
(٤٧) يذكر ابراهيم شوكة في مقالته «الاصطرلاب» ، طرق وأساليب رسمه وصناعته «ان اصطرلاب علي بن عيسى الذي كان له صناع حاذقين أكثر من أن يكونوا من رياض العلماء بالاصطرلاب بالنسبة الى أستاذهم علي بن عيسى ، وانه ضمن من قامر بقياس درجة من درجات الفلك في صحراء الموصل لتحقيق مقدار الدرجة بالفراسخ والاميال كي يستند اليها في الحسابات الفلكية» مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٩ لسنة ١٩٧٠ .
(٤٨) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٣٢ ، (ويذكر أيضا مقاود الابل الحرائية) .
(٤٩) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة ج ٢ ص ٣٨ .
(٥٠) الفارقي : التاريخ ص ٢١٦ .

صناعتها في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، فالموصل اشتهرت بصناعة الاسطال ، وهي أوان ، والسكاكين والنشاب والسلاسل والفحم والشحوم والجبن والمن (من السما) ونصيبين في الموازين والدوايات والكواذين والرقعة بالصابون والزيت والاقلام وحران بالموازين ومعلثايا بالفحم والقنب(٥١) .

كما أكد المقدسي على أن اقليم الجزيرة الفراتية يتميز عن البلاد الاسلامية الاخرى بكثرة الخيل وصناعات الصابون والسلاسل والسيور وقبيط حران وموازينها(٥٢) ، تلك الخصائص التي عرفت بها خلال القرون الثلاثة التي أعقبت القرن الرابع الهجري .

وكان للصابون الذي يعتبر من مظاهر ومستلزمات الحضارة المهمة صناعة في مدينة الرقة وبعض المدن الاخرى خلال الفترة التي أشار اليها أسامة بن منقذ المتوفى (٥٨٤هـ / ١١٨٨) (٥٣) وذلك لتوفر المواد الاولية التي كانت تدخل في صناعته وأهمها القلى (الشنان) الذي هو من النباتات القلوية المعروفة(٥٤) ، ويكثر في براري ومفاوز الجزيرة الشراتية(٥٥) كما يكثر في الرحبة أيضا(٥٦) . ويكثر الزيت في مدينة الرقة(٥٧) وفي ماكسين ، وهي بلد قريب من سنجار على نهر

-
- (٥١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٥ .
(٥٢) المقدسي : نفس المرجع السابق ص ١٤٦ .
(٥٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٨٦ .
(٥٤) كانت هناك صناعة للصابون في العراق القديم ، فقد ذكرت منه أنواع في أزمان قديمة ، كما جاء في كتاب جودية حاكم مدينة لجش ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث كان الصابون يصنع من القلى (الشنان) والزيت والماء .
انظر : طه باقر مقالته «دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية» .
مجلة سومر ج ١ مجلد ٩ لسنة ١٩٥٣ ص ١٦-١٧ .
(٥٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٢ .
(٥٦) ابن سعييد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص ٨٩ .
(٥٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٥ .

الخابور حيث توجد معاصر الزيت (٥٨) الذي يستخرج من حب الكتان (٥٩) أو يؤتى به من بلاد الشام ، حيث يستحضر هناك بكثرة وينقل الى أكثر البلدان (٦٠) .

وان دباغة الجلود كانت صناعة قائمة ببلاد الجزيرة الفراتية . فهناك ما يدل على وجود المدايق (٦١) ، الامر الذي يجعل تصنيع الجلود عملاً قائماً أيضاً في صناعات الاحذية وسروج الخيل وفي عدد الفرسان (٦٢) .

وتحدثنا المراجع عن المصوغات الذهبية والفضية والصناعات القائمة عليها ، فيشير الفارقي الى مراكب الذهب المرصعة بالجواهر التي كانت توضع فوق ظهور الابل في مدينة آمد (٦٣) . ويذكر ابن جبير الجلال المذهبة الموضوعة على ظهور الدواب عند مواكب الاستقبال ، وتجلل القباب التي كانوا يحملونها بسبائك الذهب أهلة ودنانير سعة الالف وسلاسل وتمائيل بديعات الصفات (٦٤) ويكون صخب تلك الحلبي يسد المسامع ، كما تجلل أعناق الدواب بالذهب ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره (٦٥) . وجاء في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، ان في الموصل يكفتون الدواة بالذهب .

-
- (٥٨) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ٣٩٦ ، (يوجد في الموصل في القرن السابع الهجري ١٢٠ معصرة للزيت (بزاره) و ٩٩ معصرة للسمن) . الخطيب العمري : منهل الاولياء ج١ ص ٦٠ .
- (٥٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٤٤٥ .
- (٦٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٨٧ .
- (٦١) المنشئ النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣١٤-٣١٥ .
- (٦٢) المنشئ النسوي : نفس المرجع السابق ص ٣١٥ .
- (٦٣) الفارقي : التاريخ ص ٨٣ .
- (٦٤) من الصاغة الذين زاولوا صناعة الحلبي ، سليمان بن سليمان بن أبي الجيش عبد الجبار الاربلي ، كان أبوه صائفاً أيضاً : انظر : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص ٣٢١ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٣٧٢ .
- (٦٥) رحلة ابن جبير ص ٢٠٦ .

«ويفضضونها بالفضة ، وكذلك الكوسات والنقارات(٦٦) وكانت الغاشية التي تحمل بين يدي الامير الاتابكي عند الركوب في المواكب الحافلة في الميادين أثناء الاعياد ، هي عبارة عن سرج من أديم مخروز بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب(٦٧) » .

ولدينا ما يشير الى صناعة المزولة الشمسية في بعض مدن الجزيرة الفراتية وخاصة في بالس ، فقد اشار الرحالة بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) الى وجود مزولة تعين ساعات النهار في برج المدينة الذي أقامه اليهود هناك(٦٨) .

كما جاء أن أحد امراء الاراتقة قد كلف سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م المصنع الكبير الملقب بالجزري ان يركب له ساعة مائية عجيبة ففعل . أما صناعة الاسلحة وآلاتها وادواتها ، فقد كانت من الصناعات المهمة والتميزة في هذه الفترة ، ومما يدل على انتشارها ما أشار اليه ابن الطقطقي ، حول طلب المغول لآلات الحرب والسلاح من بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل (٦٩) ، وهذه الآلات كانت تصنع منذ عهد الاتابكة كما ذكر ان عزالدين مسعود بن مودود صاحب الموصل اهدى صلاح الدين الايوبي «من النفط الابيض والرماح والتراس

(٦٦) الحوادث الجامعة ص ٧٠٤ ، وذكر ان الملك الاوحد صاحب خلاط قد صاغ لاخته الملك الاشرف صاحب حران ، قلعة ذهب من خمسمائة دينار وبقيت في الخزانة .

(٦٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٤ ، وذكر الدمشقي : ان البعض ممن يتعاطى صناعة الكيمياء وهم «الطماعون المطعمون» في عمل الذهب والفضة من غير معدنيهما ، الاشارة الى محاسن التجارة ص ٥٣ .

(٦٨) بنيامين التطيلي : رحلة التطيلي ص ١٢٢ .

T. Rice: The Soljukt, in Asia Minor, p. 181-182.

(٦٩) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت ١٩٦٠) ص ٤٧ .

أحمالا من كل جنس ، احكمه وأقومه وأجوده ، وصل السلاح
استجيدت التراس والرماح» (٧٠) .

ويبدو ان مدينة حران قد اشتهرت بصناعة المنجنيقات ، حيث
كان يعقوب بن صابر الحراني المنجنيقي ، مقدما على أهل صنعته (٧١) .
في عمل وصناعة المنجنيقات وشعره :

كلفتم بعلم المنجنيق ورميه لهدم الصياصي وافتتاح المرباط (٧٢)
وهناك ما يشير الى التوسع في صناعة النشاب في مدينة
تكريت (٧٣) ، بحيث دفع ذلك الى المتاجرة فيه ، كما اقتصت بعض
الاسواق ببيعه مثل سوق النشابين في نصيبين (٧٤) .

وكانت صناعة الخط ونسخ الكتب والمؤلفات حرفة يمارسها
عدد كبير من الناس ، غير أن المراجع لم تقدم لنا معلومات مفصلة
بهذا الصدد سوى ما يتعلق الامر بياقوت بن عبدالله الحموي الذي

(٧٠) عماد الدين الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي (طبعة ١٨٨٨ -
ألمانيا ورتنبرغ) ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٧١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص ٨ .

(٧٢) الحوادث الجامعة ص ٨٠ (وقد ذكره أيضا الخزرجي: المسجد المسبوك ص
٣١٤ ، مؤكدا تقدمه على أهل صنعته في عمل المنجنيقات) ثم انظر : ابن
خلكان : وفيات الاعيان ج ٦ ص ٣٥ .

(٧٣) يقول ابن بطوطة «لما وصلت الى بلاد السند ٠٠٠ اشتريت من تاجر عراقي
من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا
عليه حمل من النشاب فانه مما يهدي الى السلطان» تحفة النظار ص
٣٩٥ .

(٤٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٣٦ ا ، وذكر
اليونيني ، ان اسعد بن ابراهيم بن حسن الشيباني الاربلي النشابي كان
يعمل النشاب ، وقد تنقل في بلاد الجزيرة والشامية ثم عاد الى اربل . ذيل
مرآة الزمان ج ١ ص ٨٧ .

(٧٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٥ ص ١٧٨ .

«اشتغل بالنسخ بالاجرة وقد أقام في الموصل يكتب وينسخ» (٧٥) * وقد
أشير الى «ارتفاع قدره بسبب خطه» (٧٦) *

وعرفت الطواحين في أكثر بلاد الجزيرة الفراتية ، حيث تطحن
الحبوب مثل الحنطة والشعير وغيرها فتزود منطقة الجزيرة وبلاد
العراق بالدقيق ، وقد أطلق عليها ابن حوقل في القرن الرابع
الهجري اسم «العروب» (٧٧) وقال ان «في وسط دجلة مطاحن تعرف
بالعروب يقل نظيرها في كثير من الارض ، لانها قائمة في وسط ماء
شديد الجرية موثقة بالسلاسل الحديد ، في كل عربة منها أربعة
أحجار ويطحن كل حجرين في اليوم واللييلة خمسين وقرا ، وهذه
العروب من الخشب والحديد ، وربما دخل فيها شيء من الساج» (٧٨)
وأكثر ما تكون هذه المطاحن في الموصل ونصيبين (٧٩) وبلد والرقه
وقلعة جعبر وتكريت وعكبرا والبردان (٨٠) وآمد (٨١) * ويؤكد ياقوت
الحموي وجود العروب التي أشار اليها ابن حوقل - في القرن السادس
الهجري ففي مدينة جزيرة ابن عمر نصبت على مدخل خندق أجرى
فيه الماء من جانب المدينة (٨٢) ، وفي مدينة رأس العين ، حيث تديرها
مياه العيون التي كانت تصب في نهر الخابور (٨٣) *

-
- (٧٦) * مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون الورقة ٨٨-٨٩ *
- (٧٧) * راجع : ميخائيل عواد ، مقالته «العروب في العراق» (مجلة الرسالة - العدد
٣٦٠) ص ٨٩٤-٨٩٦ *
- (٧٨) * ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٨ *
- (٧٩) * وقد بلغت موارد المدينة من الطواحين ١٦٠٠٠ دينار ذهباً سنوياً (ابن
حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٤) *
- (٨٠) * ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٨ *
- (٨١) * (وفيها حجارة الارحية للطحن أيضاً ، وليس لحجسارته في جميع الارض
نظير) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ٢٠١ *
- (٨٢) * ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٩ *
- (٨٣) * ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٧٣١ *

أما المنشآت والدور والجوامع والكنائس والأسواق والقيساريات والتماثيل والنقود ، فهي شواهد على وجود صناعات متعددة مثل صناعة الجص (٨٤) والطابوق والاحجار المقطعة (٨٥) وفتون البناء والنحت والنقش والزخرفة وصناعة الزجاج وصناعة قطع الاخشاب والابواب والشبابيك من الخشب أو الحديد وغير ذلك كثير مما هو قائم فعلا في تلك الفترة ، ولكن المؤسف ان ما بقي منها الان محدود ولا يساعد الباحث على دراسة صناعات الجزيرة الفراتية ، دراسة علمية شاملة ، اذ يستلزم ذلك توفر النماذج الاثرية اللازمة لكل صناعة من هذه الصناعات التي كانت قائمة ، ولكن على الرغم من ذلك فقد ذكرت بعض المصادر معلومات قليلة ومفيدة حول بعض الصناعات التي كانت قائمة آنذاك ، فقد أشار ابن الاثير الى أن من ابنية جمال الدين وزير الموصل سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة بالحجر المنحوت والحديد والرصاص ، والكلس (٨٦) كما بنى مجاهد الدين قايمار القناطر والجسور على الانهار وبیمارستانات للمرضى ، ونصب على دجلة جسرا من الخشب» (٨٧) *

(٨٤) كان محمد بن عيسى بن بركة أبو الفتح الجصاص ، يعمل بالجص ويبيض الجدران في مدينة رأس العين (الذهبي : المختصر المحتاج اليه ج١ ص ١٠٤) .

(٨٥) ذكر العماد الكاتب الاصفهاني ، انه عندما اعتمد السلطان صلاح الدين الايوبي في عمارة القدس ، وحفر خندقا ، وتحديد سورة واعادة رونقه سنة ٥٨٧ هـ وصل من الموصل جماعة من الحجارين وعدتهم خمسون رجلا ، وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق ، وتعميق الحفر والنطع في الصخر ، فأقاموا هناك نصف سنة وأتوا في صنعتهم بكل حسنة وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور وحفر خندق جديد عميق . الفتح التتسي في الفتح القدسي ص ٤٠٠-٤٠١ .

(٨٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٢٩ .

(٨٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٩٤ ، ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج٤ قسم ١ ص ٨٣ .

ووصف ابن جبير مدينة الموصل عند مروره بها سنة ٥٨٠هـ /
١١٨٤م فقال عن الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بأنه لم ير
وضعا أحفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه وكل
ذلك نقش في الآجر *

ووصف مقصورته بأنها يطيف بها شبابيك حديد تتصل بها
مصاطب تشرف على دجلة * ثم ذكر قيسارية التجار فقال كأنها الخان
العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت وبعضها
على بعض قد حل ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف (٨٨) *

وعندما وصل الى دارا وماردين ورأس العين وصف بناءها
ودورها وقلاعها وقال بأن سقوف دورها جوائز الخشب والحنايا *
ثم وصف الجامع في مدينة رأس العين بأن له تسعة عشر بابا تسعة
يمينا وتسعة شمالا والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب
يمسك قوسه من أعلى الجدار الى أسفله بهي المنظر جميل الوضع
كأنه باب من أبواب المدن الكبرى ولهذه الابواب كلها اغلاق من
الخشب البديع الصنعة والنقش ووصف سور مدينة حران المتين
الحصين المبني من الحجارة المنحوتة المرصوفة بعضها على بعض في
نهاية من القوة (٨٩) *

والقي الفارقي ضوعا على مدينة ميفارقين ومبانيها ومنشأتها
فقال بأن فيها قصرا مليحا على جانب الشط وفيها الاسواق والحمامات
والدور ودولاب على الشط يزود المدينة بالمياه ، وأشار الى الجسر
الذي عند تل بنان وحسن بنائه وصنعتة وفي الجامع باب من الصفر
(النحاس) (٩٠) *

(٨٨) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ *
(٨٩) رحلة ابن جبير ص ٢١٥ *
(٩٠) الفارقي : التاريخ ص ١٤١ *

وذكر سبط ابن الجوزي الجسر الذي شيده وزير الموصل جمال الدين محمد بن علي الانصاري سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م عند مدينة جزيرة ابن عمر المنحوت من الحجر والرصاص والموثق بالحديد بين البنيان (٩١) .

أما بناء الاديرة (٩٢) ، فيمكن القول بأنها كانت تمثل مجموعة من الصناعات المهمة المتداخلة مثل بناء دير متي بالموصل وهو حسن البناء جيد الحصانة وأكثر بيوته منقورة في الصخر وله عدة أبواب مفرطة في الكبر وكلها من حديد مصمت وبه صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر ويفتح هذا الصهريج من موضعين في أعلاه وفي أسفله فيخرج ماؤه من أسدين من صفر مما يدل على تقدم صناعة التماثيل والمنحوتات والمصنوعات المعدنية والخشبية .

وأخيرا لا بد لنا من الإشارة الى صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية ، وهي صناعة مهمة ومتقدمة على ما يبدو ، وكانت تتوزع على أغلب مدن الجزيرة الفراتية في القرن الخامس والسادس الهجريين ، وقد احتوت الكثير من الفنيين والصناع وأهل الخبرة والصاغة وذوي الايدي الماهرة في هذه الصناعة (٩٣) .

٣ - المعادن :

النفط - الحديد - النحاس - الاحجار - الاملاح - الزجاج .
يبدو ان سطح الجزيرة الفراتية عموما قد ترك تأثيره على وجود المعادن فيه ، وذلك بفعل التواء قشرة الارض وعوامل التعرية

(٩١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم الاول ص ٢٤٨-٢٤٩ .
(٩٢) راجع وصف الاديرة عند ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٤٠-٦٤١-٦٥١ .
٦٥٨-٦٦٢-٦٦٣-٦٦٩-٦٧٣-٦٧٨-٦٧٩-٦٩٧-٧٠١-٧١٠ . وعند
العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٢٥٤-٢٥٥-٢٦١-٢٦٥-٢٨١-٢٨٧-٢٨٩-٢٩٩ .

(٩٣) انظر التفاصيل في الفصل الخامس النشاط التجاري والنظام النقدي .
٢٨٧

الآخري ، فظهرت بعض المعادن مثل النفط والحديد والنحاس والزرنيخ والاملاح وغيرها * وقد أشار الاصطخري في القرن الرابع الهجري الى جبل (بارما) وهو جبل تشقه دجلة فتجرى في وسطه ويمتد الى وسط الجزيرة ، وفي الماء منه عيون القير والنفط (٩٥) * وهذه الظاهرة الطبيعية وغيرها استمرت خلال القرن السادس الهجري فيذكر ابن سعيد المغربي ، ان موقع تكريت وهي آخر مدن الجزيرة مما يلي العراق في أرض يصنع بها النفط (٩٦) * وجاء في مرآة الاطلاع أن بالقرب من خانقين وهي من مدن الجزيرة ، عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل (٩٧) *

والجدير بالذكر أن هذه المواطن التي تحدثت عنها المراجع تمثل في الوقت الحاضر المستخرجات والمنابع الحديثة للنفط في العراق ، فالإشارة الأولى الى آبار النفط في منطقة الموصل ، والثانية والثالثة تمثل آبار النفط في كركوك الحالية *

أما معدن القار فيشير الى وجوده الشابشتي في معرض كلامه عن دير القيارة فيقول «تحتة عين قير ، وهي عين تفور بماء حار نضب في دجلة ويخرج منه القير ، فما دام القير في مائه فهو لين يمتد فاذا فارق الماء وبرد جف» (٩٨) * ويقدم لنا هذا المؤرخ وصفا تفصيليا عن عملية استخراج القير ومعالجة سيولته ، لكي يسهل

(٩٤) المعادن المشهورة : الذهب والفضة والنحاس والصفير والزئبق والرصاص والنفط والقار والزفت والزرنيخ والبص والنورة والملح ونحوه والغالب على معادن الذهب والفضة أن يكونا بالمغرب والغالب على الياقوت والجواهر والآلء بالمشرق ، والنحاس والصفير والزفت والقار بالجزيرة *
 قطعة من كتاب في الجغرافية مؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري (مكتبة الدراسات العليا - بغداد - رقم ٣٢٤) الورقة ٩ *

- (٩٥) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٥ *
 (٩٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص ٩٠ *
 (٩٧) ابن عبدالحق : مرآة الاطلاع ج ١ ص ٣٣٦ *
 (٩٨) الشابشتي : الديارات ص ١٩٦ *

حملة والاستفادة منه وذلك بتجميده ، فيذكر ان هناك قوما يجتمعون لجمع هذا القير حيث يفترفونه من مائه بالقفاف ويطرحونه على الارض ، وكانوا يهيئون له القصور الحديدية الكبيرة ، حيث يذوب بالتسخين ويوضع فوقه الرمل الناعم المنخول ، ويخلط فاذا بلغ حد استحكامه قلب الارض قطعاً مجمدة فيصطب ويحمل الى البلدان (٩٩) ، وزاد بقوله ان هذا القير يستعمل لطلاء السفن وتبليط الحمامات وغير ذلك (١٠٠) وما ذكره الشابشتي يؤكد ابن جبير في ٥٨٥ هـ / ١١٨٤ م فيصف هذا الرحالة عند مروره بهذا الموضع فيقول بأن على يمين الطريق الى الموصل وهدية من الارض سوداء كاتبها سحابة ، فيها عيون كبار وصغار تنبع بالقار ، وتصنع له أحواض يجمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطة على الارض أسود تقذفه الى جوانبها يرسب قاراً • وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة • وقال بانهم كانوا يضربون فيها النيران لتخليصه من رطوبة الماء وتجميده بعد ذلك ليسهل تقطيعه ونقله (١٠١) •

ويؤكد ياقوت استمرار تدفق معدن القار في هذه المنطقة في أيامه ، عندما يذكر دير القيارة ، فيقول بأنه مشرف على دجلة وتحت عين القار التي يستخرج منها هذا المعدن بالطريقة التي ذكرها من سبقه (١٠٢) ويشير ابن الاثير اليها أيضاً بقوله أنها أعجوبة وهي شديدة الحرارة ويسميها الناس (عين ميمون) ويخرج مع الماء قليل من القار (١٠٣) •

-
- (٩٩) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٩٦
 - (١٠٠) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص ١٩٦
 - (١٠١) رحلة ابن جبير : ص ٢٠٩
 - (١٠٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٨٩
 - (١٠٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤٦٦

وهناك عين تفور بالقيـر تقـع بالقرب من هيت ، وكان أهل العراق يقيرون حماماتهم بهذا القيـر بدلا من الرخام والبلاط(١٠٤) ولعل هذه العين هي نفسها عين القيـارة التي سبقت التفاصيل عنها . ويذكرها العمري فيشير الى استخراج القيـر منها ، كما يذكر عيونا يخرج منها النفط والقيـر وتتقبل من السلطان بضمـانها بألوف الدراهم في كل سنة(١٠٥) .

أما ابن بطوطة الذي مر في هذه المنطقة فانه ينقل على ما يبدو معظم العمارات التي جاء بها ابن جبـير عن دير القيـارة وعيون القار القريبة منها(١٠٦) .

وهناك ما يدل على وجود معدن الحديد في بلاد الجزيرة الفراتية ، فقد أشار ابن حوقل الى الشبـابيك التي كانت تعمل من الحديد وتوضع حول العيون في مدينة رأس العين(١٠٧) . ويذكر المقدسي توفر الحديد في مدينة الموصل ، حيث تصنع منه الاسطال والسكاكين والسلاسل الحديدية(١٠٨) . واستمرت هذه الصناعات تتزود بمعدن الحديد خلال فترة القرن السادس الهجري فيشير ياقوت الى مدينة (حاني) في الجزيرة الفراتية المعروفة ، بمعدن الحديد ، حيث يستخرج منها ويجلب الى سائر البلاد(١٠٩) . كما ان هناك ما يشير الى سباكة الحديد (أي صهره) حيث تعمل البواتق من معادن القار والمغرة والطين بالقرب من جبل البشر على حدود

(١٠٤) شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١١٩ .

(١٠٥) العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٠١ .

(١٠٦) انظر : ابن بطوطة : تحفة النظـار ص ٣٣٤ .

(١٠٧) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٠ . وذكر ناصر خسرو بأنه رأى احدى كنائس النصاري في الجزيرة الفراتية وعليها باب من الحديد المشبك لم ير مثله في أي مكان . سفرنامه ، ص ١٠ .

(١٠٨) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٥ .

(١٠٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٨٨ ، ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٨٢ .

الجزيرة الفراتية من أرض الشام (١١٠) واستمرت الصناعات القائمة على الحديد في هذه الفترة ، ففي مدينة ميفارقين كانت تستعمل قضبان الحديد بين الاحجار (١١١) كما أشير الى ان الحوانيت كانت لها أبواب وصفت بأنها مشط (١١٢) من الحديد والمساجد لها شبابيك من الحديد (١١٣) *

وهناك اشارة الى القوة المغناطيسية التي ذكرها ابن الفقيه ، بجذب المغناطيس ، وقال بأن الجبل الذي يقع بالقرب من آمد - متى يحك فيه السكين أو السيف أو الحديد يجذب الابر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس - وتبقى فيه هذه القوة مائة سنة (١١٤) *

وأكد ياقوت بأن هذا الجبل نفسه يمتلك قوة مغناطيسية (١١٥)، ولكن ليست لدينا معلومات منصلة عن مدى الاستفادة من هذه القوة في المجالات الصناعية *

أما الاحجار (الرخام) فأنواعه متعددة ، فمنها الاسود والابيض والازرق - وكان يستعمل في تشييد الجسور (١١٦) والدور (١١٧) والأسوار والكنائس (١١٩) * وقد جاء في مرصد الاطلاع ان منطقة

-
- (١١٠) ياقوت : نفس المرجع السابق : ج ١ ص ٦٣١ *
- (١١١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - قسم الجزيرة - مخطوطة - الورقة ٦٨ ب وهو ما نطلق عليه في الوقت الحاضر اسم «الحيطان الكونكريتية المسلحة» *
- (١١٢) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٩ أ - ٦٩ ب *
- (١١٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٣٥ *
- (١١٤) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٤ *
- ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٣٤ *
- (١١٥) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦٦ *
- (١١٦) رحلة ابن جبير ص ٢١٥ *
- (١١٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٦٨٢-٦٨٣ ، ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٤٣٩ *
- (١١٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، الورقة ٦٦ أ - ٦٦ ب *
- (١١٩) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠ *

(البلايق) التي تقع بين تكريت والموصل ، وهي فجوات في الرمل ، كانت تنبت الرخامي (١٢٠) وقد وصفت هذه الاحجار بأنها صلبة مانعة ، لا يعمل فيها الحديد ولا تضرها النار (١٢١) ، ولكن مع ذلك فقد نقرت البيوت فيها (١٢٢) ونحتت لتوضع مع الحديد والرصاص ، والكلس (١٢٣) ، كما نقشت وفرشت على الارض في الكنائس (١٢٤) وصنعت منها المياضيء في المساجد (١٢٥) * وذكر ان سور ميافارقين قد صنع من الحجر الابيض الذي يزن الحجر منه خمسمائة من كما صنعت الابراج من هذا الحجر ونحتت فيه (١٢٦) ، أما آمد فانها محاطة بسور من الحجر الاسود كل حجر يزن ما بين مائة و ألف من وأكثرها ملتصق ببعضه من غير طين أو جص (١٢٧) *

واشتهر جبل ماردين القريب من نصيبين بجوهر الزجاج (١٢٨) (الحجر الذي يعمل منه الزجاج) ووصفه ابن حوقل بأنه جوهر الزجاج الجيد ، وقال بأنه كان يحمل منه الى سائر بلدان الجزيرة الفراتية وبلد الروم ، فيفضل على ما سواه بجوهرية فيه (١٢٩) * وكانت مدينة (القادسية) الواقعة بالقرب من سامراء ، يعمل فيها الزجاج خلال القرن السادس الهجري (١٣٠) *

-
- (١٢٠) ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج١ ص ١٦٩ *
- (١٢١) ابن شداد : الاعلاق ، الورقة ٦٦ أ - ٦٦ ب ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٨٧ *
- (١٢٢) ابن عبدالحق : مرصد الاطلاع ج١ ص ٤٤١ *
- (١٢٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ قسم ٢ ص ٣٥١ *
- (١٢٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠ *
- (١٢٥) الميضاة : التي يتوضأ منها للصلاة (ناصر خسرو : نفس المرجع السابق ص ١٠) *
- (١٢٦) ناصر خسرو : نفس المرجع السابق ص ٨ *
- (١٢٧) ناصر خسرو : المرجع السابق ص ٨ *
- (١٢٨) الاصلطخري : مسالك الممالك ص ٧٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٩ *
- (١٢٩) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٤ ، مجهول : قطعة من كتاب في الجغرافية الورقة ٩ *
- (١٣٠) ياقوت : المشترك وضعاً والمفترق صقعا ص ٣٣٧ *

ومن المحتمل جدا أن ما أشار اليه ياقوت ، حول صناعة الخزف في بلاد فارس المأخوذة عن بلاد الصين ، كانت قائمة في الجزيرة الفراتية في هذه الفترة حيث يؤخذ الحصى والكلس القلعي والزجاج ثم يعجن على البواين وينفخ ويعمل بالماسك ، كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأواني (١٣١) .

ويبدو أن الزجاج استعمل لأغراض مختلفة في كتائب (١٣٢) الكنائس وواجهات المساجد والمراقد وشبابيك البيوت ، وداخل الاسواق والقيساريات ، كما ورد استعمال الزجاج مع الرخام (١٣٣) لأغراض مماثلة . ويصف القزويني حمامات مدينة سنجار بأن سقوفها مكونة من جامات ملونة مثل الحمراء والصفراء والخضراء والبيضاء ، وهي مرتبة كالنقوش فالجالس في الحمام كأنه في بيت مدبج (١٣٤) .

وفي بعض مدن الجزيرة الفراتية ، يقتلع الملح من البراري والسبخ المنتشرة في وسطها ، ثم ينقي وتجهز به المدن وبلاد العراق (١٣٥) . ويذكر ياقوت ما يشير الى وجود ملاح في جزء من وادي الثرثار ، حيث تقل الامطار في الصيف وتتبخر المياه من بعض أقسامه (١٣٦) . أما ملاح حلب الواقعة بالقرب من قرية الجبول ، فعند تبخر المياه وترسب الاملاح في القمر يؤخذ منها الكثير ويرسل

(١٣١) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٩ .
(١٣٢) جمع كتيبة ، وهي جماعة من الافراد يقومون بالدفاع والحماية عن المدن والحصون والبلدان ، وقد استعملت لفظة كتائب هنا مجازا لحفظ الكنائس والمؤسسات الاخرى من السطو (انظر : ابن منظور : لسان العرب ج ٢ ص ١٩٥ مادة كتب) .

(١٣٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٠٣-٧٠٤ .
(١٣٤) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٣٩٣ .
(١٣٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٥ .
(١٣٦) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٩٢١ .

الى بلاد الجزيرة والشام ، وكان يضمن في كل سنة بمائة وعشرين ألف درهم (١٣٧) .

٤ - صناعة الخمر والسكر :

انتشرت صناعة الخمر في أغلب مدن الجزيرة الفراتية ، وقد زاول صناعتها النصارى الذين يكونون غالبية في بعض مدنها ، وبرعوا في صناعتها في أديرتهم وكنائسهم ومطارحهم منذ القرن الرابع الهجري حيث ذكر الشابشتي في كتابه الديارات معلومات غير قليلة عن صناعة الخمر التي كان يهتم بها الرهبان ورجال الكنيسة وغيرهم من المسيحيين (١٣٨) الذين استمروا في صناعتها وتعاطيها خلال القرن السادس الهجري فقد أشار العمري في كتابه مسالك الابصار الى الشراب المفضل في اللون والرائحة والعتق في أكثر أديرة النصارى في هذه الفترة وخاصة في دير الزعفران بالقرب من معلثايا (١٣٩) وخمر دير عمر أحويشا بأسعرد المطل على مدينة أرزن الذي يحمل منه الكثير الى البلدان لجودته (١٤٠) .

كما ينسب الى دير (اكمن) الخمر الموصوف في نهاية الجودة ، وقد قيل عنه بأنه «لا يورث الخمار» (١٤١) أي (لا يسكر بافراط) .

(١٣٧) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٣٩-٢٤٠ .

(١٣٨) الشابشتي : الديارات ص ١١٧ . وقد ذكر قول أحد الشعراء في دير الشياطين المشهور بخمرته قال :

رهبان دير شقوني الخمر صافية مثل الشياطين في دير الشياطين

وذكر أيضا : ان شراب دير (عمر الزعفران) موصوف ويحمل الى نصيبين

وغيرها (نفس المرجع السابق ص ١٢١) .

(١٣٩) العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٢٥٥ .

(١٤٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٢٣ ، العمري : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٣١٠ .

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٤٤ .

والى (قطربل) وهي قرية بين بغداد وعكبرا من أرض الجزيرة ، ينسب الخمر الجيد، وهي مازالت متنزها للبطلين وحانة ليخمارين على حد قول ياقوت (١٤٢) .

وبنفس الطريق تقع قرية (القفص) التي يقال عنها بأن فيها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة (١٤٣) .

وجاء في كتاب رسائل ضياء الدين بن الاثير المتوفى ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وصفا شيقا للخمرة ومجالسها في الموصل وبعض مدن الجزيرة الفراتية ، وأشار الى تناولها في (محضها) أي خالصة أو في (مذقها) أحيانا أي بعد مزجها بالماء (١٤٤) .

وهناك نوع من الشراب يعمل من الشعير ويعلوه الزبد يسمى «الفقاع» وقد أشار اسامة بن منقذ الى هذا الشراب الذي كان يصنع في مدينة حصن كيفا سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ويجلب الى المدن الاخرى ومنها الموصل (١٤٥) .

ولدينا ما يشير الى صناعة تقابل صناعة تعليب وتجفيف الفواكه والخضر واللحوم والاسماك في الوقت الحاضر في بعض المدن خلال القرن السادس الهجري . وقد أشار الى وجودها قبل هذه الفترة المقدسي البشاري في مدينتي نصيبين والحسينية ففيهما الفواكه المقددة (أي المجزوة والمفرومة والمقطعة) وفي مدينة

(١٤٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص ١٣٣ .

(١٤٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص ١٥٠ . واشير الى توفر الزبيب في مدينة سروج الواقعة الى شمال حران حيث يصنع (الرب) الذي يدخل في صناعة (الناطف) وهو نوع من الشراب الذي كان يتناوله الرهبان في أديرتهم وكنائسهم أثناء الطقوس الدينية (انظر : ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٠٧ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٣١ أ) .

(١٤٤) ضياء الدين بن الاثير : رسائل بن الاثير (تحقيق أنيس المقدسي - بيروت - ١٩٥٩) ص ١٧٢-١٧٣ .

(١٤٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٧٧ .

الموصل ، الطريخ الفائق (أي السمك الذي يملح ويكبس) ، كما ان
فيها وفي معلثايا النمكسود (١٤٦) (وهو اللحم المجفف النييء) .

أما صناعة العطور ، فيبدو انها صناعة كانت تقوم على
استخدام الورد وتقطيره واستخلاص عطره (١٤٧) ، وكانت مدينة
نصيبين قد اقتصت بصناعته حيث كان يجلب منها ماء الورد الى
الآفاق (١٤٨) . واستمرت نصيبين في صنع ماء الورد الذي لا نظير له
في العطاراة الطيب حتى أواخر القرن السابع الهجري (١٤٩) وأشار
الصفدي الى مادة اللاذن في الموصل الذي يبخر فيقطع الرائحة
الريئة (١٥٠) . وكانت العطور تعرض في حوانيت لبيعها في (سوق
العطر) في مدينة الموصل (١٥١) .

وصنعت العطور من أنواع الورد ومنها (الخلوق) وهو ضرب
من الطيب يعمل من ورد الزعفران وتغلب عليه الحمرة
والصفرة (١٥٢) وقد شاع استعماله في عصر ابن سعيد المغربي حيث
ذكر كذلك الورد الابيض الذي كان يعم ماء ورده بلاد الدنيا

(١٤٦) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٥ .
(١٤٧) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٧٦ . وأورد قول الشاعر علي
ابن المظفر بن ابراهيم .

سأل الورد عن استقطره لم كذا عذبوك بالنيران
قال مالي جناية غير اني جئت بعض السنين في رمضان

(١٤٨) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٦ .
(١٤٩) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٣٦ .
(١٥٠) الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان (طبع أحمد زكي بك ١٩١١) .
ص ١٥٦ .

(١٥١) سبط ابن الجوزي : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٢٦٢ ، وجاء عند الخطيب
العمري ، (ان في الموصل خلال القرن السابع الهجري أحد عشر دكانا لبيع
المسك) منهل الاولياء ج ١ ص ٦٠ .
(١٥٢) الشافعي : الديارات ص ١٩٦ .
(١٥٣) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص ٨٩-٩٠ .

• ويفضل على سائر أنواعه (١٥٣) كما يعمل من ورد اللينوفر الذي كان
يكثُر في مدينة نصيبين وكذلك من ورد النرجس (١٥٤) •

ومن أنواع العطور التي يشير الى صناعتها ياقوت في مدينة دارا
بالقرب من نصيبين «المحلب» الذي كانت تتطيب به الاعراب (١٥٥) •

أما السكر فقد عرفت صناعته في مدينة الموصل ، وخاصة
صناعة السكر النادر الاسمر الذي أشار اليه ابن الاثير ، ويبدو ان
صناعته كانت محدودة (١٥٦) • وكان السكر الابلوج المصري يغطي
حاجات الناس في تلك الفترة ، لذلك لم تقدم المراجع معلومات
تفصيلية وكافية عن صناعة السكر في مدن الجزيرة الفراتية •
ولعل سكر الاهواز وهو أردأ أنواع السكر هناك كان يجلب الى
هذه البلاد (١٥٧) • كما أشار القلقشندي الى وجود (القند) وهو عسل
قصب السكر اذا جمد (١٥٨) • ويبدو ان صناعته قد شاعت في بلاد
الشام والجزيرة أيام الايوبيين •

(١٥٤) ابن شاعر الكبتي : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٧٦ ، وأورد قول الشاعر :

واذا هم ان يقبل خد الورود شوقا ثغر الاقحاح الشنيب
خال ان اللينوفر الغض والنرجس اذن الواشي وعين الرقيب

(١٥٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٦ •

(١٥٦) انظر فصل التجارة •

(١٥٧) قال أبو الطيب المتنبي :

نقضم الجمر والحديد الاعادي دونه قضم سكر الاهسواز

الباحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٢ •

(١٥٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٣ •

الفصل الخامس

النشاط التجاري والنظام النقدي

١ - النشاط التجاري :

- أ - الطرق التجارية - البرية والنهرية •
- ب - التجارة الداخلية والخارجية •
- ج - قائمة بأسماء بعض التجار •
- د - الأسواق •

٢ - النظام النقدي :

- أ - أساس التعامل •
- ب - القراض والمثلوم •
- ج - الوزن والحجم •
- د - دور الضرب •
- هـ - قيمة النقد •
- و - الدينار والدراهم والفلوس •
- ز - كساد النقد «التضخم النقدي» •
- ح - الأوراق المالية «القراطيس - الشيكات» •

الفصل الخامس

النشاط التجاري والنظام النقدي

النشاط التجاري :

أتاح الموقع الجغرافي لبلاد الجزيرة الفراتية ان تكون مصدرا للربح حيث أصبحت اقليما غنيا يدر سنويا موارد غير قليلة ، وذلك لأنها كانت مركزا لحياة اقتصادية نشطة تلعب التجارة فيها دورا رئيسا .

وكانت الحركة الاقتصادية التجارية في هذه البلاد ، تقوم على أساس التعامل بالنقود منذ أواخر القرن الثالث الهجري^(١) ، حيث كانت تتوفر مستلزمات نقل التجارة الخارجية والداخلية ، وقد احتفظت بهذا المركز حتى منتصف القرن السابع الهجري حيث توقفت بسبب الغزو المغولي فترة قصيرة لم تلبث بعدها ان استعادت نشاطها مرة أخرى^(٢) .

(١) ذكر المقدسي البشاري ما يشير الى الحركة التجارية في هذا الاقليم خلال القرن الرابع الهجري فقال «واليه قوافل الرحاب» ، ثم عدد التجارات التي كانت ترتفع من مدن الجزيرة الفراتية الى بغداد وغيرها من البلاد ثم ذكر الطرق الممتدة بين مدنها فقال: «واذكر الطرق اليها لحاجة المسلمين الى ذلك وقصدهم في شراء الاساري والرسالات والغزو والتجارات» أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦-١٤٨ .

(٢) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٣٣-١٤٧ .

وخلال القرن السادس الهجري أشار ابن الاثير الى أهمية التجارة في هذه البلاد والاهتمام بفعاليتها في الحياة الاقتصادية ، وقد عكس لنا في كتابه المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها الاتابك قطب الدين محمد بن مودود التجار واكثاره من الاحسان اليهم (٣) ، كما قدم لنا المستوفي القزويني صورة واضحة تعينا كثيرا على ادراك طبيعة هذا النشاط التجاري لبلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة بقوله : ان واردات الحكومة من هذه الولاية كانت تبلغ أيام الاتابكة وبدر الدين لؤلؤ عشرة ملايين دينار فأصبحت الآن - أي في أوائل العهد الجلائري نهاية القرن السابع الهجري - تساوي ٩٢٥ ر ١ دينار (٤) ، ويعني ذلك كما أفاد أحد الباحثين أن تدهورا كبيرا أصاب وارداتها يحتمل جدا أن يكون تناقص النشاط التجاري أحد أسبابه (٥) ، ثم ان امكانيات الجزيرة الزراعية وكثرة انتاجها من الغلال والثمار والزيتون والقطن والكروم من جهة ، وحاجتها الى المصنوعات والاطعمة من جهة أخرى ، لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحركة التجارية لها سواء أكانت في نطاق التجارة الخارجية أم الداخلية ، كما ساعد ذلك على نشوء الاسواق فيها التي كان يقصدها التجار من شتى الجهات كالعراق وبلاد الشام وبلاد الروم والمناطق البعيدة من بلاد الجزيرة الفراتية .

ويوضح الدور الذي كانت تضطلع به التجارة في النشاط الاقتصادي عموما في بلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، كثرة الطرق والمسالك والمسافات والسكك (٦) التي يذكرها الجغرافيون والبلدانيون العرب والمسلمون في كتبهم وتأليفهم ، وهي الطرق التي

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٥٥ .
(٤) Mustawfi Of Quzwin, The Nuzhat-Al-Qulub, P. 102.
(٥) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٣٨ .
(٦) رحلة ابن جبیر ص ٢٢٠ ، ابن شداد : الاعلاق (المخطوطة) الورقة ١٢٧ أ .

أتاحت الفرصة للتجار على مختلف أصنافهم لتسهيل مزاوالتهم
لصنعتهم في نقل التجارة بين منطقة وأخرى (٧) .

وأهم الطرق هي :

١ - الطريق الذي كان يربط بغداد حاضرة الخلافة العباسية بمدينة
الموصل التي هي «قاعدة بلاد الجزيرة» (٨) بل «واحدى قواعد
بلاد الاسلام» (٩) حيث يسير بمحاذاة نهر دجلة على ضفته
الغربية حتى مدينة الموصل ، ثم يتفرع الى طرق تربط
القرى المنتشرة هناك وهي باعيناثا وبرقعيد واذرمة وتل
فراشة ، ويصل فرع منه الى مدينة نصيبين حيث يتفرع عندها
نحو الشمال الى دارا وكفرتوثا وقصر بني نازع وأمد
وميافارقين وارزن . وبذلك يكون هذا الطريق من أهم الطرق
التي تؤمن تجارة المنطقة الشرقية لبلاد الجزيرة الفراتية مع
الطرق خلال القرن السادس الهجري (١١) .

وقد أشار ابن خرداذبة والاصطخري الى وجود هذا الطريق
منذ القرن الرابع الهجري ، فالأول ذكر المسافات بين كل مدينة
وأخرى بالفراسخ (١٢) بينما كان الثاني يقيس المسافات بعدد
الايام أو بعدد المراحل التي كانت تستغرقها الرحلات (١٣) .

(٧) قال ياقوت : «السكة ، الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد الى
آخر ، فاذا قيل في الكتب من بلد كذا الى بلد كذا سكة ، يعنون الطريق -
مثال ذلك ، ان يقال من بغداد الى الموصل خمسة سكك يعنون ، ان القاصد
من بغداد الى الموصل يمكنه أن يأتيها من خمس طرق . وحكى عن بعضهم ،
ان قولهم سكك البريد ، يريدون منازل البريد في كل يوم ، والاول أظهر» .
معجم البلدان ج ١ ص ٤٢ .

(٨) انظر : الطرق التجارية على الخريطة .

(٩) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص ٩٠ .

(١٠) ذكرى القزويني : آثار البلاد ص ٣٠٩ .

(١١) انظر : أهم الطرق على الخريطة .

(١٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٦ .

(١٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٧٢ .

ويبدو أنه طراً بعض التحول في اتجاهات هذا الطريق في نهاية القرن السادس الهجري ، فقد بدأه أبو الفدا من مدينة الانبار الى تكريت والى الموصل ثم الى آمد وسميساط ، وعند مدينة نصيبين يتفرع الى رأس العين وحران والرها وبرقعيد وبلد (١٤) .

٢ - وهناك طريق آخر ، يبدأ من مدينة آمد الى شمشاط وتل جوفر وجرنان ثم الى باقعدا وجلاب حتى يصل الى مدينة الرها ومنها الى حران وتل محرا وباجروان ثم يعود الى الرقة . ويبدو ان هذا الطريق كان يؤمن المواصلات البرية للمنطقة الشمالية الغربية للجزيرة الفراتية في القرن الرابع الهجري حيث أشار اليه ابن خرداذبة فذكر المسافات بين المدن بالفراسخ (١٥) .

ومن المرجح أن هذا الطريق قد حافظ على اتجاهاته ، خلال القرن السادس الهجري ، فكان له من آمد الى حران ، فرعين أحدهما لا عمران فيه والثاني أماكن معمورة وقرى كثيرة (١٦) ، مما يدل على عدم تحوله ، ببقاء مظاهر العمران حوله .

٣ - أما الطريق الذي كان يربط بعض مدن الجزيرة الفراتية بملطية في الجهات الشمالية الغربية وبالثغور (١٧) ، فيبدأ من

(١٤) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٧٣ .

(١٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٦ .

(١٦) «وذكر بان هذا الطريق ستون فرسـخا ، وقد سـرنا مع القافلة فيه» .
(ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠) .

(١٧) ومن ثغور الجزيرة «سلعوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور وقورس ودلوك ورعبان» (ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٧) وكان قدامة بن جعفر يسمى هذه الطريق «الطريق العادلة من الحصن الى الثغور الجذرية» .
نبذة من كتاب الخراج ص ٢٢٩ .

مدينة الموصل وآمد وسميساط ثم يتجه باتجاهين متعاكسين ،
الشمالي الذي يذهب الى ملطية والجنوبي الذي يصل الى جسر
منبج وبالس والرقعة ، حيث ينتهي فيها في حدود القرن
السادس الهجري ، أما قبل هذه الفترة فكان يمتد على ما يبدو
الى الانبار حتى يصل الى تكريت (١٨) .

٤ - وهناك طريق يربط وسط الجزيرة الفراتية ، بأقسامها الغربية
ويبدأ من مدينة بلد ومنها الى تل أعفر ثم الى سنجار والى عين
الجبال وهي منطقة زروع وقرى ومنها يخترق الى مدينة سكير
العباس التي تقع على نهر الخابور حيث يصل الى (الفدين) ثم
الى قرقيسيا على الضفة الشرقية لنهر الفرات . ويبدو أن هذا
الطريق بقى محتفظا بأهميته حتى في هذه الفترة ، وذلك
لاتصاله بطريق آخر يبدأ من قرقيسيا الى الرقة ومنها الى
دوسر وداقين حيث يتصل بالطريق الذي يقطع شمال غرب
الجزيرة والذي مر ذكره ، فيما ينشطر الى شطرين ، الاول من
الرقة الى حمص ودمشق على الرصافة ، والثاني من الرقة الى
دوسر والرها ليتصل بالطريق الذي كان يغطي المنطقة
الشمالية الشرقية للجزيرة الفراتية ، وجميع هذه الطرق كانت
قائمة خلال القرن السادس الهجري .

أما قبل هذا القرن فكانت دائمة التحول والتغير (١٩) .

٥ - والطريق الآخر هو الذي يربط الجزيرة الفراتية ببلاد فارس
ويبدأ من مدينة ميفارقين ومنها الى أرزن وخلاط ثم الى

(١٨) أنظر الخريطة .

(١٩) يتكلم ابن حوقل عن حدود ومسافات الجزيرة الفراتية فيقول :
ان هذه الطرق كانت متداخلة ومتقاربة بحيث يؤدي بعضها الى البعض
الآخر بسهولة ، ونتيجة لذلك فقد كانت تغير اتجاهاتها ومسالكها لفترات
متقطعة ثم لا تلبث أن تعود لها أهميتها .
(صورة الارض ص ١٩٠) .

(باركرى) وخواوى (خوى) في جنوب أرمينية ومنها الى (مرند)
ثم ينتهي في تبريز (٢٠) *

ويبدو ان هذا الطريق جبلي في معظمه ، وهو يقع الى شمال
طريق خراسان العظيم (٢١) الذي كان قائما خلال القرن السادس
الهجري ويمر من بغداد الى حلوان داخل العراق على نهر الزاب
الصغير ومنها الى همدان فالري ثم الى اقليم خراسان ثم الى
نيسابور وطوس ومرو حتى يبلغ ضفة نهر جيحون عند
آمل ثم الى بخارى وسمرقند *

ومن المحتمل جدا ان القوافل التي كانت تروم المتاجرة مع
بلاد الجزيرة الفراتية لابد لها أن تسلك هذا الطريق الذي
يرتبط بصورة طبيعية بالطريق الاول الذي ذكرناه والمحاذي
لنهر دجلة على الضفة الشرقية حيث ينتهي في مدينة الموصل ،
ويبدأ تفرعاته من هناك نحو المناطق والمدن الاخرى *

٦ - وهناك طريق يبدأ من ميفارقين ومنها الى آمد ثم الرها وينتهي
عند مدينة حلب ، وهذا الطريق يصل شرق الجزيرة الفراتية
بغربها ، وقد أشار اليه ناصر خسرو ، حيث ذكر بان التجار ،
«كانوا يمرون من ديار بكر في الجزيرة الى مدينة حلب» (٢٢) *

وأشار قدامة بن جعفر في القرن الرابع الهجري الى الطرق
التي رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط ، وهؤلاء هم الخفراء
أو الأدلاء (٢٣) في عهد الاتابكة والاراتقة وكانت لهم معرفة

(٢٠) انظر الخريطة *

(٢١) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٣٥ *

(٢٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠ *

(٢٣) وكانوا يسمون في العراق في عهد المغول «قراقجية» يخفرون المترددين الى
الطرق التجارية (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٩) وانظر أيضا:
جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٣٤ *

بسلوك الطرق بين مدينة وأخرى ، حيث لم تكن هذه في الاصل طريقا واحدة بل أكثر من ذلك ، فمن (جبلتا) مثلا الى مدينة السن (عشر) سكك أي عشر طرق ومن السن الى الحديثة (تسع) سكك (٢٤) . ومع ان هذه الطرق قد جعلت رسما للبريد ، أي لنقل شؤون البريد وتأمينه ، ولكن القوافل التجارية سلكتها هي الاخرى .

وكانت القوافل التجارية بطبيعة الحال ، تختار أسلم الطرق وأقصرها وأقلها مخاطرا فتتخذها بصورة دائمة أحيانا أو تتحول عنها اذا ما اكتشف طرقا أخرى غيرها ، وقد ساد ذلك منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين (٢٥) وحتى الفترات التالية لهما ، مما أوجد كثرة الطرق وتعددتها بين مدينة وأخرى أو بين بلاد وبلاد .

أما الطرق النهرية ، فهي مجموعة المسالك التي كانت تتخذ من نهري دجلة والفرات وروافدهما وتفرعاتهما ، وأهمها

(٢٤) اذا أحصينا عدد الطرق التي كانت تربط الجزيرة الفراتية بحلب والتي ذكرها قدامة بن جعفر بلغت (٧٩) طريقا ، والطرق بين نصيبين وواليقلا (٣٢) طريقا وبين مدينة الحصن وثغور الجزيرة (١٩) طريقا (نبذة من كتاب الخراج ص ٢٢٥-٢٢٧-٢٢٩) .

(٢٥) أورد الاصطخري مسافات الطرق بين مدينة وأخرى مقدرة بالايام أو بالراحل وعند احتسابها ظهر ان :

الطريق الاولى : من ملطية الى الموصل تقطع ب (٢٠) يوما و (٢٠) مرحلة .
الطريق الثانية : من الموصل الى ملطية تقطع ب (١٠) أيام فقط .
أما من الموصل الى الرقة فتقطع ب (١٣) يوما و (٧) مراحل (مسالك الممالك ص ٧٢) . واورد ابن حوقل : الطريق الاولى : من ملطية الى الموصل ب (٣٧) يوما . الطريق الثانية : من الموصل الى ملطية ب (٢٠) يوما ، أما من الموصل الى جهة الغرب على الفرات فتقطع ب (٢١) يوما و ٢٨٥ مرحلة (صورة الارض ص ١٩٠) ويرى جاسم الخلف ، ان المياه الجوفية كانت عاملا مهما في تحديد طرق المواصلات البرية (القوافل) وهذا ينطبق على الفترات التاريخية في العصور الوسطى (جغرافية العراق ص ١٦٢) .

طريقان ، الاول الذي يصل بغداد بالموصل ، مارا بسامراء وتكريت ، والاخر بين بغداد وعانة مارا بالانبار وهيت والحديثة . وعن الطريق الاول كانت تنقل التجارات التي أشار اليها ابن حوقل والمقدسي وغيرهما من أهل القرن الرابع الهجري ، حيث بقي محتفظا بأهميته حتى العهد المغولي الايلخاني في العراق (٢٦) .

ومن الجدير بالذكر ، ان نهر دجلة ، شمال مدينة الموصل يكون ذا مجرى صخري عميق وشديد الجريان لا يصلح للملاحة ، كما أن نهر الفرات شمال مدينة عانة يمتاز بأحواضه العريضة فتتكون فيه الجزر الرملية لبطيء جريانه ، وهذا يمنع الملاحة فيه أيضا ، ولذلك فكلا النهرين في هذه المناطق لا يصلحان اتخاذهما لنقل البضائع والمؤن الزراعية والسلع الاخرى .

أما روافدهما وتفرعاتهما ، فلم تقدم المراجع المتوفرة لدينا ما يشير الى أنها اتخذت طرقا لنقل التجارة الداخلية في هذه الفترة بنطاق واسع . ولكن لابد ان يكون لها دور آخر في هذا المجال لاتصالها مع بعضها وبالنهار الرئيسية .

التجارة الداخلية والخارجية :

تقسم التجارة الى نوعين : داخلية ، وهي ما يجري بين الريف والمدينة وبين المدن نفسها ، ومناطق القرى والارياف مع بعضها . وخارجية وتعنى العلاقات التجارية القائمة بين مدن الجزيرة الفراتية والبلاد المجاورة والبعيدة . وكان اعتماد التجارة الداخلية

(٢٦) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٣٥ .

على الطرق البرية أجتر منها على الطرق النهرية (٢٧) وذلك لعدم صلاحية الانهار للملاحة في بعض مناطقها بصورة كافية .

وكانت المدن مراكز طبيعية للمواصلات والتجارة منذ القرن الرابع الهجري حيث ان نشاطها يعكس لنا، احوال البلاد الاقتصادية العامة ومدى رخائها وحيويتها حتى منتصف القرن السابع الهجري . وكانت تجارة بلاد الجزيرة تتركز في مدينة الموصل وبعض المدن الاخرى ، وان نشاطها في هذا المضمار هو استمرار لما كان عليه في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فيلقى كل من الاصطخري (٢٨) وابن حوقل (٢٩) والمقدسي (٣٠) ضوعاً جيداً على طبيعة هذا النشاط ، حيث تحمل الفواكه والقطن الى الموصل من سائر النواحي كما أن أغلب مدن الجزيرة ، كانت تتزود بجوهر الزجاج

(٢٧) وكانت تجارة العراق في القرنين السادس والسابع الهجريين تعتمد كذلك على الطرق النهرية لرخصتها وسهولتها ، ويتكرر ذكر دجلة أكثر من الفرات في هذا المجال ، وكانت السفن والقوارب تصل من الفرات الى دجلة عن طريق القنوات العديدة التي تربط بينهما . (انظر جعفر خصباك : نفس المرجع السابق ص ١٣٥) .

(٢٨) يذكر الاصطخري : «من مشاهير القرى بين مدينة المجلد وعرابان التي كان يرتفع منها القطن والفواكه : هي طابان والمطرية والسحيمية وتنينير ، وكانت عرابان فرضة لاهل خلاط والموصل» مسالك الممالك ص ٧٢-٧٤ .

(٢٩) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٤-١٩٩-٢٠٢-٢٠٣ .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٧-٤٥٨ .

(٣٠) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٥-١٤٦ ويذكر «ما كان يرتفع من الموصل من التجارات ، وأهمها ، الحبوب والعسل والنمكسود والفحم والشحوم والجبن وامن والسماق . ومن نصيبين شاء بلوط والفواكه المقددة والموازين والدوايات والكواذين ومن الرقة الصابون والزيت والاقلام ومن حران القبيط وعسل النحل في (ادنن) والقطن والموازين ومن جزيرة ابن عمر ، الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد ، ومن الحسينية ، الالبان والفحم والاعناب والفواكه الرطبة والشاهدائق والقنب والنمكسود . ومن بلد ، اللباني في قدور (وهو نوع من منتجات الحليب) والزواريق من الرحبة السفرجل الفائق الرائق ، ومن آمد ثياب الصوف والكتان الرومية» .

الجيد من جبل ماردين الواقع بالقرب من نصيبين ، وتزود مدينة سنجار ، مناطق الجزيرة الاخرى بحب الرمان الكبير المجفف والسماق والجوز واللوز والزيتون والاترج والسمن (٣١) . وكانت التجارة الدائمة بين جزيرة ابن عمر والموصل احد معالم هذا النشاط حيث تصل المراكب مشحونة بالتجارة كالعسل والسمن والمن والجبن واللوز والبندق والزبيب والتين الى غير ذلك من الانواع (٣٢) وقد استمر ذلك حتى القرن السادس الهجري (٣٣) .

واستمر النشاط التجاري لهذه المدن بصورة أكثر اتساعا خلال القرن السادس الهجري لانها بقيت تحتفظ بمواقعها الجغرافية الممتازة ومكانتها التاريخية والسياسية ، فينوه ابن سعيد المغربي بما يشير الى ذلك (٣٤) . وكذلك يفعل زكريا القزويني (٣٥) ويقدم حمدا لله المستوفي القزويني صورة واضحة عن هذا النشاط التجاري في العهد الاتابكي (٣٦) ، كما بين السائح البندقي (ماركو بولو) اهميتها التجارية ، التي هي استمرار لما كانت عليه في القرن السادس الهجري بصورة أكثر وضوحا من غيره فأكد على انسجتها الذهبية والحريرية وقال ان «جميع كبار التجار المعروفين بالموصلين والذين كانوا يحملون التوابل والعقاقير بكميات كبيرة بين بلاد وأخرى هم من منطقتها» (٣٧) . وذكر ياقوت ان مدينة نصيبين كانت على اتصال

(٣١) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٢ .

(٣٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٢ .

(٣٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٧-٤٥٨ .

(٣٤) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص ٩٠ .

(٣٥) زكريا القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٣٠٩ .

(36) Mustawfi Of Quzwin, The Nuzhat-Al-Qulub, P. 102.

(37) The Travels of Marco Polo, P. 29.

تجاري دائم مع العراق وبلد الروم حيث كانت تجارة جواهر الزجاج
الجيد تحمل منها الى هذه البلدان (٣٨) .

ولعل التجارات التي كانت تخرج من مدن الجزيرة الفراتية
في القرن الرابع الهجري (٣٩) والتي استمرت خلال القرنين التاليين
استنادا لما جاء في المصادر المعاصرة لم تكن تجري بين مدن الجزيرة
فحسب ، بل كانت قائمة كذلك مع البلاد المجاورة مثل العراق وبلاد
الشام وبلاد فارس وحلب والبلاد المصرية ، كما ان اشارة المراجع
الى خصائص اقليم الجزيرة وهي الخيل والصابون والسلاسل
والسيور وقبيط حران وموازينها (٤٠) . يفهم منها على أقرب
الاحتمال نشاطها التجاري - في هذه الفترة وما أعقبها - مع البلاد
الاخرى القائم على تلك السلع والبضائع .

ويؤكد لنا ياقوت ، النشاط التجاري القائم بين مدن الجزيرة
الفراتية وبلاد الشام في معرض كلامه عن مدينة جسر منبج ، حيث
يقول ان فيها جسرا تعبر عليه القوافل من حران الى الشام (٤١) . كما
يمكن أن نستنتج من اشارة له ان بلاد الجزيرة الفراتية كانت
تستورد (السيوف القلعية) وهي الهندية العتيقة من مدينة القلعة
أول بلاد الهند على الحدود الصينية حيث تنتهي فيها المراكب (٤٢) ،

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٧-٤٥٨ وذكر أيضا «ان في مدينة خلاط
بحيرة ليس لها نظير في الدنيا يجلب منها السمك المعروف (بالطريخ) الى
ساير البلاد ولقد رأيت ببلخ ، وقال بأنه يرسل الى غزنة» .

(٣٩) كانت مدينة سنجار تزود العراق بسلع وبضائع . ومن مدينة عرابان
ترسل ثياب القطن الى بلاد الشام كما كان يجلب الجهاز من سائر البلدان
الى مدينة سوق دنيسر هذا بالاضافة الى أن فواكه مدينة قرقيسيا وفواكه
الخابور تجلب الى العراق في الشتاء . (انظر ابن حوقل : صورة الارض
ص ١٩٤-٢٠٤) .

(٤٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٤٨ .

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٦٥ .

(٤٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ص ١٦٢ .

وذلك عن طريق العراق والخليج العربي لان هذه السيوف كانت شائعة الاستعمال في هذه البلاد خلال القرن السادس الهجري .

وذكر ابو شامة ، ما كان يجلب من التمور الى بلاد الشام من قرى الجزيرة وهي قرقيسياء والرحبة وعانة والكبيسات والمعر والعين وشفائا (٤٣) .

اما المتاجرة مع البلاد المصرية في هذه الفترة ، فقد أشار اليها غير واحد من المؤرخين ، حيث كانت القوافل التجارية تجلب السلع والبضائع المهمة الى بلاد الجزيرة الفراتية بعد أن تسلك الطرق البرية الممتدة عبر بلاد الشام ، فهناك ما يشير الى جلب الاثواب الدمياطية من مدينة دمياط في مصر التي اشتهرت بصناعة الاقمشة الحريرية والكتانية المقصبة (٤٤) .

ويبدو ان التجارة المصرية الى بلاد الشام والجزيرة الفراتية والعراق عموما والتي اشارت المصادر الى بعض أوجهها ، كانت استمرارا لما هي عليه خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، فقد أورد سبط ابن الجوزي ، خروج القوافل من حران احدى مدن الجزيرة في أواخر القرن السادس الهجري (٤٥) وهي محملة بالسكر المعمول في مصر ، حيث كانت تقصد مدن الجزيرة الاخرى وبغداد ، وقد جاء ذلك أيضا عند ابن كثير (٤٦) والمقريزي (٤٧) وابن تغري بردي (٤٨) . وأكد القلقشندي ورود التجار الى الديار المصرية عن

-
- (٤٣) ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٥١ .
(٤٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١ ، ١٧٣ .
(٤٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٧٨٧ .
(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ج ١٣ ص ١٨٢ .
(٤٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٣-٣٨٤ .
(٤٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٢٥ .

طريق البر من العراق والشام وما والاها (٤٩)، كما أشار المقرئزي الى ودائع التجار من اهل بغداد وحران والشام (٥٠) .

ونشطت العلاقات التجارية بين بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الروم واواسط اسيا في هذه الفترة ، فأشار ابن الاثير الى انقطاع الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ، وكان انقطاعها مؤقتا على ما يبدو ، فأصاب الناس من جراء ذلك ضرر كبير ، لانهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها (٥١) .

أما العلاقات التجارية القائمة بين اقليم خوزستان والجزيرة الفراتية فيشير اليها ابن الاثير خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري ، بقوله «ان القوافل كانت تسلك الطرق البرية سلع التجارة» (٥٢) .

وكتبت (تامارا رايس) عن النشاط التجاري في منطقة الشرق الاوسط الاسلامي في هذه الفترة ومنها تجارة بلاد الجزيرة مع أوروبا ، تقول بأن معظم التجارة الواردة من سورية والعراق وخاصة من مدينة الموصل ، كانت تمر بمدينة سيواس حيث يتسلمها الوكلاء السلاجقة ، الذين كانوا مسؤولين عن تنظيم القوافل المتجهة نحو (سينوب) على البحر الاسود أو (طرابزون) فينقلون البضاعة عبر البحر الى موانئ البحر الاسود الشرقية والجنوبية (٥٣) . وأكد (أيرنست بازكر) ان البضائع التي كانت تجلب الى أوروبا أثناء الحروب الصليبية لا بد من ان تمر قوافلها في مدينة الرقة من مدن

(٤٩) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ج٣ ص ٤٦٦ .

(٥٠) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٢ ص ٦٠٣ .

(٥١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص ٢٤٢ .

(٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٥٣) تامارا رايس - السلاجقة - تاريخهم وحضارتهم . (ترجمة لطفي الخوري

وابراهيم الداوقي - بغداد - ١٩٦٩) ص ١٢٥ .

الجزيرة ونهر الفرات ، لكي تدرك الطرق البرية عبر بلاد الشام (٥٢) .

قائمة بأسماء بعض التجار :

رددت المصادر أسماء لتجار نسبت بعضهم الى مدن الجزيرة الفراتية وكان أغلبهم يزاول نشاطه التجاري خلال القرن السادس الهجري :

١ - يوسف بن محمد بن قائد الاربلي البحراني ، من أهل أربل ، صنعته التجارة من البحرين ، حيث كان يقيم بها مدة لتحصيل اللالىء من المفاصات اسوة بأمثاله من التجار سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م (٥٥) .

٢ - ومن التجار الذين ذكرهم ابن الديبشي (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) سعد ابن الحسن بن سلمان ابو محمد الحراني ابن التوراني (وتوران قرية بالقرب من حران) (٥٦) .

(٥٤) ومن هذه البضائع «الملابس القطنية وأقمشة الموسلين والبلدكان والدمقس والاقمشة الدمشقية والبضائع الشرقية والاقمشة الحريرية الثقيلة التي كانت تعرف باسم Samites والاقمشة القطنية المتينة البيضاء التي تسمى Dimities وأقمشة الكتان التي تسمى Diapers والسجاجيد والابسطة ودهان الصقل والاصباغ والعقاقير والتوابل والعطور والعود والقرنفل واللبان والنيلة والصندل وأدوات اللبس والزينة والحبوب (وهي قطعة من ملابس النساء) والمساحيق والمرايا والمسبحة الذهبية والقطع الفنية المصنوعة من الفخار والزجاج والذهب والفضة والمينا» ايرنست باركر : تراث الاسلام ج١. (الحروب الصليبية - ترجمة علي احمد عيسى) ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .

(٥٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ١٠٢-١٠٤ .

(٥٦) ابن الديبشي : المختصر المحتاج اليه ج٢ (تحقيق مصطفى جواد ١٩٥١) ص ٨٣ .

(٥٧) ابن الديبشي : نفس المرجع السابق ج١ ص ٤٨ .

٣ - محمد بن عبدالرحمن بن أبي العز ، أبو الفرج ، التاجر
الواسطي الذي اشتغل بالتجارة مدة في الموصل (سنة ٥٨٠هـ /
١١٨٤) (٥٧) .

٤ - التاجر الحراني حماد بن هبة الله بن خفاد أبو الشتاء الذي ذكره
سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) (٥٨) .

٥ - أبو عمرو بن منصور بن الحسن بن العطار الحراني الذي قال
عنه ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) بأنه من مياسير
التجار (٥٩) .

٦ - وذكر ابن الساعي ، أيضا ، التاجر أبسا الفرج عبدالمنعم بن
عبدالوهاب بن صدقة بن الخضر الحراني وكان من أعيان
التجار وأكابرهم (٦٠) .

٧ - ويذكر الفارقي ، ممن اشتغل بالتجارة في مدينة ميفارقين أبا
بكر محمد بن جري وهو من أكابر التجار فيها (٦١) وابن
البهات (٦٢) الذين كان لهما فضل في المساهمة في الاعمار واقامة
بعض المباني والمؤسسات .

(٥٨) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٥١١ . وذكر انه كان
ينشد :

تنقل المرء في الآفاق يكسبه محاسنا لم تكن فيه ببلدته
أما ترى بيدق الشطرنج اكسبه حسن التنقل فيها فوق رتبته

(٥٩) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤ .

(٦٠) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤ .

(٦١) الفارقي : التاريخ ص ١٦٥ . أنظر أيضا ابن شداد : الاعلاق الخطيرة -
مخطوطة الجزيرة - الورقة ٨٨ ب

(٦٢) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١٦٦

- ٨ - أبو القاسم سميد بن الحسن بن علي البغدادي البيع وهو من
أجدى قرى سنجار ، وذكره المنذري (ت ٦٥٤ هـ) (٦٣) .
- ٩ - عبدالقادر بن محمد بن عبدالواحد الحراني الذي أشار إليه
ابن شاکر الكتبي فقال عنه انه كان تاجرا ذا مال كثير (٦٤) .
- ١٠ - علي بن أحمد بن عبدالواحد بن أحمد بن عبدالرحمن السعدي
المقدسي الصالحی الذي ذكره ابن رجب (ت ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م)
وكان يتعاطى السفر للتجارة في بلاد كثيرة بدمشق ومصر
وبغداد والموصل وتدمر والرحبة والحديثة وزرع (٦٥) .
- ١١ - أما التجار الذين جاءوا عند اليوناني فهم القاسم ابن أبي بكر
ابن القاسم الاربلي التاجر ، وكان من أعيان التجار وتردد الى
الديار المصرية وبلاد فارس مرارا وانتهى الى بلاد خوارزم (٦٦)
وصفي الدين ابراهيم بن عبدالله بن أحمد العسقلاني ، الكاتب
التاجر وقد كان من المعروفين بالثروة ، كما كان يتاجر
بالقمح من مصر (٦٧) ، ومحمد بن علي بن أبي طالب بن سويد
التكريتي التاجر المشهور بسعة المال والجاه وكانت متاجرة لا
يتعرض لها أحد (٦٨) وشجاع الدين نعمان بن حمدان التكريتي
من التجار المشهورين بالثروة وكثرة الجدة (٦٩) ، وشمس الدين
محمد بن الشيخ العماد المقدسي الحنبلي ، وكانت عنده ودائع
للتجار من أهل بغداد وحران والشام (٧٠) .

(٦٣) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ج ١ (تحقيق بشار عواد معروف ١٩٦٨
بغداد) ص ٩٩ .

(٦٤) ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٦١٠ .

(٦٥) ابن رجب : الدليل على طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٦٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٦٧) اليونيني : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٢ .

(٦٨) اليونيني : نفس المرجع ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٦٩) اليونيني : نفس المرجع ج ٣ ص ٨٢ .

(٧٠) اليونيني : نفس المرجع ج ٢ ص ٤٧٠ .

وكان نقل السلع والبضائع ولقوافل التجارية يتعرض الى مخاطر كثيرة كالقرصنة التي أشار اليها أبو شامة في عهد الاتابك نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي صاحب دمشق والموصل ، حيث أمر هذا الاتابك شحنة الموصل بمعالجة الجرائم باتباع اسلوب العقوبات التي تحددها الشريعة ولا يزيد عليها (٧١) ، ويبدو ان هذه السياسة المتهاونة قد سببت كثرة الدعار والمفسدين وقطاع الطرق .

وفي ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م «ثار التركمان وقطعوا الطريق في تلك المناطق فأكثرُوا من الفساد مما تعذر معه سلوك الطريق الا لجماعة من أرباب السلاح ، ولكن عندما سارت طائفة من العسكر الى رأس العين لاصلاح الطريق والقضاء على المفسدين استطاعوا كف عادية الفساد» (٧٢) .

وكانت القبائل العربية تقطع الطريق بين خوزستان والجزيرة الفراتية فتنهب القرى وتخيف الناس أيام الاتابكة والاراتقة حيث كان القلق السياسي على أشده «فنال الخلق منهم أذى شديدا وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين ، كانا سائرين الى الموصل فلم يسلم منهما شيء البتة» (٧٣) .

(٧١) قال أبو شامة : «ان نورالدين محمود أمر كمشتكين شحنة الموصل الا يعمل شيئا الا بالشرع وبطلت الشحنة (أي لم يكن لرئيس الشرطة ان يعالج الجرائم بما يناسبها من عقاب رادع ، وانما كان عليه ان يتبع العقوبات التي حددها الشرع ولا يزيد عليها - تعليق المحقق) فجاء أكابر البلد وقالوا لكمشتكين : قد كثر الدعار وأرباب الفساد فكتب الى نورالدين وقال له : ان الدعار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويحتاج الى نوع سياسة ، فمثل هذا لا يجيء الا بقتل وسلب وضرب» كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ قسم ١ (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد - القاهرة ٥٦ ، ١٩) ص ٣٢ .

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٧٩ .

(٧٣) ابن الاثير : المرجع السابق ص ٤٢٨ .

ويشير القلقشندي الى سائر التجار الذين كانوا ينقلون تجارتهم عبر الطريق من الشام والعراق وما والاها الى الديار المصرية ، كانت أشدها على التجار تضبييقا (٧٤) ، أي تعرضا للمخاطر (٧٥) الى جانب الضرائب التي ذكرها والمقررة عليهم .

وكانت الطرق البرية عبر القارة الاسيوية عموما خلال القرن السادس الهجري محدودة الفائدة من الناحية التجارية ، اذ لم يكن يسلكها التجار الاوربيون وذلك لاختلال الامن وانتشار الفوضى على طول هذه الطرق - نتيجة لانعدام الوحدة السياسية في السهول الاسيوية (٧٦) غير أن المعتمد التجاري البندقي (جاكوب يتبولو) المقيم في القسطنطينية قام بالاتصال بسلاجقة آسيا الصغرى ، ونتيجة رغبتهما المشتركة في توسيع التجارة بين بلدان الشرقين الادنى والاوسط وبين أوروبا ، تم عقد اتفاقية تجارية بين الطرفين ويموجبها تم الاتفاق على نقل السلع والبضائع بينهما وتأمين حماية القوافل التجارية (٧٧) .

وكانت الخانات ومنحطات القوافل والابراج الموضوعة للمسافرين قد أخذت بعين الاعتبار المسافات ، فكانت المسافة بين كل محطة وأخرى تليها تبلغ تسع ساعات على ظهور الجمال ، أو ما

(٧٤) القلقشندي : ضبح الاعشى ج٣ ص ٤٦٦ .

(٧٥) قال ابن-واضل لما دخل المعظم دمشق قام الشعراء فأبتدأ الغدل تاج الدين ابن الدجاجة ، فقال :

كيف كان القدوم من حصن كيفا حين أرغمت للاعادي أنوفنا
فأجابه المعظم :

الطريق الطريق يا ألف نحس تارة آمنا وطورا مخوفا

انظر ابن-شاعر الكتبي : قوات الوفيات ج١ ص ١٨٧ .

(٧٦) المنشيء النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٨٤ ، حاشية رقم (١) .

(٧٧) تمارا راييس : السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ص ١٢٤ .

يعادل ثمانية عشر ميلا وهي المسافة التي يستطيع الجمل قطعها في
النهار الواحد (٧٨) .

ذكر ابن الاثير ان نورالدين محمود صاحب دمشق قد بنى
الخانات والابراج على الطرق فامن الناس وحفظت أموالهم اذ جعل
فيها من يحفظها (٧٩) .

وبقيت هذه المبرات ماثلة الى ما بعد القرن السادس الهجري
فقد كان ابن بطوطة قد مر بها فوصفها وذكر الخانات والمحطات
التي تقع هناك ، ومنها الخان الكبير وهو في منتصف الطريق بين
حران وسروج ، والمحطة التي تقع في الطريق الى مدينة الرقة حيث
يقول ان فيها «المهم من علف وخبز واقامة» (٨٠) . ويشير ياقوت الى
عدد من هذه الخانات والمحطات ومنها برقييد التي كانت ممرا
للقوافل ثم أصبحت بمرور الزمن مدينة عامرة . غير أن تلك
القوافل أصبحت تتجنبها فانتقلت الاسواق الى (باشزي) وذلك لان
سكانها كانوا يقومون بأعمال وصفها ياقوت باللصوصية والسطو
على القوافل ونهبها (٨١) . كما ذكر ان دير ابي يوسف كان في ممر
القوافل (٨٢) وان قرية العقر التي تقع بين تكريت والموصل كانت

(٧٨) وكان المبيت والراحة في هذه الخانات مجانيا ، أما تلك التي أنشئت في
المدن فقد كان لها بوابتان تؤخذ فيهما الضريبة عند الدخول والخروج ثم
تنزل الاحمال وتخزن في غرف حصينة أعدت لهذا الغرض كما تقاد الحيوانات
المتعبة الى اصطبلات جيدة مزودة بمعالف من حجر كما يحتوي الخان على
مقهى وحمام ومحل لاصلاح ما يراد اصلاحه لادارة القافلة .
انظر المرجع السابق ص ١٢١ .

(٧٩) وكان معهم كذلك الطيور الهوادي فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور
فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلا يبلغ العدو منهم غرضاً . ابن
الاثير : الباهر ص ١٧١ .

(٨٠) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٢٢ .

(٨١) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥٧١ ، القزويني : آثار البلاد واخبار العباد
ص ٣٠٦ .

(٨٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤١ .

تنزلها القوافل وهي أول حدود أعمال الموصل من جهة العراق (٨٣) ،
وان «العرادة» وهي قرية بين مدينة رأس العين ونصيبين كانت
تنزلها القوافل (٨٤) ، وان (بلاياذ) «قرية في شرقي الموصل تنزلها
القفل وبها خان للسبيل» (٨٥) . وجاء في مرصد الاطلاع ان قرية
(تل عبدة) وهي من قرى حران بها خان للقوافل في الطريق الى
مدينة الرقة (٨٦) - وان في تل السلطان وهي تقع في الطريق الى بلاد
الشام وحلب خان يعرف (بفندق للقوافل) (٨٧) وان بليدة (تل
هفتون) من نواحي أربل تنزلها القوافل في الطريق الى
اذربيجان (٨٨) .

كما ذكر أبو الفداء ، ان حاجب الملك الاشرف ، حسام الدين علي
الموصللي وهو من أهل الموصل قد بنى الخان الذي بين حران ونصيبين
وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق (٨٩) . وأشار ابن خلكان الى
مدينة دنيسر الواقعة بين نصيبين ورأس العين «وكان يطررها التجار
من جميع الجهات وهي مجمع الطرقات» (٩٠) ومن محطات القوافل في
الطريق بين الفرات وبلاد الشام مدينة الرحبة التي تقع بين الرقة
وعانة (٩١)

-
- (٨٣) العقير : قلعة حصينة في جبال الموصل ، أهلها أكراد وهي شرقي الموصل
وتعرف أيضا بعقر الحميدية . ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٦٩٦ .
(٨٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٣ ص ٦٢٧ .
(٨٥) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص ٧٠٧ .
(٨٦) ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ج١ ص ٢١١ .
(٨٧) ابن عبد الحق : نفس المرجع السابق ص ٢١١ .
(٨٨) ابن عبد الحق : نفس المرجع السابق ص ٢١٣ .
(٨٩) أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٦ ص ٤٢ .
(٩٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٢٣٢ .
(٩١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١١٥ .

الأسواق :

يتطلب فهم طبيعة الحركة التجارية في الجزيرة الفراتية - خلال القرن السادس الهجري استعراض ما ورد عن الاسواق ، لانها كانت في الواقع ، تمثل مظهرا حيا للنشاط التجاري والاقتصادي .

ويمكن القول ، ان وجود الاسواق في هذه الفترة هو استمرار لما كانت عليه خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، حيث وصف ابن حوقل مدينة الموصل بغزارة أهل الاسواق ، وانها كانت « واسعة وأحوالها في الشرف والفخم ظاهرة » (٩٢) ، و « ان لكل جنس من الاسواق الاثنان والاربعة والثلاثة ، مما يكون في السوق المائة حانوت وزائد » (٩٣) .

وقال : « وفيها مدينة تعرف بسوق الاحد فيها أسواق ولها موعد لأوقات يحضر فيها السوق ، يجتمع فيه المتاع وسائر التجارة والاكرة والاكراة » (٩٤) . واستمرت أسواق الموصل على هذا الحال في الاتساع والانتشار حتى صارت خارج سورها سنة ٥٦٠ هـ (٩٥) .

(٩٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٤-١٩٥ ، كما قال عن الرقة بأنها مدينة حسنة الاسواق (نفس المرجع السابق ص ٢٠٣) وقال الاصطخري « بدليس بازار عظيم في الخميس والجمعة والسبت والاحد يجتمع فيه الناس من البلاد البعيدة ليحضروا ويشترى منه كل ما يحتاج اليه » مسالك الممالك ص ٧٦ .

(٩٣) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٥ ، أما ما ورد عن الاسواق عند المقدسي من معلومات فكانت قليلة ، فيما عدا أسواق باعيناها التي وصفت بأنها فرجة الاسواق ونصيبين سوقها من الباب والرقة حسنة الاسواق وقد ظلت بالاشجار . أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٣٦-١٣٧ .

(٩٤) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص ١٩٦ ، ذكر البلاذري « كان بين الرقة والرافقة فضاء ، فلما قدم علي بن سليمان بن علي واليا على الجزيرة نقل أسواق الرقة الى تلك الارض ، فكان سوق الرقة الاعظم فيما مضى يعرف بسوق هشام العتيق » . فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٤٧ .

فتوح البلدان قسم ٢ ص ٢٤٧ .

(٩٥) المعلق المجهول - وهو من أهل القرن السادس - في كتاب صورة الارض لابن حوقل ص ١٩٥ .

كما اتخذت في ميفارقين في هذه السنة الحانات والفنادق والحمامات والأسواق والبيع والشراء وكان يجلب اليها الجهاز من سائر البلدان (٩٦) ولكن في ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م وصفت ميفارقين بأنها ضيقة وكذلك ماردين ، وعليه أوجد بالقرب منها موضع يعرف بسوق دنيسر يجتمع الناس كل يوم فيه للبيع والشراء (٩٧) .

وفي ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م زار الرحالة ابن جبير مدن الجزيرة وقدم لنا معلومات مفيدة عن أسواقها ، فقال عن الموصل «وبنى داخل البلد وفي السوق قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنفلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له ، فما أرى في البلاد قيسارية (٩٨) تعدلها» (٩٩) .

ويواصل ابن جبير رحلته الى مدينة دنيسر ، فيذكر ان اهل القافلة التي كان ينضم اليها هو ، يريدون حضور سوقها الحفيلة التي كانت تنعقد أيام السبت والاحد والخميس والجمعة ، حيث يجتمع بها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لان الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، «ويسمون هذه السوق التي يحضرها الناس من جميع الجهات «البازار» وكانت أيام كل سوق معلومة» (١٠٠) .

أما عن مدينة حران فيقول : «ولهذه البلدة أسواق حفيلة الانتظام عجيبه الترتيب» ، ويشير الى أنها كانت مسقفة

(٩٦) المعلق المجهول : نفس المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٩٧) المعلق المجهول : نفس المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٩٨) القياسر : جمع قيسارية ، مجموعة من المباني العامة وبها حوانيت ومصانع

ومخازن ومساكن وفي بعضها مساجد ويعلوها رباع ذات مساكن يقيم فيها

الصناع والتجار بأجر . عن المقرئزي ، خطط ج ٢ ص ٨٧-٨٩ ، انظر الدكتور

محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٦٠ .

(٩٩) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ .

(١٠٠) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢١٧ .

بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل محدود ، ويورد وصفا جيدا لها فيقول : «وعندما تخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع قد بنى عند كل ملتقى أربع سكك أسواق ، منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك ، ويتصل بهذه الاسواق جامعها وحوانييتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا وأعالي أسواقها مسقفة » وزاد قوله : «ان على هذا الترتيب أسواق مدن هذه أسواق مدينة جسر منبج وسككها كانت فسيحة متسعة ، دكاكينها في هذه الفترة ، ولكن على ما يبدو فقد شيدت على النسق الذي أشار إليه ابن جبير ، واستمرت ماثلة حتى خلال القرن الثامن الهجري ، فابن بطوطة قد زار تلك المناطق في ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م وذكر «ان الكرم » (١٠١) .

وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة عن أسواق المدن الأخرى الجهات» (١٠٢) ، كما أنه وصف لنا أسواق مدينة الموصل ، وقال بأن قيساريته مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض مسقفة البناء» (١٠٣) .

ومن الاسواق التي يشار اليها منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن السادس :

١ - سوق الطعام الذي أشار اليه الفارقي (١٠٤) ، وكانت تباع فيه الخضروات واللحوم والسمن والمؤن والحبوب والبقول - وقد وجد مثل هذا السوق في أكثر مدن الجزيرة الفراتية .

(١٠١) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص ٢٢٠-٢٢١ .

(١٠٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٢٣ .

(١٠٣) ابن بطوطة : نفس المرجع السابق ص ٢٣٥ .

(١٠٤) الفارقي : التاريخ ص ٨٠ ، الى جانب ذلك توجد بيوت الغلات «أي المخازن»

في مدينة آمد (نفس المرجع السابق ص ٩٥) .

- ٢ - سوق القبة (١٠٥) نسبة الى القبة التي فوقه ، حيث تتفرع منه الاسواق الى جميع الجهات .
 - ٣ - سوق البن (١٠٦) نسبة الى نسيج البن ، حيث يعرض ويبيع فيه هذا القماش دون غيره .
 - ٤ - سوق العطارين (١٠٧) الذي يحتوي على حوانيت لبيع السكر والعقاقير وجميع البضائع والسلع المشابهة .
 - ٥ - سوق البزازين (١٠٨) وهو يضم الحوانيت والقيساريات التي تعرض فيها أنواع الانسجة والاقمشة وغيرها .
 - ٦ - سوق العطر (١٠٩) يحوي حوانيت العطور والبخور واللاذن والخلوق والمحلب .
 - ٧ - سوق الصوافين (١١٠) يباع في حوانيته الصوف والغزول والوبر وشعر الماعز والجلود المجففة والفرو .
 - ٨ - سوق النشابين (١١١) نسبة الى النشاب ، ويبيع فيه أنواع الاسلحة الاخرى مثل السكاكين والمديات والتروس والجواشن والرماح وأنواع السيوف والخناجر .
- وجاء في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ؛ ان هناك سوقا في الموصل يسمى : «سوق التركمان» (١١٢) وهو سوق يختص بهذه

(١٠٥) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١٦٥ .
 (١٠٦) انظر الفصل السادس . كما جاء ان في مدينة السلامية قيسارية للبنز : ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١١٣ . وفي باعشيقا قيسارية يباع فيها البنز (ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٧٢) .
 (١٠٧) الفارقي : التاريخ ص ٢٠٦ .
 (١٠٨) اشارت المراجع الى وجوده في أغلب مدن الجزيرة .
 (١٠٩) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٢٦٢ .
 (١١٠) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٤ قسم ٣ ص ٥٩٧ .
 (١١١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٣٦ أ .
 (١١٢) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٢٣١ .

الطائفة ، ولعل هناك ما يشير الى وجود أسواق خاصة بالعرب والاكراد . كما ورد سوق بأسم «سوق العديم» في مدينة ميفارقين ، ولعل هذا السوق كان يضم الحوانيت التي تباع فيها الادوية والاشربة والمعاجين والعقاقير وما شابه ذلك (١١٣) .

النظام النقدي :

جرى التعامل في بلاد الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري على أساس الدينار (١١٤) الذهبي والدرهم (١١٥) الفضي ، المحليين ، مثلما كان يجري الوضع عليه في الدولة العباسية في هذه الفترة ، وذلك فضلا عن مجموعة النقود الاخرى مثل الدينار الارمانوسي (١١٦) و المـرابطي (١١٧) و الصوري (١١٨)

(١١٣) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة - مخطوطة - الورقة ٩٣ ب .
(١١٤) الدينار : كلمة بيزنطية Donarius أي عشرة وحدات Mummus ومعناها سوية «نقد ذو عشرة أسات ، والاس في الاصل من النقود النحاسية» انظر : يوسف غنيمه : مقالته «النقود العباسية» (مجلة سومر ج١ مجلد ٩ / ١٩٥٣) ص ١١٥ . وقد ساد الدينار في المعاملات في الدولة العباسية ، وأصبحت كل سبعة دنانير تساوي عشرة دراهم . انظر : محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (الطبعة الثانية - ١٩٦١ القاهرة) ص ٣٥٤ ثم انظر :

The Encyclopaedia of Islam, "Art Dirham"

(١١٥) الدرهم تعريب «درم» الفارسي ، ومنه اليوناني «دراخمي» ومن اليوناني مأخوذ السرياني «درخما» (يوسف غنيمه : نفس المرجع السابق ص ١١٥) وانظر أيضا :

The Encyclopaedia of Islam, "Art Dirham"

(١١٦) وهو دينار بيزنطي ، ينسب الى الامبراطور رومانس الثاني Romanus أحد أباطرة الدولة البيزنطية (القلقشندي : صبح الاعشى ج٧ ص ١٠-١٣) .
(١١٧) وهو دينار ذهبي اسباني .

(١١٨) وتسمى الدنانير (المشخصة) يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم وهي معلومة الوزن على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتا (بطرس) و (بولس) الحواريين ، وقد يعبر عنها أحيانا (بالافرنثية) واصلها افرنسي (القلقشندي : صبح الاعشى ج٧ ص ٤٣٧) .

والمصري (١١٩) والاميري (١٢٠) ، فضلا عن الدراهم النحاسية والفلوس (١٢١) النحاسية (١٢٢) ودراهم النقرة والسلطاني والدراهم النصفية .

وكان لهذه النقود وزنها الشرعي من الذهب أو الفضة ، فالدينار الذهبي عموما يساوي مثقالا من الذهب ، والدرهم الفضي سبعة أعشار المثقال من الفضة . وقد كان صرف الدينار الذهبي يساوي عشرة أو اثنا عشر درهما فضيا (١٢٣) ، ولعل ذلك لم يكن يسرى على الدينار والدرهم المحليين فحسب ، بل على النقود الأخرى .

وكانت هذه النقود غير منسجمة من حيث العيار «أي نسبة المعدن الثمين فيها» والحجم والوزن ، وذلك لعدة أسباب ، يأتي في مقدمتها النقص في كمية الذهب (١٢٤) والفضة (١٢٥) بسبب الاضطراب

(١١٩) وهو دينار ذهبي شاع التعامل به في بلاد الشام والجزيرة في هذه الفترة .
(١٢٠) الدينار العباسي ، الذهبي الذي كتب عليه اسم ولي العهد ، وقد منع التعامل بغيره من العملات التي ضربت بكثرة في دار الضرب التي كان لسيرها وكلاء الخليفة .

(١٢١) الفلس لفظ يوناني معرب ، وقد أخذته اليونانيون من اللفظ اللاتيني ومعناه «كيس النقود» ، المقريري : اغاثة الامة بكشف الغمة . (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة) حاشية (١) ص ٦٦٠ .

(١٢٢) وكانت تسمى «الزيوف» حيث تطل من الخارج بالفضة لتبدو لمن يراها أول مرة فضية ، ونتيجة الاستعمال ، تبلى الفضة ، فيظهر النحاس وينكشف أمرها . أنظر : عبدالرحمن فهمي : النقود الإسلامية ماضيها وحاضرها ص ١١٩ .

(١٢٣) فلو كان الدرهم مساويا في وزنه ، وزن المثقال لكان ثمنه ٧/١ ثمن المثقال ولكن وزن الدرهم هو ١٠/٧ المثقال فقط . لذا فان نسبة ثمنه الى ثمن الدينار كانت ١٠/١ ، فالدينار أي المثقال يساوي ١٠ دراهم (انظر محمد ضياء الدين الرئيس : نفس المرجع السابق ص ٣٩٦) .

(١٢٤) ومن مظاهر عدم توفر الذهب في بلاد الجزيرة الفراتية هو اقتصار ضرب الدنانير الذهبية على مدينة الموصل فقط دون غيرها من المدن الأخرى ، حيث



والقلق السياسي والاقتصادي والتناحرات العسكرية ، التي قد يكون الخطر الصليبي من أسبابها .

ويبدو ان نقص معدني الذهب والفضة وخاصة في القرن السادس الهجري انما يرجع الى تصديرهما من الموصل الى الولايات والبلدان الاخرى ، هذا بالإضافة الى ان بعض المناجم الموجودة في الموصل قد سيطرت عليها بعض الدول مثل بلاد فارس وأرمينية وبلاد الروم مما حال دون الاستفادة منها في هذا المجال (١٢٦) ، كما انه من المحتمل جدا أن تكون هذه المناجم فقيرة في معدن الفضة بطبيعتها ، مما أدى الى استيرادها من ايران (١٢٧) والمناطق المجاورة لها . وقد ظهر بمرور الزمن العجز عن ضرب العملات الفضية (١٢٨) واستعويض عنها بالدراهم النحاسية .

لا يتوفر هذا المعدن فيها بصورة كافية لاصدار الدنانير .

انظر محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص ٧١-٧٢ .

(١٢٥) وهذا يرجع الى تصديره وعدم كفاية مناجمه ، نتيجة للتوسع في ضرب الدراهم التي كانت تقوم مقام الدنانير الذهبية .

(126) Gaston Migeon: Les Cuivres Arabes. (Paris, 1900) P. 9-10.

(١٢٧) كانت ايران والمناطق المجاورة لها ، غنية بمعدن الفضة في «تائين» وشمال غربي «دلفريد» حيث جبل المعادن و«بنجهيز» . انظر : كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٣٣٢-٣٥٤-٣٨٩-٤٣١ وانظر أيضا محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية ص ٣٧٣ .

(١٢٨) جاء ان بعض التجار ممن يمتلكون كميات من معدن الفضة ، كانوا يستأذنون الخلفاء والأمراء بسكها دراهم للتعامل . وقد استأذن أحد التجار الناصر صلاح الدين الايوبي عند اخضاعه معظم بلاد الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، استأذنه في ضرب الفضة الكثيرة التي كانت لديه ، دراهم فاذن له وجعل دار الضرب بيده ف ضرب منها شيئا كثيرا ، انظر : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٨٧ .

وكانت «القراضة» (١٢٩) وهي أجزاء وكسور السكة ، تقطع من الدينار الذهبي ، كما يسمى الأخير «مثلوما» (١٣٠) ، اذا بقي ما يساوي أكثر من القراضة المقطوعة منه . والقراضة والمثلوم ، كانا شائعي الاستعمال في عمليات التداول النقدي خلال القرن السادس الهجري في بلاد الجزيرة الفراتية (١٣١) . وظل التعامل فيهما سائدا الى ما بعد هذه الفترة ، ويذكر ابن خلكان وصول الشاعر عبدالرحمن بن أبي الحسن بن علي البوازيجي الى أربل سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م . وكان شرف الدين بن المستوفي ، وزيرا ، حيث أرسل اليه «مثلوما» على يد الشاعر الكمال بن الشاعر الموصللي ، فتوهم ذلك الشاعر ان الكمال قد قرض القطعة من الدينار وان شرف الدين بن المستوفي ما سيره الا كاملا (١٣٢) .

(١٢٩) ذكر ابن خلكان : كان الناس يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونها «قراضة» وهي كثيرة الوجود بأيديهم في معاملاتهم . وفيات الاعيان ج٣ ص ٣٩٦ ، انظر أيضا : مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون (مخطوطة) الورقة ٣١١ ، وذكر الذهبي انه ضربت ببغداد دراهم وفرقت في البلد وتعاملوا بها ، وانما كانوا يتعاملون بقراضة الذهب القيراط والحبة ونحو ذلك فاستراحوا . العبر في خبر من غبر ج٥ (تحقيق صلاح الدين المنجد الكويت - ١٩٦٦) ص ١٢٧ .

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٣١٢-٣٩٦ ، انسان العيون الورقة ٣١١ .

(١٣١) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج٣ ص ٣٩٦ ، انسان العيون الورقة ٣١٢-٣١١ .

(١٣٢) أنشد الشاعر :

يا أيها المولى الوزير ومن به في الجود حقا تضرب الامثال
أرسلت بدر التم عند كماله حسنا فوافي العبد وهو هلال
ما غاله النقصان الا انه بلغ الكمال وهكذا الأحوال

ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٣١٢-٣٩٦ ، جاء في الحوادث الجامعة ص ٧٠-٧١ (في ٦٣٢ هـ منع الخليفة المستنصر بالله العباسي التعامل بالقراضة واصدر بدلا منها دراهم فضية تساوي كل عشرة منها دينارا واحدا) .

الوزن والحجم :

يقتضي معرفة طبيعة النقود ، دراسة أوزانها (١٣٣) ، فهي في الغالب تساعد على ادراك كثير من الحقائق المتعلقة بالنقود وحجومها ومعاييرها ومقاييسها الاخرى .

والملاحظ ، ان عدم انسجام الشبكة من حيث الوزن والحجم والعيار ، كان صفة ملازمة للنقود السائدة في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري فهناك دينار ضرب سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م من وزن (١٠٣رغم) وقطر (٢٥مم) . وآخر من وزن (٢٢٨رغم) وقطر (٢٥رغم) وقطر (٢٥رغم) وصدر آخر في الموصل سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م من وزن (٧٣٠رغم) وقطر (٢٧مم) . وآخر من وزن (٢٠٤رغم) وقطر (٢٦مم) صدر في الموصل سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م . وآخر من وزن (٨٣٠رغم) وقطر (٢٦مم) صدر سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م . وصدر سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م دينار من وزن (٨١٤رغم) وقطر (٢٩مم) (١٣٤) .

أما الدراهم الفضية والنحاسية ، فليست لدينا نماذج لها في الوقت الحاضر ولكن تبين نماذج الفلوس النحاسية الاتابكية عدم انسجامها في الوزن والحجم حتى ما صدر منها في عهد الاتابك الواحد نفسه . ففي عهد عز الدين مسعود ابن مودود أتابك الموصل ٥٧٦هـ / ١١٨٠م صدرت الفلوس الآتية أوزانها وأقطارها :

الأول من وزن (٧٩٠رغم) وقطر (٢٦مم) والثاني من وزن (٤٥٠رغم) وقطر (٢٧مم) والثالث من وزن (٢٤٠رغم) (١٣٤)

(١٣٣) محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٣٤٩ .

(١٣٤) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، ناصر النقشبندي : مقالته «الدينار الاسلامي للملك الطوائف والمتغلبة على الدولة العباسية» (الدينار الاتابكي) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٤ ج ١ / ١٩٥٦ .

(غم) وقطر (٢٧م) والرابع من وزن (٥٢٠ر١٣غم) وقطر (١٩م)
(م) والخامس (٦٤٠ر١٥غم) وقطر (٢٨م) (١٣٥) .

وفي عهد الاتابك قطب الدين محمد اتابك سنجار ٥٩٤هـ /
١١٩٧م صدرت الفلوس النحاسية ومنها من وزن (٣٧٠ر١٠غم)
وقطر (٢٤م) وآخر من وزن (٤٧٠ر٨غم) وقطره (٢٥م) وآخر
(٦٠ر١٠غم) وقطر (٢٦م) وآخر من وزن (٩٣٠ر١٠غم)
وقطر (٢٥م) وآخر من وزن (٤٢٠ر١٠غم) وقطر (٢٥م) وآخر
من وزن (٤٠٠ر١٠غم) وقطر (٢٦م) وآخر من وزن (٩٢٠ر٨غم)
وقطر (٢٤م) (١٣٦) .

وقد ضربت هذه النقود في الموصل وأربل وسنجار وأمد
والانبار ودقوقا وميافارقين وديسر وخلاط ونصيبين وتكريت
وجزيرة ابن عمر وتبدو الكتابة المنقوشة عليها متقاربة يتلخص
أكثرها بذكر اسم الخليفة العباسي القائم ثم بذكر اسم الملك
الاتابكي الحاكم وعبارات الشهادة مثل «الامام المقتضى لامر الله - لا
اله الا الله وحده لا شريك له» على الوجه . وكلمات «لله - سنجر
ومسعود - تكريت (مدينة سكها)» على القفا وعلى الهامش الكلمات
«محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون» (١٣٧) ، وينقش في بعض المسكوكات ، هامشان ،
الاول الخارجي ويكتب فيه التاريخ واسم المدينة التي ضرب فيها
مثل «بالموصل سنة احدى وأربعين . . .» وآخر «بالموصل سنة
خمسین وخمسماية» . وآخر «باسم الله ضرب هذا الدينار بدقوقا

(١٣٥) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، محمد باقر الحسيني : العملة
الاسلامية في العهد الاتابكي ص ١٠٣ .

(١٣٦) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، محمد باقر الحسيني : العملة
الاسلامية ص ١٢٩ .

(١٣٧) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي : محمد باقر الحسيني : نفس المرجع
لأسابق ص ٤٠ .

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» أما الهامش الداخلي فيحتوى على عبارات الشهادة مثل «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» (١٣٨) وهذه العبارة تغلب على الهوامش الداخلية لمعظم المسكوكات المتوفرة . وتظهر لأول مرة في الفلوس النحاسية الاتابكية ، صور منقوشة لأدميين بعضها كاملة وبعضها نصفية وأخرى مجنحة ، وهي تمثل الملوك الاتابكيين وبعضها الآخر كان يمثل الامراء الاراتقة .

ففي عهد قطب الدين مودود اتابك الموصل ٥٤٤-٥٦٥هـ / ١١٤٩-١١٦٩م صدر فلس ، نقشيت على وجهه صورة لشخص متجه نحو اليسار قليلا ، فوق رأسه ملكان ناشران اجنحتهما (١٣٩) . وعلى فلس آخر نقشيت الوجه ، صورة نصفية لشخص متجه الى اليسار على رأسه خوذة (١٤٠) . وعلى آخر ، صورة لشخص جالس ممسك بيديه المرفوعتين على صدره بالهلال ، كتب خارج الهلال من اليسار (ضرب بالموصل) ، وفي اليمين (وثمانين وخمسمائة) أما داخل الهلال قرب الوجه ، فقد كتب فيه على اليسار (ست) وعلى اليمين (خمس) (٢١٤١) وعلى آخر صورة رأس انسان متجه نحو اليسار وتحت ذقنه نجمة ، والصورة مرسومة داخل مربع (١٤٢) وعلى آخر ، صورة شخص مكمل رأسه بأوراق شجر الفار (١٤٣) وعلى آخر يرجع الى أتابكية الجزيرة (جزيرة ابن عمر) صدر سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م في عهد الاتابك معزالدين سنجر شاه على الوجه زخرفة نقشيت داخل

(١٣٨) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي : محمد باقر : نفس المرجع السابق : ص ٤٠ - ٤٢ .

(١٣٩) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي .

(١٤٠) محمد باقر : العملة الاسلامية ص ١٠٤ .

(١٤١) متحف الفن الاسلامي بالقاهرة «رقم ١٧١٨٤» .

(١٤٢) محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية ص ١١٩ .

(١٤٣) الحسيني : نفس المرجع السابق ص ١٣٣ .

دائرتين احدهما وهي (الداخلية) متموجة والثانية (الخارجية) بخط غير متموج (١٤٤) *

ويبدو ان اضطراب الحياة الاقتصادية وتذبذبها قد أثرا الى حد بعيد في شدة تباين المستوكات من حيث العيار والوزن والحجم ، مما يؤكد ذلك شيوع ظاهرة التعامل بالنقود الوافدة التي لم تكن تخضع الى نظام موحد أو تستند الى قاعدة ثابتة في نسبة الصرف ، بالإضافة الى أنها غير منسجمة أو مستقرة فمنها الجيد ومنها الرديء الرخيص ، وكان الناس يفضلون في معاملاتهم العملة الجيدة ويطالبون بالتعامل بها ، وكان التجار بصورة خاصة يتجافون مناطق العملة الرخيصة (١٤٥) *

ومع أنه ليست لدينا معلومات مفصلة عن مدى ثبات قيمة النقود الاتابكية ، بما فيها الدنانير الذهبية أو الدراهم الفضية أو النحاسية أو الفلوس النحاسية ، وتذبذبها ، أمام النقود الوافدة من البلاد الاخرى أو بالعكس ، فان صرف هذه العملات جميعها ، كما يبدو ، يقوم على أساس وقتي ويخضع للصدفة . وكانت العادة ان الدينار الاميري يساوي ٢٠ قيراطا (١٤٦) ، ولكن الدينار الاتابكي جام سعره في سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م بأحد عشر قيراطا (١٤٧) ، بينما حافظ الدينار الاميري على سعره المعتاد *

(١٤٤) الحسيني نفس المرجع السابق ص ١٣٤ *

(١٤٥) رشيد الدين فضل الله : داستان غازان (بالفارسية) نشر كارل يان ، لندن ١٩٤٠ ، ص ٢٨٢ *

(١٤٦) وزن القيراط "Silka" ١٨٩ غم *

(١٤٧) ذكر ابن الاثير ، ان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي صاحب حلب قد ألزم صاحب ماردن سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م بعد ان هدد امارته بالاحتلال على قاعدة (اتفاق) باعطاء الملك الظاهر مائة وخمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطا من الدينار الاميري وهو ما يعادل عشرين ألف دينار من النقد المذكور . الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ١٧٩ ، انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٦ *

وكان الدينار المصري قد شاع التعامل فيه على أساس وزنه ذهباً وليس عملة في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري وبعده ، كما هو الحال عليه في مصر في العهد الايوبي وهو يساوي سبعة مثاقيل (١٤٨) والمثقال يساوي أربعة وعشرين قيراطاً (١٤٩) ، أي ان الدينار الواحد يساوي (مائة وثمانية وستين) قيراطاً ، وهو أكثر من الدينار الاميري ب (عشرين) مرة ومن الدينار الاتابكي ب (سبع وسبعين) مرة .

وأشار ابن جبير في منتصف القرن السادس الهجري ، الى تداول الدينار المصري في بلاد الجزيرة الفراتية (١٥٠) كما استمر التعامل فيه خلال الفترات التالية في هذه البلاد ، فقد جاء ان الناس كانوا يتعاملون بالدينار المصري في مدينة خلاط سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م (١٥١) ، ويذكر ابن شداد ما يشير الى استعماله في ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م فعند اجتماعه بالملك السعيد صاحب ماردین قال له : أنا أقرض صاحبكم (أي صاحب ميفارقين) ثلاثمائة ألف دينار مصرية (١٥٢) .

والى جانب الدينار الاتابكي والاميري والعباسي والمصري ، هناك الدينار الارمانوسي من الذهب ، وهو من العملات المتداولة على نطاق واسع أيام الاتابكة ، حيث كان تداوله استمراراً لما كان عليه في القرن الخامس الهجري ، ويذكر الفارقي قيام التاجر ابن البهات من أهل ميفارقين في هذه الفترة ، بصفقة تجارية ، فقد

(١٤٨) ان وزن المثقال هو (٤ر٢٥) غم ، وقد اتخذته الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان وزناً للدينار الاسلامي ، الذي هو بالضبط وزن الدينار البيزنطي "Solidos" الذي كان مستعملاً في تلك العصور .

(١٤٩) النظر : محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية ص ٣٦٣-٣٦٤ .

(١٤٩) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٣٦ .

(١٥١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٥ .

(١٥٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ١١٨ ا .

اشترى قماشاً وباعه وقبض ثمنه ، فربح فيه خمسمائة ديناراً
أرمانوسية (١٥٣) وفي ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م وصل أولاد الخليفة العباسي
إلى آمد فكان أميرها يجري لهم رواتبهم كل يوم مقدار خمسين ديناراً
أرمانوسية (١٥٤) وإن نصارى ميفارقين دفعوا ثلاثين ألف دينار
أرمانوسية إلى الأمير فخرالدولة لمساهمة في بناء دير عباد (١٥٥) .

وفيما عدا ذلك ، كان هناك الدينار المرابطي الذهب ، وهو
عملة أفرنجية إسبانية يؤدي بها اليهود المقيمون في العمادية وبعض
مدن الجزيرة الأخرى الجزية للمسلمين (١٥٦) ، وكان له أثر في
القرن الخامس الهجري والقرنين التاليين له ، فقد كان يصرف في
هذه الفترة كل دينار مرابطي وثلاث يساوي ديناراً أميرياً ذهباً .

أما الدينار الصوري الذهب ، فقد أشار المقرئ إلى تداوله
سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م في مدينة ماردين في عهد الأمير الارتقي
ناصر الدين أرسلان (١٥٧) .

أما الدراهم المتداولة إلى جانب الدراهم الفضية والنحاسية
الأتاكية فأكثرها شيوعاً هي الدراهم السلطانية والنصفية
والنقرة فالأولى تضرب بدور الضرب بالسكة السلطانية .
والسكة هي حديدة منقوشة تضرب بها الدراهم ، ويحتفظ السلطان
أو الأمير بها (١٥٨) . وكان وزن الدرهم السلطاني الواحد أربعة
وعشرين قيراطاً فضة ، والنصفية هي في الأصل سلطانية ، قرضت
إلى قطع صغيرة وتعامل بها الناس ، وكان سعرها منخفضاً ، وقد
عرفت في محيط التداول في أغلب مدن الجزيرة خلال القرنين
الخامس والسادس الهجريين .

(١٥٣) الفارقي : التاريخ ص ١١٦ .

(١٥٤) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ١٥٨ .

(١٥٥) الفارقي : نفس المرجع السابق ص ٢٢٠ .

(١٥٦) رحلة بنيامين التيطلي الأندلسي ص ١٥٤ .

(١٥٧) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ١ ص ١٦١ .

أما دراهم النقرة أي الفضية والفلوس فقد استعملت في محيط التداول حتى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م حيث ابطلت واستخدمت غيرها من الدراهم السداد التي هي مزيج من النحاس والفضة ، وكانت كل أربعين درهماً بدينار (١٥٩) .

وانتشرت في ذلك الوقت ظاهرة كساد النقد أو ما يعرف في الوقت الحاضر بظاهرة التضخم النقدي (١٦٠) ، والتي يصاحبها تقلص الانتاج الزراعي والصناعي ، وكان هذا يحدث غالباً أثناء الحصار العسكري أو الاضطراب الاقتصادي وقلة الموارد الزراعية والعامة وتوقف النشاط التجاري الذي تعرضت له أحياناً بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، حيث استمرت هذه الظاهرة الاقتصادية حتى في خلال القرون التالية ، فعندما حاصر الخوارزميون خلاط إحدى مدن الجزيرة سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م «عظم بها البلاء واشتد الغلاء وكسدت الدنانير» (١٦١) ولما طال مدة الحصار لها (انعدمت الموارد والاقوات) نتيجة للحصار الاقتصادي «فذلت الدراهم والدنانير» (١٦٢) حيث قلت قيمتها نظراً لانعدام مصادر الانتاج وشحة الموارد .

وعرف في هذه الفترة التعامل (بالقراطيس) أو «السفاتج» وهي الاوراق المالية التي كانت تعوض عن النقد في البيع والشراء

(١٥٨) الفارقي : التاريخ ص ١٠٤ .

(١٥٩) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٣٤٨ ، وذكر القلقشندي ، ان نسبة الفضة في هذه الدراهم هي ٣/٢ ، والنحاس ٣/١ (صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٣٩) .

(١٦٠) النظر : محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٣٧٢ .

(١٦١) المنشئ النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (تحقيق حافظ احمد حمدي - مطبعة الاعتماد مصر - ١٩٥٣) ص ٣١٠ .

(١٦٢) النسوي : نفس المرجع السابق ص ٣٢٠ .

ونعرفها في الوقت الحاضر باسم «الشيكات» وبناء عليه نشأت
الصيرفة ومصارف الايداع والتسليف وقد أشار
أبو شامة الى تداولها الواسع في منطقة الشام
والجزيرة ، بحيث كان يمتلك أحد السوق منها عشرة آلاف
وعشرون ألف قرطاس وكان سعر كل ستين قرطاسا بدينار أو كل
سبعة وستين بدينار (١٦٣) . كما ذكر ابن أبي اصيبعة ، أن أبا الحسن
ثابت بن قرة الخرازي ، كان صيرفيا ويزاول بيع وشراء النقود أيام
الأتاكية (١٦٤) .

(١٦٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ قسم ١ ص ٤٥ .

(١٦٤) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٢٩٥ .

الفصل السادس

نظم الادارة والقضاء

أ- نظم الادارة ووظائفها :

١ - النائب *

٢ - الدواوين *

٣ - البريد *

ب- القضاء *

ج- التقسيمات الادارية العامة *

د- المحتسب *

الفصل السادس

نظم الادارة والقضاء

أ - نظم الادارة ووظائفها :

كانت الخطوط العامة التي رسمها الولاة السلاجقة (٤٨٩ - ٥٢١هـ / ١٠٩٥ - ١١٢٧م) لامارات الجزيرة الفراتية ، تتمشى مع ادارة الدولة السلجوقية الكبرى التي كانت تشتمل على بلاد المشرق كلها والشام والعراق الذي يشمل هو الاخر اقليم الجبل (العراق العجمي) و اقليم اذربيجان و اقليم بلاد فارس و اقليم الجزيرة الفراتية وهذه جميعها بلاد واسعة لم يستطع السلاجقة حكمها مباشرة أو القيام بادارتها مالم يستعينوا بأمرائهم وقوادهم وحجابهم ومقرببيهم ، فعهدوا لهم بولايتها ، وقد سُمي بعض هؤلاء بالاتابكة .

لذلك فان ادارة الامارات الاتابكية والارتقية فيما بعد كانت تمثل مظهرا عاما للادارة السلجوقية ، حيث لم يؤد تحول هذه الامارات من عهد ولاة السلاجقة الى عهد الاتابكة أو الاراتقة الى ظهور مؤسسات ادارية جديدة ، بل أن أكثرها بقي موجودا مع استحداث عدد قليل من المناصب التي كانت تقتضيها الظروف العسكرية والسياسية الجديدة كما أنهم اقتبسوا كذلك شيئا من

التنظيمات الادارية السائدة في الدولتين الايوية والمملوكية بعد ذلك .

ويمكن القول بأن الاتابكة والاراتقة كانوا يحكمون دويلاتهم واماراتهم في الجزيرة الفراتية بادارات بسيطة ذات وظائف محدودة (١) . وقد اعتمدوا في ذلك على الاساليب المركزية في التنفيذ . وكانت التنظيمات السائدة لدى الاتابكيين والاراتقة يقوم أغلبها على اشباع مراكزهم الاسمية ، فمجموعة الموظفين الذين أقاموهم ومنحوهم صلاحيات وسلطات غير قليلة في ممارسة شؤونهم الادارية ، كانوا مسؤولين أمام الاتابك أو الامير وتحت اشرافه ومراقبته ، وان تنفيذهم لواجباتهم هذه كان يستهدف بالدرجة الاولى دعم السلطة الفردية الاقطاعية للاتابك أو للأمير ، والتي كانت تقوم في أغلب الاحيان على القوة والقسر .

وكان هؤلاء الموظفون يشغلون مناصب الوزارة (٢) والدواوين والنيابة والمحافظة والولاية والاعمال . وكان اشغال هذه الوظائف يمثل جميع السلطات الادارية ، ولكل منها صلاحيات معينة ومحدودة . أحيانا وواسعة وغير محدودة في أحيان أخرى .

ولكي نلقي بعض الضوء على طبيعة الادارة الاتابكية والارتقية خلال القرن السادس الهجري ، لابد من أن نستعرض أهم ماجاء من الوظائف المدنية وأهمها :

(١) يطلق على وظائف الادارة المدنية في معظم الدول الاسلامية ، اسم وظائف الاقلام ، تمييزا لها عن الوظائف العسكرية التي اطلق عليها اسم وظائف السيوف . وقد اقتصرَت الوظائف الاولى على الدواوين ، حيث أطلق عليها اسم الوظائف الديوانية ، وتشمل وظائف الاقلام التي تتميز بادارتها المدنية . الوظائف الدينية ايضا . أنظر : القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٦-٤٨٩ .

(٢) يغلب على منصب الوزارة عند الاتابكيين والاراتقة الجانب السياسي ، لذلك بحثت في فصل النظم السياسية .

١ - النائب :

وهو موظف اداري ، يمثل رئيس وحدة ادارية ، أهم واجباته-
الاشراف العام على ادارة المدن التي تعهد اليه أو المدن المحتلة-
عسكريا وتوجيهها نيابة عن الامير(٣) . ويقابل هذا المنصب ما
ندعوه حاليا «مدير الناحية» أو «القائمقام» أو «المحافظ» في
العراق .

ويبدو أن النائب كان يصاحب الجيوش في تنقلاتها قبل توليه-
منصبه ، فاذا احتل مدينة ما ، تولى هو الاشراف على ادارتها . وقد
ذكر ابن الاثير وظيفة النائب في أكثر من موضع في كتابه(٤) ، ولكنه
لم يقدم لنا معلومات مفصلة عن طبيعتها كما أشارت المراجع الى
وجود هذه الوظيفة في أغلب الامارات الاتاكية والارتقية مما يدل
على استخدام النواب بنطاق واسع وقد اطلقت عليه لقب النيابة(٥)،
أو (دزدارية)(٦) القلاغ(٧) .

وكان على النائب أن ينوب عن الامير في ادارة شؤون الامارة ،
وأن يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن أحوالها
العامية ، خلال تغيب الامير(٨) . وأشار ابن خلكان الى بعض المهام
التفصيلية التي كان يمارسها النائب مثل جمع الضرائب وجباية-

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٨٣-١٨٤ .

(٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٣٢-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٨٣ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدروز - بيروت ١٩٠٨) ص
٢٦٣-٢٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٣١٥ ، ابن العديم : زبدة
الحلب ج٢ ص ١٩٤ ، الفارقي : تاريخ آمد - مخطوطة الورقة ١٣٧ أ -
١٣٨ .

(٦) مأخوذة من الكلمة الفارسية «دز» وتعني مالك الدار أو القلعة أو المتولى .

(٧) ابن الاثير : الباهر ص ٣٥ ، الكامل ج١٠ ص ٢٤٦ ، أبو شامة : الروضتين
ج١ ص ٧٦ .

(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ .

الاموال والاشراف المستمر على التحصينات والاسوار وتعميق الخنادق^(٩)، بالإضافة الى أعماله العسكرية كالدفاع عن المدينة وتعهده بالقيام بالحملات العسكرية التوسعية^(١٠)، وكان من ضمن مهام نواب الاراتقة وولاتهم ، تلقي المكاتبات من الخارج^(١١) وحفظ القلاع والاعتناء بغلق أبوابها وفتحها وتفقد أحوال سكانها والتعرف على أحوال مجاورها من الاعداء فضلا عن مهماته المالية^(١٢) .

وهذه السلطات التي كان يمارسها النائب ، تبدو واسعة ، في شتى مجالات الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية ، وينطبق عليها ما كان يمارسه النائب في العهدين الايوبي والمملوكي في مصر وبلاد الشام حيث كان هو «القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها»^(١٣) .

بمقارنة منصب النائب في تنظيمات الايوبيين والمماليك في بلاد مصر والشام، نجد ان لقب «الدردار» وهو متولى القلعة و«نائب الامير» اللذين كانا يطلقان على نائب الاتابكيين والاراتقة ، يكونان مفهومين منفصلين عن بعضهما في هذين العهدين ، فالنائب يشترك مع السلطان في منح لقب الامارة والاقطاعات وتعيين الموظفين وتوقيع المراسيم وتنفيذ بعض القوانين وترؤس اجتماعات ديوان الجيش^(١٤) والرد على مكاتبات نواب المدن^(١٥) . وبذلك يكون نائب

-
- (٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٣١٥-٣١٦ .
(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥-٦ ، الباهر ص ٦٤ .
(١١) أشار القلقشندي الى بعض المكاتبات التي كانت توجه اليهم من نواب المماليك في دمشق وحلب . صبح الاعشى ج٨ ص ٢٢٥-٢٢٩ .
(١٢) الفارقي : تاريخ أمد ، الورقة ١٣٨ أ ، القلقشندي : صبح الاعشى ١١/٩٢ .
(١٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج٥ ص ٤٥٣ .
(١٤) القلقشندي : نفس المرجع السابق ج٤ ص ١٦ ، المقرئزي : الخطط ج٢ ص ٢١٤ .

الايوبيين والمماليك قد جمع لديه السلطات العسكرية والمالية. والادارية . اما (نائب القلعة) أو «الدزدار» فهو غير نائب السلطنة، اذان. اختصاصات الاول تتمثل في الاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم (١٦) وتفقد الاسوار والمنافذ وصيانتها واصلاحها والفصل فيما يقع بين العامة من خصومات (١٧)، وبذلك يكون قد تمتع باستقلال واضح عن النائب (١٨) .

ونؤكد ما جاء عن دور النائب في الادارة الاتابكية والارتقية في معرض الكلام عن نائب عماد الدين زنكي صاحب الموصل في بداية القرن السادس الهجري حيث كان يجمع بيده سلطات ثلاث هي النيابة ودزدارية القلعة ومهمة الوالي ، وذلك بعد مقارنة صلاحياته بنظم العصرين الأيوبي والملوكي في الشام ومصر، والتي هي استمرار للنظم الادارية للفترة السابقة لاسيما الفترة الزنكية النورية (١٩) ، ببقية الموظفين في العهد الاتابكي في الجزيرة .

وكانت علاقة النائب علاقة يشوبها الغموض ، لعدم وجود تفصيلات عنها في المراجع وكذلك فيما يتعلق بتحديد الاختصاصات بين المؤسسات الادارية ، كما ان هذه المراجع تجعل العمل الاداري الواحد مشتركا بين عدة مؤسسات أو موظفين ، مما يزيد في صعوبة

(١٥) المقرئزي : الخطط ج٢ ص ٢١٥ .

(١٦) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٢٢-٢٣ .

(١٧) علي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية (مكتبة النهضة المصرية ط٢ - القاهرة - ١٩٤٨م) ص ٢٣١ ، عن :

Van Berchem: Corpus, Egypte, Vol. P. 210-211

(١٨) علي ابراهيم حسن : نفس المرجع السابق ص ٢٣١ .

(١٩) علي ابراهيم حسن : نفس المرجع السابق ص ٢٣٠ ، عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٢٣٧ ، وقد أكد القلقشندي ذلك بقوله : «ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية ، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة ، وغيرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية بالموصل زمن عماد الدين زنكي - ثم ولده الملك العادل نورالدين محمود بالشام» صبح الاعشى ج٤ ص ٥ .

التوصل الى اختصاص كل موظف * كما أن مشكلة التداخل بين المؤسسات الادارية التي كانت تعاني منها هذه الفترة وخاصة في أتابكيات الجزيرة الفراتية ، وعدم وجود خطوط واضحة للتخصص كل ذلك يجعل من الصعوبة الكشف عن طبيعة النظم الادارية فيها وتحديد معالم كل وظيفة من وظائفها ، ولكن يعزى وضوح سلطة بعض الوظائف الى شخصية شاغليها ، فعندما تظهر مواهب أحدهم ويقوي نفوذه ، يطفى على اختصاص غيره * وهذا الاستنتاج صحيح ، وخاصة في مثل هذا الاضطراب في الوظائف الذي أشار اليه الباحث وقال بأنه أمر غير مستغرب في بيئة لم تكن النظم الادارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة (٢٠) *

وكما أن السلطات الادارية الواسعة التي كان يمارسها نائب عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، تتطلب جهازا اداريا واسعا ، لتنفيذ الاوامر والقرارات (٢١) كان ذلك ينطبق على نواب الاتابكيين الآخرين الذين خلفوه وعلى نواب الاراتقة (٢٢) أيضا ، حيث يحتم بالضرورة وجود عدد من الموظفين الذين كانوا يمثلون الجهاز الحكومي الذي تكون له صفة تنفيذية * وبذلك يمكن أن نستنتج ما هو مفيد عن علاقة النائب بهؤلاء الموظفين التنفيذيين *

٢ - الدواوين (٢٣) :

كانت الدواوين في البلاد الاسلامية، تمثل أهم مظهر من مظاهر

(٢٠) علي ابراهيم حسن : تاريخ الممالك ص ٢٦٠ ، عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٢٣٨ *

(٢١) عماد الدين خليل : نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ *

(٢٢) كان نواب الاراتقة يلقبون بالحجاب ، وذلك أما انهم اشغلوا فعلا وظيفة الحجابة سابقا ، أو ان التقاليد كانت تقتضي تسمية كل نائب أو وال باسم الحاجب * الفارقي : تاريخ آمد - الورقة ١٠٥ - ١٠٥ ب ، ١٣٢ أ ، ابن شداد : الاعلاق الورقة ١٠٢ ب *

التنظيم الاداري ، وقد اتخذت أكثر الدول والامارات والممالك الاسلامية دواوين لها ، تشرف على ادارتها العامة ، اقتداءا ببغداد حاضرة الخلافة العباسية ، حيث كانت مركزا لدواوين عديدة (٢٤) .

وورث الاتابكيون والاراتقة في الجزيرة الفراتية ، هذا النوع من التنظيم الاداري فأوجدوا لهم في كل امارة ديوانا واحدا عرف ب (ديوان الجند) أو الجيش (٢٥) كما هو الحال في الدولة العباسية أو الدواوين التي شهدها العصران الايوبي والمملوكي في مصر وبلاد الشام (٢٦) .

وليس لدينا معلومات فيما اذا كان ديوان الجند أو الجيش ، صار يسمى بمرور الزمن باسم المدينة التي يرجع اليها أو الامارة ، فلم تقدم المراجع ما يعيننا على ادراك التطور الذي حصل بهذا الديوان من حيث طبيعة العمل الاداري الذي كان يقوم به وعدد

(٢٣) اتخذت الادارة الاسلامية كلمة «ديوان» لتدل على سجلات الدخل والصادرات وأطلقت فيما بعد على المكان الذي يعمل فيه أرباب الوظائف المالية ، وأخيرا أطلقت على جميع فروع الادارة الاسلامية ، سواء المدنية منها أو العسكرية أو الادارية : انظر :

Encyclopaedia of Islam; P. 323, "Art Diwan" (A.A. Duri).

(٢٤) وأهمها : ديوان الزمام الذي كان يوصف (بالعزيز) وديوان الانشاء وديوان الجوالي وديوان عرض الجيش وديوان المقاطعات وديوان التركات وديوان الابنية وديوان العقار .

(٢٥) وكان يشرف على شؤون الجند وأحوالهم وتنظيمهم ، ويطلق عليه أحيانا اسم «الديوان» (ابن الاثير : الباهر ص ٨٣) .

(٢٦) كان هناك عدد من الدواوين المستقلة مثل ديوان «المستأجرات» والحمايات الشريفة وديوان الاحباس (ما يحبس من الازراق) وديوان الاشراف وديوان العمائر (يتعلق بالبناء والمهندسين وأرباب العمائر) وديوان الذخيرة (تجمع به الذخائر التي تخزن الاحباش أخرى من جهات متعددة) وديوان الاستيلاء وديوان الزكاة . وقد كان لكل هذه الدواوين وغيرها نظار ومباشرون . انظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٢٦٩ . عن : الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (بولس راويس - باريس ١٨٩٤) ص ١٠٩-١١٠ .

الموظفين والاشخاص الاخرين الذين كانوا يشغلون الوظائف فيه ،
 وكل ما هنالك ، فقد جاء عن ديوان الموصل (٢٧) انه كان على غرار
 ديوان الانشاء في الدولة العباسية (٢٨) ، حيث وضعت أسسه في
 الموصل منذ عهد عمادالدين زنكي بعد ان تولاها من قبل السلاجقة ،
 فقد ورد ذكره وكان له أهمية كبيرة ، بحيث جعل جمال الدين
 الاصفهاني الذي كان يتقلد منصب الوزارة ، مشرفا له (٢٩) ، كما
 أشار ابن الاثير الى هذا الديوان الذي أوجده عمادالدين زنكي
 والذي كان «يقاس بدواوين السلاطين السلجوقية لكثرة التجميل
 ونفاذ الامر وعظم الحاشية وكثرة الخرج» (٣٠) * وهذا يؤكد أهمية
 ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة
 الموظفين وضخامة المصروفات (٣١) بحيث ان أي مراجع كان يقصده
 كان يجد من «توفر - موظفيه - عليه ونظرهم في مصالحه ما
 يجعله - كأنه في أهله» (٣٢) * ويبدو ان ديوان الموصل أخذ يشمل
 اختصاصات ديوان الجيش ، وكان يضم أسماء القواد ومناصبهم
 والجند وطوائفهم ورواتبهم وأعطياتهم واقطاعاتهم أو ما يتعلق
 بأحوالهم المختلفة وكان على رأس ديوان الموصل ، موظف يسمى
 «نائب الديوان» (٣٣) حيث كان يقوم بإدارة الديوان والمراسلات (٣٤)

(٢٧) ابو البركات ابن المستوفي : تاريخ أربل (كما جاء في وفيات الاعيان ج٣
 ص ٢٩٧) أنظر أيضا : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
 ج١ ص ٨٤ *

(٢٨) ويسمى أحيانا «ديوان الرسائل» انظر مقدمة مصطفى جواد لكتاب
 تاج الدين علي المعروف بابن الساعي ، الجامع المختصر *

(٢٩) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ١٩٢-٢٦١-٢٦٩ *

(٣٠) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣ *

(٣١) عمادالدين خليل : نفس المرجع السابق ص ٢٧٠ *

(٣٢) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣ *

(٣٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٤-٦٨ ، ١١٨-١١٩ ، ١٧٢-
 ٢٢٨ *

(٣٤) ياقوت : معجم الادباء ج٦ ص ٢٣٨ *

ويسمى أحيانا «صاحب الديوان» كما هو الحال في الدولة العباسية.. في عهودها الأخيرة (٣٥) ، حيث أشار ابن الأثير إلى أن ديوان الموصل كان يتولاه صاحب الديوان (٣٦) . الذي صار يسمى فيما بعد «رئيس الديوان» أو «متولى الديوان» أو «كاتب الديوان» (٣٧) وكان يمارس صلاحيات تشبه إلى حد ما ، صلاحيات ، صاحب الديوان في الدولة العباسية ، حيث يكون له حق التصرف المطلق في الولاية فيعين كبار الموظفين ويعزلهم وله «حق العطاء والمنع» (٣٨) .

وهناك دواوين أخرى ، غير ديوان الموصل ، كديوان أتابكية الجزيرة (٣٩) (أي جزيرة ابن عمر) ، وديوان أتابكية سنجار (٤٠) . ولا بد أن تكون للامارات والمدن الأخرى دواوين مشابهة . ان هذه الدواوين كانت تشرف على الإدارة العامة كما ان جانباً مهماً من من نشاطها كان ينصب على الأمور العسكرية .

أما دواوين الأمراء الأراتقة ، فقد ذكر بعضها ، ومنها ما أشار إليه ابن شداد باسم «الديوان» الذي كان قد تولاه سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م علي بن أحمد الأمدي في مدينة آمد ، فسمى ناظر

(٣٥) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الأيلخانيين ص ٦٧-٦٨ . وهناك ديوان الخراج الذي صار يسمى ديوان (المخزن) . أنظر : مقدمة مصطفى جواد لكتاب ابن الساعي : الجامع المختصر .

(٣٦) ابن الأثير : الباهر ص ٨٣ .

(٣٧) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال (تحقيق مصطفى جواد - ١٩٥٧) ص ١٥٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٠ ، ابن قطلوبغا : تاج التراحم في طبقات الحنفية (بغداد - ١٩٦٢) ص ٤ .

(٣٨) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ٣٠٠ ، جعفر خصباك : العراق في عهد المغول ص ٦٨ .

(٣٩) ياقوت : معجم الادباء ج ٦ ص ٢٣٨ ، ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٩٩ .

(٤٠) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٥٧ .

الديوان (٤١)، الذي أصبح مسؤولاً عن القضايا المالية وعن كل ما يتم في معاملته من خلل أمام الأمير الارتقي ، وكان له عدد من النظائر على الجهات المحلية الأخرى (٤٢) .

ويبدو أن ديواناً آخر باسم ديوان «الاستيفاء» كان قد وليه المؤيد، أبو الحسن بن محمد سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م ، وكان موجوداً في مدينة ميفارقين، وعمل المستوفي الذي كان يتولاه على ضبط الأموال المتعلقة بالجيش وإدارة ديوان الاستيفاء (٤٣) . وفي ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م قام حسام الدين تمر تاش صاحب ميفارقين بتعيين المؤيد أبي الحسن ابن محمد وشخص آخر لقب بالمهذب ، بالديوان (٤٤) ، مما يدل على اشغال أكثر من مشرف واحد فيه . وأوجد الأراتقة عدداً من المشرفين على دواوينهم المحلية (٤٥)، التي كانت تعنى بالاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما وقد نقلوا ذلك عن السلاجقة حيث كانت وظيفة الاشراف عندهم تعد من الوظائف المهمة ، ولها ديوان خاص يقوم المشرف بإدارته (٤٦) ، وبهذا يمكن القول بأن ديواناً آخر باسم ديوان «الاشراف» (٤٧)، كان موجوداً لدى الأراتقة في هذه الفترة .

٣ - البريد :

اتخذ الاتابكة ، البريد ، ضماناً لورود واصدار المكاتبات التي كانت تجري بين اماراتهم في الجزيرة الفراتية أو بين البلاد القريبة

-
- (٤١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ١٠٣ أ ب ، الفارقي : تاريخ آمد - مخطوطة - الورقة ١٠٩ أ ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في اعلام المائة الثامنة ٢٦٤/٣ - ٦٢٥ .
- (٤٢) ابن حجر العسقلاني : نفس المرجع السابق ٢٦٥/٣ .
- (٤٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة - الورقة ١٣٤ ب .
- (٤٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٤١٣ .
- (٤٥) الفارقي : تاريخ آمد - المخطوط - الورقة ١٣٩ أ .
- (٤٦) الفارقي : تاريخ آمد - مخطوطة - الورقة ١٣٩ أ .

«والبعيدة عنهم فأمنت الطرق ورتب فيها الرجال لحمل الخرائط
وبنيت الخانات والابراج عليها ، وهو استمرار لما كانت عليه في
القرنين الرابع والخامس الهجريين حيث «جعلت رسماً للبريد» (٤٨).
وقد بدأ الاهتمام بنظام البريد منذ عهد عمادالدين زنكي في الموصل
حيث طرأ تقدم واضح في هذا النظام لا سيما بعد الذي أصابه من
الاضطراب أثر الحروب التي نشبت بين السلاجقة (٤٩) ، وكان
هؤلاء قد اقتصروا على الخيل والبغال في نقل البريد (٥٠) .

واستخدم الاتابكيون نوعاً من الحمام كان يطلق عليه اسم
«الحمام الهوادي» (٥١) يرسل في حالة ما إذا تعرضت الطرق لخطر
للصوص فيأخذ الناس حذرهم (٥٢) ، كما استخدم نوع آخر منه في
نقل الرسائل بسرعة وانتظام بين مدينة وأخرى (٥٣) . وقد أشار
ابن الاثير الى أنه كان في كل ثغر من ثغور الدولة الاتابية في الشام
والعراق رجال يقومون بتربية عدد معين من الحمام يستخدمونه في
البريد ، ففي كل مدينة ينقل الحمام الرسائل الى المدينة المجاورة
لها ولا يتعداها لمدينة أخرى (٥٤) .

وذكر القلقشندي ان ملوك الاتابكة أعدوا لنقل البريد الخيول
والنجب أي الجمال السريعة العدو التي هي أسرع من الخيل واصبر
على السير منها وكذلك الرجال العدائين (٥٥) الذين كانوا يقطعون

(٤٨) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٢٩ . وأنظر أيضاً : الفصل الخامس - النشاط التجاري والنظام
النقدي - .

(٤٩) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ٢٧٤ .

(٥٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٦٩-٣٧٠ .

(٥١) ابن الاثير : الباهر ص ١٧١ .

(٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

(٥٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٥٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٥٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٧ .

مسافات بعيدة مشيا على الاقدام ، كل ذلك اتخذه الاتابكة لاتساع
مملكتهم وترامي أطرافها(٥٦) . والجدير بالذكر ان الحمام الذي
عرف استخدامه في بلاد مصر والشام في هذه الفترة وما أعقبها ،
كان قد نقل عن الموصل «وأن أول من اعتنى به من الملوك ونقله
من الموصل هو نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي عام
٥٦٥ هـ»(٥٧) .

وقد سار الاراتقة على نفس النظام الذي اتبعه الاتابكيون في
البريد فكانت لهم الخيول والنجب لنقل ما يستجد بين مدنها . كما
أمنوا الطرق الرئيسية التي تصل بين المدن وفروعها ، ووضعوا لها
الخفراء والرجال الذين يقومون بحراستها ، فضلا عن اقامتهم
للخانات والابراج ومحطات القوافل التجارية(٥٨) .

ب - القضاء :

اهتم الاتابكيون والاراتقة بالقضاء وبيعض المناصب التي
كانت ترتبط به كالقاضي والخطيب والمفتي . فقد أشار ابن الاثير
الى أن الأتابكيين كانوا «يجلسون بدار العدل للانصاف والاشراف
والأخذ من الاقوياء للضعفاء»(٥٩) وكانوا يحكمون بما تقضي به
الشريعة الاسلامية فيأمرون القاضي بتدوين اللوائح ضد الاشخاص
الذين يدانسون ويكتابة الاثبات لاصحاب الحق والاشهاد على
الجميع(٦٠) .

(٥٦) القلقشندي : نفس المرجع السابق ج٤ ص ٣٧ ، ابن الاثير : الباهر ص
١٥٩ .

(٥٧) القلقشندي : نفس المرجع السابق ج٤ ص ٣٩٠ .

(٥٨) انظر - الفصل الخامس - النشاط التجاري والنظام النقدي - .

(٥٩) ابن الاثير : الباهر ص ٢٠٣ .

(٦٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٨٨ .

حظيت وظيفه القاضي ، وهي من الوظائف الجليلة التي ذكرها القلقشندي ضمن أرباب الوظائف الدينية ، باهتمام كبير لدى الاتابكة ، فكانوا يقلدون هذا المنصب لمن يرغبون أو يحجبوه عن آخرين وذلك على الرغم من أن قاضي القضاة في بغداد هو الذي كان يقوم بتعيين القضاة في امارات الجزيرة الفراتية في هذه الفترة (٦١) .

وكان القاضي يقوم بالفصل بين الخصوم وحل المنازعات ، واصدار الأحكام بمقتضى الشريعة الاسلامية (٦٢) ، وكان له عدد من العدول يختارهم بنفسه من بين الاشخاص المعروفين بالتقوى وحسن الخلق ، حيث يقومون بمساعدته بالشهادة بين يديه أو تزكية الشهود (٦٣) وكثيرا ما كان القاضي يحتاج الى خدماتهم لمعاونته في مهمته (٦٤) .

(٦١) وموضوع قاضي القضاة «القيام بالاوامر الشرعية والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحديث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه ، وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرا وأجلها رتبة» القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٣٤-٣٥ .

(٦٢) ومن الواجبات الاخرى التي يمارسها القاضي الوصاية على اليتامى والمجانين والقاصرين وادارة المؤسسات الدينية وأمامة الناس في صلاة الجمعة وتعيين القضاة في الولايات والمدن التابعة للامارة (انظر : الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٥٣ ، وانظر أيضا : رشيد الجميلي : دولة الاتابكة ص ٢٤٦) .

(٦٣) ابن الاثير : الباهر ص ١٢٩ . وكان هؤلاء يؤلفون هيئة محترمة بين الناس يرشح أفرادها لتولى مناصب القضاء والحسبة وادارة الاوقاف وكثير من مناصب البلاط والادارة . انظر جعفر خصبك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٧١ .

(٦٤) ويطلق عليهم اسم «الشهود العدول» وكان القاضي يتصفح أحوالهم ويراقبهم ويعاقب من يسيء استعمال السلطة ، وكانوا يتولون أحيانا الفصل في المنازعات نيابة عن القاضي .

ويعقد «مجلس الحكم» (٦٥) في مكان معين للاجتماع بالمتخاصمين، وهو مكون من القاضي والشهود العدول والموقعين (٦٦)، ويرجح كذلك اشتراك صاحب الشرطة فيه، فينظرون في القضايا المعروضة بين أيديهم * وكانت الجوامع هي المكان الذي يعقد فيها مجلس الحكم في أغلب الأحيان * وكان قاضي الموصل أيام الاتابكة يسمى «الحاكم» (٦٧) ويقيم بدار العدل (٦٨) *

وأول من تقلد هذا المنصب في الموصل بهاء الدين أبوالحسن علي ابن الشهرزوري الذي عينه عماد الدين زنكي قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وقد أصبحت له منزلة كبيرة (٦٩)، كما تولى كمال الدين محمد بن الشهرزوري منصب قاضي قضاة الموصل في عهد سيف الدين غازي الأول ٥٤١-٥٤٤ هـ / ١١٤٦-١١٤٩ م غير أن هذا الأخير عزله واعتقله وفوض أمر القضاء في الموصل وأعمالها بعده إلى القاضي نجم الدين أبي علي الحسن بن بهاء الدين الشهرزوري (٧٠) * أما في عهد الاتابك عز الدين مسعود ٥٧٦-٥٨٩ هـ / ١١٨٠-١١٩٣ م فقد تولى القضاء أبو حامد بن القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي كانت له منزلة رفيعة لدى الاتابك (٧١) *

(٦٥) ابن الاثير : الباهر ص ٢١ ، ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٢٦٥-٢٦٦ *

(٦٦) لم تشر المراجع الى طبيعة عمل الموقعين ، والمعتقد بانهم يقومون بمهمة من ندعوهم الآن (بشهود الاثبات) أمام الحاكم *

(٦٧) ابن الاثير : الباهر ص ١٨٨ *

(٦٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٢٠٣ * وأشار الى أن الملوك الاتابكة كانوا يجلسون في دار العدل لمباشرة القضايا بأنفسهم *

(٦٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٥ *

(٧٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ص ٣٧٥-٣٧٦ *

(٧١) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج ٣ ص ٣٧٩ *

أما وظيفته «قاضي العسكر» التي كانت من الوظائف الدينية الجلية التي عرفت لدى المماليك وقدمت المصادر عنها معلومات جيدة (٧٢) فأننا لانجد في هذه المصادر ما يشير الى وجودها في أتابكيات الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري (٧٣) ومن المحتمل جدا ان قاضي المدينة ، كان يقوم بمقاضاة العسكر (٧٤) * ومن قضاة الموصل الذي مارس مقاضاة الجند ، عماد الدين محمد بن يونس الموصللي الذي تولى منصبه هذا في عهد الاتابك نورالدين أرسلان شاه بن مسعود ٥٨٩-٦٠٧ هـ / ١١٩٣-١٢١٠ م (٧٥) .

وكان للقضاة من عائلة بنى نباته خلال القرن السادس الهجري، منزلة رفيعة لدى الامراء الارائقة، ففي ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ولى ايلغازي بن ارتق صاحب امارة حصن كيفا ، علم الدين أبا الحسن بن نباتة ، قاضيا في مدينة ميفارقين (٧٦) ، كما ولى ابنه أبا الفتح رتبة قضاء ماردين ، حيث مكث فيها الى ما بعد منتصف القرن السادس الهجري (٧٧) * وممن تولى قضاء ماردين في أواخر هذا القرن، القاضي عبدالسلام المقدسي المارديني (٧٨)، كما ذكر القفطي أن والد هذا القاضي وهو عبدالرحمن المقدسي كان قاضيا على

-
- (٧٢) محمود بن محمد بن عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام (المطبعة الاهلية المصرية الحديثة - القاهرة) ص ٨٠ وجاء فيه (كان يحضر الى دار العدل مع القضاة ويسافر مع السلطان أثناء تنقله ويصاحب العسكر) .
- (٧٣) وأغلب الظن أن الارائقة اتخذوا قضاة العسكر خلفا للاتابكيين .
- القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ٣٦ .
- (٧٤) محمود بن عرنوس : نفس المرجع السابق ص ١٩٩ .
- (٧٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج٤ قسم ٢ ص ٨٥٦ .
- (٧٦) الفارقي : تاريخ آمد - مخطوطة - الورقة ١٠٢ أ ب .
- (٧٧) الفارقي : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٠٣ أ ب - ١٠٤ أ .
- (٧٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول .

ثانيسر (٧٩) • أما قاضي خرتبرت ، فكان الحكيم شمعون الخرتبرتي الذي اشتهر باتقان فن الخط العربي (٨٠) •

نظم الاراتقة القضاء في امارتهم ، فأوجدوا منصب قاضي القضاة وجعلوا مدينة مارددين مقرا له (٨١) • وكان الامير الارتقي هو الذي يعين قاضي القضاة مباشرة ويودعه صلاحيات كثيرة ، أهمها أن يتولى تعيين نواب له في المدن والمناطق التابعة (٨٢) للامارة ويراقب أعمالهم وتصرفاتهم فيكافئهم ويرقيهم أو ينقلهم أو يعزلهم • وخصص الاراتقة لقاضي القضاة ونوابه مرتبات كبيرة أو كانوا يقطعونهم اقطاعا (٨٣) • ويزاولون النظر في قضايا الأحوال الشخصية وممارسة القضايا المتعلقة بامامة المسلمين في الصلاة والاشراف على دار ضرب النقود (٨٤) والاقواق وأموال المواريث •

وتشير المراجع الى دور قاضي قضاة الاراتقة في الحياة السياسية ، حيث كان يقوم بالمفاوضات مع ممثلي الامارات والدول الاخرى ، وعقد الاحلاف ، فضلا عن نشاطه في مهمة السفارات (٨٥) •

ج - التقسيمات الادارية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن

-
- (٧٩) القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٨٩-١٩٠ •
(٨٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٤ •
(٨١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة - الورقة ١٣٥ أ ، مجهول : انسان العيون الورقة ٢٧٧-٢٧٨ •
(٨٢) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٩٠ •
(٨٣) مجهول : انسان العيون الورقة ٢٧٧-٢٧٨ •
(٨٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٩ ص ٣٤-٣٥ •
(٨٥) كما أسهم قاضي القضاة في تقرير الصفة الشرعية لامراء الاراتقة ، وتمنع بعضهم بصلاحيات القائد الاعلى للحرب والادارة والاشراف على الامور العمرانية • الفارقي : تاريخ آمد ، الورقة ١٣٨-١٣٩ ب ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - الورقة ١٣٥ أ •

السادس الهجري :

كانت السلطة التي منحها السلاجقة الى الامراء في الجزيرة الفراتية ، قد ساعدت على ظهور مجموعتين من الامارات ، الاولى الامارات المحلية التي كان يحكمها الامراء حكما وراثيا طويل المدى . والمجموعة الثانية هي امارات المدن التي استأثر بحكم كل منها أمير شبه مستقل ، وقد تميزت عن المجموعة الاولى بكون صاحبها لم يكن يملك الا حكم المدينة وحدها وما يحيط بها - أحيانا - من أراض ومناطق محدودة (٨٦) .

وقد سعى عماد الدين زنكي بعد توليه الموصل من قبل السلاجقة الى توحيد منطقة الجزيرة الفراتية في دولة موحدة ، وكانت الظروف آنذاك مواتية له لتحقيق هدفه هذا ، فقد بدا وكأنه يستهدف من وراء ذلك تعزيز الارتباط السياسي والاداري بالسلاجقة ، فاحتل أغلب المدن والقلاع والمناطق (٨٧) . وهدد الامارات الارتقية في الشمال الشرقي لبلاد الجزيرة الفراتية (٨٨) . كما بدأ باخضاع حصون الاكراد القريبة من

(٨٦) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٦٩ .

(٨٧) احتل مدينة جزيرة ابن عمر سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م . وهاجم سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م ، اربل التي كانت بمثابة الباب الشرقي الذي يصل امارات الجزيرة الفراتية ببلاد فارس والمشرق عامة وفي ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ضم مدينة الرقة اليه ثم سقطت بيده دقوقا سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م وشهرزور سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م والحديثة وعانة سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م . (أنظر الباب الثالث - العلاقات السياسية -) .

(٨٨) بدأ بامارة ماردين فأحتل نصيبين التابعة لها واتخذها قاعدة عسكرية سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م للهجوم على المناطق المجاورة . وفي ٥٣٧هـ / ١١٤٢م أخضع الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر وهي مدينة طنزة واسعد والمعدن وحيزان وحصن الزوق وفطليس وباتاسا وحصن ذي القرنين وانبرون ثم قام بترتيب أوضاعها الادارية ووضع في كل منها حامية عسكرية تدافع عنها . وفي ٥٣٩هـ / ١١٤٤م استولى على أكثر المناطق التابعة لامارة حصن



الموصل (٨٩) •

وهكذا تمكن عماد الدين زنكي الى حد ما ، من جمع معظم بلاد الجزيرة وبعض مدن الشام فيما عدا قواعد الامارات الارتقية وامارة أربل في ظل حكومة واحدة اتبعت أسلوب الادارة المركزية الشديدة في الحكم حيث ارتبطت بسلطته التي غدت أمرا لا مفر منه ، ومما زاد في تشديد المركزية في الادارة ، ضعف الادارة السلجوقية وانحلال اسرتهم وتدهورهم من جهة وازدياد نفوذ عماد الدين زنكي الذي كان على رأس السلطة في تلك المناطق من جهة أخرى •

يتضح من ذلك أن المناطق التي تؤلف الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري أصبحت مكونة من الاقسام الادارية الآتية :
أولا : الامارات المحلية التي كانت تتألف من أكثر من مدينة أو قرية أو منطقة واحدة ، ترتبط كل منها بالمدينة الرئيسة التي تديرها وفيها مقر الأمير أو النائب أو الحاشية والموظفين وأرباب الدولة والجيش ، كما أن فيها المؤسسات الحكومية والادارية • وتمثل هذه الامارات في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، الامارات الاتابية والامارات الارتقية •

كيفاً وهي حاني وارقنتين وحيرموك وبالمرقتين • ولكن على الرغم من ذلك لم يستطع أن ينهي الوجود الارتقي في المنطقة • انظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٨٥-٩٨ •

(٨٩) هاجم مدينة العقير وقلعة الشوشى ثم قلعت آشب • وفي ٥٣٧هـ / ١١٤٢م استولى على قلعة كواشي شرقي نهر دجلة والزعفراني والشعباني والربية وفرح وسروة وبلاد الزوزان وبذلك استطاع أن يضع يده على أكثر ممتلكات الاكراد وقواعدهم المهمة ويخضعها لسيطرته في فترة قصيرة •
انظر : عماد الدين خليل : نفس المرجع السابق ص ١٠١-١١٦ •

ثانيا : امارات المدن التي لا تتعدى حدود المدينة والمناطق المجاورة
أحيانا وكانت تدار بصورة مباشرة من الامير وأعوانه من
الموظفين ، وتغلب على ادارتها الادارة العسكرية .

ثالثا : مدن الاكراد (٩٠) وقلاعهم وحصونهم ، التي كانت تتوزع في
مناطق تضم قبائلهم وطوائفهم وقد انقسموا الى قسمين -
الاول لم يكن يخضع لسلطة منظمة وهو يتألف من الافراد
والقبائل (٩١) . أما الثاني - فهي الامارات التي تختلف في
نظمها وأحجامها ، فمنها الواسعة ، التي كانت تحكم بالوراثة ،
ومنها الصغيرة وهي التي ينفرد وتنضع لحكم الامير
الاقوي (٩٢) .

وتجدر الاشارة الى ما ذكرته المراجع من كلمات ، القصة
والضياع والاعمال والولاية ، وهي اصطلاحات وردت بما يفيد
انها تقسيمات ادارية شاعت في بلاد الجزيرة الفراتية . وقد

(٩٠) كان الاكراد في القرن السادس الهجري ينقسمون الى القبائل والطوائف
ومن أهمها : الجوزقان والزوم والدر والجلالية والجويبية والداسنية
والكورانية والهدبانية والبشنية والشاهنجانية والرجية واليزولية
والمهرانية والزرزارية والكيكانية والجاك والدنبلية والرواوية والهكارية
والحميدية والوركجية والمروانية والشنبكة : ياقوت : معجم البلدان ج١
ص ٤٧٧ ، ج ٢ ص ١٥١-٢٧٧-٥٣٨-٩٥٩-٩٦٠ ، ج ٤ ص ٣٥٥ .

وانظر أيضا المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ١-٤ وقد عدد
القلقشندي عشرين طائفة من الاكراد موضعا مناطق كل من هذه الطوائف
وعدد محاربيها وذكر كذلك خمسا وفشرين موضعا اخر يقطنها الاكراد
الذين كانوا يتخذون القلاع مراكز ينطلقون منها . صبيح الاعشى ج ٤
ص ٣٧٣-٣٧٩ . وانظر أيضا : عن الطوائف الكردية في الفترة التي سبقت
القرن السادس الهجري : المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٣-٣٥٤ ،
مسكويه : تجارب الامم ج ٦ ص ١٧٩ .

(٩١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٠ .

(٩٢) راجع عن الاكراد وتاريخهم : شرف خان البدليسي : شرفنامه ثم محمد
امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان وتاريخ الدول والامارات
الكردية في العهد الاسلامي .

ترددت في المراجع منذ القرن الرابع الهجري وخلال القرون التالية -
فالقصبية على ما يبدو ، هي المدينة الرئيسة التي تدير مدناً
ومناطق . ذكر الاصطخري ، ان الشفور لا قصبية لها وكل مدينة
قائمة بنفسها (٩٣) مما يدل على ان المدن الاخرى التي لها قصبية لا
يمكن أن تنفرد هي بآدارة شؤونها العامة بل تستمد ذلك من
قصبيتها . وقد اشار ابن حوقل الى التفريق بين القصبية والضياح
التابعة لها من حيث متحصلاتها من الموارد المالية (٩٤) وأكد المقدسي ،
ان القصبية هي مركز المنطقة بقوله : «وأما ديار بكر فقصبيتها
الركة ، ومن مدنها المحترقة والرافقة» (٩٥) وخلال القرن السادس
الهجري ، ذكر ياقوت ، ان مدينة حران هي قصبية ديار مضر (٩٦) .

أما الاعمال ، فقد وردت في أغلب المراجع ، وتعنى كل ما يدخل
ضمن منطقة الامارة من مدن وممتلكات وقلاع ومزارع وارض
وغيرها . وجاء عن الولاية ، انها هي الامارة أو المدينة التي كان
السلاجقة يقرون توليتها الى الاتابكة أو الاراتقة أو لغيرهم ، أو ان
هؤلاء أنفسهم كانوا يولونها الى أمرائهم وقوادهم .

ان دراسة التقسيمات الادارية التي كان يسير عليها الأيوبيون
والمماليك - من بعدهم - في مصر وبلاد الشام (٩٧) ، لا توضح ما كان

(٩٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٦٧ .

(٩٤) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٩٣-١٩٤ .

(٩٥) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٠-٢٣١ .

(٩٦) ابوالفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٧ .

(٩٧) وهي تقسيم دولتهم الى أقاليم أو نيابات تضم كل منها مجموعة من المدن
والحصون حيث كان النائب هو المسؤول الاعلى في نيابته وممثل السلطان
الشخصي الذي يرتبط به ويتلقى الاوامر منه ، كما كان السلطان يعين نوابا
آخرين على القلاع فيصدر مرسوما سلطانيا يكتب بديوان الانشاء . وكان
نائب المدينة أو القلعة مستقلا في معظم الاحيان عن نائب السلطنة في الاقليم ،
وهو يتبع الحكومة المركزية بصورة مباشرة . وان من أهم واجبات نائب



عليه الوضع الاداري في امارات الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، والسبب يعزى الى عدم الاستقرار السياسي ونشوب الحروب ووجود المشكلات التي كانت تحول دون اتاحة المجال لاجراء الاصلاحات الادارية وفق تنظيم معين ، وكان يكتفي الامير أو الاتابك بتعيين من يثق به على المدينة أو الموقع ، وكانت المدن والقلاع المفتوحة تقطع في أحيان كثيرة لبعض القواد والمقربين مما لا يوفر كذلك مجالا لادخال الاصلاحات المذكورة (٩٨) .

ويلاحظ أن كثيرا من الاصول الادارية الايوبية والمملوكية ، قد ساد العمل بها في امارات الجزيرة الفراتية خلال القرن السابع الهجري والقرون التالية .

د - المحتسب :

وهو صاحب وظيفة «الحسبة» وموضوعها هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة المعاش والمصنائع والاخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشتة وصناعته» (٩٩) وكانت واجباتها مهمة ، تقابل على أقرب تقدير الكثير مما تقوم به في عصرنا الحالي مؤسسات الشؤون الاجتماعية والصحية والبلديات (١٠٠) .

القلعة فضلا عما سبق ان يتولى حفظ القلعة وصونها ، ولا يسلم مفتاحها لاحد الا لمن يتولاها مكانه ، أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له ، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٨٥ وهذا التقسيم الاداري كان في مناطق بلاد الشام ، أما في مصر ، فكانت الادارة المحلية تتمثل في الوالي ، حيث كان يشرف على كل مجموعة من الاعمال فئة من الموظفين وعلى رأسهم والي الاقليم الذي كانت مهمته الاولى العمل على استتباب الامن والنظام واشاعة الطمأنينة بين الناس والمحافظة على أموالهم وأرواحهم . انظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ٢٤٧ ، علي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ الممالك البحرية (القاهرة ١٩٤٨ الطبعة الثانية) ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٩٨) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ٢٤٧ .

(٩٩) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٣٧ .

(١٠٠) جعفر خصبك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٧٢ .

وقد أخذ أمراء الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، بنظام الحسبة وطبقوه في اماراتهم ، كما هو متبع في البلاد الاسلامية . ففي الاتابكيات كان القاضي ، يجمع ما بين القضاء والحسبة ، كما تدل الاشارات القليلة المتوفرة على ان هناك محتسبين مستقلين بوظائفهم لا يخضعون فيها للقضاة في أغلب المدن والامارات .

ويبدو ان عرفاء الاسواق هم محتسبون أشار اليهم ابن الاثير في الموصل (١٠١) حيث كانوا يقومون بالمهام نفسها التي كانت للمحتسبين ، وقد وجد عرفاء الاسواق في كل مدينة وقرية فيها أسواق على أقرب احتمال .

غير أن عدم وجود خطوط واضحة للتخصص بين الوظائف الادارية عموما في اتابكيات الجزيرة الفراتية ، جعل من غير الممكن تحديد سلطة هذه الوظائف ومنها وظيفة المحتسب ، وخاصة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري . وان أغلب الوظائف يتوقف اثنائها الى حد كبير ، على شخصية من يشغلها وكثيرا ما يطغى اختصاص موظف يتمتع بالقوة والنفوذ على اختصاص غيره ، مما لا يجعل هناك حدودا واضحة بين الوظيفتين .

أما دور المحتسب في الامارات الارتقية ، فيبدو أكثر وضوحا ، فقد أوجد «الاراتقة محتسبا في كل بلد من بلدانهم» (١٠٢) فكان ينظر في الامور المتعلقة بالنظام العام وفي الجنايات وحسمها عن طريق السرعة ومراقبة مراعاة الآداب العامة وتطبيق أحكام الشرع وتفتيش الاسواق والمؤسسات التجارية والاشراف عليها والاطلاع على المرافق التي تحتاج الى اعمار واصلاح (١٠٣) .

(١٠١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٩٠ .

(١٠٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢٥ ، الفارقي : تاريخ آمد ، الورقة ١١٣٨ - ١٣٨ ب .

(١٠٣) المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٦٤ ٤٠ .

كما كان يؤدي دورا مهما في ضبط الامن الداخلي والمحافظة عليه و «تسكين الناس» خلال فترات الاضطراب وحوادث العصيان والثورات أو عند وفاة الامير * ويشير الفارقي الى دور المحتسب في سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م عندما ساد الاضطراب بين أهالي ميفارقين. لوفاة الامير حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، حيث ركب المحتسب وتوجه مسرعا اليهم وسكنهم «فأطمأنسوا وطابت نفوسهم» (١٠٤) وأشار القلقشندي الى وجود نواب للمحتسب، يطوفون الاسواق والمحلات العامة ويساعدون في تنفيذ تعليماته (١٠٥) من المحتمل جدا ان مثل هؤلاء النواب موجودون في مدن الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري *

(١٠٤) الفارقي : تاريخ آمد - مخطوطة - الورقة ١٢٨ - ١٣٨ ب *

(١٠٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٧ ، ١٩٣ ، انظر : علي ابراهيم حسن ،
الماليك البحرية ص ٣٠٤-٣٠٥ *

الباب الثالث

العلاقات والنظم السياسية

والعسكرية

الفصل الأول

العلاقات السياسية

- ١ - العلاقات بين اتابكية الموصل والامارات الارتقية .
- ٢ - الدور السياسي للأكراد في منطقة الجزيرة خلال القرن السادس الهجري .
- ٣ - العلاقات مع بلاد الشام :
 - أ - حلب .
 - ب - دمشق .
- ٤ - أمراء الجزيرة الفراتية والصليبيون .
- ٥ - العلاقات بين صلاح الدين الأيوبي وأمراء الجزيرة الفراتية .
- ٦ - موقف الأراتقة من الصليبيين .

الفصل الأول

العلاقات السياسية

شهدت منطقة الجزيرة الفراتية ، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، عددا من الامارات المحلية ، تمثلت في الموصل وماردين وحصن كيفا وميافارقين(١) ، كما قام الى جانبها عدد آخر من امارات المدن، التي استأثر بحكم كل منها أمير شبه مستقل، وكان من أهمها ، حران والرقعة وجزيرة ابن عمر وسنجار وأربل والحديثة وعانة وتكريت وداقوقا وقلعة جعبر(٢) وتقاسم هذه الامارات . الحكام المعروفون بالاتبكة(٣) والاراتقة(٤) ، حيث أتاح الجو

(١) انظر مواقعها على الخارطة .

(٢) انظر مواقعها على الخارطة .

(٣) كانوا في الاصل مربين لاولاد السلاجقة ، فاقطعواهم بعض بلاد الجزيرة الفراتية .

(٤) ينتمي هؤلاء الى (ارتق بن اكسك) أحد ممالك السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥-٤٧٥هـ) وقد اقطعه السلاجقة القدس ، وعند وفاته انتقلت الى ولديه مع بعض القلاع الجزرية كالرها وسروج . وقد اتجه ولده سقمان الى الرها بعد استيلاء الفاطميين على القدس - واستطاع الاستيلاء على حصن كيفا وماردين ونصيبين وشكل منها امارة محلية حتى سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م حيث أقام داود بن سقمان امارة حصن كيفا ، واستمرت هذه العائلة تحكم المنطقة حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، انظر : ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (طبعة بيروت مجلدة ص ٤٦١-٤٦٩) .

المضطرب المتمثل بتدهور النظام السلجوقي وتفكك دولتهم وضعف بعض السلاطين وانحلال اسرة السلاجقة ، فضلا عن عوامل القلق والاضطراب السياسي العام ، كل ذلك أسهم بآتاحة الفرصة لهؤلاء الأمراء المحليين فاستقل كل بما تحت يده ، وعمل على توسيع نفوذه وبسط سلطانه الى ما وراء حدود امارته ، ان استطاع ، على حساب جيرانه من أمثاله من الامراء الطامعين الضعفاء ، وقد تركزت هذه الامارات حول الموصل وانطاكية والرها وحلب ودمشق والقدس وغيرها من الامارات التي لم تكن لها حدود ثابتة دائمة (٥) .

وقد كانت امارة الموصل احدى الامارات التي ظهرت نتيجة هذه التطورات السياسية ، وقدر لهذه الامارة أن تلعب دورا حاسما في النشاط السياسي والعسكري الذي غمر المنطقة طيلة القرن السادس الهجري . وتولى امارة الموصل الاتابك عمادالدين زنكي ابن آقسنقر بن عبدالله التركي (٥٢١-٥٤١هـ / ١١١٨-١١٤٦م) (٦) الذي أعاد تنظيم أمورها الادارية والعسكرية ، ثم قاد عساكره فاحتل أكثر مدن الجزيرة الفراتية الواحدة تلو الاخرى ، فابتدأ بمدينة جزيرة ابن عمر سنة ٥٢١هـ / ١١١٨م التي كان يحكمها اذ ذاك أحد مماليك عزالدين مسعود بن البرسقي ، حيث استطاع عمادالدين زنكي الدخول الى المدينة بعد تشديد الحصار عليها فاحتلها وضمها الى ولايته (٧) . كما استولى على سنجار سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م (٨) ، وهاجم مدينة أربل سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م وقد كانت

-
- (٥) انظر : الدكتور محمد حلمي محمد احمد : مقدمته لكتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية لابي شامة الدمشقي ج١ قسم ١ ص ١-٣ .
- (٦) عندما تسلم عمادالدين زنكي الموصل ، وجهه اليه السلطان السلجوقي محمود ، ولديه (ألب أرسلان وفروخ شاه) ليربيهما ، ولهذا قيل لعمادالدين زنكي ، أتابك ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ١١٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات (النشريات الاسلامية - الهند) ج٨ ص ٨٨ .
- (٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٦ ، الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٤٦ .
- (٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٧ ، نفس المرجع السابق ص ٢٤٧ .

من ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان اذربيجان حيث أدرك عماد الدين زنكي أهميتها العسكرية بالنسبة للموصل فهي بمثابة الباب نحو الشرق الاسلامي ، وقد تم له اخضاعها فتسلمها وعين فيها نائبا عنه (١٠) ، واحتل مدينة الرقة بمكيدة دبرها (١١) . وفي ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م تمكن بعد قتال شديد من الاستيلاء على مدينة داقوق الواقعة بين أربل وبغداد (١٢) . وبعد ثلاثة أعوام قرر الاستيلاء على قلعة شهرزور الواقعة في سهل شهرزور الممتد بين أربل وهمدان (١٣) ، واستطاع في ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م توسيع حدود امارته نحو الجنوب فاستولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات ، وبعد مرور عامين أرسل جيشا الى مدينة عانة القريبة منها واستولى عليها (١٤) .

وفي أواخر ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، توجه عماد الدين زنكي الى قلعة جعبر المطلة على الفرات في محاولة للاستيلاء عليها غير ان قواته لم تستطع احتلال القلعة فاستمر القتال حتى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ،

(٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٧ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة قسم الجزيرة) الورقة ١٧ أ - ١٨ أ .

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج ١ ص ٩٧ .

(١١) تظاهر عماد الدين زنكي عند اقترابه من الرقة بأنه يريد الاستحمام في حمام البلد فقام حاجبه باحضار مسيب بن مالك صاحب الرقة وقال له : «زنكي يشتهي الدخول في الحمام وهذه خمسمائة دينار أعمل بها دعوة ، فلم يشك مسيب بنوايا زنكي ، فأقام الدعوة وسمح لهم بدخول المدينة وعندما انتشروا فيها ، أمر عماد الدين زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة» . انظر ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٦٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٥٧ .

(١٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٧١ .

(١٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣١ ، الباهر : ص ٥٧-٥٨ .

(١٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج ١٠ ص ١٠٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٦ .

حيث اغتيل عمادالدين زنكي فاضطرب جيشه واضطر الى الانسحاب (١٥) .

١ - العلاقات بين أتابكية الموصل والامارات الارتقية :

اتسمت تلك العلاقات بالسياسة التوسعية التي كان ينتهجها عمادالدين زنكي فكان يستهدف من نشاطه العسكري منذ توليه اماره الموصل ، اخضاع الامارات الارتقية الى امارته ، ففي ٥٢٣هـ / ١٢٨١م تقدمت قواته نحو نصيبين التابعة للاراتقة ، الذين كانوا يتركزون في امارات ثلاث ، هي اماره حصن كيفا ٤٩٥-٦٢٩هـ / ١١٠١-١٢٣١م والامارة الثانية في خربتبرت ٥٨١-٦٦٠هـ / ١٨٥-١٢٦١م ، والثالثة اماره ماردين ٥٠٠-٨٠٩هـ / ١١٠٦-١٤٠٦م فاستنجد صاحب نصيبين حسامالدين تمرتاش الارتقي ٥١٦-٥٤٧هـ / ١١٢٢-١١٥٢م بابن عمه ركن الدولة داود ، حاكم اماره حصن كيفا لصد قوات عمادالدين زنكي ، ولكن عمادالدين استطاع احتلال المدينة (١٦) واتخاذها منطلقا للهجوم على المواقع المجاورة .

واشار ابن الاثير الى طبيعة العلاقات السياسية بين الامراء الاراتقة وعمادالدين زنكي بعد احتلال عمادالدين لمدينة نصيبين ، فذكر التحالف الذي عقد بين حسامالدين تمرتاش حاكم اماره ماردين وركن الدولة داود حاكم اماره حصن كيفا وسعد الدولة

(١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤-٢٨٥ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٤ ، الباهر ص ٧٣-٧٤ .

(١٦) غير عمادالدين زنكي مضمون الرسالة التي بعثها حاكم اماره ماردين الى أهالي مدينة نصيبين وحاميتهم في حثهم على الصمود ، ريشما تصلهم النجدة الارتقية خلال خمسة أيام ، فأمر عمادالدين زنكي بكتابة رسالة اخرى تتضمن حثهم على الصمود لمدة عشرين يوما ، ولكن أهل نصيبين عجزوا عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة فسلموا الى عمادالدين زنكي ودخلت جيوشه المدينة . ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ ، الباهر ص ٣٦-٣٧ .

ايكلدي صاحب آمد وعدد كبير من تركمان المنطقة وقرروا تكوين جيش قوامه عشرين ألف مقاتل ، لمواجهة الخطر الذي بات يهدد اماراتهم . وقد التقى جيش عمادالدين زنكي بجيوشهم ودارت معركة شديدة أسفرت عن هزيمة الجيوش المتحالفة (١٧) .

وعلى الرغم من انتصارات عمادالدين زنكي وحصوله على بعض المدن والقلاع ، فقد ادرك مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين هؤلاء الامراء ضد اطماعه في المنطقة ، فاتجه الى استمالة حسام الدين تمرتاش حاكم اماره مارددين لتكوين حلف معه (١٨) مستهدفا تقويض حلف الاراتقة من جهة والاستعانة به ضد الآخرين من جهة أخرى . وانطلق الحليفان يوسعان من هجماتهم ضد حصن آمد ، التي صمدت بوجه الغزاة ، ففرض عليها الحصار ، ثم عمدت قوات الحليفين الى تخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة (١٩) ، واتجها بعد ذلك الى قلعة صور في بلاد الشام فاستسلمت لهما (٢٠) . على أن شقة الخلاف اتسعت بين حسام الدين تمرتاش أمير مارددين وابن عمه ركن الدولة داود حاكم اماره حصن كيفا من جهة ، وازداد تحالف عمادالدين زنكي صاحب الموصل وأمير مارددين من جهة أخرى ، وقد أدى ذلك الى تشديد هجمات عمادالدين وحسام الدين تمرتاش المشتركة على مناطق منها جبل جورا والسيوان واستيلائهم عليهما ، الامر الذي جعل قرا أرسلان بن داود ينسحب الى قاعدة أبيه ركن الدولة داود في حصن كيفا ، معرضا ولايته للخطر (٢١) . وكان عدم الاتفاق بين عمادالدين زنكي وحليفه حسام الدين تمرتاش ،

(١٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٥٣ ، التاريخ الباهر ص ٣٨-٣٩ .

(١٨) الفارقي : تاريخ آمد وميفارقين (المخطوطة - الورقة ١٢١ أ) .

(١٩) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٥٣ ، ابن شداد :

الاعلاق الخطيرة : قسم الجزيرة (مخطوطة) الورقة ١٣٤ ب .

(٢٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ

ج ١١ ص ٢٥ .

(٢١) الفارقي : تاريخ آمد وميفارقين (المخطوطة) الورقة ١٢١ ب - ١٢٢ أ .

وخاصة فيما يتعلق بتوزيع الحصص والممتلكات التي افتتحتها
سوية سببا رئيسيا في تدهور العلاقة بين الطرفين ، ولكن مجرى
الاحداث في المنطقة ساعد على اعادة العلاقات بينهما من جديد حيث
أن خلافات قد نشبت بين الامراء الاراتقة أنفسهم (٢٢) . وكان لعودة
التحالف بين أميري الموصل وماردين أثره السيئ لدى ركن الدولة
داود أمير حصن كيفا ، فأغار سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م على ميفارقين
ونهب أطرافها وفرض الحصار عليها ، ولكنه لم يستطع احتلالها (٢٣)
وقد سارع عماد الدين زنكي لنجدة حليفه فالتقى بجيوش قرا أرسلان
ابن داود صاحب حصن كيفا كي يشغله عن التضييق على اماره
حليفه حسام الدين تمر تاش . وقد انتهت المعركة بانتصار عماد
الدين زنكي واستيلائه على قلعة بهمر (٢٤) .

ويمكن القول على ضوء ما جاء به الفارقي ، ان الاراتقة
ادركو بأن الخلاف بينهم لن يفيد أيا منهم بقدر ما يعود بالمكاسب
على عماد الدين زنكي واستغلاله لصالحه وبالتالي اضعاف قواهم
جميعا ، لذلك عقدوا صلحا بينهم لوقف اطماع عماد الدين زنكي في
المنطقة (٢٥) .

وقد اغضب هذا الصلح عماد الدين زنكي ، فسمى الى اتخاذ
اجراءات سياسية لاكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة ،
فأرسل الى سعد الدولة ايكليدي صاحب آمد يتهدده ان استمر في ولائه
لامير حصن كيفا فانحاز هذا الاخير الى جانب عماد الدين زنكي (٢٦) .
ثم عقد صاحب الموصل صلحا مع داود بن سقمان صاحب حصن

-
- (٢٢) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ٢١١ب - ١٢٢أ .
(٢٣) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢١أ - ١٢٢ب .
(٢٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٢ .
(٢٥) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٢أ - ١٢٢ب .
(٢٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٦-٣٧ ، التاريخ الباهر ص ٦٤ .

كيفاً (٢٧) ويبدو أن هذه التطورات قد أرغمت حسام الدين تمرتاش على العودة الى موالة عماد الدين زنكي .

غير ان علاقات صاحبي الموصل وماردين أخذ يشوبها الجفاء في ٥٣٧هـ / ١١٤٢م على أثر التواطؤ الذي أقدم عليه شرف الدين حبشي وزير صاحب ماردين بتسليم مدينة ميفارقين التي كان يحكمها بالنيابة الى عماد الدين زنكي ، وقد فشلت الخطة واغتيل الوزير (٢٨) فاضطربت جيوش عماد الدين زنكي التي كانت تعسكر على مقربة من المدينة (٢٩) .

وشهدت منطقة الجزيرة الفراتية سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م تحركات عسكرية واسعة النطاق اثارها عماد الدين زنكي ، ضد اماره حصن كيفا الارتقية ، وذلك بعد وفاة أميرها داود بن سقمان وتولى ابنه فخر الدين قرا أرسلان الذي لم يكن يتمتع كأبيه بمقدرة سياسية أو عسكرية (٣٠) . وقد أدت هذه العمليات العسكرية وغيرها من محاولات عماد الدين زنكي المتمثلة بمهاجمة مدينة ميفارقين

-
- (٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٢٧٦ .
(٢٨) وتتلخص الخطة ، ان حسام الدين تمرتاش صاحب اماره ماردين أرسل وفد الى الموصل برئاسة وزيره شرف الدين حبشي (وكان هذا قد ولي الوزارة سنة ٥٢٨هـ وقد بلغ منزلة رفيعة غير أنه وصف بالظلم والعسف) لاجراء مفاوضات مع عماد الدين زنكي حول العلاقات بين الطرفين - وأثناء المفاوضات استطاع عماد الدين زنكي أن يحصل من الوزير على وعد بتسليم مدينة ميفارقين في وقت يحدده . ولكن الخطة اكتشفت واتفق رجالان من أعيان المدينة على اغتيال حبشي وانهاء الخطر المحدق بميفارقين . انظر : الفارقي : تاريخ آمد وميفارقين (المخطوطة) الورقة ١٠٩ب - ١١٠أ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (المخطوطة) الورقة ١٠٤أ - ١٠٥أ .
(٢٩) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٢ب - ١٢٣ب ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٤أ - ١٥٠أ .
(٣٠) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٢ب - ١٢٣ب ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٤أ - ١٠٥أ .

واستيلائه على قلعتي جور والسيوان ، الى تعميق خلافاته مع حسام الدين تمر تاش حاكم اماره مارددين الارتقية (٣١) .

وتشهد العلاقات السياسية تطورا بين أتابكية الموصل و اماره أرمينية التي ضمت اليها مدينتي خلاط وميافارقين سنة ٥٠٥هـ - ٦٠٤هـ (٣٢) ، حيث توطدت العلاقات بينهما ، وقد بلغ من حرص عمادالدين زنكي على ابقاء العلاقات الطيبة مع سكرمان القطبي صاحب أرمينية ، انه كان يحذر حكام المنطقة وأصحاب الاطراف من التحرش بهذه الامارة واستعداده للدفاع عنها في حالة تعرضها لخطر ما ، واستمر عمادالدين زنكي على سياسته تجاهها والتي اثمرت بعدم التعرض لها ، حتى بعد أن تولت زوجة سكرمان القطبي الامارة بعد وفاة زوجها (٣٣) .

أما علاقات اتابكية الموصل مع اماره بدليس وهي احدى امارات المدن في بلاد الجزيرة (٣٤) فكانت تتسم بتدخل عمادالدين زنكي في شؤونها وعزلها وفرض الاموال (٣٥) على حسام الدين بن دلماج صاحب اماره بدليس مقابل حماية عمادالدين زنكي لامارته من اطماع الآخرين .

(٣١) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٣ب-١٢٤ب ، ١٢٨ب-١٢٩ب ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٤-١٠٥ .

(٣٢) كان سكرمان القطبي صاحب أرمينية مولى لاحد أمراء السلاجقة، وقد اقطعت له مدينة خلاط فاتخذها قاعدة لامارته وضم اليها مدينة ميافارقين بتأييد من سكانها ، وعند وفاته ، تولت زوجته الامارة حتى سنة ٦٠٤هـ حيث استولى الايوبيين على أملاكها (ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر - مجلد ص ٣٧٣-٣٨١) .

(٣٣) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٨٨-٨٩ .
(٣٤) ابن منقذ : نفس المرجع السابق ص ٨٨ .
(٣٥) ابن منقذ : نفس المرجع السابق ص ٨٩ .

٢ - الدور السياسي للاكراد في منطقة الجزيرة خلال القرن السادس الهجري :

انقسم الاكراد في هذه الفترة الى عدة قبائل وطوائف (٣٦) ، فمنهم من كان يستوطن المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية لبلاد الجزيرة الفراتية ولم يخضع لسلطة منظمة ، شأنهم في ذلك ، شأن بعض القبائل العربية وبعض طوائف التركمان الذين لم يكن لهم استيطان محدد ، والقسم الآخر استطاع ان يشكل عددا من الامارات بعضها ضم مناطق واسعة ، كان يحكمها الامراء بالوراثة ، وبعضها الآخر امارات مدن صغيرة (٣٧) .

ومن حصون الاكراد القريبة من الموصل عقر الحميدية (٣٨) والشوش (٣٩) ، وعلى الرغم من عدم تقديم المراجع المتوفرة لدينا ، معلومات مفصلة عن نشاطهم السياسي في هذه الفترة ، ولكن ورد ما يفيد بأن الامير عيسى الحميدي كان يحكم هذه الطائفة الكردية التي اتخذت لها عددا من الحصون المنيعة ، وكانوا يقومون بالاغارة بين حين وآخر على اعمال الموصل فينهبون القرى والمزارع (٤٠) .

وأشار ابن الاثير الى طبيعة العلاقات السائدة بين كل من الامير الكردي عيسى الحميدي وعماد الدين زنكي صاحب الموصل والخليفة

-
- (٣٦) انظر الباب الاول : الفصل الاول - السكان والمدن - .
(٣٧) انظر ما جاء عن الامارات الكردية : شرف خان البديسي : شرفنامه ، محمد أمين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكوردستان ، تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي . وقد جاء تقسيم الامارات في هذا الكتاب الاخير الى قسمين الاول (١٤ دولة) والثاني في مناطق الجبال والجزيرة ودياربكر والشام ولبنان وعددها (٣٥) امارا .
(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٦٩٦ ، ابوالفداء : تقويم البلدان ص ٢٧٤ .
(٣٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٣ ص ٣٣٤ ، ابوالفداء : نفس المرجع السابق ص ٢٧٤ .
(٤٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص ٥ ، الباهر ص ٤٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج١ ص ٥٥ .

العباسي المسترشد بالله ، فذكر في ٥٣٧هـ / ١١٤٢م ان عمادالدين زنكي قرأ أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته «ولم يعترضه بشيء مما في يده» (٤١)، ولكن تأييد هذا الأمير للخليفة المسترشد بالله في حصاره لمدينة الموصل لانتزاعها من عمادالدين زنكي جعل هذا الأخير ينشط في حصار قلاعهم ووصل الى قلعة العقر «وصعد في جبلها المرتفع الى سورها فوصلت طعنته اليه» (٤٢)، ثم استطاع الاستيلاء على قلاعهم ، أما أبو الهيجاء الهكاري صاحب قلعة آشب القريبة من قلاع الحميدية فقد أعلن طاعته (٤٣)، لعمادالدين زنكي مدركا مدى خطورته على أمارته فيما يبدو .

ويحدثنا ابن الأثير عن النشاط السياسي للأكراد الهكارية ، وعن الدور الذي قام به (جيوش بك) والي الموصل السلجوقي (٥٠٧-٥١٤هـ) في التصدي لهم ومحاربتهم ، فقد ذكر أنهم انتشروا وازدادت قلاعهم «وغدا الناس معهم في ضيق» مما حمل جيوش بك على مطاردتهم بنفسه فحاصر قلاعهم واستطاع الاستيلاء على معظمها (٤٤) .

وكانت طائفة المهرانية تقطن عددا من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية القريبة من جزيرة ابن عمر ، وقد توزعت في أمارات صغيرة خلال القرن السادس الهجري ، وذكرت المصادر من أمرائهم عبدالله بن عيسى بن إبراهيم المهراني صاحب قلاع الربية

(٤١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٠ «جاء ان الأمير المذكور انضم الى الخليفة بجيوشه وأمدّه بالاقوات ، وجمع له عددا كبيرا من الأكراذ ، ولكن هذا الحصار فشل وانسحب الخليفة عائدا الى بغداد» .
(٤٢) ابن الأثير : نفس المرجع السابق ص ٨٠ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ص ٥٥ .

(٤٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٥٥-٥٦ «أرسل اليه الاموال ، وتوسل اليه الا يتعرض الى أمارته بسوء» .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٣٠ .

وفرّح والقي (٤٥)، والامير الحسن بن عمر صاحب قلعة الشعباني أما الامير خول وهرون فقد حكم قلعة كواشي (٤٦) . ولم تقدم المراجع معلومات كافية عن علاقاتهم السياسية في هذه الفترة .

وهناك الطائفة الكردية البشنوية المنتشرة في بلاد الزوزان الواقعة في الاراضي الممتدة من جبال أرمينية شمالا وحتى الموصل جنوبا ، من اذربيجان شرقا وحتى ديار بكر غربا ، وكان يستوطن الى جانبهم الاكراد البختية وعدد من الارمن ، ولكل من الطائفتين في هذه المنطقة عدد من القلاع الحصينة (٤٧) . وأهمها حصن فنك الذي كان مركزا رئيسا للاكراد البشنوية .

وقد وجه الامير جيوش بك والي الموصل السلجوقي في ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م حملة عسكرية على الاكراد البشنوية وطاردتهم واستولى على أكثر قلاعهم (٤٨) .

ويشير ابن الاثير الى سيطرة عماد الدين زنكي على القلاع والحصون المجاورة لحصن فنك التابع للاكراد البشنوية في محاولة لاختضاع هذا الحصن المنيع وبعد ان فرض الحصار عليها قائد جيوشه زين الدين علي كوجك في ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م اغتيل عماد الدين زنكي خلال حصاره قلعة جعبر في نفس السنة مما اضطر القائد الى فك الحصار والانسحاب الى الموصل (٤٩) .

(٤٥) قلعة حصينة ينسبها ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٦ الى حصون المهرانية بينما ينسبها ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٢ الى الزوزان البشنوية .

(٤٦) ابن الاثير: نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٦ .

(٤٧) أشهرها : برقة وبشير وجرذ قيل واثيل وعلوس وانيج وباخوخا وبرخو وكنكور وخوشب والهيثم وشاروا . ياقوه : معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٧١ ، ٤٦٦ ، ج ٢ ص ١٥٧ ، ج ٤ ص ٣١٢ .

(٤٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٣٠ .

(٤٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ، ج ١١ ص ٤٤ . التاريخ الباهر ، ص ٧٣ .

٣ - العلاقات مع بلاد الشام :

أ - حلب :

تتميز مدينة حلب بموقعها المهم على خطوط المواصلات بين بلاد فارس والعراق من جهة وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى كما انها حصينة وذات امكانيات اقتصادية ، ونتيجة لذلك نشأت العلاقات بينها وبين امارات الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، وقد بدت العلاقات السياسية أكثر وضوحا مع امارة الموصل في عهد عمادالدين زنكي حيث كان يطمح دائما الى الاستيلاء عليها وعلى غيرها من البلاد الشامية (٥٠) .

وعند اضطراب أحوالها العامة وتهديد الصليبيين لها ووفاء صاحبها عزالدين مسعود سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م وتولى (قتلغابه) أحد أمراء السلاجقة أمورها وتحكمه فيها . استطاع عمادالدين زنكي ، سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، السيطرة عليها بمساعدة سكانها ، فدخل قلعتها وبدأ تنظيم أمورها (٥١) وقضى على أكثر زعمائها السابقين .

وبعد مقتل عمادالدين زنكي أثناء محاصرته قلعة جعبر سنة ٥٤١هـ ، استطاع ابنه نورالدين محمود بعد فك الحصار ، ان يستولى على حلب (٥٢) مما أثار عليه أخوه سيفالدين غازي صاحب الموصل الذي كان يتطلع الى حكم بلاد الشام بما فيها حلب لانه الابن الأكبر لعمادالدين زنكي ، ونتيجة لذلك ساد العلاقات بينهما التوتر واستمر حتى سنة ٥٤٣هـ ، حيث بادر سيفالدين غازي صاحب

(٥٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٧ .

(٥١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٤٨ ، الباهر ص ٣٨ ، ابن العديم :

زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٥٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١١٥ .

الموصل الى مراسلة أخيه نورالدين محمود واستمالته (٥٣) للوقوف بوجه الصليبيين الذين راحوا يهددون ممالكهما ونجح صاحب الموصل في إزالة الجفوة بينه وبين أخيه وتم الاتفاق بينهما على التعاون . وكان من ثمار هذا الاتفاق صد الجيوش الصليبية التي كانت تهدد دمشق سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م .

ب - دمشق :

ورث (آل طغتكين) (٥٤) حكم دمشق والمناطق المجاورة (٥٥) عن السلاجقة . وقد بدأت العلاقات بين أمراء الجزيرة الفراتية وآل طغتكين في ٥٢٤هـ / ١١٢٩م عندما أخذ عمادالدين زنكي يوجه اهتمامه لاحتلال دمشق ، وكان أول عمل قام به عمادالدين زنكي الطلب الذي تقدم به الى حاكم دمشق بوري بن الطغتكين لانجاده في صد الخطر الصليبي (٥٦) فاستجاب له ابن الطغتكين وأوصل ابنه سنونج الذي كان يحكم حماة على رأس جيش لنجدة عمادالدين زنكي ، غير ان هذا الاخير اعتقل سنونج بن بوري مع قاداته ورجاله وهجم على حماة واحتلها ، ثم أخذ يهاجم حمص ، الا أن سكانها صدوا عمادالدين زنكي ببسالة ، فعمد الى حصارها ولم ينل

(٥٣) ابن الاثير : الباهر ص ٨٧-٨٨ .

(٥٤) وطغتكين (ظهرالدين اتابك) أحد قواد الجيش السلجوقي ومملوك السلطان تتشي وبعد مقتل تتشي أصبح طغتكين آتابكا لولده شمس الملوك دقاق بن تتشي . في ٤٩٧هـ توفي شمس الملوك فآلت دمشق الى طغتكين وعرفت بآتابكية دمشق وظلت تحكم من آل طغتكين حتى سنة ٥٤٩هـ حيث استولى عليها نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ ، ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٩٧ ، وانظر رشيد الجميلي : دولة الاتابكة ص ٢٩) .

(٥٥) وأهمها بعلبك وصيدا وبصري وبانياس .

(٥٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧-٢٢٨ ، ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٢٥١ .

منها (٥٧) . وفي ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م توفي بوري بن الطفتكين حاكم دمشق فخلفه ابنه اسماعيل الذي تمكن من استرداد حماة من قبضة عماد الدين زنكي .

وفي ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م طلب اسماعيل بن بوري بن طفتكين حاكم دمشق الى عماد الدين زنكي التوجه لاحتلال دمشق ، وقد استجاب الاخير على الرغم من انهماكه بمشكلاته مع الخلافة العباسية والسلاجقة وكذلك على الرغم من التغييرات التي جرت في دمشق بعد مقتل اسماعيل بن بوري وتنصب أخيه شهاب الدين محمود بدلا منه ، فقد سارت قوات عماد الدين زنكي نحو دمشق وضرب الحصار عليها ، ولكن سكانها بذلوا جهودا كبيرة للدفاع عنها ، وعلى أثر تدخل الخليفة المسترشد بالله العباسي ووصول رسوله ، أمر عماد الدين زنكي بفك الحصار والتوجه الى بغداد للاتفاق على خطة موحدة للعمل ضد السلطان السلجوقي مسعود فاستجاب صاحب الموصل وسحب قواته (٥٨) .

وفي ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م قام عماد الدين زنكي بمحاولة الاستيلاء على حمص ليسهل عليه تحقيق احتلال دمشق فيما بعد ، فحاصرها حصارا شديدا مما اضطر الامير قريش بن خرخان الى مراسلة شهاب الدين محمود صاحب دمشق فقدم له عرضا لحكم حمص على أن يعوضه احدى مدن امارته فبادر صاحب دمشق الى اجابته بارسال الميرة والاقوات اليه .

غير ان قوات عماد الدين زنكي استمرت تشن غاراتها على أطراف حمص (٥٩) . وفي ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م جدد غاراته بنفسه على

(٥٧) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٥٨) ابن القلانسي : نفس المرجع ص ٢٤٧-٢٤٨ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٨-٩ .

(٥٩) ابن القلانسي : نفس المرجع ص ٢٥٢ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ١٥-١٦ .

مدينة حمص ، وكادت تسقط بيده ، لولا أن المنطقة شهدت تحالفا خطيرا بين زعماء الصليبيين استهدف مباغتته والقضاء على نفوذه في بلاد الشام (٦٠) ، وبالفعل اشتبكت قواته مع الصليبيين بالقرب من بعرين وانتصر عليهم (٦١) لذلك عاود مهاجمة ممتلكات آل طفتكين في بلاد الشام على أمل توحيدها لمواجهة الخطر الصليبي في ٥٣٢هـ / ١١٣٧م فاكسح عددا من الحصون والمدن مثل حماة وبعليك وحصن المجدل (٦٢) . ثم حاصر مدينة حمص وشدد عليها ، ولكن تهديد امبراطور الروم حنا كومنين لممتلكاته في الشمال اضطره الى فك الحصار فتوجه مرة أخرى ليس لمجابهة خطر الامبراطور فحسب وانما للوقوف ضد التحالف البيزنطي الصليبي الذي انتهى بانسحاب امبراطور الروم الى بلاده (٦٣) .

وكان عماد الدين زنكي يسعى لتحقيق هدفه بالاستيلاء على مدينة دمشق وقد استهدف من وراء ذلك توحيد بلاد الشام بوجه الخطر الصليبي ، ففي ٥٣٣هـ / ١١٣٨م سارت عساكره نحو دمشق فاستعد أهلها للدفاع عن مدينتهم «ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه الا وبذلوا جهودا بالغة للحصول عليه» (٦٤) .

وقد هاجمت عساكر الموصل وهي في طريقها الى دمشق مدينة بعليك وحقت الاستيلاء عليها (٦٥) وبذلك استطاع احتلال أهم

(٦٠) العظيمي : تاريخ العظيمي (مخطوطة منشورة في مجلة المشرق باريس ١٩٣٨) ونشر سامي الدهان حاشية زبدة الحلب ، الورقة ٢١١ ، لابن

العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٦١) ابن القلانسي : نفس المرجع ص ٢٥٨-٢٥٩ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص ٢٢-٢١ .

Runciman: A History of the Crusades, vol. 11, P. 203-205

(٦٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٣ .

(٦٤) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص ٢٦٩-٢٧٠ .

(٦٥) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص ٢٦٩-٢٧٠ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص ٢٨-٢٩ .

المواقع المحيطة بمدينة دمشق ، فضلا عن تقوية علاقاته مع (رضوان) الوزير الفاطمي الذي كان قد لجأ الى دمشق فاغراه بالانضمام الى جبهته ، ومع ان هذا الاخير قد اتفق مع عمادالدين زنكي ولكنه عدل أخيرا عن رأيه بعد أن بذل له صاحب دمشق الاموال بواسطة فارس بني شيزر المشهور أسامة بن منقذ الذي أرسل اليه فأقنعه (٦٦) ، ومع ذلك فقد تقدم عمادالدين زنكي نحو دمشق وفرض الحصار عليها وكادت قواته تحقق الاستيلاء على المدينة لولا ايقافه القتال بأمل احتلال المدينة بصورة سلمية بواسطة المفاوضات (٦٧) واستمالة الاهالي واغرائهم بالهدايا والاموال وقد أحاط عمادالدين زنكي رغبته هذه الضمانات الكافية ، ولكن أمير دمشق ورجاله لم يستجيبوا لندائه ، لذلك اضطر الاخير الى استئناف القتال (٦٨) . ونتيجة لمثابرة صاحب الموصل في حصار دمشق وشن الهجمات عليها باستمرار ، فقد راح صاحب دمشق يطلب التحالف مع الصليبيين لدفع الاخطار التي تأتيه من عساكر الموصل ، فالتقى وفد صاحب دمشق بملك بيت المقدس الصليبي فولك وعرض عليه الاموال لقاء مساعدته ضد الصليبيين ، فضلا عن قيام صاحب دمشق بالاستيلاء على بانياس وتسليمها اليهم في حالة الاتفاق . وقد رأى الصليبيون ان سيطرة عمادالدين زنكي على دمشق سوف تؤدي الى تعرض قواعدهم في المنطقة الى الخطر (٦٩) ، ولذلك سارع (فولك) ملك بيت المقدس الصليبي الى عقد تحالف مع أمير دمشق

(٦٦) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٣٠-٣١ .

(٦٧) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص ٢٧١ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٧ .

(٦٨) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص ٢٧٢ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص

(69) Runciman: The Crusades, Vol. 11. P. 227-228.
Setten: A History of the Crusades, Vol. 1, S.V. Zengi and the fall of Edessa,
by H.A.R. Gibb, P. 45 -460.

معين الدين أنر . وقد تحاشى الصليبيون الاصطدام بجيش الموصل على الرغم من قيام عماد الدين زنكي بتحشيد جيوشه للتصدي لكل قوة منهم على انفراد (٧٠) . وكان الاتفاق الذي عقد بين الصليبيين وحاكم دمشق يقضي بالاستيلاء على بانياس وبعليك ، وقد تم لهذا الاخير الانقضاء على بانياس واحتلالها ، الامر الذي جعل عماد الدين زنكي يوزع قواته الى مجموعتين ، أرسل المجموعة الاولى الى نواحي دمشق للقيام بهجمات تخريبية في المناطق المحيطة بها ، والقسم الاخر عاد الى حلب للدفاع عنها (٧١) . والظاهر ان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد فشل في كل محاولاته التي استهدفت احتلال دمشق ، فيحدثنا ابن القلانسي في ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م عن الاستعدادات الكبيرة التي قام بها عماد الدين زنكي باستكثاره من صنع المجانيق والمهمات العسكرية الاخرى وتجنيد التركمان والاكراد واعداد العدة للاستيلاء على دمشق ، وزاد ابن القلانسي بقوله ، ان صاحب الموصل لم يلبث أن غير وجهته الى مدينة الرها حيث اكتشف الخطة التي كان يعدها سكان المدينة لاعادتها الى الصليبيين (٧٢) .

٤ - أمراء الجزيرة الفراتية والصليبيون :

كانت اماره الرها الصليبية في الجزيرة الفراتية تشكل خطراً كبيراً على المواقع الاسلامية في المنطقة حتى الربع الاول من القرن السادس الهجري . وكان العالم الاسلامي خلال هذه الفترة يعاني من التدهور والضعف بسبب النزاع السياسي بين الخلافتين العباسية والفاطمية وانشغال السلاجقة في الصراع على السلطة فيما

(٧٠) ابن القلانسي : نفس المرجع ص ٢٧٢ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٣٠ .

(٧١) ابن القلانسي : نفس المرجع ص ٢٧٢-٢٧٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٤-٢٧٥ .

(72) Runciman: Op. Cit., 11, PP. 239, Gibb: Op. Cit., 1 PP. 462.

بينهم * فاستغل الصليبيون هذا التدهور ونشطوا في توسيع مناطق نفوذهم وراحوا يرغمون السكان على تنفيذ مطالبهم وقد أشار ابن الاثير الى سرايا هؤلاء الغزاة حيث بلغت الى آمد فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، والى نصيبين ورأس العين فاستأصلوا ما لاهلها من أثاث وعين ، وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار وقال أيضا «ثم زاد الامر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واثاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا ايديهم عنهم» (٧٣) *

ولكن على الرغم من هذا التدهور الذي شمل العالم الاسلامي ، فان بعض حكام المسلمين راحوا يتصدون للصليبيين ، وكانت أولى المعارك بينهما تلك التي قادها مودود بن التونتكين والي الموصل بعد تلقيه أمرا من السلطان السلجوقي محمد سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م بمهاجمة الصليبيين في بلاد الشام ، وقد استهدف الهجوم مدينة الرها وتل باشر ومعرة النعمان ، غير ان اتفاق بوري بن طفتكين حاكم دمشق مع الصليبيين سرا أدى الى اخفاق حملة المسلمين في الاستيلاء على هذه المدن ، وقد اشار ابن الاثير الى ذلك قائلا «ثم سار الى الرها - والمقصود مودود حاكم الموصل - فحاصرها ولم يتمكن من فتحها ثم رحل عنها ... فحاصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضه ، ثم سار عنها الى معرة النعمان فحاصرها ، وجاء اليه الامير بوري بن طفتكين صاحب دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره ، خاف أن يأخذ منه دمشق ، فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود ، فصالحوه» (٧٤) *

وفي ٥٠٧هـ / ١١١٣م عقد التحالف بين أمراء المسلمين من جهة ، وضم كلا من مودود بن التونتكين صاحب الموصل وبوري بن

(٧٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٢٢-٣٣ ، نقل عنه : أبو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ص ٧٦-٧٧ .
(٧٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٧-١٨ .

طفتكين صاحب دمشق وبين الصليبيين من جهة أخرى وكان مؤلفا من (برودويل) ملك القدس وعكا وصور و(جوسلين) ملك تل باشا والرها . وقد استمرت المعارك بين الجيوش الاسلامية والصليبية في فلسطين مدة تقارب الشهر دون نتيجة حاسمة (٧٥) .

ويشير ابن الاثير الى اغتيال مودود بن التونتكين صاحب الموصل على أيدي الباطنية فأقطع السلطان السلجوقي محمد الموصل الى الامير جيوش بك والحققت العساكر الموصلية بالقائد سنقر البرسقي وأرسلت لقتال الصليبيين وما لبثت الجيوش الاسلامية ان التقت بالقوات الصليبية وحاصرتها في مدينة الرها سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م وقد انضم الارمن الى الصليبيين في محاربة الجيوش الاسلامية .

ويبدو ان مناعة الرها وقدرتها الدفاعية أرغمت البرسقي على التخلي عن فكرة الاستيلاء عليها فرحل الى سميساط وهي أيضا للفرنج فنحرب بلدها وبلد سروج (٧٦) وهي من مدن الجزيرة الفراتية ، ثم قفل عائدا الى بغداد .

أما جيوش بك فرجع الى الموصل مستصحبا معه عماد الدين زنكي الذي لم يزل بعد قائدا في الجيش .

وفي ٥١٤هـ / ١١٢٠م خرج جيوش بك على السلطان السلجوقي محمود سعيًا وراء تنصيب السلطان مسعود الذي كان جيوش بك نفسه أتابكا له ، غير انه لم يحقق هدفه ، فأخذت منه الموصل ، وحكمها أمير آقسنقر البرسقي وألحقت معها جزيرة ابن عمر وسنجار ونصيبين (٧٧) .

(٧٥) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٩ .

(٧٦) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٢٠ .

(٧٧) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٢٢-٢٤ .

وتلقى الامير اقسنقر البرسقي ، بعد توليه الموصل ، أمرا من الخليفة المسترشد بالله العباسي سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بالوقوف ضد ديبس بن صدقة صاحب الحلة ومحاربته ، وذلك لموقفه المساند لجيوش بك ضد الخليفة والسلطان السلجوقي . ولم يصمد الجيش الذي كان يقوده آقسنقر البرسقي صاحب الموصل أمام جيش ديبس بن صدقة صاحب الحلة ولكن على الرغم من ذلك فان ديبس ابن صدقة أرسل الى الخليفة أنه على الطاعة ويطلب أن يخرج النواب الى الاعمال .

ولكن في نفس السنة قرر الخليفة القضاء على ديبس بن صدقة صاحب الحلة لتمرده واصراره على المخالفة وتهديده أطراف بغداد، واستطاعت قوات الخليفة ايقاع الهزيمة بقوات صاحب الحلة وتفريقها «وأما ديبس فانه لما انهزم التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود» (٧٨) ثم أمر آقسنقر البرسقي بالعودة الى الموصل والتحضير لملاقاة الجيوش الصليبية (٧٩) .

وفي ٥٢٠هـ / ١١٢٦م قتل آقسنقر البرسقي حاكم الموصل على يد الباطنية ، فولى بعده ابنه عز الدين مسعود ، الذي كان آنذاك على رأس جيش في مدينة حلب ليصد عنها الصليبيين (٨٠) غير أنه توفي هو الآخر بعد سنة من توليه الامارة ، فولى بعده أخوه الاصغر ، ومن ثم تولاها عماد الدين زنكي الذي لعب دورا عظيما في مقارعة الصليبيين في هذه المنطقة . وقد رأى أن عقد هدنة مؤقتة مع الصليبيين يتيح له الانصراف لتعبئة جيوشه واعدادها للحرب اعدادا كافيا .

وبدأ عماد الدين زنكي خطته بالتصدي للقوى الصليبية ، ففي ٥٢٢هـ / ١١٢٨م استطاع الاستيلاء على مدينة حلب بعد أن مكثه

(٧٨) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٢٧ .

(٧٩) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٢٧ .

(٨٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٣٢٠ .

سكانها منها لتخليصهم من تهديدات الصليبيين الدائمة (٨١) ، ولاتخاذها نقطة انطلاق في مقاومتهم وقد انتهز فرصة هدنته مع جوسلين ملك الرها لتوسيع حدود امارته كما انتهز ظهور المشكلات الداخلية لامارة انطاكية الصليبية ليتابع سياسته ضد الصليبيين ، ففي ٥٢٤هـ / ١١٢٩م ، قتل بوهمند الثاني ملك انطاكية على أيدي سلاجقة آسيا الصغرى فخلفته في الحكم زوجته (أليس) وهي ابنة (بلدوين) ملك بيت المقدس التي أعلنت عن رغبتها بالطاعة لعمادالدين زنكي مقابل اقرارها أميرة على انطاكية ولكن سرعان ما فوت بلدوين الفرصة على عمادالدين زنكي باحتلال انطاكية ، حيث اتجه بجيشه نحو المدينة واستولى عليها ، فما لبثت ابنته (أليس) أن أعلنت مضطرة خضوعها له (٨٢) .

غير ان عمادالدين زنكي قرر البدء بالهجوم على حصن الاثارب المجاور لحلب في السنة نفسها وبسبب ما كان يقوم به صليبيو هذا الحصن من اغارات مستمرة على المواقع الاسلامية . واستطاع الاستيلاء عليه فأمر بتخريبه ، ثم تقدم نحو حارم الواقعة على طريق انطاكية ، فحارب حولها الحصار ، وفاوضه سكانها وطلبوا المهادنة فأجابهم الى ذلك (٨٣) .

أما في ٥٢٩هـ / ١١٣٤م فقد اتاحت لعمادالدين زنكي فرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام ، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب وهي : الاثارب الذي يبدو

(٨١) ابن الاثير : نفس المرجع ج ١٠ ص ٢٤٨ .

(82) Runciman: A History of the Crusades, Vol. 11, P. 182.

W.B. Stevenson: The Crusaders in the East, P. 129.

(٨٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٤٨ ، التاريخ الباهر ص ٣٢-٣٤ .

ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٢٥-٢٣٤ .

ان الصليبيين استردوه بعد سنة ٥٢٤هـ وزردنا وتل اغدي ومعة
النعمان وكفر طاب(٨٤) *

كما تقدمت جيوش صاحب الموصل الى مهاجمة حصن بعين
الصليبي فالتقت بالجيوش الصليبية التي كان يقودها كل من فولك
ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس ودارت رحى معركة
شديد انتهت بانتصار العساكر الموصلية ثم اتجهت صوب الحصن
وفرضت عليه حصارا شديدا ، مما أدى الى استسلام أصحاب الحصن
وسقوطه بيد عمادالدين زنكي(٨٥) *

وفي هذه الاثناء عقد اتفاق بين الامبراطور البيزنطي (حنا
كومنين) وريموند أمير أنطاكية للعمل المشترك من أجل الاستيلاء
على حلب وما يجاورها من الحصون الاسلامية على أمل تكوين امارة
صليبية جديدة تضم حلب وشيزر وحماة وحمص(٨٦) ، وبعد ان
تقدمت القوات المتحالفة نحو حلب ، سارع عمادالدين زنكي بمد
أهل حلب بقوة من الفرسان ساعدتهم على مقاومة الجيوش المتحالفة
التي فرضت الحصار على المدينة * ولكن الامبراطور (حنا كومنين)
الذي كان يقود الجيوش الصليبية وجه قواته نحو حصن الاثارب
فاستولى عليه ثم اتجه نحو شيزر التي اعتبرها الصليبيون من المواقع
المهمة في المنطقة ، فاستنجد صاحب شيزر سلطان بن علي الكناني
بعمدالدين زنكي ، فأنجده بقوات عسكرة بالقرب من حماة ، ثم
أخذ يرسل المتحالفين ويتوعدهم في اللقاء بساحات الحرب والقتال
لان الصليبيين امتنعوا في بادئ الامر من مواجهة جيوش عمادالدين

(٨٤) ابن العديم : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .
Stevenson: Op. Cit., Vol. 11, PP. 29-130.

(٨٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨-٢٥٩ ،
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 203-205.

(86) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 213.

زنكي صاحب الموصل (٨٧) ، وقد كان لمراسلات عماد الدين زنكي أثره الكبير في تحطيم معنويات المتحالفين (٨٨) . فقد ظنوا ان وراء جيش صاحب الموصل القليل العدد ، قوات ضخمة يحتفظ بها في الوقت المناسب كما انه اخذ يصرق بين المتحالفين من الصليبيين والبيزنطيين فيثير الشكوك بين صفوفهم ويستعدي نوايا احدهم على الاخر ، لذلك فقد أشار ابن الاثير الى ما خان يقوم به عماد الدين زنكي واعتبره من العوامل التي عرقلت فتح شيزر وانقاذها من المتحالفين (٨٩) .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد ارسل عماد الدين زنكي القاضي كمال الدين الشهرزوري الى بغداد لطلب النجدة العسكرية من السلطان السلجوقي مسعود (٩٠) ، والى سلاجقة آسيا الصغرى يشير عليهم بالاغارة على المواقع البيزنطية ، هناك (٩١) ، لتحويل اهتمامهم عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، كما ورد ما يشير الى قيام أمير حصن كيفا الارتقي ، بارسال ابنه على رأس جيش كبير من التركمان لمواجهة الجيوش الصليبية (٩٢) .

وفي ٥٣٣هـ / ١١٣٨م وعلى أثر انسحاب القوات المتحالفة من حصار شيزر استطاع صلاح الدين الياغسياني حاجب عماد الدين زنكي أن يستولى على كفر طاب (٩٣) كما تحققت لقوات الموصل

(٨٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٢٣ ، التاريخ الباهر ص ٥٥ .

(٨٨) عاشور : الحركة الصليبية (مطبعة لجنة البيان العربي القاهرة - ١٩٦٣) ج ١ ص ٥٨٧ .

(٨٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٥٦ ، Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 216.

(٩٠) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٦٢-٦٣ .

(٩١) العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية (دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٣) ج ١ ص ٥١٥-٥١٦ .

(٩٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٩٣) ابن العديم : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٨ .

الاستيلاء على حصن عرقلة (٩٤) وحصن بزاعة (٩٥) وحصن
الاثارب (٩٦) .

أما في ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م فقد عقد حلف ثنائي بين قرا أرسلان
الارتقي أمير حصن كيفا و (جوسلين) أمير الرها الصليبية للوقوف
ضد السياسة التوسعية التي كان ينتهجها عمادالدين زنكي في
المنطقة (٩٧) ، غير ان ما يتمتع به صاحب الموصل من مركز قوى في
بلاد الجزيرة الفراتية ، أتاح له القيام بفتح عدد من المواقع
والحصون الصليبية التابعة لامارة الرها مثل جملين والموزر (٩٨) وتل
موزن وكذلك في اقليم شبيجتان (٩٩) ، وكان عمادالدين زنكي
يستهدف من وراء ذلك الاستيلاء على امارة الرها وانهاء الاحتلال
الصليبي لها .

كانت امارة الرها من أهم مراكز الصليبيين في بلاد الجزيرة
الفراتية باعتبارها قاعدة لاحدى اماراتهم الاربع في الشرق
الاسلامي ، ولقربها من العراق ، وقوة تحصيناتها ، وما كانت
تسببه للمناطق الاسلامية المجاورة من اخطار كثيرة وقد قال عنها
ابن الاثير بأنها «من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهي
احدى الكراسي عندهم ، اذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن
البلاد الاسلامية حصنها» وأضاف الى قوله بأن غارات الصليبيين

(٩٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٥٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين في اخبار
الدولتين ج ١ ص ٨٤ .

(٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج ١ ص ٨٣ .

(٩٦) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص ٨٣ .

(٩٧) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, PP. 460-461.

(٩٨) احد اقاليم الجزيرة الفراتية . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٦٧٩ -
٦٨٠ .

(٩٩) كورة تمتد الى الجنوب من ديار بكر تضم عددا من المواقع مثل (تل بسمى)
و(تل قراد) ، ياقوت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٨٦٤-٨٦٩ .

كانت تبلغ آمد وماردين ونصيبين ورأس عين والرقّة ، وأما حران فكانت في الغزى كل يوم صبحوها بالفارة (١٠٠) .

يتضح من ذلك ان امراء الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري وفي مقدمتهم عمادالدين زنكي وبعض أمراء الأراتقة والأتابكيين الآخرين قد أدركوا خطورة هذه الامارة على ممالكهم واماراتهم وانها تشكل عائقا يحول دون أي مسعى لتوحيد الجبهة الاسلامية بوجه الخطر الصليبي المتعاظم في بلاد الشام او الخطر المتأتي من الامبراطورية البيزنطية والذي كان ينبعث من بلاد الروم ، بالاضافة الى تهديدها الدائم لخطوط المواصلات التي كانت تربط بين الموصل وحلب من جهة وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى (١٠١) .

لذلك أخذ هؤلاء يعدون العدة وينتهزون سُنوح الفرصة للانقضاض عليها وتخليصها من حكم الصليبيين ، وفي ٥٣٩هـ / ١١٤٤م أصبحت الظروف مواتية لهم لكي يضربوا ضربتهم ، اذ اشتد الخلاف بين ريموند أمير انطاكية وجوسلين الثاني أمير الرها وانفجر الى نزاع انتهى بمقاطعة أحدهما للآخر (١٠٢) ، كما توفي (فولك) ملك بيت المقدس وخلفه (بلدوين) الثالث وهو ضعيف الشخصية (١٠٣) يضاف الى ذلك ، ان التحالف القديم بين الصليبيين والامبراطور البيزنطي كان قد انتهى سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م وحل محله عداء شديد وحروب مستمرة بين الطرفين (١٠٤) .

(١٠٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٦٦-٦٧ .

(101) Stevenson: The Crusades in the East, P. 153.

عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ١٤٩ .

102) Runciman: A History of the Crusades, Vol. 11. P. 234-235, 236.

(١٠٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٠٣-٦٠٤ ،

Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 174.

(104) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 234.

ثم جاءت وفاة الامبراطور البيزنطي (حنا كومنين) لتخلي الساحة للامراء المسلمين ولعماد الدين زنكي بصورة خاصة من عدو قوي يسند الصليبيين في عدوانهم على منطقة الشرق الاسلامي (١٠٥) *

وكان جوسلين الثاني أمير الرها ضعيفا ، ميالا الى المسيحيين الشرقيين الارمن ، وكان يفضلهم على المسيحيين الغربيين ، مما سبب القلق بين الفرسان الصليبيين وأوجد نوعا من عدم الاستقرار في مدينة الرها (١٠٦) *

لذلك فقد استغل عماد الدين زنكي هذه الظروف وحاصر مدينة الرها ثم استولى عليها بعد أن دبر خدعة حققت له هدفه (١٠٧) *

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على اسقاط أول اماره صليبية في المنطقة سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م بيد صاحب الموصل ، شعور المسلمين وأمرائهم بإمكانياتهم على مجابهة الصليبيين وبقدرتهم على اسقاط بقية الامارات الصليبية وفعلا تم ذلك حيث انهارت الواحدة تلو الاخرى ، كما أدى الى القضاء على الحواجز التي أقامها

(105) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 235.

(١٠٦) عاشور : الحركة الصليبية ج٣ ص ٦٠٤ ،
Crousset: Croides, Vol. 11, P. 176.

(١٠٧) اتجه عماد الدين زنكي الى آمد ، وأظهر انه يعتزم حصارها ليومهم غربة جوسلين الثاني عدم تفرغه للهجوم على الصليبيين حينذاك ، فغادر الأمير الصليبي امارته على رأس قواته ، تاركا حماية الرها لسكانها من الارمن والسرمان والساطرة واليعاقبة ، فأسرع عماد الدين زنكي بالتوجه الى الرها حيث استعانوا «على السرعة بركوب النجائب» وفرض الحصار عليها ، ولم ينجده جوسلين الثاني من الامراء الصليبيين سوى (ميلزاند) الوصية على اماره بيت المقدس ، وقد وصلت نجدها بعد فوات الاوان ، حيث دخلت قوات المسلمين المدينة وتسلمها عماد الدين زنكي من القس اليعقوبي برصوما انظر ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٤٠ ، التاريخ الباهر ص ٦٧-٦٨ *

Gibb: S.V. Zengi and the Fall of Edessa, Vol. 11, P. 235;
Runciman: Op. Cit., Vol., 11, P. 236.

الصليبيون في هذه المنطقة والتي أعاققت الاتصال بين سلاجقة آسيا
الصفرى وسلاجقة العراق وبلاد فارس (١٠٨) *

كما نبه سقوط إمارة الرها ، الصليبيين الى خطورة الاوضاع
في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، فنشطوا في الدعوة الى حملة
صليبية جديدة عرفت فيما بعد بالحملة الصليبية الثانية ، وقيام
(ريموند) امير انطاكية بعقد حلف مع الامبراطور البيزنطي
(مانويل) واعلان تبعيته له فوعده هذا بمساعدته ضد
المسلمين (١٠٩) *

ومن النتائج المهمة الاخرى التي حققها فتح إمارة الرها
الصليبية ، توطيد العلاقات بين عمادالدين زنكي والسلطان
السلجوقي والخليفة العباسي حيث عززت مكانته لديهم (١١٠) ،
وكذلك بالنسبة لامراء المسلمين في الجزيرة الفراتية أو في بلاد
الشام ، فقد رفعت منزلته لديهم وصاروا يهابونه ويخافونه ، الامر
الذي دفع حسام الدين تمرتاش الارتقي صاحب ماردين ، للتعاون
مع الصليبيين بشأن حماية قلعة البيرة الحصينة المطلّة على الفرات ،
وهي من أهم الحصون التابعة للصليبيين ، فقد سلمها هؤلاء الى
صاحب ماردين خوفا من مهاجمة عمادالدين زنكي لها (١١١) *

وتحدثنا المراجع عن نشاط التركمان في مساندتهم لجيوش
صاحب الموصل في محاربة الصليبيين ، ففي ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وصل
الى حلب الأمير مسعود بن سوار بن ايتكين ، أحد أمراء التركمان

(108) Runciman: Op. Cit. Vol. 11, P. 238.

(109) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 238.

(١١٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ *

(١١١) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص ٢٨٠ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١
ص ٤١-٤٢ ، التاريخ الباهر ص ٧٠-٧١ *

المحاربين ، حيث اجريت له الاقطاعات الكثيرة ونصب حاكما في ولاية حلب واعمالها ، وكان ذا شجاعة واقدام في قتال الفرنج (١١٢) .
وهناك أمير تركماني آخر يدعى (لجة التركي) اتخذه عمادالدين زنكي قائدا في جيشه لقتال الصليبيين (١١٣) . ويذكر ابن الاثير ان عمادالدين زنكي نقل طائفة من التركمان مع اميرهم (الياروق) الى بلاد الشام «واسكنهم ولاية حلب وأمرهم بجهاد الفرنج ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويرأوحوهم ، وأخذوا كثيرا من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة» (١١٤) .

وبتوجيه من عمادالدين زنكي قام هؤلاء التركمان بشن الغارات الموفقة ضد جيوش الصليبيين ومعسكراتهم ومراكز تجمعهم وقوافلهم ، وقد استمر نشاطهم العسكري حتى سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م فأوقعوا خلاله خسائر فادحة بحصن الاثارب (١١٥) وتل باشر (١١٦) وعزاز (١١٧) ، كما هاجموا اللاذقية (١١٨) والمناطق القريبة من انطاكية (١١٩) .

وقد استمر امراء الجزيرة الفراتية بعد سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وهي السنة التي قتل فيها عمادالدين زنكي ، على التصدي للصليبيين ومهاجمة اماراتهم ففي ٥٤٣هـ / ١١٤٨م قام الصليبيون بالحملة الثانية بزعامة كونراد الثالث (ملك ألمانيا) ولويس السابع (ملك

-
- (١١٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٢٤٥ .
(١١٣) ابن العديم : نفس المرجع السابق ص ٢٧٥ .
(١١٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٠ .
(١١٥) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٢٤٧ .
(١١٦) ابن العديم : نفس المرجع السابق ص ٢٥١ .
(١١٧) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج١ ص ٤ .
(١١٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥-٢٥٦ ، ابن الاثير : الكامل ج١ ص ١٦-١٧ .
(١١٩) ابن العديم : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٢٧٥-٢٧٦ .

فرنسا) والامير جوردان كونت (دي تولوز) وريموند الثاني (صاحب طرابلس) للاستيلاء على دمشق (١٢٠)، فاستنجد حاكمها معين الدين انر بسيف الدين غازي صاحب الموصل (١٢١)، فوافاه الاخير بجيش كبير (١٢٢)، وكان يستهدف فضلا عن صد الصليبيين ضم دمشق اليه (١٢٣). غير ان معين الدين انر رفض ذلك وهدد الصليبيين بتسليم دمشق الى صاحب الموصل الذي بات يهدد المدينة في حالة اصرارهم على الوقوف ضده (١٢٤)، فانسحب الجيش الصليبي عن محاصرتها (١٢٥).

وواصل الاتابكيون في الموصل (سيف الدين غازي) وفي بلاد الشام (نور الدين محمود) سياستهم في محاربة الصليبيين والوقوف ضد تقدمهم ففي ٥٤٤هـ / ١١٤٩م اشتركت قوات الموصل مع غيرها من العساكر الاسلامية في صد الهجوم الذي قام به ريموند صاحب انطاكية على مدينة حلب واعمالها، حيث هزم المسلمون عسكر الصليبيين في (أنب) وهو حصن من أعمال اعزاز (١٢٦).

سياسة الاتابكيين تجاه الخطر الصليبي بعد وفاة سيف الدين غازي صاحب الموصل في أواخر سنة ٥٤٤هـ /

(١٢٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ص ١٣٨ ، عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٣١-٦٣٢ .

(١٢١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(١٢٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٩ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص ١٨٩ .

(١٣٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٩ ، أبو شامة : نفس المرجع السابق ص ١٣٨ .

(١٢٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ١٣٠ .

(١٢٥) ارنست باركر : الحروب الصليبية (طبعة مصر ١٩٦٠) ترجمة الباز العريني ص ٩٦ .

(١٢٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٠٥-٢٠٦ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص ٢٠١ .

unciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 326-327, 328.

١١٤٩م ، معرفة العلاقات السياسية والعسكرية فيما بينهم فقد
حاتب بعض الامراء ومنهم عبدالملك صاحب سنجار نورالدين
محمود بن عمادالدين زنكي صاحب دمشق وحلب لتسليم اماره
الموصل وسنجار اليه ليحكمها بدلا من اخيه قطب الدين مودود (١٢٧) *
وقد تم لنورالدين محمود الاستيلاء على مدينة سنجار وتهيأ للزحف
نحو الموصل وانفق مع فخرالدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا
لمساعدته في ذلك (١٢٨) *

أما قطب الدين مودود صاحب الموصل فقد استعد لمواجهة قوات
أخيه التي أخذت تهدد امارته (١٢٩) ، وفي اللحظة الاخيرة عقد صلح
بينهما ، يبدو انهما وضعا في الحسبان الخطر الصليبي الذي كان
يتهددهم بالاضافة الى أطماع السلاجقة في امارتيهما (١٣٠) ، وكان
هذا الوفاق ، قد وضع اساسا متينا بين الاخوين للتعاون المشترك
في الوقوف ضد الصليبيين في بلاد الشام (١٣١) *

أما في ٥٥٩هـ / ١١٦٤م فقد شاركت جيوش كل من قطب الدين
مودود صاحب الموصل وفخرالدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا
ونجم الدين البي صاحب ماردين (١٣٢) بالتصدي للحلف الصليبي الذي
دعا اليه ، بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير

(١٢٧) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٣٩ ، الباهر ص ٩٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب

من تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٩٦ ، ابن واصل : مفرج الكردب ج ١ ص ١١٨ *

(١٢٨) ابن الاثير : الباهر ص ٩٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٩٧ *

(١٢٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٩٦ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ص

١٧٣ ، ابن العديم : نفس المرجع السابق ص ٢٩٧ ، ابن واصل : نفس

المرجع السابق ص ١١٩ *

(١٣٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٩٦ *

(١٣١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٩٦-٩٧ ، أبو شامة : نفس المرجع

السابق ج ١ ص ١٧٣ *

(١٣٢) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة

الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٢٤٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣١٨ *

طرابلس وقسطنطين كولومان حاكم قيليقية البيزنطي والامير الارمني توروس الثاني (١٣٣) * وقد دارت معركة شديدة بين الجيوش الاسلامية التي كان معظمها من الجزيرة الفراتية وبين الصليبيين الذين كانوا يستهدفون مدينة حارم ، وأسفرت هذه المعركة عن اندحار الصليبيين وتفرقهم (١٣٤) ، كما تعرضت اماره طرابلس الصليبية بعد اسر نورالدين محمود صاحب دمشق لاميرها ريموند الثالث سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م الى حملة عسكرية مشتركة تضم قوات كل من صاحب دمشق وقوات أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل حيث اتجهت قواتهما الى الشمال الشرقي من طرابلس ، فاستولت على مدينة عرقة الواقعة الى الشرق من طرابلس ، ثم حاصرا جبله وهي قلعة مشهور ، قرب اللاذقية ، واستوليا على المدن المجاورة مثل العريمة وصافينا (١٣٥) *

أما في ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م فقد انتهك الصليبيون الهدنة التي كانوا قد عقدوها مع نورالدين محمود صاحب دمشق ، باستيلائهم على بضائع التجار المسلمين (١٣٦) لذلك أعد صاحب دمشق العدة لقتالهم ، فاجتمعت الجيوش من الجزيرة الفراتية والشام ، وراحت تتعرض لاماره طرابلس ومدنها وتحدث فيها الخراب والتدمير ، حتى اضطر الصليبيون الى اعادة ما انتهبوه من البضائع واذا عنوا في طلب تجديد الهدنة (١٣٧) *

(١٣٣) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٢٤ ، عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨٥ *

(١٣٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٢٤ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٣٤١ *
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 369.

(١٣٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٢٧-٣٢٨ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٣٧٤ *
Setton: A History of the Crusades, Vol. 1, P. 525.

(١٣٦) ابن الاثير : الباهر ص ١٥٤ * Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 395.

(١٣٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٥١٦ *
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 395.

٥ - العلاقات بين صلاح الدين الايوبي وأمراء الجزيرة الفراتية :

أشار ابن واصل الى ما يفيد بأن صلاح الدين الايوبي ، كان يكن شعورا بالكراهية للبيت الاتابكي وقد جاء ذلك على ما يبدو بسبب ما كان يداخل صلاح الدين من شعور بعدم جدية الاتابكيين في الوقوف ضد الصليبيين في الشام وبلاد الجزيرة الفراتية «فلو استمرت ولاية هؤلاء القوم - وهم الاتابكيون - تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد» (١٣٨) لذلك أخذ صلاح الدين يطالب في وراثة نور الدين محمود بعد وفاته ، مبررا مطالبته هذه بالعمل على توحيد البلاد والوقوف ضد الصليبيين (١٣٩) .

وقد تم لصلاح الدين الايوبي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بعد رحيله من مصر في سبعمائة فارس من فرسانه الاشداء ، الاستيلاء على دمشق (١٤٠) ومعظم المدن المجاورة مثل حمص وحماة (١٤١) ، ثم زحفت جيوشه الى حلب (١٤٢) لاحتلالها ولكنه أخفق بالاستيلاء عليها وذلك لان امراءها ، استعانوا بالصليبيين (١٤٣) والاسماعيلية (١٤٤) ضده .

وكان من نتيجة استيلاء صلاح الدين الايوبي على دمشق وحمص وحماة وبعليبك ومحاولاته اخضاع حلب ، قيام سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل بجمع العساكر من الموصل وبلاد

(١٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٨
Grousset: Op. Cit., Vol. 11, P. 621.

(١٣٩) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص ١٨ .

(١٤٠) ابن شداد : سيرة صلاح الدين (مطبعة مصر ١٩٣٤ - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال) ص ٥٠ .

(١٤١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٣٢٨ .

(١٤٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤١٨ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٦٠٩ .

ابن واصل : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣ .

(١٤٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٤ .

الجزيرة واعداد العدة لعبور الفرات والتصدي لمسيرة صلاح الدين الايوبي العسكرية في المنطقة (١٤٥) . ولكن ما ان التى الفريقان حتى هزم جيش الموصل وتقدم صلاح الدين الايوبي نحو حلب فحاصرها (١٤٦) .

غير أنه عقد اتفاقا مع الحلبيين ، فسحب جيوشه طبقا لذلك (١٤٧) . وقد زاد هذا الاتفاق من العداء القائم بين صلاح الدين الايوبي وسيف الدين غازي صاحب الموصل ، مما جعل الاخير يسعى الى تحريض أمراء حلب ضد صلاح الدين الايوبي واخراجه من بلاد الشام (١٤٨) ثم راح يعبيء الجيوش لملاقاة جيش صلاح الدين ، فانضم اليه الامراء نور الدين محمود بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وقطب الدين ايلغازي بن البي صاحب ماردين وأخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار بالاضافة الى الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق (١٤٩) .

أما الحلبيون فقد اتفقوا مع الصليبيين ، وأطلقوا سراح أمرائهم وهم أرناط وجوسلين أمير الرها (١٥٠) .

(١٤٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤١٩ ، أبو شامة : نفس المرجع السابق ص ٦١٠ .

(١٤٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤٢٠ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠ .

(١٤٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤٢٢ .
Grousset: Op. Cit., P. 626.

(١٤٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤٢٢ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥١ .

(١٤٨) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٦٤٧ .

(١٤٩) أبو شامة : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤٧ ، ابن شداد : نفس المرجع السابق ص ٥١ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج ٨ ص ٣٣٣ .

(150) Cahen: La Syrie du Nord, P. 416; Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 408.

وكان يقود الجيوش المتحالفة صاحب الموصل ، حيث التقى بجيش صلاح الدين الايوبي فأوقع هذا الاخير الهزيمة المنكرة بجيوش غرمائه سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م (١٥١) وبذلك أصبح الطريق أمامه يسيرا للمضي الى حلب والاستيلاء عليها فضلا عما يحيط بها من القلاع والمدن مثل «بزاعة» و «منبج» و «قلعة اعزاز» (١٥٢) . ومن النتائج المهمة التي ترتبت على انتصارات صلاح الدين الايوبي، تفكك الحلف المناويء له وعقد الصلح الذي دخل فيه الملك الصالح صاحب دمشق وسيف الدين غازي صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين .

وبعد وفاة سيف الدين غازي صاحب الموصل في ٥٧٦هـ / ١١٨٠م خلفه أخوه عز الدين مسعود (١٥٣) فطلب أمراء عز الدين مسعود ومنهم مجاهد الدين قايماز من صلاح الدين الايوبي تجديد الصلح السابق الذي كان قد عقده مع أبيه سيف الدين غازي ، غير أن صلاح الدين الايوبي أشار عليهم بالرجوع الى الخليفة لتقرير ذلك فقال «ونحن نرى رأينا فيما نعتمده بعد مطالعة الديوان في ذلك» (١٥٤) ويبدو ان الخليفة العباسي أقر حكم أتابكية الموصل الى عز الدين مسعود ، مما لم يدع مجالا لصلاح الدين الايوبي بالاعتراض .

(١٥١) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، ص ٥٢ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج ٨ ص ٣٣٤ .

(١٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤٣٠ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج ٨ ص ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٤ ، ٤٦ .

(١٥٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٦٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٢ قسم ٢ ص ٣٦٤ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٨ .

(١٥٤) محمد تقي الدين عمر : مضممار الحقائق و... الخلائق (تحقيق الدكتور حسن حبشي القاهرة ١٩٦٨) ص ٤٤ .

وفي ٥٧٧هـ / ١١٨١م ضمت حلب الى أتابكية الموصل بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين (١٥٥) ، ولكن لم يلبث صاحب الموصل أن تنازل عنها في السنة التالية الى عماد الدين زنكي صاحب سنجار، خوفا من تسليم الاخير امارته الى صلاح الدين الايوبي (١٥٦) ، وكان الاخير يترقب سير الاحداث عن كثب في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، ويجد في الاستيلاء على الامارات والمدن وتوحيدها للوقوف بوجه الخطر الصليبي الذي كان يتعاظم في تلك المنطقة (١٥٧) ، ولذلك اغتنم فرصة وفاة الملك الصالح ابن نور الدين محمود وتوجه من مصر الى بلاد الشام ثم قرر السير الى حلب ، كما مهد لاستيلائه على بلاد الشام والموصل وامارات الجزيرة الفراتية ، فأرسل كتابا الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، يعلمه بالاطار المحدقة بالامارات الاسلامية ، تلك الاخطار المنبعثة من وجود الصليبيين في المنطقة (١٥٨) .

ونشط صلاح الدين الايوبي ، عندما وقف على ما كان يجري بين عز الدين مسعود صاحب الموصل والصليبيين من اتصالات ، مفادها حث صاحب الموصل الصليبيين على قتال صلاح الدين الايوبي ومهاجمة الثغور الاسلامية (١٥٩) . وقد انضم مظفر الدين كوكبري

(١٥٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤٧٣ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج ٨ قسم ٢ ص ٣٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٠٨-١٠٧ .

(١٥٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠ ،
Grousset: Op. Cit., Vol. 11, P. 685.

(١٥٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٨٧ ، محمد تقي الدين عمر : مضمائر الحقائق وسر الخلائق ص ٩٦ .
Grousset: Op. Cit., P. 715.

(١٥٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٧٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٩٥ .

(١٥٩) محمد تقي الدين عمر : نفس المرجع السابق ص ٩٦ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٩٤-٩٥ .

صاحب حران الى صلاح الدين الايوبي (١٦٠) * وفي ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م، راحت كتائب صلاح الدين الايوبي تعاصر مدينة حلب ، ثم نزلت جيوشه في البيرة و كان صاحبها شهاب الدين الارتقي مواليا له ، كما انضم الى صلاح الدين الايوبي نور الدين بن فرا أرسلان الارتقي. صاحب حصن كيفا ، وتوجه بعد ذلك الى الرها ، فحاصرها ، مما أضطر صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني الى تسليمها له (١٦١) ، وانتزع مدينة الرقة بالقوة من قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، كما استولى على اقليم الخابور (١٦٢) ومدينة نصيبين (١٦٣) ، ولم يبق له الا التوجه نحو الموصل واخضاعها للانصراف بتصفية الامارات الصليبية فسارت جيوشه نحو المدينة وفرضت الحصار حولها ، ولكن بدون ان تحقق أية نتيجة (١٦٤) *

وعلى أثر ذلك أخذ صاحب الموصل يستنجد بالخليفة العباسي. لوقف هجمات صلاح الدين الايوبي على امارته ، فسعى الخليفة الى عقد صلح بين الطرفين ، ولكن مساعيه فشلت في اقناعهما بعقد هذا الصلح (١٦٥) ، اذ قرر صلاح الدين الايوبي الاستيلاء على مدينة سنجار لاضعاف الموصل * وقد استطاعت قواته اقتحامها بعد حصار شديد لها (١٦٦) * لذلك رأى عز الدين مسعود ، ان خير وسيلة لضمان

(١٦٠) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٦-٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٦ *

(١٦١) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص ١١٧ ، ابن خلكان : نفس المرجع السابق ص ٩٠ *

(١٦٢) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ص ٩٥ *

(١٦٣) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص ١٢٨ ، أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج ٥ ص ٨٧ *

(١٦٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٤٨٥ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٨ *

(١٦٥) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٩٥ *

(١٦٦) ابن واصل : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٤٨٨ *

سلامة امارته من تهديداته صلاح الدين الايوبي ، هي الاتفاق مع سـكمان ظهر الدين بن سـكمان القطبي شاه أرمن صاحب خلاط ، وقد استجاب هذا الاخير لدعوة صاحب الموصل بانجاده ، حيث أخذ يهدد صلاح الدين الايوبي الذي لم يعبأ لهذا التهديد (١٦٧) واستمر بالزحف نحو رأس العين فما كان من الحلف المكون من صاحب الموصل وصاحب خلاط وصاحب ماردين وصاحب بدليس وأرزن الا أن تفرق لانهم خافوا من الاشتباك مع قوات صلاح الدين الايوبي ، حيث كانوا يجهلون عددها وعدتها (١٦٨) .

وفي ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م تقدم صلاح الدين الايوبي بقواته نحو باقي حصون الجزيرة الفراتية لاختضاعها ، فاستولى على حصن آمد وضمه الى اماره حصن كيفا (١٦٩) ، وفي طريقه نحو حلب التي كان يستهدفها في كل مرة ، اخضع (تل خالد) و (عين تاب) وهما قلعتان تابعتان لامارة حلب (١٧٠) . وفي ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م استولى على حلب التي كانت تشكل أهمية كبيرة لديه (١٧١) ، ثم بدأ يعد العدة للاستيلاء على الموصل . وكان نواب مجاهد الدين قايمار الذي كان يحكم أربل وجزيرة ابن عمر وشهرزور ودقوقا وقلعة عقر الحميدية ، قد أعلنوا طاعتهم الى صلاح الدين الايوبي وذلك لاقدام عزالدين مسعود صاحب الموصل باعتقال مجاهد الدين قايمار وبنتيجة ذلك

(١٦٧) ابن الاثير : نفس المرجع ج ١١ ص ٤٨٨-٤٨٩ ، ابن واصل : نفس المرجع ج ٢ ص ١٣٢-١٣٣ .

(١٦٨) محمد تقي الدين عمر : نفس المرجع ص ١١٤ ، ابن الاثير : نفس المرجع ج ١١ ص ٤٨٩ .

(١٧٠) تل خالد : قلعة من نواحي حلب : ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٤٠٥ ، وعين تاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية : ياقوت : نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٧٦ .

(١٧١) ابن الاثير : نفس المرجع ج ١١ ص ٤٩٧ ، ابن واصل : نفس المرجع ج ٢ ص ١٤٠ .

أصبحت كل من أربل وجزيرة ابن عمر تابعتين إلى صلاح الدين.
الايوبي (١٧٢) *

ولم تثمر محاولات الخليفة العباسي في عقد صلح بين
صلاح الدين الايوبي وعزالدين مسعود صاحب الموصل * وبذلك
نشط عزالدين مسعود إلى استرداد أربل وجزيرة ابن عمر من
قبضة صلاح الدين الايوبي ، ولدن مظفرالدين كوكبري صاحب
أربل كسر الجيش الذي أرسله عزالدين مسعود بقيادة مجاهد الدين
قايمار أحد أمراء أتابكة الموصل الذي كان قد أطلق سراحه من
السجن (١٧٣) *

ويشير ابن الاثير إلى ما كان يجري بين مظفرالدين كوكبري
وصلاح الدين الايوبي من مراسلات يحثه فيها على اخضاع اماره
الموصل إلى نفوذه ، فتقدم صلاح الدين الايوبي نحو حران والرها
٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وانتزعهما من مظفرالدين كوكبري لتواطئه
عليه ، ثم توجه نحو رأس العين وواصل مسيرته إلى دنيسر ، على الرغم
من التهديد الذي تلقاه من قلع أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم
بالوقوف ضده في حالة تقدمه نحو الموصل وماردين (١٧٤) *

وذكر ابن واصل مضمون الرسالة التي بعث بها صلاح الدين
الايوبي للخليفة العباسي مبررا عمله في الاستيلاء على الموصل ، بأن
أهلها يخطبون للسلطان السلجوقي وينقشون السكة باسمه
ويراسلون الصليبيين ، وأنه لم يأت لاجل الازدياد في الملك وإنما
ردهم إلى طاعة الخليفة وقطعهم عن مواصلة العجم (١٧٥) وخاصة في

(١٧٢) ابن الاثير : نفس المرجع ج ١١ ص ٥٠٠ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق
ج ٢ ص ١٥٤ *

(١٧٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٥٠٤ *

(١٧٤) ابن الاثير : نفس المرجع ج ١١ ص ٥١١ ، وانظر أيضا : ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٢ ص ١٦٥ *

(١٧٥) ابن واصل : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٦٦ *

هذه الفترة التي انتعشت فيها الخلافة العباسية وأخذ يتحسر ظل السلاجقة .

وعلى الرغم من اشتراك عدد من الافراد في جيش صلاح الدين الايوبي لغرض احتلال الموصل ، لكنه عجز عن تحقيق ذلك واضطر الى رفع الحصار عنها للمرة الثانية (١٧٦) .

وعزم صلاح الدين الايوبي في السنة نفسها ٥٨١ هـ ، على اخضاع اماره الموصل وا قدم على محاولته الثالثة التي كان مصيرها الفشل أيضا مما اضطره الى عقد صلح مع عز الدين مسعود ، أمير الموصل ، حصل صلاح الدين الايوبي بموجبه على ضم أعمال الموصل وشهرزور اليه وقطع الخطبة باسم السلاطين السلاجقة وضرب السكة باسمه (١٧٧) .

وكان من أهم نتائج هذا الاتفاق ان خسرت الموصل كيائها كإمارة مستقلة وأصبح أتاك الموصل واحدا من نواب صلاح الدين الايوبي فضعفت الدولة الاتابكية وتقلص ظلها وأوشكت على الزوال حيث انحسرت في رقعة صغيرة من أرض الموصل ، كما تضمن الاتفاق تعهد عز الدين مسعود صاحب الموصل في المشاركة بعساكره وأمواله في الجهاد الذي يتزعمه صلاح الدين الايوبي ضد الصليبيين (١٧٨) فاشتركت القوات الموصلية في معركة طبرية وحطين وفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١٧٩) ، وفي ٥٨٦ هـ اشتركت في حصار عكا (١٨٠) .

(١٧٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٥١٥-٥١٦ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٣٨٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٩٥ .
(١٧٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٥١٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ .

(178) Iane Poole: History of Egypt in Middle Ages, "London, 1955", P. 207.

(١٧٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ٥٢٤-٥٣٨ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٧-١٨٨ .
(١٨٠) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٢ .

وتقدم صاحب الموصل بارسال مجموعة من الاسلحة وكميات من النفط الابيض الى صلاح الدين الايوبي ، كما ارسل جماعة من الحجارين والحفارين للمساهمة في تحصين مدينة بيت المقدس وتعميق خندقها (١٨١) .

وبعد وفاة صلاح الدين الايوبي في دمشق سنة ٥٨٩ هـ دخلت علاقات الاتابكيين في بلاد الجزيرة الفراتية مع الايوبيين حتى نهاية القرن السادس الهجري في مرحلة جديدة اتسمت باستغلال الاتابكيين للصراع القائم بين خلفاء صلاح الدين الايوبي ، فكانوا يتحالفون مع طرف ضد الآخر ، وقد كاتب عز الدين مسعود سنة ٥٨٩ هـ أصحاب الاطراف وامراء المدن بضرورة استرداد ما استولى عليه صلاح الدين الايوبي من اماراتهم وممتلكاتهم في الجزيرة الفراتية (١٨٢) ، غير ان هؤلاء لم يستجيبوا لدعوته لابقائه ضعيفا امامهم فلا يطمع ببلادهم

على أن عز الدين مسعود ، أخذ يعبئ قواته ويتجه نحو نصيبين وتل موزن لغرض الاستيلاء على مدينة الرها وانتزاعها من الملك العادل أخي صلاح الدين الايوبي (١٨٣) ولكن الطرفين استجابا لعقد الصلح بينهما (١٨٤) . وفي ٥٩٤ هـ حاصر الملك العادل مدينة ماردين ، وظل محاصرا لها حتى سنة ٥٩٥ هـ حيث استدعي الجيش المصري الذي كان يشارك في الحصار وذلك بعد ان استقر في حكم البلاد المصرية الملك الافضل (١٨٥) الذي يكن لعمه الملك العادل

(١٨١) العماد الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢٣١-٣٢-٤٠٠ ، ابن الاثير : نفس المرجع ٧٤/١٢ .

(١٨٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٨٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٤٣٥ .

(١٨٣) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص ٤٢٥ .

(١٨٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٨٤ .

(١٨٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٤١ .

العداء (١٨٦) * وقد أشار ابن الاثير الى تأليب الملك الافضل «
لاصحاب الاطراف وامراء المدن في الجزيرة الفراتية ضد الملك
العاذل وسياسته في المنطقة (١٨٧) : وذن على الرغم من ذلك فقد استمر
الملك العادل صاحب دمشق في سياسته العسكرية التي كانت ترمي
الى الاستيلاء على مزيد من المدن والامارات ، مما اتار عليه الملك
الظاهر صاحب حلب ونورالدين أرسلان شاه صاحب الموصل
وحسام الدين تمر تاش صاحب ماردين ، فسعوا الى تكوين حلف
لمواجهة اطماعه في المنطقة ، ولكن عقد الصلح بينهم في ٥٩٧ هـ
قضى على الصراع الذي كان وشيك الوقوع بينهم (١٨٨) *

أما في الفترة الواقعة بين ٥٩٩-٦٠١ هـ ، فقد استمر الصراع
العسكري بين الملك العادل صاحب دمشق ونورالدين أرسلان شاه
صاحب الموصل وقطب الدين محمد صاحب سنجار من جهة ، وبين
الامراء الاراتقة بصورة عامة من جهة أخرى ففي ٥٩٩ هـ وصلت
طلانع جيوش الملك العادل صاحب دمشق يقودها ابنه الملك الاشرف
موسى ، لتحاصر ماردين احدى الامارات الارتقية المهمة وانجبتها
كتائب من قوات الموصل وسنجار (١٨٩) * وبذل الاراتقة جهودا لقطع
خط الرجعة على الجيوش المشتركة ، الايوبية والاتابكية ، ولكنهم
لم يفلحوا ، حيث استمر الحصار العسكري والاقتصادي ، وعلى
الرغم من ذلك فان الجيوش المحاصرة لم تصل الى نتيجة حاسمة ، مما
دعى الملك الاشرف موسى الى طلب المال لقاء انهاء الحصار ، وتدخل
الملك الظاهر صاحب حلب في أمر الصلح ، حيث تعهد صاحب
ماردين بدفع مقدار من المال سنويا وأن يضرب السكة باسمه ويخطب

(١٨٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٩٤ *

(١٨٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ١٤٨ *

(١٨٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٩٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٢٧ *

(١٨٩) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٧٩ *

نلأيوبيين ببلاده ، وبعد عقد الصلح تفرقت العساكر الى بلادها
ورحل الملك الاشرف الى حران (١٩٠) .

٦- موقف الاراتقة من الصليبيين :

وقف آراتقة الجزيرة الفراتية الذين كانوا يتركزون في
امارات ثلاث هي اماره ماردين وامارة حصن كيفا وامارة خرتبرت
في الفترة الواقعة بين ٤٩١-٥٠٧ هـ ، وقفوا الى جانب القوى
الاسلامية الأخرى في منطقة الجزيرة والشام ضد الغزو الصليبي
الذي كانت تتعرض له هذه المنطقة ، حتى ان الاراتقة خسروا أمام
الصليبيين احدى معاقلهم المهمة وهي مدينة سروج ، حيث استولى
عليها بلدوين لي بور (١٩١) .

أما بعد سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م فقد دخل الاراتقة في حلف مع
الصليبيين في حربهم ضد المسلمين واستمر ذلك حتى سنة ٥١٣ هـ /
١١١٩ م ، وكان السبب في تحول سياستهم ، يعود الى مهاجمة الامراء
السلاجقة لممتلكات الاراتقة مما جعلهم يؤيدون موقف طفتكين
صاحب دمشق في مناوئته للسلاجقة والتجائه للصليبيين (١٩٢) .

وفي الفترة ما بين ٥١٣-٥١٨ هـ تبوأ الاراتقة مركز الزعامة
بقي قتال الصليبيين في الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، حيث تم
استيلاء الاراتقة على حلب وتمكنوا من تسديد الضربات المتتالية
للقوى الصليبية المتدفقة على تلك المنطقة . أما بعد تصدر
عماد الدين زنكي لحركة الجهاد ضد صليبي الجزيرة الفراتية وبلاد
الشام ، فقد انصرف الاراتقة عن التصدي لهؤلاء وانهمكوا في
مشكلاتهم وأمورهم الداخلية والدفاع عن ممتلكاتهم التي كانت

(١٩٠) ابن الاثير : الكامل ج٢ ص ١٨٠ .

(191) Runciman: Op. Cit., Vol. P. 209.

(١٢) ضياء الدين بن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٤٩-١٥٦ .

تعرض للهجوم بين حين وآخر من القوى الاسلامية المنافسة لهم ،
وقد دام ذلك حتى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م (١٩٣) .

ومنذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري اتجه الاراتقة
صوب معاداة الصليبيين واسهموا من جديد في حركة الجهاد ضدهم
وخاصة بعد مقتل عمادالدين زنكي ، حيث انقسمت امارته الى
امارتين في الموصل وحلب بقيتا ترفعان حركة الجهاد ضد الصليبيين ،
وقد احتل الاراتقة الجهات الواقعة بينهما .

وكان موقعهم هذا يفرض عليهم الوقوف ضد الصليبيين ،
فيذكر ابن القلانسي تحشيد الامراء الاراتقة لتركمان الاطراف
وقيادتهم والانتصار الذي حققوه على الجيوش الصليبية بالاشتراك
مع قوات نورالدين محمود صاحب دمشق سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م
وقد كان للقوى التركمانية تأثيرها الكبير في قتال الصليبيين (١٩٤) ،
وفي ٥٥٣هـ / ١١٥٨م انجد الاراتقة ، نورالدين محمود ضد
الصليبيين ، حيث حقق في هجومه عليهم نصرا حاسما ، فقد أسر فيه
بوهمند الثالث أمير انطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس
وجوسلين الثالث (١٩٥) .

أما في ٥٧٨هـ / ١١٨٢م فقد أيد الاراتقة خطوة صلاح الدين
الايوبي في مهاجمة الموصل بسبب موالاتها للصليبيين (١٩٦) ، كما

(١٩٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٩ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة
الجزيرة - الورقة ١٧ أ - ١٧ ب .

(١٩٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٨١ .

(١٩٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩-٣٠١-٣٠٤ .

(١٩٥) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٣١٨-٣٢٢ ، ابن الاثير :
الكامل ج ١١ ص ١٢٢-١٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب
ج ١ ص ١٤٣-١٤٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٢٤٦-
٢٤٨ .

Gibb: The Career of Nur-ad-din, Op. Cit., Vol. 1, 524; Runciman, Op. Cit.,
Vol. II, P. 369.

(١٩٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥٤ .

استجابت قوات الاراتقة سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م لدعوة صلاح الدين
الايوبي في قتال الصليبيين (١٩٧) وفي حصار الصليبيين لمدينة عكا سنة
٥٨٥هـ / ١١٨٩م تقدمت القوات الارتقية مع قوات صلاح الدين
الايوبي لانقاذ المدينة من الخطر الصليبي (١٩٨) *

واستمر الاراتقة ينجدون الايوبيين في وقوفهم ضد الصليبيين
بعد وفاة صلاح الدين الايوبي ، حيث استمر ذلك طيلة السنوات
٥٨٩-٦٠٨هـ / ١١٩٣-١٢١١م (١٩٩) *

-
- (١٩٧) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٨-٤٩ ، ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٢١٥
(١٩٨) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٦-٧٧-٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٢
ص ١٥-١٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٤-١٤٥ *
- (٢٠٠) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٥٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨
قسم ٢ ص ٥٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٢-١٧٥ ، ابن تغري
بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٠-١٢١ *

الفصل الثاني

التقاليد والنظم السياسية

مفهوم التقاليد (سلطاتها ومجالاتها ورسومها)

١ - التقاليد السياسية :

٢ - النظم السياسية •

أ - الاتابكية •

ب - الوزارة •

ج - الكتابة •

د - العجاجة •

الفصل الثاني

التقاليد والنظم السياسية

مفهوم التقاليد (سلطاتها ومجالاتها ورسومها)

١ - التقاليد السياسية :

كان أمراء الجزيرة الفراتية في بداية القرن السادس الهجري يحكمون دويلاتهم واماراتهم كمقطعين (بالفتح) باسم السلاجقة ، حيث يستمدون سلطتهم ونفوذهم من السلطان السلجوقي ، ولا يتولى هؤلاء الأمراء الحكم الا بعد أن يقترن بموافقة السلطان ، وصار لزاما عليهم أن يتقيدوا بواجباتهم تجاه خدمة السلاجقة . وقد أصبح ذلك تقليدا يسير عليه الاتابكة والاراتقة . اما اذا فشل أمير من هؤلاء في تأدية واجباته ، أوجد السلاجقة زميلا آخر منهم سائرا اليه بأمر السلطان يخضع اقليمه ويعيد النظام فيه ، وأحيانا يسير السلطان بنفسه للسيطرة على الموقف اذا تفاقم الخطر، لذلك اجتهد هؤلاء الأمراء قدر طاقتهم للاحتفاظ باماراتهم (١) .

(١) انظر الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٢٠٣ .

وكان السلاجقة يعهدون للأتابكة بتربيته أبنائهم وتدريبهم على الحياة السياسية ، فيذكر ابن الاثير ، أن تولى الأتابك جيوش بك امارة الموصل سنة ٥٠٧ هـ لم يتم الا بعد أن تقرر من جهة السلطان السلجوقي محمد ، حيث سير معه ولده الملك المسعود ليربيه (٢) . كما طلب عز الدين مسعود بن البرسقي ، ان يوليه السلطان السلجوقي سنة ٥٢٠ هـ مما كان بيد ابيه الذي قتل فأجابه الى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الأعمال وعهد اليه تربية أحد بنيه (٣) . وتولي عماد الدين زنكي الموصل وبعض ديار الجزيرة ونصيبين وما كان بيد البرسقي سنة ٥٢١ هـ بعد أن تقدم القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري الى السلطان بتوليته ، فمال السلطان السلجوقي أكثر من غيره الى توليته وعهد اليه بتربية ولديه (ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بـ «الخفاجي») (٤) .

ومن التقاليد التي سار عليها السلاجقة ، انهم اذا عهدوا لأحد بالولاية على امارة أو مدينة من بلاد الجزيرة الفراتية ، يعطونه علاة التسليم ويكتب له منشور (٥) ، فلما توفي البرسقي صاحب الموصل سنة ٥٢٠ هـ رأى السلطان محمود أن يقطعها الى عماد الدين زنكي دون غيره لمكانته وشجاعته ، وكتب له منشورا بها سنة ٥٢١ هـ (٦) .

كما أضيفت الى عماد الدين زنكي بعض مناطق الجزيرة ومنحه السلطان محمود لقب أتابك وأرسل الخليفة اليه «العهد والعقد» كما جرت التقاليد (٧) .

-
- (٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٩-٢٢ .
(٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٢ .
(٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٣٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٣١٥-٣١٦ ، ج ٢ ص ٧٩-٨٠ .
(٥) ابن الاثير : الباهر ص ٧٢ .
(٦) ابو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي احمد) ص ٢٩ .
٣٠ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٣ ص ٥٠٠ .

وقد أخذ الاتابكيون بهذا التقليد ، بعد أن أخضعوا أغلب إمارات الجزيرة • ولم يوضح ابن الأثير ما يتعلق بعلامة التسليم أو ما يكتب في المنشور ، ولكن من المحتمل جدا أن يتضمن المنشور تخويلا غير مطلق لحكم الإمارة بالنيابة •

وقد ذكر المؤرخ محمد تقي الدين عمر الأيوبي ، وصول رسول مجاهد الدين قايماز يخبر بموت الاتابك سيف الدين غازي صاحب الموصل سنة ٥٧٥ هـ وجلس أخيه عز الدين مسعود مكانه «وكان الرسول فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي ومعه نسخة اليمين التي حلف السلطان له بها» (٨) •

واستمر السلاجقة يقرون تولية الاتابكيين في مناصبهم بعد عماد الدين زنكي ، ففي ٥٤١ هـ أرسل أمراء عماد الدين زنكي إلى «السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين غازي» فأقره على البلاد وأرسل له الخلع •

وذكر ابن الأثير أن سيف الدين غازي قد لازم خدمة السلطان مسعود أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان «يحببه كثيرا ويأنس به ويبسطه ، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف» (٩) •

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، عندما استعادت الخلافة هيبتها بانحسار ظل السلاجقة منذ عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥-٦٢٢ هـ ، أخذ أصحاب الأطراف والأمراء ، يعترفون بالسيادة الروحية والزمنية للخلافة فيقدمون للخليفة الدعاء في المساجد ويشترون منه ألقابهم ، ويرسلون إليه الهدايا في مختلف المناسبات ، كما كان الأمراء في مخاطباتهم الرسمية

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ص ٣٣ ، ٤٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٥ ص ٢٧١-٢٧٥ •

(٨) محمد تقي الدين عمر الأيوبي : مضمائر الحقائق وسر الخلائق ص ٤٣ •

(٩) ابن الأثير : الباهر ص ٨٦ •

وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة أمير المؤمنين بكل احترام ويعبرون عنه بمولانا . ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع المولى ، وكان أحدهم اذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو «كتابي . . . مولانا أمير المؤمنين ، سالم موفور الله على ذلك محمود مشكور» (١٠) وجاء في الرسالة التي وجهها الأتابك عز الدين مسعود بن ارسلان شاه صاحب الموصل الى الخليفة ما يفيد ، بجعل ولائه للخليفة في «القلوب توأم الايمان حتى لا يضم أحد الا ولاءه وايمانه» (١١) وكتب صلاح الدين الايوبي الى الخليفة الناصر لدين الله عندما اتم تحرير القدس من أيدي الصليبيين قائلا « وما دامت السيوف ناطقة في يد الخادم فاللسنة عنها ناطقة » (١٢) وهذه اشارة الى وضع صلاح الدين الايوبي نفسه بمثابة الخادم يأمره الخليفة فيطيع . كما وضع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل نفسه من الخليفة موضع العبد (١٣) ، ذلك لأن الخليفة كان يمثل رمزا للمؤسسات الدينية ، ومركزا للوحدة الوطنية للعالم الاسلامي ، فضلا عن تمتعه بالسيادة الروحية العليا .

وكان الأتابكة باستئذانهم الخليفة في الأمور السياسية التي كانت تعرض لهم ، انما كانوا يهدفون الى اضعاف صفة الشرعية على حكمهم . ففي ٥٦٦ هـ أرسل الأتابك نور الدين محمود رسولا الى الخليفة المستضيء بأمر الله يستأذنه في الاستيلاء على الموصل «وأن يأخذ له أذنا في ذلك ، وأنه متمثل لما يرد عليه منه» (١٤) وبعد الفراغ من الاستيلاء على الموصل اهدى نور الدين محمود ابن أخيه سيف

(١٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٣ ص ٤٠٣ وانظر : آدم متز : الحضارة الاسلامية ج١ ص ٢٠٢ .

(١١) ضياء الدين بن الاثير : رسائل ابن الاثير ص ٢٤٢-٢٤٣ .

(١٣) ضياء الدين بن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٦٠ .

(١٤) ابو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد) ج٢ ص ٤٧٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٩١ .

الدين غازي صاحب الموصل ، خلعة الخليفة المستضيء بامر الله
والبسه اياها (١٥) . وفي ٥٦٨ هـ أرسل نور الدين محمود ، القاضي
كمال الدين الشهرزوري الى الخليفة المستضيء بامر الله ، يطلب
تقليده البلاد التي كانت بيده وهي مصر والشام والجزيرة
والموصل ، فوافق الخليفة وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد (١٦) .

ويبدو أن أمراء الجزيرة الفراتية الأتابكيون منهم والاراتقة ،
حافظوا على تقاليدهم هذه ، في طلب موافقة الخليفة العباسي على
حكمهم ، خلال القرن السادس الهجري ، فعند وفاة الأتابك القاهر
عزالدين مسعود صاحب الموصل أقر حكم الموصل لابنه نور الدين
أرسلان شاه ، وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة وفيه التشريفات
لهما (١٧) .

وكان الأراتقة يخطبون باسم الخليفة العباسي والساطين
السلاجقة ويضربون السكة باسمهم ويعلنون لهم الطاعة والخضوع
الاسمي ، هذا فضلا عن وضع قواتهم تحت تصرف السلاجقة ، كما
كانوا الى جانب ذلك يدفعون لهم الضرائب النقدية السنوية مثل ما
هو سائد في النظام الاقطاعي خلال القرن السادس الهجري (١٨) .

وكان أمراء الأتابكة والاراتقة ، يبادرون الى «تحليف» الأتابك
أو الامير الجديد ، كما يحلفون له ، وقد أصبح ذلك تقليدا دائما
يسرون عليه خلال القرن السادس الهجري ، وهو يقابل في وقتنا

(١٥) ابن الاثير : الباهر ص ١٥٤ ، العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان
ج ٢١ ص ٤٧٠ .

(١٦) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٩٥ .

(١٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١٢ ص ١١٨ ، ابن العبري : تاريخ
مختصر الدول ص ٢٣١ .

(١٨) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٢١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ
دمشق ص ١٤٧ .

الحاضر - ما ندعوه (باليمن الدستورية) التي يؤديها كبار الموظفين كالوزراء ومن سواهم *

وقد أشار ابن الاثير الى ذلك بقوله «لما توفي سيف الدين غازي، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد واستقر في الملك» (١٩) *

وفي ٥٦٥ هـ أحضر قطب الدين مودود صاحب الموصل ، الأمراء «واستحلفهم لولده سيف الدين غازي الثاني» (٢٠) * كما أرسل سيف الدين غازي الى سنجار من استحضر اليه شمس الدين بن عبد الملك وهو أحد مماليكه وكان متوليا سنجار اذ ذاك وحلفه على أنه لا يمكن آياه من تسليم سنجار الى غيره فحلف له (٢١) ، هذا فضلا عن أن الاتابكيين كانوا يجددون العهود لاولياء عهدهم ويأمرون بأخذ الميثاق على كافة الاولياء من الأجناد والأمراء والاعيان والامثال والعلماء والافاضل (٢٢) ، ويبدو ان هذا التقليد قد شاع في الاتابكيات الاخرى ، فيشير سبط ابن الجوزي الى «تولى الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين محمود صاحب دمشق فحلف له الأمراء والمقدمون» (٢٣) *

وكان الاتابكيون والاراتقة يستشيرون أمراءهم فيما يعرض لهم من أمور وغالبا ما يأخذون برأيهم أو يرفضونه ، فيذكر ابن الاثير ، ان الاتابك سيف الدين غازي أراد أن يعهد بالحكم لابنه معز الدين سنجر شاه (وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة) فأشار الأمراء ومجاهد الدين قايمساز ، وهو أحد أكابر دولته بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل

(١٩) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٩٤٢ *

(٢٠) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٤٦ *

(٢١) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٩٧ *

(٢٢) ابن الاثير : نفس المرجع ص ٢٠٢ *

(٢٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٢٠٤ *

وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطى ابنىيه بعض البلاد
ففعل ذلك وحلف الناس لاختيه (٢٤) ، وفي ٥٧٩هـ / ١١٨٣م أشار
الاميران عز الدين محمود زلفدار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير
وهما من أكابر الامراء على الاتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل
بالقبض على وزيره مجاهد الدين قايمار والتخلص منه ففعل ،
ولكنه عاد فأفرج عنه وخلع عليه وأعادته الى ولاية قلعة الموصل (٢٥) .

وفي ٥٧٧هـ / ١١٨١م استقدم الملك الصالح اسماعيل بن
نور الدين محمود ، الامراء والاجناد وأوصاهم بتسليم حلب الى ابن
عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم على
ذلك . ولكن الامراء لم يوافقوه وأشاروا عليه بأن يوصى بها لابن
عمه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، غير أن الملك الصالح لم يعمل
بمشورتهم ، فلما توفي ارسلوا الى عز الدين مسعود يستدعونه
لتسليمه حلب (٢٦) .

وكان الاتابكيون ينيبون عنهم أكابر أمرائهم في أداء اليمين
ويخولونهم عقد معاهدات الصلح واجراء المفاوضات أو الاتصال
بالخليفة في بغداد .

ففي ٥٧٦هـ / ١١٨٠م خول الاتابك عز الدين مسعود صاحب
الموصل ، مجاهد الدين قايمار وهو أحد أكابر أمرائه ، الاتصال
بصلاح الدين الايوبي ، فأوفد مجاهد الدين قايمار الفقيه أبا شجاع
ابن الدهان البغدادي ، وطلب اليه القيام بتجديد الصلح بين
عز الدين مسعود وصلاح الدين الايوبي وزوده برسالة منه الى صلاح
الدين جاء فيها ما يشير الى شفاعاة الخليفة العباسي بتولي عز الدين

(٢٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٨١ ، أنظر ايضا سبط ابن الجوزي : مرآة
الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٣٦٤ .

(٢٥) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٨٤ .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٧٣ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٥ ،
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٣٦٧ .

مسعود بعض بلاد الجزيرة الفراتية ، كما جاء فيها ان الخليفة قد
فوض مجاهد الدين قايمـاز ليفعل ما يراه من المصلحة في هذا
الشأن (٢٧) .

وفي ٥٩٦ هـ وأثناء النزاع الاتابكي الأيوبي (٢٨) حول مناطق
الشام والجزيرة الفراتية ، وصل نور الدين أرسلان شاه صاحب
الموصل بقواته الى مدينة رأس العين في محاولة للتصدي لقوات الملك
الفائز ابن الملك العادل صاحب دمشق لتخليص بعض المدن والمناطق
التي وقعت بحوزة الايوبيين ، فانبرى الملك الفائز يرغب في الصلح
فأرسل من معه من أكابر الامراء «يرغبون في الصلح
ويشيرون به فاقتضت المصلحة اجابتهم الى ما طلبوا ، فصالحهم على
ما بأيديهم وضمنوا له أن يحلفوا له الملك العادل وحلفوا له على ذلك
فأرسل نور الدين أرسلان شاه الى الملك ، القرار الذي اتخذ بهذا
الشأن وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده الملك الفائز ، فحلف
له واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد (٢٩) .

كما أن الاتابكيين كانوا يستنجدون بالخليفة العباسي ويطلبون
تدخله لفض النزاعات التي كانت تنشب بينهم أو تلك التي كانت

(٢٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٣٦٥ .
(٢٨) يمكن ان نصلح بذلك على الفترة الواقعة بين ٥٨٧ هـ / ١١٨٢ م حتى نهاية
القرن السادس الهجري ، وتبدأ بتحريك قوات صلاح الدين الايوبي من مصر
متجهة صوب بلاد الشام ، بعد ان بلغه اتصال الاتابك عز الدين مسعود
صاحب الموصل بالصليبيين وتحريضهم على الوقوف ضد صلاح الدين
الايوبي ومهاجمة الثغور الاسلامية لاشغاله عن قصد بلاد الاتابكيين ، وقد
انضم الى جانب صلاح الدين الايوبي مظفر الدين كوكبري صاحب اربل
وواصل صلاح الدين تقدمه نحو مدن الجزيرة الفراتية واستولى على بعضها
وهدد امارة الموصل وفرض الحصار حولها ، انظر : محمد تقي الدين عمر :
مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٩٦-٢٠١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان
ج ٢ ص ٩٤-٩٥ ، رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين
زنكي ص ١٣٦ .

(٢٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٩٦ .

تتقوم مع غيرهم وخاصة مع صلاح الدين الايوبي ، ففي ٥٧٨هـ
ارسل الاتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل ، القاضي بهاء الدين
ابن شداد الى الخليفة الناصر لدين الله يستنجد به ويطلب تدخله لمنع
صلاح الدين الايوبي عن بلاده فأرسل الخليفة الى صدر الدين شيخ
الشيوخ وكان آنذاك بصحبة صلاح الدين الايوبي ويشير الخادم
وأنضم اليهما القاضي محيي الدين الشهرزوري وأمرهم بالتوسط
في الصلح بين الطرفين (٣٠) .

النظم السياسية :

أ - الأتابكية :

ظهرت أتابكية الموصل في مطلع القرن السادس الهجري عندما
قال عماد الدين زنكي هذا اللقب سنة ٥٢١هـ من قبل السلطان
السلجوقي محمود (٣٢) ، وأصبح الامراء الذين حكموا بعده يعرفون
باسم الأتابكة ، كذلك ظهر مفهوم سياسي محدد للأتابكية ، اذ كان
الأتابكة يحكمون من الناحية الرسمية باسم السلاطين السلجقة ،
«وكانوا يظهرون للخلفاء والسلاطين وأصحاب الاطراف ، ان البلاد
التي يحكمونها ، «انما هي للملك ألب أرسلان» وانهم نواب فيها ،
فكان عماد الدين زنكي اذا أرسل رسولا أو أجاب على رسالة فانما

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٠٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص

١٥٥ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبي ص ٥٧ .

(٣١) جمع أتابك ، لفظ تركي مركب من (أتا) بمعنى (أب) و (بك) بمعنى

(أمير) وكلمة أتابك معناها الأمير الوالد (ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١

ص ٣١٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٧٩) وقال القلقشندي : «وليس

للأتابك وظيفة ترجع الى حكم وأمر ونهي وغايته رفعة المحل وعلو المقام ،

وكان الأتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد أو أكثر

من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشيد» صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣٢) أبو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد)

ص ٤٢، ٣٣ .

يقول : قال الملك : «كذا وكذا» (٣٣) ، ذكر ابن الاثير سنة ٥٣٩ هـ .
«ان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند عماد الدين زنكي وهو أتابكة ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الاطراف ، ان البلاد التي بيده ، انما هي للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها» (٣٤) .

ولكن السلطة الحقيقية كانت متركزة بيد الاتابك الذي كان يحكم البلاد ، حيث لم يكن لاحد من أبناء السلاطين الذين كانوا يربونهم الاتابكة ، أية سلطة عملية ، بسبب صغر سنهم وعدم استطاعتهم الحكم لضعفهم .

وتمثل النظام الأتابكي في المشرق الاسلامي على عهد السلاجقة بظهور أتابكيات أخرى الى جانب أتابكية الموصل على المسرح السياسي هي :

-
- (٣٣) ابن الاثير : الباهر ص ٧١ .
(٣٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٧١ .
(٣٥) ومؤسسها محمد خوارزم شاه بن نوشتكين ، وكان نوشتكين هذا مقربا لسلاجقة بلاد فارس وقد عين السلطان بركياروق بن ملكشاه ابنه محمد حاكما على اقليم خوارزم ولقب ب (الشاه) واستطاع هذا الاخير توسيع اتابكيته فشملت دولة الخطا والعراق العجمي ، وذلك بعد القضاء على آخر سلطة السلاجقة في العراق سنة ٥٩٠ هـ . وفي عهد ابنه علاء الدين منكبرتي (٥٩٦-٦٢٨ هـ) توسعت رقعة اتابكية خوارزم ، فشملت بلاد ما وراء النهر وبعض الاقاليم على المحيط الهندي وغزنة الواقعة غربي نهر السند . وعرفت هذه الاتابكية فيما بعد باسم الدولة الخوارزمية التي سقطت على أيدي المغول . بعد مقتل جلال الدين منكبرتي في جبال كردستان سنة ٦٢٨ هـ (الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٠١) .
(٣٦) ومركزها (مرند) إحدى مدن اذربيجان . ومؤسسها سقمان القطبي الذي كان مملوكا للحاكم السلجوقي في تلك المناطق ، قطب الدين اسماعيل . وقد ضمت اليها مدينة خلاط سنة ٤٩٣ هـ . وفي ٦٠٤ هـ استولى نجم الدين أيوب . ابن الملك العادل على هذه الاتابكية .
(٣٧) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٦-١٢٧ ، حافظ احمد حمدي : المشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ص ١٠٨ .

أتابكية خوارزم (٤٩٠-٢٦٨هـ) (٣٥) وأتابكية أرمينية (٤٩١-٦٠٤هـ) (٣٦) وأتابكية أذربيجان (٥٣١-٦٢٢هـ) (٣٧) وأتابكية فارس (٥٤٣-٦٨٦هـ) (٣٨) وأتابكية دمشق (٤٩٧-٥٤٩هـ) (٣٩) وهناك أتابكيات أخرى صغيرة (٤٠) .

ويرجع ظهور هذه الاتابكيات الى النظام الاقطاعي السلجوقي (٤١) .

وأشار ابن الاثير الى اهتمام السلاجقة بمنح الالقاب لهؤلاء الاتابكة الذين كانوا يديرون بلادا واسعة ، مما يدل على علو منزلتهم لدى السلاجقة واعتمادهم المطلق عليهم ، فقد لقب والد

(٣٧) وتقع في اقليم أران (أرانية) في شمال أذربيجان ، وكان مؤسسها ايلدكز احد مماليك السلطان السلجوقي مسعود . شملت هذه الاتابكية معظم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل وهمدان وأصفهان ، وقد استطاع جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية الاستيلاء عليها سنة ٦٢٢هـ (ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٣٨٨-٣٨٩ ، ج١٢ ص ٤٣٦-٤٣٧) .

(٣٨) أسسها (سلفر) قائد احدى القبائل التركمانية التي هاجرت الى خراسان وانضمت الى قوات طغرل بك السلجوقي . وفي عهد سنقر بن مودود التركماني تم الاستيلاء على اقليم فارس سنة ٥٤٣هـ وعلى كرمان ، ثم اتخذت شيراز عاصمة لهذه الاتابكية . وقد خضعت لجنكيزخان ثم لهولاكو أبان الغزو المغولي لشرق العالم الاسلامي (حافظ حمدي : الشرق الاسلامي ص ١٠٩-١١٠) .

(٣٩) وتنسب الى ظهير الدين طغتكين وهو أحد قواد الجيش السلجوقي ومملوك السلطان تتش . وقد استمرت هذه الاتابكية الى سنة ٥٤٩هـ حيث استولى عليها نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي وانتزعها من صاحبها مجيرالدين ابن محمد بن بوري بن طغتكين (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٩٧) .

(٤٠) مثل اتابكية اربل وatabكية جزيرة ابن عمر في بلاد الجزيرة وatabكية لورستان وatabكية كرمان في بلاد المشرق .

(٤١) الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٢٠٣-٢٠٤ .

عماد الدين زنكي في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه بلقب (قسيم الدولة) اذ «كانت الالقاب حينئذ مصنونة لا تعطى الا لمستحقيها» (٤٢) .

وذكر القلقشندي أن أول من تلقب بلقب أتابك (٤٣) هو وزير السلاجقة نظام الملك ، حيث فوضه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، تدبير المملكة في ٤٦٥ هـ (٤٤) . ونتيجة لتطبيق نظام الملك للاقطاع العسكري (٤٥) ، أخذ الامراء المقطعون الذين هم الأتابكة والاراتقة في الجزيرة الفراتية ، يستقلون باقطاعاتهم ويعلنون انفصالهم بالتدريج عن الدولة السلجوقية ، وصاروا يتخذون الالقاب لانفسهم (٤٦) .

ولكن السلاجقة توسعوا في منح هذا اللقب بحيث أنهم أسبغوه على كبار رجال الدولة وقواد الجيش وبذلك أصبح من ألقاب الشرف في الدولة السلجوقية (٤٧) .

ب - الوزارة :

الوزارة مؤسسة سياسية تمثل أعلى المناصب في الدولة السلجوقية على نحو ما كانت عليه أيام العباسيين فكان الوزير يعمل

(٤٢) ابن الاثير : الباهر ص ٤ .

(٤٣) والأتابكة هم من المماليك الاتراك يجلبون من بلاد القفجاق بواسطة النخاسين الذين كانوا يختطفونهم أحيانا وهم أطفال ويرسلونهم الى أسواق النخاسة المنتشرة في أقاليم الدولة العباسية ، حيث يقبل الخلفاء والامراء على شرائهم ويستخدمونهم في بلاطهم لحسن منظرهم وجمال خلقتهم ويربى بعضهم في قصور السلاطين السلاجقة الوظائف الحكومية ، كما يستخدمون في الجيش السلجوقي نظرا لما عرف عنهم من قوة البدن وتعودهم على النظام البدوي .

(٤٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ١٦٧ ، ج ٤ ص ١٨ .

(٤٥) انظر فصل الاقطاع .

(٤٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ، الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة ص ٢٠٣ .

(٤٧) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٣ .

كمستشار وناصح للسلطان فضلا عن اشرافه على جميع مرافق الدولة وشؤونها المختلفة . واقتبس الاتابكة والاراتقة ما طبقه السلاجقة فيما يتعلق بمنصب الوزارة وطبيعته السياسية والادارية وحدود اختصاصاته . وقد زاد هؤلاء اهتمامهم بهذا المنصب حتى غدا يضم صلاحيات وسلطات عملية واسعة ، مما أوجد أساسا لنظام الوزارة الايوبية - المملوكية فيما بعد ، فأشار القلقشندي الى ما يفيد بأن جذور النظم الايوبية - المملوكية تعود الى العصر الاتابكي في الموصل وحلب ، فيقول «ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية خالفتها في كثير من ترتيب المملكة وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية بالموصل وبلاد الشام» (٤٨) ، حيث كان منصب الوزير في الموصل (٤٩) من المناصب المهمة فقد استوزر الاتابك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ٥٤١-٥٤٤ هـ / ١١٤٦-١١٤٩ م جمال الدين بن علي الاصفهاني (٥٠) كما ان خليفته قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ٥٤٤-٥٦٥ هـ / ١١٤٩-١١٦٩ م قد استوزره أيضا فأصبح «مشرفا لمملكته كلها فحفظ الدولة» (٥١) . واتخذ الملك الاتابكي سيف الدين غازي الثاني ٥٦٥-٥٧٦ هـ / ١١٦٩-١١٨٠ م أبا الحسن جلال الدين وزيرا له «ومكنه في ولايته وفوض اليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الامور وإطلاع على دقائق الحسابات وعلم بصناعة الكتابة الحسابية» (٥٢) .

(٤٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٥ .

(٤٩) ويسمى (وزير الموصل) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص ١٦٦ .

(٥٠) ابن الاثير : الباهر ص ٨٦ .

(٥١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١١٨-١١٩ .

(٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٧٧ .

وأشار ابن الاثير الى طبيعة منصب الوزير في العهد الاتابكي بقوله : ان الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ٦٠٧-٦١٥ هـ / ١٢١٠-١٢١٨ م كان يسعى الى الحصول على من يشد أزره بمن يجعله له وزيرا وعلى ما فوض اليه من أعباء المملكة ظهيرا ليكون مدبرا لدولته وناظرا في مهام مملكته ونائبا عنه في ولاية رعيته (٥٣) .

ويبدو أن الصلاحيات التي كان يمارسها وزير الاتابكة ، تشابه في طبيعتها الى حد ما كان يمارسه وزراء خلفاء بني العباس وخاصة المتأخرين منهم (٥٤) ، حيث لم تكن تقتصر على الاشراف على أوضاع الدواوين والنظر في الامور المالية ، بل تجاوزتها الى الامور السياسية والعسكرية . وقد أوضح ابن الفوطي ذلك بقوله :

«ان فخر الدين كان من أعيان أهل الموصل وأكابرها ، وكان مقدما عند بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل فاستوزره وفوض أموره اليه واعتمد في جميع مهماته» (٥٥) . ولكن تدل الاشارات على أن الوزير كان يخول النظر في الامور المالية وخزانة الدولة ، أكثر من أية صلاحيات أخرى ، فقد كان الوزير تاج الدين محمد بن نصر يوزع الهبات والعطايا ويبدع أموال الرغد والمساعدات المالية (٥٦) ، وربما كانت تتجاوز الى الاشراف على توزيع رواتب الجند والموظفين والقادة العسكريين . ولذلك أصبح يلزم على الوزير أن يكون صاحب كفاية ومقدرة وعفة (٥٧) ، وأن يكون من ذوي الاخلاق

(٥٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(٥٤) انظر حول الوزارة في العصر العباسي الاخير (ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٣١٩-٣٣٩) .

(٥٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٤ قسم ٣ ص ١٧١ .

(٥٦) ابن الاثير : الباهر ص ١٧٧ ، محمد بن يوسف الكنجي القرشي : كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (طبعة النجف) المجلد ٣ ص ٣ .

(٥٧) ابن الاثير : الباهر ص ١١٨ .

العالية والشرف الرفيع ، وأن تتوفر فيه الصرامة ورجاحة العقل
والشهامه (٥٨) .

وكان غالبا ما ينوب عن الوزير في الديوان شخص آخر ، يخوله
انجاز مهامه لسبب ما ، فقد أشار ياقوت الى أن وزير الاتابكة جلال
الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الاصفهاني ، قد أناب عنه في
ديوان الموصل أبا السعادات المبارك محمد بن محمد بن الاثير (٥٩) .

وورد عن الاتابكة أنهم كانوا يستوزرون ممن شغل وظيفة
سابقة في الديوان وأثبت دراية وكفاية فيه ، فقد ندب نورالدين
أرسلان شاه ٥٨٩-٦٠٧ هـ / ١١٩٣-١٢١٠ م الى وزارته المبارك
ابن محمد بن الاثير الذي كان قبل ذلك قد تولى ديوان الجزيرة ، أي
جزيرة ابن عمر (٦٠) ، كما جاء عن الاتابكة أيضا ، أنهم كانوا
يعتمدون بعض الاشخاص من أصحاب العلم والادب والفقهاء ولهم
دراية بعلم الديوان ويجعلونهم بمثابة المستشارين ولقد أسماهم
ابن الفوطي بأنهم كانوا من المرشحين لتسولي منصب الوزارة (٦١)
ولكنهم ليسوا وزراء ، مثل أبي السعادات المبارك ابن الاثير الذي

(٥٨) القرشي : كفاية الطالب ص ٣ .

(٥٩) ياقوت : معجم الادباء ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٦٠) ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٩٩ ، ياقوت : معجم الادباء ج ٦
ص ٢٣٨ .

(٦١) كان المبارك بن احمد بن المستوفي المؤرخ المشهور المتوفي سنة ٦٣٧ هـ قد
قصد الموصل وأقام فيها وله راتب يصل اليه من أمير الموصل وكانت له
معرفة بعلم الديوان وضبط قوانينه وحسابه ، وقد ولي نظر الديوان في أربل
وكانت له صلة شبيهة بالوزارة . ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في
معجم الالقاب ج ٥ (المنشور في مجلة (Oriental College Magazine)
- الهند - تصحيح وتعليق الحافظ محمد عبدالقدوس - ١٩٤٠ - العدد
١ ص ٢٦٤) ، وانظر أيضا ياقوت : معجم الادباء ج ١ ص ١٨٦ ، ابن خلكان :
وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٩٧ ، السيوطي : بغية الوعاة (تحقيق محمد أبو
الفضل ابراهيم ط) ج ١ ص ٢٢٧ .

كتب لامراء الموصل وكانوا يحترمونه ويمظموه ويستشيرونه وكان بمنزلة الوزير الناصح الا انه كان منقطعا الى العلم (٦٢) .

ولم يتأيد لنا استيزاز الاتابك الواحد لعدد من الوزراء في اختصاصات مختلفة على الرغم من اشغال جمال الدين الاصفهاني وزير الاتابك عماد الدين زنكي منصب الوزارة طيلة عهد الاتابك المذكور وأشارت المصادر الى قيام عدد من الوزراء في هذه الفترة مثل الكفرتوشي ٥٢٨-٥٣٦هـ / ١١٣٣-١١٤١م وأبي الرضا بن صدقة ٥٣٦-٥٣٨هـ / ١١٤١-١١٤٣م وأبي الفنائم حبشي ٥٣٨-٥٤١هـ / ١١٤٣-١١٤٦م ، وقد ذكر ابن خلكان انه لما اعطى جمال الدين الاصفهاني ذلك المنصب كان الوزير يومئذ الكفرتوشي ، ولما تولى في الوزارة بعده أبو الرضا بن صدقة «بقي جمال الدين على وظائفه» (٦٣) مما يجعلنا نعتقد بأن منصب جمال الدين كان ثابتاً وصلاحياته عامة شاملة، فيما تكون سلطة الوزير قاصرة وصلاحياته محدودة ، وقد أشار ابن الاثير الى ذلك بأن عماد الدين زنكي جعل جمال الدين الاصبهاني الذي هو ليس وزيرا بل «مشرف مملكته» كلها وحكمه تحكيما لا مزيد عليه» (٦٤) .

ويبدو ان استناد جمال الدين الاصبهاني الى قوة عماد الدين زنكي وحبه له وثقته به جعله في مركز أقوى من مراكز الوزراء الذين كانوا يرتابون به ويتحاشون من الاصطدام معه . وقد ألقى

(٦٢) اتخذ الماليك وزراء لهم ، كانوا يقومون بمثل هذه المهمة ، فهم بمثابة الاستشاريين ، وقد وصفهم القلقشندي بقوله «انهم ليسوا وزراء وان كان الجاري على السنة العامة اطلاق لفظ الوزير عليهم» صبح الاعشى ج١ ص ١٨٨ ، وانظر أيضا :

The Encyclopaedia of Islam Art, Badr-al-Din, Lulu, P. 40. (K.P. Zettersteen).

.....

(٦٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٢٢٨ .

(٦٤) ابن الاثير : الباهر ص ١١٨-١١٩ ، انظر ايضا ابن خلكان : وفيات الاعيان نفس المرجع السابق ج٤ ص ٢٢٨ .

ابن الاثير ضوءاً مهماً على الصلاحيات العملية التي كان جمال الدين الاصبهاني يمارسها ، حيث (كان له من الكفاية والنظر في صغير الامور وكبيرها والمحاqqة فيها ما يدل على تمكنه من الكناية) (٦٥) .
كما تشير المصادر الى أن عماد الدين زنكي عود جمال الدين الاصبهاني «في الاشراف على ديوانه وزاد راتبه (٦٦) ومكنه في منصبه» (٦٧) .

واستوزر الاتابكيون بعض الاشخاص ممن قدموا لهم خدمات سياسية تركت تأثيرها في نفس الامير ، يذكر ابن الاثير ، أن سيف الدين غازي الأول كافأ جمال الدين الاصفهاني بجعله وزيراً له وذلك لحسن سياسته وتصرفه في احباط مؤامرة الامير السلجوقي ألب أرسلان (٦٨) ، وخوله صلاحيات واسعة وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده (٦٩) . كما ان هذا الوزير لعب دوراً كبيراً أثناء الازمة التي نشأت بين قطب الدين مودود صاحب الموصل وأخيه نور الدين محمود صاحب دمشق حول مدينة سنجار (٧٠) ، حيث استطاع ايجاد حل سياسي للازمة باقرار الصلح بينهما والانصراف معاً لمقاومة صليبي المنطقة .

أما الاراتقة فقد تأثروا هم أيضاً بالنظام السلجوقي فيما يتعلق باتخاذ الوزراء وتخويلهم سلطات وصلاحيات واسعة ، وقد أشار الفارقي الى الوزير أبي تمام بن عبدون الذي استوزره ايلغازي

-
- (٦٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج٤ ص ٢٢٨ .
(٦٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٢ .
(٦٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق (مطبعة الموسوعات مصر ١٩٠٠) ص ١٩٢-١٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٢٢٨-٢٢٩ .
(٦٧) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٢-١٩٣ .
(٦٨) ابن الاثير : الباهر ص ٨٤-٨٦ .
(٦٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٩٢ .
(٧٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٩٦-٩٧ ، ابو شامة : كتاب الروضتين تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد ، ج١ ص ١٧٣ .

بن ارتق ٤٩٨-٥١٨ هـ صاحب اماره ماردين (٧١) ، الذي كان على ما يبدو يتمتع بمثل هذه السلطات كما استوزر حسام الدين تمر تاش سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م صاحب اماره ماردين الوزير عبد الملك الذي استمر في منصبه حتى سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م وقد أشرف على الوقف وقام بمصادرة املاك بعض كبار المسؤولين (٧٢) * ودخل في خدمة حسام الدين تمر تاش ، حبشي بن محمد بن حبشي الذي ولاه الوزارة «فبلغ من الدولة مالم يبلغ غيره وتحكم أوفى تحكم» (٧٣) وعندما توجه حبشي بن محمد الى مدينة ميفارقين «عمل هناك حساب أرباب الاعمال والكتاب وسلك بهم أعسف الطرق والخسف والقهر» (٧٤) * ويبدو ان استبداد هذا الوزير وتحكمه ، قد شجعه على حبك مؤامرة ضد حسام الدين تمر تاش وذلك باتفاقه سرا مع عماد الدين زنكي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م لتسليمه مدينة ميفارقين (٧٥) ، أما الوزير ابراهيم بن منقذ الذي ولى الوزارة (٧٦) للاراتقة فقد اعتقله حسام الدين تمر تاش صاحب ماردين سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ (٧٧) وذلك لمحاولته استغلال منصبه كسلفه (٧٨) * .

وأشار الفارقي الى استيزار حسام الدين تمر تاش ، زين الدين اسعد بن عبد الخالق سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م الذي اغتيل بعد عام واحد من تسلمه المنصب (٧٩) * .

-
- (٧١) الفارقي : تاريخ آمد - مخطوطة - الورقة ١٠٣ - ١٠٤ أ .
 (٧٢) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٩ أ ب .
 (٧٣) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١١٠ أ .
 (٧٤) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١١٠ أ .
 (٧٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - قسم الجزيرة - الورقة ١٠٣ ب - ١٠٤ أ .
 (٧٦) الفارقي : تاريخ آمد - الورقة ١٢٤ أ .
 (٧٧) الفارقي : نفس المرجع ، الورقة ١٢٥ أ .
 (٧٨) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٤ أ .
 (٧٩) الفارقي : الورقة ١٣٥ ب .

ولم يستوزر حسام الدين تمر تاش بعد ذلك شجعماً آخر .
مكتفياً بالاجل مؤيد الدين مشرف الديوان ، حيث «أغناه عن جميع
من خدمه» (٨٠) ، ويظهر ان صاحب مارددين أراد أن يتخلص من
المشكلات التي كان يجرها عليه معظم وزرائه حيث قرر الاعتماد على
بعض كبار موظفيه لانجاز ما كان يقوم به الوزارة من مهمات
رسمية (٨١) .

كما أن ممارسة الوزراء لصلاحيات وسلطات سياسية وإدارية
واسعة كتقدير الضرائب وفرضها على أرباب الأعمال والكتاب
ومصادرة كبار الموظفين وعزلهم وتولييتهم وترؤس الوفود والمشاركة
في تنظيم الدفاع عن المواقع والمدن والحصون التي يتهددها الخطر ،
كل ذلك حد من سلطات الأمير الارتقي نفسه (٨٢) .

ج - الكتابة :

شغل عدد من الأشخاص الواسعي الاطلاع في اللغة والكتابة
خلال القرن السادس الهجري مهمة «كتاب الانشاء» (٨٣) أو «كتاب
الرسائل» في دواوين المدن والامارات الاتابكية والارتقية ودوائر
الدولة فيها في الجزيرة الفراتية ، وذلك كما هو الحال بتولى هذه
الوظيفة في دار الخلافة العباسية .

وكان ديوان الموصل يضم عددا من كتاب الانشاء في عهد
بدر الدين لؤلؤ (٨٤) ، وكان هؤلاء يشغلون وظائفهم يقوم أصحابها

(٨٠) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٥ب-١٣٦ أ .

(٨١) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٥ أ - ١٣٦ أ .

(٨٢) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٦ أ .

(٣٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٤١٢-٤١٣ ، الكتبي : فوات الوفيات
ج ٢ ص ١٩٣ .

(١٨٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٣ ، الحوادث الجامعة والتجارب
النافعة ص ٣٤٨ .

يانشاء الرسائل وتحريرها(٨٥) وذلك على غرار وظيفة كاتب السلة العباسية الذي كان صاحبها يشغل رئاسة كتاب الوزير في أواخر أيام الدولة العباسية(٨٦) . وقد أصبح بيد كاتب الانشاء ديوان الموصل أو دواوين المدن الاخرى أسرار سياسة الامير وخفاياها ولديه الاطلاع الكافي على أحوال الادارة المختلفة . وان أغلب كتاب الانشاء هؤلاء كانوا من الادباء والمتعلمين في اللغة ، فقد كان ضياء الدين بن الاثير كاتباً للانشاء قبل أن يتولى رئاسة ديوان الموصل وكان من طبقة الادباء البارزين في عصره(٨٧) وله مؤلفات عديدة في هذا الباب(٨٨) كما كان ابراهيم بن عبدالرزاق بن أبي بكر ابن رزق الرسعني المعروف بابن المحدث الذي رتب كاتباً للانشاء في ديوان الموصل ، واحداً من أبرز الشعراء في القرن السادس الهجري(٨٩) . ومحبي الدين أبو المحاسن يوسف بن سلامة الهاشمي المعروف بابن زبلاق الكاتب للانشاء في الديوان ، سيداً كبيراً وعالماً واسع الاطلاع ومن فضلاء الشعراء المجيدين(٩٠) .

وعلى الرغم من اختصاصات هؤلاء الكتاب التي لا تتعدى كتابة الرسائل واعدادها ، كما تبدو لأول وهلة ، ولكنهم يخولون صلاحيات سياسية على أية حال ، حيث كان يقوم أكثرهم بمهمة السفراء ، أو ما تقابل مهمة المبعوثين السياسيين في الوقت الحاضر ،

(٨٥) انظر كتاب «رسائل ابن الاثير» الرسائل التي كتبها نصرالله بن الاثير عن الامراء الاتابكيين وبدرالدين لؤلؤ الى الخلفاء العباسيين والافراد واصحاب لاطراف ص ٦٠ فما بعد .

(٨٦) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٦٨ .

(٨٧) كتاب رسائل ابن الاثير ص ٩ .

(٨٨) من أهم مؤلفاته التي صنف في النقد والبلاغة «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» .

(٨٩) القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج ١ ص ٤١ .

(٩٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٥١٤ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج ١ (القسم الادبي) ص ٨٤ .

فيجرون الاتصالات والمباحثات التي تتعلق بالسياسة الخارجية مع الخلفاء أو الملوك أو السلاطين أو الامراء الآخرين ويمهدون في أحيان كثيرة لانشاء العلاقات السياسية .

يذكر ابن الاثير ما كان يقوم به كمال الدين أبو الفضل محمد ابن عبدالله بن القاسم الشهرزوري من نشاط في المهمات السياسية التي كان يكلفه بها عمادالدين زنكي حيث يقوم بالاتصال بالخليفة العباسي الراشد بالله أو بالسلطان السلجوقي أو بأمراء المدن وأصحاب الاطراف (٩١) ، كما أمر عمادالدين زنكي مبعوثه هذا وكاتب رسائله بمكاتبة جماعة من أهل مدينة دمشق واستمالتهم واطماعتهم في الرغائب والصلات بعد أن أحاطت جنوده بالمدينة وحاصرتها ، ففعل ذلك (٩٢) وأشار اليونيني الى وظيفة كاتب الانشاء عند الاراتقة وتخويله صلاحيات وسلطات سياسية (٩٣) ، واعتمادهم على ما كان يقوم به في نطاق العلاقات الخارجية .

د - الحجابة :

ظهر نظام الحجابة في عهد الامويين والعباسيين ، وأول من اتخذ من الخلفاء الامويين معاوية بن أبي سفيان بعد تأمر الخوارج عليه ومقتل الخليفة علي بن أبي طالب ، فضلا عن اتخاذه مظهرا من مظاهر الابهة وخوفا على حياتهم وتفريق العامة عن أبوابهم لكي لا ينشغلوا عن النظر في مهمات الدولة (٩٥) .

(٩١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٨-١٩ ، الباهر ص ٥٤ .

(٩٢) ابن الاثير : الباهر ص ٥٨ .

(٩٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٤١٢-٤١٣ .

(٩٤) الحاجب : البواب : انظر : ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٢٩٨ .

(٩٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٣٣٠ (طبعة مصر ١٩٦٣) ، ابن

الاثير : الكامل ج ٥ ص ٥ .

وقد سيطر بعض هؤلاء الحجاب على أمور الدولة وتدخلوا في شؤون الحكم كما زاحموا الوزراء في صلاحياتهم . وكان يطلق على الحاجب في العصر السلجوقي اسم «الأمير الحاجب الكبير» (٩٦) وكانت مهمته نقل مطالب السلطان الى الوزير أو الى غيره من موظفي الدولة لتنفيذها . كما أشار الى ذلك البنداري بقوله «والامير الحاجب الكبير هو الذي يسمع مشافهة السلطان ويؤديها الى الوزير فهو الناهي الأمر» (٩٧) وأخذ الاتابكة في الجزيرة الفراتية هذا المنصب عن السلاجقة وطبقوه في اماراتهم فقد اتخذ عمادالدين زنكي سنة ٥٢١ هـ ، صلاح الدين الياغسياني أميراً حاجباً له تقديراً لجهوده التي بذلها لدى السلطان السلجوقي بتوليته امارة الموصل (٩٨) ، وقد اشار ابن الاثير الى صلاح الدين الياغسياني ، كأكبر موظف في دولة عمادالدين زنكي حيث كان رئيساً لديوان الجند ومشرفاً على شؤونهم ويفصل في أمر الخصومات والمشكلات التي تنشأ بين الجند وموظفي الديوان الآخرين (٩٩) ، ودرج الاتابكة بعد عمادالدين زنكي على اتخاذ الحجاب الذين اقتصرت مهمتهم على ما يتلقونه من أوامر الاتابك وايصالها الى من ينفذها من المسؤولين في الدولة ، فيذكر ابن الاثير ما يشير الى وجودهم وطبيعة عملهم ، ففي عهد الاتابك قطب الدين مودود بن عمادالدين زنكي ، أوضح هذا المؤرخ ان والده نقل الى الاتابك بواسطة حاجبه «أي صاحب قطب الدين مودود» رغبته في اطلاقه على أمور تتصل بتعيينه بوظيفة في جزيرة ابن عمر واستكثاره الراتب الذي قرر له (١٠٠) . ويبدو

-
- (٩٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٠٧ .
 - (٩٧) البنداري : نفس المرجع السابق ص ١٠٧ .
 - (٩٨) ابن الاثير : الباهر ص ٥٣ .
 - (٩٩) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣-٨٤-٨٥ .
 - (١٠٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٣٩ .

مما ذكره ابن الاثير ان الحجابة استمرت عند الاتابكة ، غير انها كانت مقصورة على تأدية الاعمال التي تتصل بالوظيفة مباشرة (١٠١) .

وفي الربع الاخير من القرن السادس الهجري أصبح لمنصب حاجب الاتابكة صلاحيات عسكرية ، اذ انه كان يقوم على مهمة توفير المستجدين من الجند وتجنيدهم وتنسيبهم الى قوادهم وامرائهم ومعاينة من يعرض منهم عن الخدمة العسكرية (١٠٢) ، فضلا عن ملازمته للامير في تنقلاته أثناء اشتراك الجيش في المعارك العسكرية (١٠٣) . وقد أدرك بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل مدى أهمية الحجاب في التأثير على نتائج الحروب لصالحه فاستكثر منهم بحيث أصبحوا يشكلون اعدادا كبيرة في الجيش .

أما حجاب الاراتقة (١٠٤) ، فكانوا يقومون بالاعمال المتعلقة في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم شؤون القصر وتلقي المكاتبات والرد عليها (١٠٥) . فيشير الفارقي الى بعض هؤلاء الحجاب ويذكر منهم الحاجب يوسف ينال في عهد الامير الارتقي حسام الدين تمر تاش صاحب ماردين الذي تولى الحجابة في مدينة ميافارقين سنة ٥٣٥ هـ حيث تعرضت هذه المدينة الى اغارات أحد أمراء الاراتقة ، فكان هذا الحاجب «في الولاية فدبر الناس وساس البلد» (١٠٦) كما أشار الى الحاجب أبي بكر الذي ولى (ميافارقين) والحاجب بريم الذي

-
- (١٠١) رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل ص ٢٤٤ .
(١٠٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩ ، المقرئزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٢١٩ .
(١٠٣) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق مجلد ٥٠) ص ١١ .
(١٠٤) الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين : (المخطوطة) الورقة ١٣٩ أ ، السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ٣٠-٣١ .
(١٠٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٧ ص ٢٦٧-٢٦٩ ، ج ٨ ص ٢٢٥-٢٢٩ .
(١٠٦) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة) الورقة ١٣٧ أ - ١٣٨ .

وليها مرتين ، ثم الحاجب عبدالكريم بن علي (١٠٧) . وفي ٥٤٣ هـ جلس الحاجب بيرم في قصر الامارة مدة (١٠٨) ، وأورد الفارقي أيضا اسم الحاجب يونس الدنيسري الذي ولاه حسام الدين تمر تاش على مدينة (دارا) عقب استيلائه عليها عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (١٠٩) . ويرد في هذا المرجع أسماء عدد من ولاه حسام الدين تمر تاش على مدينة ميفارقين .

وكان يسبق اسم كل واحد منهم لقب الحاجب (١١٠) . ويذكر الفارقي ان الحاجب يوسف ينال «قد استقل بالولاية حتى وفاة حسام الدين تمر تاش» سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م (١١١) .

(١٠٧) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٨ أ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - مخطوطة قسم الجزيرة - الورقة ١٠٤ ب .
(١٠٨) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٥ أ .
(١٠٩) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٢ أ .
(١١٠) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٧ أ ١٣٨ أ ، ويبدو ان معظم هؤلاء الولاة كانوا يلقبون بالحاجب ، وهذا يشير الى أحد احتمالين : اما أن يكون هؤلاء قد اشغلوا فعلا وظيفة الحجابة للاراتقة قبل توليهم ميفارقين وأنهم ولوا بعدئذ تقديرا لخدمتهم أو أن التقاليد الرسمية كانت تقتضي تسمية كل وال باسم الحاجب .
(١١١) الفارقي : تاريخ آمد ، الورقة ١٣٧ أ - ١٣٨ أ .

الفصل الثالث

النظم العسكرية (الجيش ، الوظائف العسكرية) والشرطة

١ - النظم العسكرية :

أ - الجيش :

ب - الوظائف العسكرية •

٢ - الشرطة •

الفصل الثالث

النظم العسكرية (الجيش ، الوظائف العسكرية) والشرطة

١ - النظم العسكرية :

أ - الجيش :

كانت الامارات الاتابكية والارتقية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، تتنافس فيما بينها الى حد الصراع على توسيع نفوذها وبسط سيطرتها على حساب بعضها البعض ولذلك أصبحت جميعها تستهدف ، أما الدفاع عن نفسها ، وحماية حدودها من أية أخطار محتملة ، تتعرض لها ، وأما توسيع رقعتها الى ما وراء الحدود ، وفي كلتا الحالتين ، لا تستطيع تحقيق أهدافها هذه ، ما لم تعد لها جيشا يمكنها الاحتفاظ به على أهبة الاستعداد .

ونتيجة لذلك ، كون أتابكيو الجزيرة الفراتية ، الجيوش النظامية القادرة على الدفاع عن حدود امارتهم ، وعلى الايفاء

بالتزاماتهم من الناحية العسكرية أمام السلطان السلجوقي الذين كانوا يحكمون باسمه (١) .

وأول جيش منظم وقوي في المنطقة ، كان قد سعى الى تكوينه الاتابك عمادالدين زنكي الذي ولاه السلطان السلجوقي محمود بن محمد امارة الموصل سنة ٥٢١ هـ ، واستطاع أن يخضع به الامارات والمدن المجاورة ، فضلا عن مقارعتة الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية . وفرض على عمادالدين زنكي ايجاد هذا الجيش ، انشاء ديوان للجند ، يقوم بالاشراف على أمور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام (٢) . وكان يدير هذا الديوان ، موظف اطلق عليه «أمير حاجب» أوضح القلقشندي صلاحياته بقوله : انه كان «ينصف بين الامراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمراجعة النائب ، واليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند ، وما ناسب ذلك» (٣) ، كما كان يفصل في خصومات الجند واختلافهم في أمور الاقطاع ونحو ذلك (٤) .

وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة عن التنظيمات السائدة في جيش عمادالدين زنكي ، ولكن من المرجح أن عمادالدين زنكي اتبع التنظيمات التي نقلها السلاجقة من أوطانهم الاولى بعد أن طوروها (٥) ، باعتبار ان نظمه هي استمرار للنظم السلجوقية (٦) ،

(١) انظر : الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٢٠٣ .

(٢) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣ وانظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ١٩١ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩ .

(٤) المقرئزي المواقظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ج ٢ ص ٢١٧ .

(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤-٢٨ ، ١٠-٥١ .

(٦) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة) ج ١ ص ٢٣٩/ حاشية رقم (١) .

كما ان نظم عمادالدين زنكي العسكرية هذه صارت أساسا للنظم
الايوبية والمملوكية (٧) فيما بعد *

وكان (الخراسانيون) أهم العناصر التي تكون جيش عمادالدين
زنكي وقال عنهم ابن الاثير بأنهم كانوا (يخدمون في الركاب) (٨) أي
أنهم ما يشبه الحرس الخاص المرافق للامير ، حيث يتنقلون معه
حيثما ذهب ، وكانوا يتقاضون رواتب عالية (٩) فضلا عن اشتراكهم
في المعارك والحروب التي خاضها الجيش في هذه الفترة (١٠) وأوضح
ابن الاثير أيضا ، ان الخراسانيين كانوا يشكلون في الجيش فرقة
مستقلة (١١) ولكن لا يذكر شيئا عن طبيعة تنظيمها ومصدرها وكيف
تم تجنيد أفرادها ؟

ويشكل (التركمانيون) أعدادا كبيرة من الجيش الاتابكي في عهد
عمادالدين زنكي وأبنائه بعده ، فيذكر ابن القلانسي ، ان عماد
الدين زنكي (كاتب طوائف التركمان باستدعاء لهم للمعونة - على
فتح امارة الرها الصليبية - وأداء فريضة الجهاد ، فوصل اليه
منهم الخلق الكثير ، بحيث احاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها
وبين ما يصل اليها من الميرة والأقوات) (١٢) *

ويبدو ان التركمان باعدادهم الضخمة في الجيش الاتابكي (١٣) ،
ومرأنهم في الحرب وتفننهم في أساليب القتال وشجاعتهم ، يكونون
أهم عنصر في هذا الجيش بحيث أصبح لا يستغنى عنهم *

(٧) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥ *

(٨) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣ *

(٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٣ *

(١٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٣ *

(١١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٣ *

(١٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ٩ *

(١٣) ابن منقذ : الاعتبار ص ٣١ ، عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ١٩٨ *

أما الحلبيون ، فكانوا يؤلفون هم الآخرون قوة عسكرية ، لها تأثيرها الواضح في الجيش ، وقد ظهر ذلك حينما ساءهموا في المعارك العديدة التي خاضها الجيش ضد الصليبيين في شمال الشام (١٤) هذا فضلا عن امتلاكهم للخبرات العسكرية ومعرفة بالمسالك والمواضع والاسوار (١٥) .

ويأتي بعد التركمان والحلبيين في الاهمية ، عناصر الاكراد والبدو وتجنيدهم في الجيش ، ويبدو ان الاكراد خاصة ، قد تكاثر عددهم في الجيش الاتاكي بعد عمادالدين زنكي حيث تشير المصادر الى ذلك (١٦) .

ويمكن القول ، ان عناصر التركمان والحلبيين والاكراة ، تمثل في الجيش ، باعتبارها قوات نظامية دائمة الى جانب استخدام المتطوعين الذين يستنفرون ويعبؤون في ظروف الحاجة اليهم أو كمرتزقة لفترة معينة ، يعودون بعدها الى أماكنهم (١٧) لذلك أصبح حجم هذا الجيش غير ثابت مما جعل الاتاكة يفرضون أحيانا التجنيد الاجباري فذكر ابن العديم ان عمادالدين زنكي «كان يلزم أهل حلب بجمع الرجال للقتال والحصار ، فان كان ذلك في جهاد الكفار ، فقد كان بحلب عليهم ذلك وله الزامهم به» (١٨) .

واتخذت المعسكرات الدائمة والمؤقتة للجيش ، فكان عماد الدين زنكي يقيم الحاميات في كل منطقة يفتحها ، بعد أن يقطع

(١٤) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٢٦٤-٢٦٨ .

(١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .

(١٦) رشيدالدين فضل الله : جامع التواريخ (ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد

موسى وفؤاد عبدالمعطي القاهرة) ج٢ قسم ١ ص ٢٩٨ .

(١٧) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٦ ، الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١١٣ .

(١٨) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب (المخطوطة) ج٨ الورقة ٢١١ .

أراضيها لأمرأء الحامية وجنودها(١٩) ، واستمر ذلك في عهد الاتابكيين خلفاء عمادالدين زنكي ، حيث خصصوا للجيش ميدانا تجري فيه التمرينات والألعاب ، ووضعت للاتابك في مكان بارز من هذا الميدان ، مقصورة (جوسق) يشرف منها على العساكر ويستعرضهم(٢٠) .

واستخدمت الجيوش الاتابكية الانواع المعروفة من الاسلحة في الجيوش الاسلامية الاخرى ، فعرفت فيها «الرماح» التي كانت تصنع من «قناة الغاب» وهي نوع من الخشب الطري ، ثم يغطي نصلها بالحديد(٢١) ، و«التروس» و«الاقواس» و«السيوف» و«الهرافات»(٢٢) ، فضلا عن استخدام آلات الحصار(٢٣) مثل «المنجنوقات»(٢٤) و«الدبابات»(٢٥) و«الابراج»(٢٦) هذا الى جانب استخدام «الحجارة» حيث ترمي على الاعداء وقذف الحديد والقذور المليئة بالنفط والزرنينخ(٢٧) ، لذلك وجدت في الجيش فصائل خاصة للحجارين والنقاين المدربين الذين يحدثون الثغرات في الاسوار(٢٨) .

(١٩) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٧-٢٤٨ ، ج ١١ ص ٣٩ ، الباهر ص ١٦-٦٩ ، انظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ٢٠٠ .

(٢٠) ابن الاثير : الباهر ص ١٨٦-١٨٧ ، انظر : رشيد الجميلي : دولة الاتابكة الموصل بعد عمادالدين زنكي ص ٥٥ .

(21) R.G. Smail: Crusading Warfare, P. 75.

(22) Ibid., P. 75.

(٢٣) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٤٧ .

(٢٤) انظر عن المنجنوقات : وصفها واستخدامها في الجيوش الاسلامية : علي ابراهيم حسن : تاريخ الممالك البحرية ص ٣٥٧-٣٥٨ .

(٢٥) وهي آلة متحركة تصنع من الخشب السميكة ثم تغلف بالجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجلات مستديرة ثم تحرك وتجر .

(٢٦) وهي لوحة كبيرة يحملها الجند وفيها ثقوب تنفذ منها الذخيرة من رماح وسهام وقذف النيران والقذور المشتعلة بالنفط والزرنينخ او الحجارة .

(٢٧) انظر : علي ابراهيم حسن : تاريخ الممالك البحرية ص ٣٥٧ .

(٢٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .

وشاع في الجيوش الاتابكية ، منذ عهد عمادالدين زنكي ، استخدام الخيول بأنواعها وأصنافها ، حيث وجدت على نطاق واسع ، فكان الفارس يرتدي «الزردية» أو «الكازغند» (٢٩) أي الدرع ، والخوذة ويقا تل بالسيف أو بالدبوس (٣٠) . وقد أشار ابن العديم الى استخدام الخيول في المعارك التي خاضها الجيش الاتابكي ضد الصليبيين والروم سنة ٥٣٢هـ (٣١) .

ويبدو أن قوة الجيش وجبروته في تلك الفترة ، كانت تقاس بعدد الفرسان ومدى شيوع الفروسية فيه ، فكان الاتابكة يكثر في جيوشهم من الجند المدربين على ركوب الخيل ليواجهوا بهم الاعداء (٣٢) .

أما الجند المشاة ، فكانوا لا يقلون أهمية عن الفرسان ، ويتقدمون العسكر أو يتأخرون عنه ، وكانوا يلبسون «الأقبية التتيرية» (٣٣) ويضعون فوقها «التكلاوات» (٣٤) ثم يلبسون فوق الجميع ، القباء الاسلامي (٣٥) ، وفي عهد الاتابك ، سيفالدين غازي ، كان الجند يشدون السيوف من جهة اليسار ويضعون

(٢٩) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٠٠ .

(٣٠) ابن منقذ : نفس المرجع السابق ص ٩٨-١٤٤ .

(٣١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٦٤-٢٦٧ .

(٣٢) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٣٦ ، ٥٩-٦٠ ، ٩٧-٩٨ ، ٩٩-١٠٠ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٧ .

(٣٣) القباء ، ثوب يلبس فوق الثياب والاقبية والتتيرية ، ومصدرها بلاد ما وراء النهر وأواسط اسيا .

(٤٣) وهي غطاء يوضع فوق الرأس لتمييزهم عن جنود الاعداء .

(٣٥) وهو ثوب يغطي المقاتل ، عرف عند المسلمين الفاتحين الأوائل وظل تقليدا في الجيوش الاسلامية .

«الصولق» (٣٦) و«الكزلك» (٣٧) من جهة اليمين (٣٨) .

ويبدو ان ما اتبع في تنظيم الجيش في العهد الاتابكي الذي استغرق فترة القرن السادس الهجري وخاصة ما يتعلق بديوان الجند أو الجيش في العهد الاتابكي الذي استغرق فترة القرن السادس الهجري وخاصة ما يتعلق بديوان الجند أو الجيش أو تنظيماته وعناصره وتقسيماته ومعسكراته وأسلحته ، هو استمرار لما كان عليه آخر عهد الاتابك عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، فقد أشار ابن الاثير الى القاعدة المتبعة في ابقاء الجند على ما هم عليه وتحليفهم (٣٩) . غير أن أهم تعديل أجري في العهد الاتابكي هو ايجاد امراء جدد برتب مختلفة واستكثار الجند (٤٠) .

واقتبس الاراتقة التنظيمات السلجوقية فيما يتعلق بتكوين الجيش وتنظيمه ووظائفه ومعداته أيضا حيث كان هؤلاء يحكمون باسم السلاطين السلاجقة وقد كان لكل امارة ارتقية جيشها المؤلف من الجند الدائمين (المرتزقة) وهم برتب مختلفة ، ومن المتطوعين (٤١) ، ذكر ابن الاثير ، أن التركمان انضموا الى جيش حسام الدين تمر تاش صاحب ماردين سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م باعداد كبيرة حينما استدعوا لمواجهة الخطر الذي كان يتأتى من تهديدات عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، فتقاطروا عليه بحشودهم ، وشكلوا جيشا قوامه عشرين ألف مقاتل (٤٢) . وقد قسم هذا

(٣٦) كيس يوضع على الجانب الايمن من الحزام ، توضع فيه حاجات السفر من الزاد .

(٣٧) السكين أو الخنجر .

(٣٨) ابن الاثير : الباهر ص ٩٣ ، انظر : الديوهجي : الموصل في العهد الاتابكي ص ٧٢ .

(٣٩) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٢ ، ١٣٧-١٣٨ .

(٤٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٤١) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة) الورقة ١٢١ أ .

(٤٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥٣ ، الباهر ص ٣٨-٣٩ .

الجيش الى قسمين رئيسيين يتقدم القسم الاول وهم الرجالة (المشاة) ويليه القسم الثاني وهم الفرسان ، ففي ٥٧١هـ / ١١٧٥م عقد حلف بين الامراء الاراتقة لمجابهة الصليبيين ، وقد بلغت جيوشهم نحو ستة آلاف فارس بالاضافة الى غيرهم من المحاربين (٤٣) .

ويبدو أن الأراتقة استطاعوا أن يوسعوا قاعدة جيوشهم ويمدوها بالرجال والسلاح ، فأكثرُوا من الجند النظاميين والمتطوعين (٤٤) ، لكي يصدوا أطماع بعضهم البعض أو ليقفوا ضد عماد الدين زنكي صاحب الموصل أو لمقارعة القوى الصليبية في المنطقة .

كان ديوان الجيش الذي أوجده عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، لتنظيم الجند والاشراف على أمورهم ، يضم مجموعة من الموظفين الذين كلفوا بإدارة شؤونه . ويمثل أمير حاجب أكبر موظف في الديوان يشرف على تصريف أمور الديوان وواجبات موظفيه . ويبدو ان أهم واجب يقوم به هؤلاء الموظفون هو جمع الرواتب (٤٥) من جهاتها ومصادرهما المتنوعة التي لم يحددها ابن الاثير ويقومون بتوزيعها على الجند كل ثلاثة أشهر مرة (٤٦) . أما واجباتهم الاخرى فلم توضحها المراجع ، فيما عدا اشارة ابن الاثير الى الديوان الذي كان يقاس بدواوين السلاطين السلاجقة لكثرة التجميل ونفاذ الامر وعظم الحاشية والخرج ، وكان الانسان اذا قدم عسكره ولم يكن غريبا «فان كان جنديا اشتمل عليه الاجناد

(٤٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج ١١ ص ١٧٥ .

(٤٤) ابن الاثير : الباهر ص ٣٩ .

(٤٥) ويسمى ابن الاثير «الجامكيات» الباهر ص ٨٣-١٤٩ ، أي الرواتب العامة النقدية التي تعطى للجند . (القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٧) ، انظر ايضا محمد مصطفى زيادة ، حاشية السلوك للمقرئزي ج ١ ص ٥٢ / رقم (٢) .

(٤٦) ابن الاثير : الباهر ص ٨٣ .

وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وان كان القادم صاحب ديوان قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ونظرهم في صالحه ما يكون كأنه في أهله» «وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية والآراء الصائبة والانفس الابية ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف» (٤٧) .

وبعد عماد الدين زنكي ، عرفت في الجيش الاتابكي عدة وظائف عسكرية كان لها دور مهم في قيادته وتنظيمه وأهمها هي وظيفة «القائد» الذي يرسم الخطط العسكرية (٤٨) ، ويطلق عليه أحيانا «مقدم الجيش» (٤٩) ، الذي تماثل صلاحياته ما كان «المقدم الالف» في جيش المماليك (٥٠) على ما يبدو . ولكن أحيانا جاء ما يفيد ، ان المقدم يلي القائد في الرتبة حيث يعهد اليه تنفيذ كل ما يرسمه القائد من خطط عسكرية وتقدم المعسكر وحمل الشعار والمناداة به والاشتراك فعليا في العمليات العسكرية ويقابل هذا المنصب العسكري في الوقت الحاضر (قائد قوة الميدان) في الجيوش الحديثة .

أما في أواخر العهد الاتابكي في الموصل فقد حصلت تغيرات في طبيعة الوظيفة التي كان يشغلها المقدم ، فأصبح بمثابة أمير المئين

(٤٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص ٨٣ .

(٤٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الجزيرة - الورقة ٤٠ ، ١ ، ٥٧ ب ، ١١٨ ب .

(٤٩) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٢ ، النهبي : تاريخ الاسلام : الورقة ١٢٨ ، دول الاسلام ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ .

(٥٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤-٢٨ ، المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٩ ، محمد مصطفى زيادة / حاشية السلوك للمقرئ ج ١ ص ٢٣٩ / رقم (١) .

David Ayalon: Studies on the Structure of the Mamluk Army

المنشور في مجلة

Bulletin of the School of Oriental and African Studies. Vol. XV.
P. 203-227.

في جيش المماليك (٥١) وكان الفرق بينهما ، ان المقدم في الجيش الاتابكي يخضع له من الجند في بعض الاحيان أضعاف ما يخضع للثاني (٥٢) .

وفيما عدا القائد والمقدم ظهرت وظيفة عسكرية أخرى في الجيوش الاتابكية ، هي وظيفة «الحفظة» (٥٣) أو «المستحفظين» (٥٤) حيث اتخذهم الاتابكيون لحكم الولايات التابعة لهم فأودعهم سلطات عسكرية وزودهم بقطعات من الجيش ، وأصبحوا بمرور الزمن بمثابة الحكام العسكريين فيها حيث يتولون ضبط الأمن وتيسير متطلباته ، كما كانوا ينظرون في المصالح العامة . وغالبا ما يعلن المستحفظون تمردهم على السلطة المركزية والاستقلال بالولايات نتيجة لتوسيع صلاحياتهم وسلطاتهم .

ومن المناصب الأخرى في الجيش الاتابكي وظيفة الحجاب الذين كانوا يختلفون في طبيعة واجباتهم وصلاحياتهم عن أمير حاجب في عهد عماد الدين زنكي حيث كانوا يخضعون الى القادة العسكريين وينفذون أوامرهم فضلا عن قيامهم بمهمة توفير الجند وخاصة المستجدين منهم وأكثرهم (٥٥) ، كما اختصوا بتلقى التعليمات من الاتابك نفسه ، وقد أكثر منهم الاتابكيون في جيوشهم فأصبحوا يشكلون أعدادا كبيرة فيه (٥٦) ، وصاروا يقابلون في أقل تقدير من ندعواهم الآن بـ «المرافقين العسكريين» أو ما يطلق عليهم الآن «ضباط التجنيد» .

(٥١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٤-١٨ ، المقرئزي : الخطط ج٢ ص ٢١٥-٢١٩ .

(٥٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص ٤٨٥ ، المقرئزي : الخطط ج١ ص ١٠١-٤٠٣ .

(٥٣) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني ص ١٣٣ .

(٥٤) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص ١٣٨ .

(٥٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٩ ، المقرئزي : الخطط ج٢ ص ٢١٩ .

(٥٦) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق اللبنانية مجلد ٥٠) ص ١١ .

٢ - الشرطة :

كانت وظيفة صاحب الشرطة في أتابكيات الجزيرة الفراتية والامارات الارتقية ، شديدة القرب من الوظائف العسكرية ، حيث يقوم صاحب الشرطة فيها بالمحافظة على الامن الداخلي ومطاردة اللصوص والمفسدين والمشايخين ومرتكبي الجرائم وتنفيذ الاحكام (٥٧) ، وهذه الصلاحيات والمهمات ينبغي أن يتوفر لها أشخاص يتمثل فيهم الجانب العسكري لتكون لديهم المقدرة على أدائها وتنفيذها . وكان صاحب الشرطة يسمى : «الشحنة» (٥٨) فقد أشار ابن الاثير الى دوره في حماية المدن والقلاع من حوادث الثورات الداخلية وأعمال الشغب والعصيان والتهديدات الخارجية ، ومن صلاحياته كذلك ، اصدار الاوامر الى الجند بمراقبة الاوضاع الداخلية والمرابطة على الاسوار ، لمنع تسرب الاعداء أو جواسيسهم الى الداخل (٥٩) .

وكان الاتابكيون يكثر من أصحاب الشرطة ، حتى أصبحوا اعدادا كبيرة فاوكلوا اليهم حماية المدن والقلاع فعملوا على تركيز أوضاعها وتيسير متطلبات الأمن فيها (٦٠) .

وكان بقاء الشحنة في المدينة أو القلعة التي آلت الى الاتابكيين عن طريق الحرب أو الصلح ، رهين بانحسار الاخطار التي كانت تهددها سواء أكانت اخطارا داخلية أم خارجية ، فيتلقى الشحنة

(٥٧) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٤١-١٧٦ .

(٥٨) ان الشحنة هي وظيفة الشحنة وتركيبها ، عربي تركي لان اصلها شحنةجية (انظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب الفتوة لابن المعمار - بغداد - ١٩٦٠) ص ٤٢-٤٣-٥٩ ، وانظر ايضا : الدكتور محمد مصطفى زيادة/ حاشية السلوك للمقرئ ج١ ص ٣٥/ حاشية (١) حيث جاء ان الشحنة هو محافظ المدينة أو نائب الملك أو رئيس الشرطة) .

(٥٩) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٧٦ .

(٦٠) ابن الاثير : نفس المرجع ص ١٧٦ .

أمرا من الاتابك بالانسحاب والعودة الى الامارة أو الى الجهات التي
يأمره الاتابك بالتوجه اليها ، فتنتهي بذلك مهمة الشحنة (٦١) .
ب - الوظائف العسكرية :

أما الامراء الاراتقة ، فقد اتخذوا لهم في القرن السادس
الهجري ، موطنا تشابه صلاحياته واختصاصاته ما كان لرئيس
الشرطة في الدول والامارات الاسلامية ، وكان له حق الفصل فيما
يقع بين العامة من خصومات ، كما كان يقوم بمهام عسكرية ، منها:
الركوب على رأس فرق الجيش في المواكب والمناسبات الرسمية ،
ويرأس ديوان الجيش ، بالإضافة الى ممارسته مهمة الدفاع عن
عاصمة الامارة واسوارها وتحصيناتها (٦٢) ، ويبدو ان هذه الوظيفة
أشبه بوظيفة صاحب الشرطة أو رئيس الشرطة في الامارات
الاتابكية في القرن السادس الهجري .

أما «والي القلعة» عند الاراتقة ، فقد أشار القلقشندي
الى مهامه وهي «الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق
كبير وتنفيذ الاحكام واقامة الحدود وتعقب المفسدين ومثري الفتن
ومدمني الخمر ومراقبة أبواب المدينة والطواف بأحياء التجارة
والمال» (٦٣) ان مهمة هذا الوالي أشبه بمهمة الشرطة في الوقت
الحاضر . وكان يطلق على والي القلعة لدى الاراتقة اسم «الشحنة»
أيضا أي حاكم البلد أو صاحب الشرطة (٦٤) وصلاحياته ، تماثل الى
حد ما صلاحيات الشحنة عند الاتابكيين .

(٦١) ابن الاثير : الباهر ص ١٧٥ .

(٦٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج٢ ص ١٦ ، ١٧ ، المقرئزي : خطط ج٢ ص
٢١٤ .

(٦٣) القلقشندي : نفس المرجع السابق ص ٦٠ .

(٦٤) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص ٢٢٠-٢٢١ .

المصادر والمراجع

١ - المصادر :

أ - المخطوطات :

- ١ - ابن شداد : عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) - الاغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) (مخطوطة في مكتبة جامعة اكسفورد رقم)
- ٢ - ابن العديم : كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) - بغية الطلب في تاريخ حلب ، ٣ مجلدات (نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم ١٥٦٦) .
- ٣ - العيني : بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤) .
- ٤ - الفياثي : عبدالله بن فتح الله البغدادي (حوالي ٨٩٠هـ) - التاريخ الفياثي (مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي رقم ٨٨١) .
- ٥ - الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت ٥٧٢هـ / ١١٦٧م) .

٦ - تاريخ آمد وميافارقين (مخطوطة في مكتبة
اكسفورد رقم

٦ - مؤلف مجهول : من أهل القرن السادس الهجري - انسان العيون،
في مشاهير سادس القرون (مخطوطة في مكتبة-
الدراسات العليا - بغداد رقم ٤٤٨) .

٧ - ابن الديبشي : محمد بن سعيد الواسطي (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)
- التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني جزءان،
(نسخة مصورة غير كاملة في مكتبة الدراسات العليا،
كلية الاداب - بغداد) .

٨ - الذهبي : شمس الدين أبو عبدالله أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ /
١٣٤٧م) - تاريخ الاسلام / نسخة مصورة في مكتبة:
المجمع العلمي العراقي - بغداد رقم ٣٠٩ .

٩ - ابن النجار : محب الدين أبو عبدالله بن محمود (ت ٦٤٣هـ /
١٢٤٥م) - ذيل تاريخ بغداد مدينة السلام (نسخة-
مصورة في مكتبة كلية الآداب في جامعة بغداد - وهو
جزء فقط من الاصل) .

١٠ - مؤلف مجهول : من أهل القرن السادس الهجري - قطعة من
كتاب في الجغرافية (مخطوط في مكتبة الدراسات
العليا ، بغداد - رقم ٣٢٤) .

١١ - علي بن عيسى : (حدود ٨٧٣هـ) - كتاب عجائب البلدان
والجبال والاحجار وغير ذلك كتب فيها عبارة
(نسخة وحيدة في العالم) - مكتبة الدراسات العليا -
بغداد - رقم ١٤ .

١٢ - ابن سراييون : (حوالي ٩٠٠م / ٢٨٨هـ) - وصف ما بين
النهرين وبغداد (نسخة مصورة محفوظة في المتحف-

البريطاني - نشرها بالزنكوغراف ، كى لسترانج.
في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في انكلترا/عدد
اكتوبر ١٨٩٥م) .

ب - المطبوعة :

- ١ - الازدي : يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت ٣٤٤هـ /
١٩٤٥م) - تاريخ الموصل ج ٢ (تحقيق الدكتور
علي حبيبة القاهرة ١٩٦٧) .
- ٢ - ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة
(ت ٦٦٨هـ / ٢١٦٩م) .
- عيون الأنباء في طبقات الاطباء (المطبعة
الوهبية ١٨٨٢م) .
- ٣ - ابن أبي الوفاء : محي الدين عبدالقادر محمد بن محمد القرشي.
الحنفي المصري (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) - الجواهر
المضية في طبقات الحنفية (مطبعة مجلس دائرة
المعارف النظامية - حيدرآباد - الهند) .
- ٤ - ابن الاثير : عز الدين محمد بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ
/ ١٢٣٢م) - الكامل في التاريخ ، تسعة أجزاء
(مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .
- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل
(دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣) .
- ٥ - البدليسي : شرف خان (في أواخر ١٠٠٥هـ) .
- شرفنامه ، جزءان ، (ترجمة محمد علي عوني،
دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة - ١٩٥٨م) .
- ٦ - البنداري : الفتح بن علي بن محمد الاصفهاني (ت ٦٤٣هـ /
١٢٤٥م) .

٦ - تاريخ دولة آل سلجوق (من انشاء عمادالدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني (ت ٥٩٧)
واختصار البنداري ، مطبعة الموسوعات ، مصر
١٩٠٠م) .

٧ - أبو البقاء الدمشقي : عبدالله بن محمد البدرى المصري .
- نزهة الانام في محاسن الشام (المكتبة العربية
القاهرة - ١٣٤١م) .

٨ - البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) .
- فتوح البلدان (دار النشر للجامعيين ، بيروت
١٩٥٨م) .

٩ - ابن بطوطة : محمد بن عبدالله بن ابراهيم اللواتي الطنجي
(ت ٧٧٩هـ / ٣٧٧م) .
- تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب
الاسفار (دار صادر ، بيروت - ١٩٦٠م) .

١٠ - يرصوم : الاب أفرام .
- نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران (المطبعة
السريانية ، ماردين سنة ١٩١٧) .

١١ - التطيلي : بنيامين بن يونة النباري الاندلسي ، الرحالة الربى
(توفي خلال القرن السادس الهجري) .
- رحلة بنيامين (ترجمة عزرا حداد ، بغداد -
١٩٤٥م) .

١٢ - ابن تغري بردي : ابوالمحاسن جمال الدين يوسف الاتاكي
(ت ٨٧٤هـ / ٤٦٩م) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢
جزءا مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة -
١٩٣٨م) .

- ١٣- الجاحظ : ابو عتمان عمرو بن بحر البصري (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) .
- كتاب التبصر بالتجارة (نشر حسن حسني.
عبدالوهاب التونسي ، الطبعة الثانية - ١٩٣٥م) .
- ١٤- ابن جبير : محمد بن أحمد الكناني الاندلسي (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) - رحلة ابن جبير (دار صادر ، بيروت - ١٩٥٩م) .
- ١٥- ابن الجوزي : عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) .
- المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، خمسة أجزاء
الطبعة الاولى (مطبعة دائرة المعارف الاسلامية
حيدرآباد الدكن - الهند - ١٩٥٩م) .
- ١٦- الجوهرى : اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م) .
- تاج اللغة وصحاح العربية ، ٦ أجزاء (تحقيق.
أحمد عبدالغفور عطار ، القاهرة - ١٣٧٧م) .
- ١٧- ابن حجر العسقلاني : احمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)
- الدرر الكامنة في اعلام المائة الثامنة ، ٤ أجزاء
(حيدر آباد ١٩٤٥-١٩٥٠) .
- ١٨- الحسيني : صدرالدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر
ابن علي (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) .
- اخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة
التواريخ في اخبار الامراء والملوك السلجوقية
(تحقيق محمد اقبال - لاهور - ١٩٣٣) .
- ١٩- الحلبي : محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ (ت ١٣٧٠هـ)
- اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٣ مجلدات
(الطبعة الاولى - المطبعة العلمية ، حلب ١٩٢٣) .

- ٢٠- ابن حوقل : ابوالقاسم النصيبي (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) .
 - صورة الارض ، الطبعة الثانية (مطبعة بريل
 - ليدن - ١٩٣٨) .
- ٢١- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المنسوب
 خطأ لابن الفوطي (تحقيق مصطفى جواد - بغداد
 - ١٣٥١هـ) .
- ٢٢- ابن خرداذبة : ابوالقاسم عبيد بن عبدالله (توفي في حدود
 ٣٠٠هـ/٩١٢م) .
- المسالك والممالك (باعتناء دي غوية (بريل-ليدن
 - ١٨٨٩م) .
- ٢٣- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .
 - العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاقي ٧ أجزاء
 ١٢٨٤هـ) مطبعة بيروت ، ٦ مجلدات (دار الكتاب
 اللبناني - ١٩٥٩م) .
- مقدمة ابن خلدون (المطبعة الادبية ، بيروت
 - ١٨٧٩م) .
- ٢٤- ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ
 - ١٢٨٢م) .
- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء
 (تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة
 - ١٣٦٧هـ) .
- ٢٥- ابن الديبشي : ابو عبدالله محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ
 - ١٢٣٩م) .
- المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ

الذهبي (انتقاء الحافظ الذهبي ، تحقيق الدكتور
مصطفى جواد - بغداد ١٩٥١) .

٢٦- دمشقي : أبو الفضل جعفر بن علي (حوالي ٥٧٠هـ /
١١٧٤م) .

- كتاب الاشارة الى محاسن التجارة (مطبعة
المؤيد - ١٣١٨هـ) .

٢٧- الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن
قايمار (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .

- دول الاسلام ، جزءان (مطبعة جمعية دائرة
المعارف العثمانية، حيدرآباد - الدكي ١٣٦٤هـ) .
- العبر في خبر من غير ج ٥ (تحقيق الدكتور
صلاح الدين المنجد - الكويت - ١٩٦٦) .

٢٨- الرازي : أبوبكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣هـ / ٩٢٥م) .
- كتاب الحاوي في الطب ، ٩ أجزاء - الطبعة
الاولى (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر
آباد الدكن ، الهند - ١٩٦٠) .

٢٩- ابن رجب : زين الدين عبدالرحمن بن شهاب الدين البغدادي
(٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) .

- الذيل على طبقات الحنابلة ، جزءان ، تصحيح
محمد حامد الفقي (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٣) .

٣٠- ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر (كان حيا سنة ٢٩٠هـ /
٩٠٢م) .

- الاعلاق النفيسة ، ج ٧ (لندن - ١٨٩١م) .

٣١- الرهاوي : المجهول .

- تاريخ الرهاوي (باللغة السريانية - طبع

- رحماني-١٩٠٤، ترجمة الاب براهيم نصوري) .
- ٣٢- الروذراوري : أبو شجاع محمد بن الحسين ظهير الدين (ت ٣٧٢هـ/٩٨٢م) .
- ذيل تجارب الامم (مصر - ١٩١٦) .
- ٣٣- الزبيدي : محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م) .
- تاج العروس من جواهر القاموس (الطبعة الاولى عشرة أجزاء مصر - ١٣٠٦هـ) .
- ٣٤- ابن الساعي ، أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) .
- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (المطبعة السريانية الكاثوليكية - بغداد ١٩٣٤) .
- ٣٥- سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي بن عبدالله البغدادي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) .
- مرآة الزمان (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٧٠هـ) .
- ٣٦- السبكي : أبو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) .
- طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، الطبعة الاولى (المطبعة الحسينية ، القاهرة - ١٣٢٤هـ) .
- ٣٧- ابن سعيد المغربي : علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) .
- بسط الارض في الطول والعرض (تحقيق الدكتور خوان فرنيط خينيس) .

٣٨- ابن سينا : الشيخ الرئيس أبو علي الحسن بن عبدالله (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) .

- القانونون في الطب ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٢٩٤هـ) .

٣٩- السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٥٠م) .

- تاريخ الخلفاء (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة ، مصر - ١٣٧٨هـ) .

٤٠- ابن شاکر الکتبی : محمد بن احمد (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .
- فوات الوفيات ، جزءان (مطبعة السعادة ، مصر - ١٩٥١م) .

٤١- الشابشتي : أبو محسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) .
- الديارات (تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد - ١٩٥١م) .

٤٢- أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) .
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة - ١٩٥٦) .
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين ، الطبعة الاولى ١٩٤٧م .

٤٣- ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) .

– زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
– صححه بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ،
باريس ١٨٩٤م) .

٤٤. – ابن الشحنة : ابو الوليد محمد (٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) .
– روضة المناظر في اخبار الأوائل والأواخر/
منشور بحاشية الكامل لابن الاثير في الاجزاء ٧ ،
٨ ، ٩ (دار الطباعة ، القاهرة – ١٢٩٠هـ) .

٤٥. – ابن شداد : القاضي بهاء الدين (٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) .
– النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة
١٩٦٢) .

– الدار المنتخب في تاريخ مملكة حلب (المطبعة
الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٩م) .

٤٦. – شيخ الربوة : شمس الدين ابو عبدالله بن محمد بن أبي طالب
(٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) .
– كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر
(ليبزك – ١٩٢٣م) .

٤٧. – ابن الصابوني : جمال الدين محمد بن علي (ت ٦٨٠هـ /
١٢٨١م) .

– تكملة اكمال الاكمال (حققه وعلق عليه
الدكتور مصطفى جواد ، مطبعة المجمع العلمي
العراقي بغداد – ١٩٥٧) .

٤٨. – الصابي : أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال
(ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) .

– رسوم دار الخلافة (تحقيق ميخائيل غواد ،
مطبعة العاني – بغداد – ١٩٦٤م) .

٤٩- الصفدي : صلاح الدين خليل بن ايوب بن ابيك (ت ٧٦٤هـ / ١٢٦٥م) .

- الوافي بالوفيات ٤ أجزاء (استانبول ، مطبعة
وزارة المعارف - النثریات الاسلامیة - ١٩٤٩م) .
- نكت الهميان في نكت العميان (نشرة أحمد زكي
بك - ١٩١١م) .

٥٠- الاصفهاني : أبو عبدالله محمد بن عماد الدين (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) .

- الفتح القسي في الفتح القسدي (المانيا ،
ورنبرغ - ١٨٨٨م) .

- تواريخ آل سلجوق (الجزء المشتمل على كتاب
زبدة النصره ونخبة العصرة) اختصار الفتح بن علي
البنداري (ت ٦٤٣هـ) تحقيق

٥١- الاصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م) .

- مسالك الممالك (دي غوية ، بريل ، ليدن -
١٩٢٧م) .

٥٢- ضياء الدين بن الاثير : محمد بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) .

- رسائل ابن الاثير (تحقيق أنيس المقدسي ، دار
العلم للملايين ، بيروت - ١٩٥٩م) .

٥٣- ابن الطقطقي : محمد بن طباطبا العلوي (٧٠١هـ / ١٣٠١م) .
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامیة
(بيروت - ١٩٦٠م) .

- ٥٤- ابن عبدالحق : عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ / ١٢٣٨م) .
 - مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ،
 ٣ أجزاء (تحقيق علي البجاوي ، الطبعة الأولى -
 دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة - ١٩٥٤م) .
- ٥٥- ابن العبري : غريغوريوس ابوالفرج المالطي (ت ٦٨٢هـ /
 ١٢٨٣م) .
 - تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الثانية (المطبعة
 الكاثوليكية ، بيروت - ١٩٥٨م) .
 - تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق بإدارة
 آباء جامعة القدس ، بيروت - ١٩٥٦م) .
- ٥٦- ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ /
 ١٢٦١م) .
 - زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان (تحقيق
 سامي الدهان - دمشق) .
- ٥٧- ابن عساكر : ابوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي
 (٥٧١هـ / ١١٧٦م) .
 - تبين كذب المفتري فيما نسب الى الامام أبي
 الحسن الاشعري (مطبعة توفيق - دمشق ١٣٤٧هـ)
- ٥٨- العمري : محمد امين بن خير الله الخطيب (توفي في القرن الثالث
 عشر الهجري) .
 - منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من
 سادات الموصل الحدباء ج ١ (تحقيق سعيد
 الديوهجي ، الموصل - ١٩٦٧) .
- ٥٩- الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق (توفي في نهاية
 القرن السادس الهجري) .

٦٠ - تاريخ الفسارقي (تحقيق الدكتور بدوي

عبد اللطيف عوض ، القاهرة ١٩٥٩م) .

٦١ - العيني : محمود بن محمد المعروف بالبدر العيني (ت ٨٥٥هـ /

١٤٥١م) .

٦٢ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق

هانس أرنست ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة

١٩٦٢م) .

٦٣ - العمري : ياسين بن خير الله الخطيب (ت ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م) .

٦٤ - منية الادباء في تاريخ الموصل العدياء (تحقيق

سعيد الديوهجي ، الموصل - ١٩٥٥م) .

٦٥ - العمري : شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .

٦٦ - مسالك الابصار في ممالك الامصار ج ١ ،

مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة - ١٩٢٤) .

٦٧ - أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ /

١٣٣١م) .

٦٨ - المختصر في اخبار البشر (دار الكتاب اللبناني

بيروت) .

٦٩ - تقويم البلدان (طبعة باريس - ١٨٤٠م) .

٧٠ - ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٩٠٧هـ /

١٥٠١م) .

٧١ - تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ (تحقيق

الدكتور حسن محمد الشماخ ، العراق - ١٩٦٩م) .

٧٢ - فضل الله الهمداني : رشيد الدين (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) .

٧٣ - جامع التواريخ مجلد ٢ ، ج ١ ، ج ٢ (ترجمة

محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد

عبد المعطي ، القاهرة) .

- ٦٦- ابن الفقيه الهمداني : أبوبكر أحمد بن محمد (ت ٣٦٥هـ / ٨٧٨م) .
- مختصر كتاب البلدان (ليدن - ١٣٠٢هـ) .
- ٦٧- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرزاق (٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) .
- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ج ٤
 - قسم ١-٣ (تحقيق الدكتور مصطفى جواد ١٩٦٢م - ١٩٦٥م) ، ج ٥ (تصحيح وتعليق الحافظ محمد ابن عبدالقدوس - ١٩٤٠م) .
- ٦٨- الفيروزآبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ / ١٤١٤م) .
- القاموس المحيط ، ٤ أجزاء (مطبعة شركة فن الطبع القاهرة - ١٩١٣) .
- ٦٩- قدامة بن جعفر : أبو الفرج الكاتب البغدادي (٢٣٧هـ / ١٩٤٨م) .
- نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة -
 - باعثاء دى غوية - نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (مطبعة بريل ، لندن - ١٣٠٩هـ) .
- ٧٠- القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٨٦٢هـ / ١٢٨٣م) .
- آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر دار بيروت) .
- ٧١- القلقشندي : أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
- صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٤ جزءا (المطبعة الاميرية - دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٢) .

- ٧٢- ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
- ذيل تاريخ دمشق — باعتناء هـ فـ . أمدرود
(مطبعة الالباء اليسوعيين ، بيروت) .
- ٧٣- القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .
- تاريخ الحكماء (ليبك ١٩٠٣) .
- تاريخ الحكماء (ليبسك ١٩٠٣) .
- ٧٤- ابن قطلوبغا : أبو العدل زين الدين قاسم (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) .
- تاج التراجم في طبقات الحنفية (مطبعة العاني
بغداد — ١٩٦٢) .
- ٧٥- ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
- البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزء، مطبعة
السعادة ، القاهرة — ١٩٣٢م) .
- ٧٦- ماري بن سليمان :
- اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل
(روما ١٨٩٩م) .
- ٧٧- محمد تقي الدين عمر : محمد بن شاهنشاه صاحب حماة
(١٧هـ / ١٢٢٠٦م) .
- مضممار الحقائق وسر الخلائق (تحقيق الدكتور
حسن حبشي عالم الكتب القاهرة — ١٩٦٨م) .
- ٧٨- المقدسي البشاري : محمد بن احمد (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) .
- أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (تحقيق دي
غوية ، مطبعة بريل ، ليدن — ١٩٠٦م) .

٧٩- المقرئزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٦ أجزاء (تحقيق
الدكتور محمد مصطفى زيادة (دار الكتب المصرية
القاهرة - ١٩٣٦م) .

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار
جزءان (مطبعة بولاق - ١٢٩٠هـ) .
- اغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور محمد
مصطفى زيادة) .

٨٠- المسعودي : أبو الحسن علي بن أبي الحسين علي (ت ٣٤٦هـ /
٩٥٧م) .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ ٩
أجزاء .

٨١- مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد (ت ٣٥٢هـ / ٩٦٣م) .
- تجارب الأمم ج ٢ (مصر - ١٩١٥م) .

٨٢- المنذري : زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد التوبى
(ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .

- التكملة لوفيات النقلة ج ١ (تحقيق بشار عواد
معروف ، بغداد - ١٩٦٨م) .

٨٣- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ /
١٣١١م) .

- لسان العرب - ١٥ أجزاء ، دار صادر دار
بيروت - بيروت .

٨٤- ابن منقذ : أسامة الكنانى الشيزري (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) .
- كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى (مطبعة
جامعة برنستون ، الولايات المتحدة - ١٩٣٠) .

- ٨٥- ابن المعمار : ابو عبدالله محمد بن أبي المكارم البغدادي
الحنبلي (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) .
- كتاب الفتوة (تحقيق الدكتور مصطفى جواد
وزملائه (مطبعة شفيق ، بغداد - ١٩٦٠م) .
- ٨٦- المجوسي : علي بن العباس (توفي حوالي سنة ٣٨٤هـ /
٩٩٤م) .
- كامل الصناعة الطبية ، جزءان (المطبعة
الكبرى - ١٢٩٤هـ) .
- ٨٧- ابن المقرب : جمال الدين علي العيسوني الاحسائي الشاعر
(ت ٦٣١هـ / ١٢٣٣م) .
- ديوان ابن المقرب ، تحقيق عبدالفتاح محمد
الحلو (ط ١٠ القاهرة - ١٩٣٦) .
- ٨٨- المنشئ النسوي : محمد بن احمد (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) .
- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (تحقيق
حافظ احمد حمدي ، مطبعة الاعتماد ، مصر
١٩٥٣م) .
- ٨٨- ناصر خسرو : علوي (القرن الخامس الهجري) .
- سفرنامه (بالفارسية ، ترجمة الدكتور يحيى
الخشاب ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٤٥م) .
- ٩٠- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) .
- مفرج الكروب في اخبار بني أيوب (تحقيق
الدكتور جمال الدين الشيال - الجمهورية العربية
المتحدة) .
- ٩١- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي
(ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

— معجم البلدان (ليبسك ١٨٦٦ — منشورات مكتبة
الاسدي ، طهران) .

٩٣ — اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ
٨٩٧/م) .

— البلدان (المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩١٨) .

٩٣ — اليونيني : قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ/
١٣٩٥م) .

— ذيل مرآة الامان ، ٤ أجزاء (الطبعة الاولى ،
مطبعة مجلس دائرة المعارف — حيدرآباد ، الهند
١٩٥٤م) .

٢ - المراجع الحديثة :

١ - آدم متز :

— الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ،
الطبعة الثالثة ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي
أبو ريده ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
• ١٩٥٧

٢ - أمين ، الدكتور حسين .

— تاريخ العراق في العصر السلجوقي (مطبعة
الارشاد ، بغداد — ١٩٦٥م) .

٣ - بارتولد ، ف

— تاريخ الحضارة الاسلامية (ترجمة حمزة طاهر —
الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٣) .

٤ - باركر ، ارنست :

— الحروب الصليبية (ترجمة الدكتور الباز العريني
مصر — ١٩٦٠) .

٥ - بيلي ، الدكتور احمد :

— حياة صلاح الدين الايوبي (المطبعة الرحمانية ،
الطبعة الثالثة ، مصر — ١٩٢٦) .

٦ - بابو اسحق ، روفائيل :

- احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية ،
مطبعة شفيق ، بغداد - ١٩٦٠م .
- تاريخ نصارى العراق (مطبعة المنصور ، بغداد -
١٩٤٨م) .

٧ - بدري محمد فهد :

- العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (مطبعة
الارشاد ، بغداد - ١٩٦٧) .
- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (مطبعة
الارشاد ، بغداد - ١٩٧٣) .

٨ - جماعة من المستشرقين :

- تراث الاسلام ، جزءان ، ج١ (ألفه جماعة من
المستشرقين باشراف السير توماس ارنولد ، عربي
وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله ، المطبعة
العصرية ، الموصل ١٩٥٤) . ج٢ (ترجمة وتعليق
الدكتور زكي محمد حسن ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر - ١٩٣٦)

٩ - الجراري ، عبدالله عباس :

- تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم
لاوربا (الطبعة الاولى - ١٩٦١) .

١٠ - الحسيني ، الدكتور محمد باقر :

- العملة الاسلامية في العهد الاتاكي (مطبعة دار
الجاحظ ، بغداد - ١٩٦٦) .

- ١١- حسن ، الدكتور علي ابراهيم :
- تأريخ الممالك البحرية (مكتبة النهضة المصرية
١٩٦٧) .
- ١٢- حلمي ، الدكتور محمد حلمي محمد أحمد :
- الخلافة والدولة في العصر العباسي (مكتبة
الشباب ، الطبعة الثانية ١٩٧٢) .
- الخلافة والدولة في العصر الأموي (دار الطباعة
الهنا ، الطبعة الاولى ١٩٦٦) .
- ١٣- خصباك ، الدكتور جعفر حسين :
- العراق في عهد المفلح الايلخانيين ، الطبعة الاولى،
مطبعة العاني - بغداد ١٩٦٨) .
- ١٤- الدوري ، الدكتور عبدالعزيز عبدالكريم :
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري
(مطبعة المعارف - بغداد ١٩٤٨) .
- دراسات في العصور العباسية المتأخرة (مطبعة
السريان ، بغداد ١٩٤٥) .
- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (دار
الطليلة بيروت - ١٩٦٩) .
- ١٥- الديوهجي ، سعيد :
- الموصل في العهد الاتابكي (مطبعة شفيق ، بغداد
١٩٥٨) .
- ١٦- ديماند ، (م.س) :
- الفنون الاسلامية (ترجمة أحمد محمد عيسى
مطبعة دار المعارف ، مصر) .

١٧- ريجار كوك :

- بغداد مدينة السلام ج ١ (ترجمة فؤاد جميل والدكتور مصطفى جواد ، بغداد - ١٩٦٢) .

١٨- رايس ، تامارا تالبوت :

- السلاجقة - تاريخهم وحضارتهم (ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٨) .

١٩- الرئيس ، محمد ضياء الدين :

- الخراج في الدولة الاسلامية (الطبعة الاولى ، مطبعة نهضة مصر ١٩٥٧) .

٢٠- السامر ، الدكتور فيصل :

- الحمدانيون في الموصل وحلب ، جزءان (الجزء الاول الحمدانيون في الموصل ، مطبعة الايمان بغداد ١٩٧٠) . (الجزء الثاني الحمدانيون في حلب ، بغداد - ١٩٧٣) .

٢١- سداوي ، الدكتور نظير حسان :

- التاريخ المصري العربي في عهد صلاح الدين الايوبي (مطبعة لجنة البيان العربي - ١٩٥٧) .

٢٢- زكي ، محمد أمين :

- تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي (باللغة الكردية ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٤٨) .
- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ط القاهرة ١٩٣٦ م .

- ٣٣- سرور ، الدكتور محمد جمال الدين :
- دولة الظاهر بيبرس في مصر (دار الفكر العربي ،
١٩٦٠) .
- تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ
الأتراك الى منتصف القرن الخامس الهجري (الطبعة
الثالثة ، القاهرة - ١٩٧٣) .
- ٣٤- رشيد الجميلي :
- دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي
(الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠) .
- ٣٥- زامباور ، ادوارد فون :
- معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ
الاسلامي ، جزعان (مطبعة جامعة فؤاد الاول ،
ترجمة الدكتور زكي محمد حسن وزملائه -
١٩٥١) .
- ٣٦- الصائغ ، القس سليمان :
- تاريخ الموصل ، جزعان (ج ١ ، المطبعة السلفية ،
مصر - ١٩٢٣) . (ج ٢ ، المطبعة الكاثوليكية -
بيروت) .
- ٣٨- العزاوي ، عباس :
- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في
القرن الاول الهجري . (مطبعة المعارف ، بغداد -
١٩٥٣) .
- ٣٨- عباس ، العزاوي :
- تاريخ النقود العراقية (بغداد - ١٩٥٨) .
- تاريخ الضرائب العراقية (بغداد - ١٩٥٩) .

- ٢٩- عرنوس ، محمد بن محمود :
- تاريخ القضاء في الاسلام (المطبعة المصرية الاهلية-
الحديثة ، القاهرة) .
- ٣٠- عمادالدين خليل :
- عمادالدين زنكي (الدار العلمية بيروت - ١٩٧١).
- ٣١- طرخان ، الدكتور ابراهيم علي :
- النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور
الوسطى (دار الكاتب القاهرة - ١٩٦٨) .
- ٣٢- عاشور ، الدكتور سعيد عبدالفتاح :
- دولة الظاهر بيبرس (سلسلة اعلام العرب رقم
١٤) .
- مصر في عصر دولة المماليك البحرية (نشر مكتبة
النهضة المصرية) .
- تاريخ الحركة الصليبية ، جزءان (مطبعة لجنة
البيان العربي ، القاهرة - ١٩٢٣) .
- ٣٣- العريني ، السيد الباز :
- الشرق الاوسط والحروب الصليبية (دار النهضة
العربية ، القاهرة ١٩٦٣) .
- ٣٤- فتحي عثمان :
- الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك
الحربي والاتصال الحضاري . (الكتاب الاول ، في
الظروف التاريخية والجغرافية ، القاهرة ١٩٦٦) .
- ٣٥- لسترنج ، كي :
- بغداد في عهد الخلافة العباسية (ترجمه عن

الانكليزية وعلق عليه بشير يوسف فرنسيس
(المطبعة العربية ، بغداد - ١٩٣٦) .
- بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير يوسف
فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة بغداد ،
١٩٥٤) .

٣٦- محمود ياسين أحمد :

- الامارة المروانية في ديار بكر والجزيرة (رسالة
ماجستير على الآلة الكاتبة ، جامعة بغداد ١٩٧٠) .

٣٧- مشرفة ، الدكتور عطية :

- القضاء في الاسلام (الطبعة الثانية - ١٩٦٦) .

٣٨- ماجد والبنا ، عبد المنعم ماجد وعلي البنا :

- الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور
الوسطى (دار الفكر العربي القاهرة - ١٩٦٠) .

٣٩- محمود المظفر :

- أحياء الاراضي الموات (المطبعة العالمية بالقاهرة ،
١٩٧٢) .

٣ - أبحاث نشرت في بعض المجلات العربية والأجنبية :

أ - المجلات العربية :

١ - طه باقر :

- دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية
(مجلة سומר مجلد ٩ ج ١ / ١٩٥٣) .

٢ - يوسف غنيمه :

- النقود العباسية (مجلة المجمع العراقي مجلد ٤
ج ١ / ١٩٥٦) .
- الدينار الاسلامي للملك الطوائف والمتغلبة على
الدولة العباسية (الدينار الاتابكي) .

٣ - ابراهيم شوكة :

- الاصطرلاب ، طرق وأساليب رسمه وصنعتة
(مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٩ / ١٩٧٠) .
- قطعة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق
قسم الجزيرة والعراق للشريف الادريسي (تحقيق
ابراهيم شوكة) .

٤ - عبدالعزيز الدوري :

- نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، (مجلة

المجمع العلمي العراقي ، المجلد العشرون (١٩٧٠) -
- نشوء الاصناف والحرف في الاسلام . (مجلة كلية
الاداب - بغداد ، عدد ١/حزيران ١٩٥٩) .

٥ - رزوق غنيمه :

- صناعات العراق في عهد العباسيين (مجلة غرفة
تجارة بغداد سنة ١٩٤١) .

٦ - صالح أحمد العلي :

- الانسجة في القرنين الاول والثاني (مجلة الابحاث
ج ٤/ كانون الاول ، دار الكتب، بيروت - ١٩٦١) .

٧ - مصطفى جواد :

- الفتوة والفتيان :

(مجلة لغة العرب مجلد ٤ لسنة ١٩٣٠/ بغداد) .
- أولية الشرطة وأطوارها وأصنافها عند العرب
(مجلة الشرطة والأمن: العدد الاول/ شركة الاعظمي
للطباعة - بغداد) .

- الفتوة وأطوارها وأثرها في توحيد العرب
والمسلمين (مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٥/
١٩٥٨) .

٨ - حسين محفوظ علي :

- النوروز في الادب العربي (مجلة التراث الشعبي
عدد ٨ نيسان - بغداد ١٩٦٤) .

٩ - ميخائيل عواد :

- العروب في العراق (مجلة الرسالة/ العدد ٦٣٠/
بغداد) .

ب - المجلات الاجنبية :

1. Bulletin of the school of oriental And African studies: vol. (XV.) David Ayalon (studies on the structure of the Mamluk Army.
1. Barker, E.
— The Crusades. (London, 1929).
2. Baldwin:
— Crusades, Vol., 1, (Philadelphia-1955).
3. Cahen (Claude):
— La Syrie du Nord, à L'Epoque des Croisades, (Paris-1940).
4. Duggan, A.:
— The story of Crusades. (London-1965 .
5. Gibb: H.H.R.:
— The Damascus Chronicle of the Crusades. (London-1932).
— Zengi and the Fall of Edessa (Setton, Vol. 1.).
6. Grousset, Rene:
— Histoire des croisades et du Royaume de Jérusalem, 3 vols. (Paris 1934-1936).
7. Lane-Poole, Stanley:

- A. History of Egypt in the Middle Ages. (London-1925).
 - The Mohammadam Dynasties (Paris-1925).
 - Saladin and the Fall of the Kingdom of Jèrusalem. (London-1906).
 - The Art of the Saracans in Egypt (London-1886).
- 8. Nicholson, Robert, L.:**
- The Growth of the Latin States, (1118-1144).
- 9. Runciman, Steven:**
- A History of the Crusades 3 vols. (Cambridge-1957).
- 10. Stevenson: W.B.:**
- The Crusaders in the East, (Cambridge-1907).
- 11. Migeon (Gaston):**
- Manuel d'art musulman (vol. 11, Paris-1907).
 - Les Cuivres Arabes. Gazette Des Beauxarts (1899-1900).
- 12. Komorff, Manuel, Editor:**
- The Travels of Marco Polo (The Modern Library, New York).
- 13. J.M. Fiey (O.P.):**
- Mossoul Chretienne, vol. XII Collection Recherches, L'institut de Lettres Orientales (de Beyrouth, 1959).
 - Assyrie Chretienne, vol. XXII. Collection Recherches L'institut de Lettres Orientales (de Beyrouth, 1965).
- 14. Rice, D.S.:**
- The Oldest Dated "Mosul" (Candlestick Burlington Magazine 1949).
 - Inaid Brasses from the workshop of Ahmed Al Dhaki Al Maw-sili. (1957).
- 15. Rice, Tamara, T.:**
- The Sel uks in Asia Minor (London-1961).
- 16. Baron, Salo Wittmayer:**
- A Social and Religious History of the Jemes, 2nd Edition 8 vols. (Columbia University Press, New York).

17. Sassoon, David Solomon:

— A History of the Jewes in Baghdad (Letchworth, 1949).

18. Setton, Kenneth, M.:

— A History of the Crusades, (vol. 1 Pennsylvania, 1955-1956).

19. R.G. Smail:

— Crusading warfare. (Cambridge 1956).

20. The Encyclopaedia of Islam:

— (Art Djrib), (Art Dirar), (Art Dirham), (Art Diwan),
(Art Baddr al-Din-Lulu).

21. The Encyclopaedia of Islam:

— S.V. Kourd (by V. Minorosky).....

22. Mustawfi of Qazin, Hamd-Allah,

— The Geographical part of the Nu hat-Al-Qulub, Translated,
by G. Le Strange (Leyden, 1919).

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
مقدار ١٩٨٩

الفلاف رياض عبد الكريم

السعر اربعة دنانير

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة